المركز القومي للترجمة

هـ. ج. ويلز

القصص القصيرة الكاملة

(2)

ترجمة: رؤوف وصفي



1817

سلسلة الإبداع القصصي

هـ . ج . ويلز

القصص القصيرة الكاملة

(٢)

ترجمة : رؤوف وصفى

2011

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1817
- القصص القصيرة الكاملة(٢)
- هـ . ج. ويلز
- رؤوف وصفي
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة:

The Complete Short Stories of H.G. Wells

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

ويلز، هربرت چورچ، ١٨١٦ ـ ١٩٤٦ .
القصص القصيرة الكاملة/ تأليف: هـ. ج. ويلز؛
ترجمة: رؤوف وصفى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية
العامة للكتاب،٢٠١١.
مج ٢ ؛ ٢٠سم. ـ (سلسلة ترجمة)
تدمك ٢ ٩٦٥ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
٢ ـ القصص القصيرة.
أ ـ وصفى، رؤوف، (مترجم)
رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٥٤٧/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 965 - 2
ديوى ٨٢٣

المحتويات

قصة المرحوم السيد (إلفشام)

إننى أكتب هذه القصة على الرغم من أننى أتوقع ألا يصدقها الناس.. لكن أحاول أن أجهز للضحية التالية طريقًا للهرب، إذا أمكنها ذلك.. لعله سوف يستفيد من حظى العاثر.. وعمومًا أنا أعرف أن قضيتى ميئوس منها.. وأنا الآن أستعد لأن ألاقى مصيرى بشكل ما.

اسمى (إدوارد جورج إدين). ولدت فى (ترنثهام) بستافورد شاير.. ووالدى كان يعمل عاملاً فى الحدائق هناك.. فقدت أمى وأنا فى الثالثة من عمرى.. ثم أبى عندما كنت فى الخامسة.. وتبنانى عمى (جورج إدين) ابنًا له. كان رجلاً وحيدًا علم نفسه بنفسه ومشهور فى (بريمينجهام) باعتباره صحافيًا جريئًا. فقد علمنى تعليمًا مرموقًا وغرس فىّ الطموح المؤدى للنجاح فى دنيا الناس.. وعند موته منذ أربع سنوات مضت ترك لى ثروته كلها، أى ما يساوى تقريبًا خمسمائة جنيه بعد خصم كل مصروفات الجنازة.

كنت وقتئذ فى الثامنة عشر من عمرى، ونصحنى فى وصيته أن أنفق المال فى إكمال تعليمى وكنت أفضل مهنة الطب.. وبواسطة

إنفاق ثروته بعد موته بالإضافة إلى حظى الطيب فى المنافسة للحصول على منحة دراسية، أصبحت طالبًا بكلية الطب جامعة لندن.. وعند بداية قصتى كنت أقيم فى ١١ (أ) شارع الجامعة فى حجرة علوية صغيرة ذات أثاث متواضع للغاية ومعرضة لتيارات الهواء، وتطل على ظهر عقارات أسرة (شولبريد) واستخدمت تلك الحجرة للمعيشة والنوم، لأننى كنت حريصًا جدًا على الاقتصاد فى نفقات حياتى حتى آخر شلن لدىّ.

كنت ذاهبًا إلى محل بشارع (توتنهام كورت) لإصلاح فردة حذائى، عندما قابلت لأول مرة ذلك الرجل العجوز الفقير أصفر الوجه، الذى عن طريقه أصبحت حياتى الآن فى مأزق لا فكاك منه.. كان الرجل واقفًا على الرصيف يحدق فى رقم على أحد الأبواب بطريقة مريبة فى حين كنت أفتحه.. ووقعت عيناه ـ كانتا عينين رماديتين كالحتين ضاربتين إلى الحمرة عند حوافهما ـ على وجهى. وفى الحال ظهر على وجهه تعبير ينم عن اللطف والبشاشة.. وقال: "تعال إلى هنا.. لقد جئت فى وقتك.. إننى نسيت رقم منزلك.. لكن كيف حالك يا سيد (إدين)؟".

دهشت قليلاً من أسلوبه الودى غير الرسمى معى، إذ إننى لم أر الرجل بالتأكيد من قبل. كذلك ضايقنى أنه شاهدنى وأنا أحمل حذائى بين ذراعى. وبالطبع لاحظ عدم ترحيبى به.

"إنك تتساءل عما أكون أليس كذلك؟ إننى صديق.. ليكن هذا واضحًا لك من البداية.. لقد رأيتك من قبل رغم أنك لم تَرَنى. هل هناك مكان نجلس فيه لكى أتحدث معك؟". وترددت برهة.. إن

المنظر المزرى لحجرتى بالسطح لم يكن يليق أن يدخلها أى غريب ثم قلت "ربما.. هيا بنا نسير فى الشارع لأنه من سوء الحظ لا يمكننى...." و أوضحت إشاراتى معنى ما يجيش بصدرى قبل أن أكملها.

قال الرجل: "لا بأس بالشارع" ثم نظر يمنة ويسرة وقال: "لكن فى أى اتجاه نسير؟" وفى أثناء سيرنا معًا فى الشارع أنزلت حذائى بسرعة.. وقال الرجل الغريب فجأة "أصغ إلىّ يا بنى!" ... هذا الأمر الذى حضرت من أجله أمر دقيق .. أعطيته جل اهتمامى.. هلا أتيت لتناول طعام الغداء معى يا سيد (إدين).. إننى رجل عجوز جدًا كما ترى ولا أجيد الكلام أو الشرح.. إن صوتى أصبح حادًا كالصفير، كما أن ضجيج المرور عال...".

ثم وضع يده النحيلة المرتعشة قليلاً على ذراعى. ولم أكن طاعنًا فى السن بحيث يحجم أى رجل عجوز عن دعوتى للغداء معه.. مع ذلك ففى الوقت نفسه لم أكن سعيدًا للغاية بهذه الدعوة المباغتة وقلت "كنت أفضل".. لكنه قاطعنى قائلاً: "لا شك أن بعض المجاملة بسبب شعرى الأشيب هذا".. وهكذا وافقت على طلبه ومضيت فى طريقى معه..

أخذنى إلى شارع (بلافيتسكى).. واضطررت للسير ببطء، لكى أساير خطواته الواهنة.. وطوال فترة تناول الغداء، الذى لم أتذوق مثله من قبل، وقى نفسه جيدًا من أسئلتى التى توحى بإجابات معينة.. واهتممت بملاحظة مظهره.. وجهه الحليق كان نحيلاً ومتغضنا.. وشفتاه الذابلتان متهدلتان فوق مجموعة من الأسنان

الصناعية.وشعره الأبيض خفيف وطويل بعض الشيء. بدا قصير القامة بالنسبة لى ـ رغم أنك تجد فى الحقيقة الكثير من الناس قصار القامة بالنسبة لى ـ وكتفاه مقوستان ومنحنيتان.. وفي أثناء ملاحظتى له لم أتمالك سوى أن ألاحظ أنه هو أيضًا كان يراقبنى بعينيه ـ اللتين يبدو فيهما نظرة طمع ـ من كتفى العريضين إلى يدى اللتين لوحتهما الشمس ثم إلى وجهى الذى ينتشر به النمش، ثم قال إذ نحن نشعل سيجارتينا: "والآن حان الوقت يا صديقى لكى أخبرك بالموضوع الذى يهمنا نحن الاثنين.. يجب أن أقول لك: إننى رجل طاعن فى السن.. ثم توقف برهة وواصل: "كما أننى ثرى وسوف أترك الكثير من المال قريبًا.. وليس لدىّ أبناء لكى يرثوا هذا المال".. وعند هذا ، وقررت أن أكون على أهبة الاستعداد حفاظًا على ما تبقى لدىّ من الخمسمائة جنيه.. واستمر فى توضيح وحدته والمشقة التى كابدها فى العثور على وسيلة التخلص من نقوده.. وواصل "فكرت فى هذه الطريقة أو تلك.. فى التبرعات والأعمال الخيرية والمنح الدراسية والمكتبات العامة، ثم أخيرًا وصلت إلى هذا الرأى".. وركز نظراته على وجهى ثم استطرد: "إننى سوف أجد شابًا ما طموحًا صافى الذهن فقيرًا وجسمه قوى صحيح وعقله سليم تمامًا.. باختصار لكى أجعله وريثًا وأعطيه كل ما أمتلك من ثروة".. ثم كرر "لكى أعطيه كل ما أمتلك من ثروة.. وعندها سوف يتخلص من كل المشكلات التى تحيط به وينعم بالحرية وطيب العيش".

حاولت أن أظهر له أننى لا أعيره اهتمامى.. وقلت بكذب مكشوف: "وأنت تطلب مساعدتى أو بالأصح خدماتى المهنية لكى

أعثر لك على هذا الشخص" فابتسم وحدق فىّ من خلال دخان سيجارته.. وضحكت من موقفه الهادئ من ادعائى المتواضع.. وقال: "أيا كانت مهنة هذا الرجل، فإنها تملأنى بالحسد عندما أفكر فى أننى جمعت كل تلك الثروة لكى ينفقها رجل آخر..لكن هناك بالطبع بعض الشروط التى يتحتم فرضها فى مثل تلك الظروف.. مثلاً عليه أن يحمل اسمى.. كما أنك لا يمكن أن تحصل على كل شىء دون أن تعطى شيئًا فى مقابله. لذلك يجب أن أعرف كل ظروف حياة هذا الرجل وتفاصيلها قبل أن أوافق عليه.. وكما قلت لك يجب أن يكون سليمًا معافى ويجب أن أعرف تاريخه الوراثى.. وكيف مات والداه وجداه.. وأن أعرف كل كبيرة وصغيرة فى سلوكياته وأخلاقياته".

خفف ذلك قليلاً من فرحتى الباطنة وقلت: "وهل أفهم من ذلك أن.. أننى...؟" فقال بحدة: "نعم.. أنت.. أنت تحديدًا". لم أجد جوابًا.. فقد كان خيالى يرقص طربًا.ولم تكن شكوكى الغريزية ذات جدوى فى التقليل من فرحتى ونشوتى.. لم يخطر على بالى وقتئذ أى شكر أو عرفان بالجميل.. ولم أعرف ماذا سأقول ولا كيف سأقوله.. وأخيرًا قلت له: "لكن لماذا أنا تحديدًا؟". فقال إنه تصادف أنه سمع عنى من الأستاذ الجامعى (هسلر) أننى شاب قوى صحيح العقل والجسم. وتمنى أن يترك ثروته فى يد شخص يثق فى سلامته الصحية والعقلية.. وكانت تلك أول مقابلة لى مع الرجل العجوز القصير القامة.. لكننى لم أعرف شيئًا عنه فقط كان كتومًا تمامًا.. بل إنه قال لى: إننى لن أعرف اسمه الآن.. وبعد أن أجبت عن بعض أسئلته، تركنى عند مدخل شارع (بلافيتسكى)..

ولاحظت أنه أخرج حفنة من العملات الذهبية من جيبه، عندما أراد دفع ثمن وجبة الغداء! لكن بدا لى أن إصراره على الصحة الجسدية محيرا حقا..

وطبقا لاتفاقى معه، تقدمت فى ذلك اليوم إلى شركة التأمين الملكية للحصول على وثيقة تأمين على حياتى بمبلغ كبير.. وطوال الأسبوع التالى تعرضت لفحوصات طبية مستفيضة من الاستشاريين الطبيين للشركة.. وحتى هذا لم يكفه..إذ أصر على أن أخضع للفحص الطبى مرة أخرى بمعرفة الطبيب الشهير (هندرسون).. ولم يصل إلى قرار إلا فى يوم الجمعة من أسبوع العنصرة[1].. إذ استدعانى فى آخر الليل - حوالى التاسعة مساء - وكنت وقتها منكبًا على المعادلات الكيميائية استعدادًا للامتحان العملى الأول.. كان واقفًا فى الممر تحت مصباح غازى خافت، ووجهه عبارة عن خليط غريب من الأشباح والخيالات.. وبدا لى مقوس الظهر أكثر مما رأيته من قبل، كما أن وجنتيه غطستا إلى الداخل قليلاً..

ارتعش صوته من فرط الانفعال وهو يقول: "مستر (إدين)!. كل شيء على ما يرام وبشكل مرض للغاية.. وهذه الليلة تحديدًا يجب أن تتعشى معى ونحتفل بنجاحك" .ثم توقف ليسعل قليلاً وواصل: "كما أنك لن تنتظر طويلاً" .. ومسح شفتيه بمنديل.. ثم قبض على يدى بأصابعه النحيلة الطويلة وقال: "بالقطع لن تنتظر طويلاً" .

---

(١) عيد مسيحى - ذكرى نزول الروح القدس على تلاميذ السيد المسيح (المترجم).

دلفنا إلى الشارع وأوقفنا عربة أجرة.. وأتذكر جيدا كل ما حدث فى تلك الليلة.. حركة عربة الأجرة السريعة المريحة. التباين بين مصابيح الغاز والزيت، والمصابيح الكهربائية.. ازدحام الناس فى الشوارع.. المطعم الذى وصلنا إليه فى شارع (ريجنت).. ثم العشاء الفاخر الذى قدم لنا به.. وفى البداية شعرت بالضيق من نظرات الساقى - الذى يرتدى ملابس أنيقة بالنسبة إلى ملابسى المتواضعة - ولكن بعدما أدفئت الجعة دمائى، سرعان ما استعدت ثقتى بنفسى.

فى البداية تحدث الرجل العجوز عن نفسه.. وكان قد ذكر لى اسمه من قبل فى العربة.. إنه يدعى (إجبرت إلفشام) الفيلسوف الكبير الذى طالما قرأت اسمه منذ كنت صبيًا بالمدرسة. وبدا لى من غير المعقول أن يكون هذا الرجل الذى تفوّق ذكاؤه على ذكائى منذ وقت طويل. هذا العقل الجبار.. قد تحول الآن إلى هذا الإنسان الضعيف العاجز،الجالس فى هدوء بجوارى. وأستطيع أن أقول: إن أى شاب وجد نفسه فجأة بين المشهورين والعظماء، لابد أنه شعر بما شعرت به من خيبة أمل! وقال لى عن المستقبل المرموق الذى ينتظرنى، من ثروة طائلة، وعقارات وحقوق وطبع ونشر واستثمارات.. والحقيقة أننى لم أتوقع أن يكون الفلاسفة أثرياء هكذا.. وراقبنى بسأم وأردف: "إيه.. لن يطول ذلك كثيرًا!" فقلت بعد أن لعبت الجعة برأسى: "إن أمامى مستقبلاً مشرقًا بفضلك بالطبع.. والآن سوف أتشرف بحمل اسمك.. لكن أنت لك ماض مشرف وهذا الماضى أفتديه بمستقبلى كله".

هز رأسه وابتسم.. كما توقعت.. لإعجابى المغلّف بالتملق.. وقال: "هذا المستقبل، هل سوف تغيره فى الحقيقة؟".. وجاء النادل بالمشروبات الكحولية.. وأردف: "لعلك لا تمانع فى حمل اسمى، أو تأخذ وظيفتى.. لكن هل تقبل أن تأخذ سنين حياتى؟".. فقلت بشجاعة: "بكل ما فيها من إنجازات؟".. فابتسم مرة أخرى وقال للنادل: "اثنان (كومل)"[٢].. ثم حول اهتمامه إلى حزمة أوراق صغيرة أخرجها من جيبه.. وقال: "إن هذه الساعة.. أقصد ساعة ما بعد هذا العشاء هى ساعة الأشياء الصغيرة.. وهاهو موجز بأعمالى التى لم تنشر بعد"... وفتح ربطة الأوراق بأصابعه الشاحبة المرتعدة وأرانى مسحوقًا أحمر ورديا قليلا على الأوراق.. وقال: "هذا، حسنٌ لا بد أن تخمن ما هذا. إنه ليس سوى (الكومل)، ضع قليلاً من هذا المسحوق فيها فتحصل على (الهيمل)"[٣] وكانت عيناه الرماديتان الكبيرتان تراقباننى.

أحسست بنوع من الصدمة، عندما وجدت هذا الفيلسوف العظيم، يكرّس عقله لطعم الخمور ونكهتها.. ومع ذلك فقد تصنّعت الاهتمام الشديد بما يفعل.. لأننى كنت مخمورًا بما يكفى لمثل هذا التملق الذليل.

قسّم المسحوق بين الكأسين.. ورفع كأسه فجأة بكبرياء غريب غير متوقع.. ومد يده تجاه يدى.. وقلدت ما فعله وقرع كل كأس بالآخر.. وقال وهو يرفع كأسه إلى شفتيه: "نخب الميراث السريع"..

---

(٢) مشروب مسكر يخلط ببعض الأعشاب مثل الشمر ويشرب بعد العشاء (المترجم).
(٣) نبيذ ألمانى (المترجم).

وقلت بسرعة: "ليس هذا.. ليس هذا".. فتمهل الرجل والكحول فى الكأس عند مستوى ذقنه.. وعيناه تحدقان فى عينى كجمرتين متقدتين.. وقلت: "نخب العمر المديد".. فتردد الرجل ثم قال: "نخب العمر المديد" وهو يكاد يضحك.. ثم نظر كل منا فى عينى الآخر، وملأنا كأسينا.. وكانت عيناه مركزتين مباشرة على عينىّ.. وبعد أن احتسيت كل الشراب، شعرت بإحساس قوى غريب.

أول رشفة من الشراب أحدثت اضطرابًا فى عقلى.. وبدا لى أننى أشعر بشىء مادى يدور داخل جمجمتى. ودب فى أذنى طنين ناعم مهدئ للأعصاب.. لم ألاحظ طعم الشراب فى فمى ولا النكهة التى ملأت حلقى. لم أر سوى نظرته المركزة الكئيبة التى اخترقت عينىّ، وبدا لى أن الشراب والاضطراب الذهنى والضجيج والدوران العنيف فى رأسى سوف يستمر إلى ما لا نهاية.. وتراقصت صورة غامضة غريبة لأشياء نصف منسية، عند حافة إدراكى، ثم لم تلبث أن اختفت. وأخيرًا حطم الصمت وأخذ نفسًا بصوت مسموع ووضع كأسه.

قال "حسنٌ؟".. فقلت، رغم أننى لم أستمتع بطعم الشراب، "إنه رائع" وكان رأسى يلف. فجلست وأحسست باضطراب فى دماغى.. ثم بدأ إدراكى يزداد قوة ووضوحًا، كما لو كنت أرى الأشياء بمرآة مقعرة(٤).. وبدا لى أن أسلوبه تغير إلى شىء أكثر عصبية وسرعة.. وخلع ساعته وحدق فيها عابسًا وقال: "الحادية عشرة وسبع

---

(٤) مرآة كروية يكون سطحها الداخلى هو السطح العاكس للضوء، وتستعمل فى مجالات كثيرة منها تكبير الصور إلى حد معين (المترجم).

دقائق!.. والليلة بعد خمس وعشرين دقيقة.. ووترلو!.. يجب أن أنصرف على الفور". وطلب الفاتورة ثم ارتدى معطفه بمشقة.. وجاء النادلون يعرضون مساعدتهم.. وبعد لحظة أخرى كنت أودعه عند عربة الأجرة، وما زال لدىّ إحساس بالوضوح والدقة، كما لو كنت.. لكن كيف يمكننى التعبير عن ذلك؟ ـ كنت لا أرى فقط، وإنما أشعر أيضًا، من خلال منظار أوبرا معكوس!

قال "هذه المادة".. ووضع يده على جبهته وأردف: "ما كان ينبغى لى أن أعطيها لك.. إنها سوف تجعل رأسك تنشق غدًا.. لكن انتظر لحظة". .ثم ناولنى شيئًا صغيرًا مسطحًا مغلفًا بمسحوق (سيدلز) المسهّل وقال لى: "أذب هذا فى الماء واشربه عند ذهابك إلى مخدعك.. أما الشىء الآخر فهو دواء.. لكن تذكر ألا تتناوله إلا قبل ذهابك إلى النوم مباشرة وسوف يريح رأسك ويجلى ذهنك.. هذا كل شىء والآن صافحنى مرة أخرى يا رجل المستقبل!".

أمسكت أصابعه المرتعشة بقوة، فقال لى: "مع السلامة".. وحكمت من تدلى جفنيه مدى ثمالته.. ثم تذكر شيئًا آخر فجأة. وتحسس جيب صداره وأخرج حزمة أخرى من الورق ولكن هذه المرة بحجم فرشاة الحلاقة وشكلها.. وقال: "هاهو.. لقد كدت أنساها..لا تفتحها، حتى أحضر إليك غدًا لكن خذها منى الآن".

كانت تلك الحزمة ثقيلة لدرجة أنها كادت تسقط منى.. وقلت: "لا بأس!".. وابتسم إلىّ من خلال نافذة العربة، فى حين ضرب السائق حصانه بالسوط يحثه على السير.. كانت حزمة بيضاء اللون، وعليها أختام بالشمع الأحمر من كلا طرفيها وعلى طول

حافتها.. وقلت لنفسى: "إذا لم يكن هذا مالاً.. فلا بد أنه بلاتين أو رصاص".

وضعت الحزمة بحذر فى جيبى، وسرت إلى منزلى فى ذهول من خلال شارع (ريجنت) والشوارع الخلفية المظلمة خلف طريق (بورتلاند).. وأتذكر إحساسى عندما سرت هناك بوضوح للغاية رغم أنه كان إحساسًا غريبًا.. ولاحظت حالتى الذهنية العجيبة.. وتساءلت هل تلك المادة التى تعاطيتها كانت الأفيون أو لا، حيث إن هذا الدواء يتجاوز حدود خبرتى.. ومن الصعب علىّ الآن وصف حالتى الذهنية الغريبة والفريدة تلك.. ويمكننى القول: إنها نوع من الاختلال العقلى!..

بينما أنا سائر فى شارع (ريجنت) وجدت فى عقلى اقتناعا غريبًا بأنها محطة (ووترلو)! ورغبة غريبة لكى أدخل فى الكلية متعددة الفنون والصنائع، مثلما يود الإنسان دخول القطار.. فركت عينى ووجدت أنه شارع (ريجنت) كيف يمكننى أن أعبر عن ذلك؟ فأنت ترى ممثلاً بارعًا ينظر إليك مليًا، ثم يكشر فى وجهك،عندئذ.. وياللعجب.. تجده إنسانًا آخر!.. ترى هل أضيع وقتك إذا قلت لك إنه بدا لى فى تلك اللحظة أن شارع (ريجنت) فعل مثل ذلك؟ ثم بعد أن اقتنعت مرة أخرى أنه شارع (ريجنت) وجدت نفسى أفكر بطريقة مشوشة فى بعض الذكريات الماضية، التى تداعت لى فجأة بشكل غير متوقع.

فكرت فى أنه "منذ ثلاثين عامًا تشاجرت مع أخى". ثم انفجرت ضاحكًا بشكل أدهش مجموعة من المتسكعين ليلاً.. فمنذ ثلاثين

عامًا لم أكنِ موجودًا على الإطلاق، كما أننى لم يكن لى طوال حياتى أخ واحد!.. لا شك أن ذلك الشراب كان إحدى الحماقات، لأننى ما زلت أشعر بأسى شديد لفقد أخى هذا!.. وفى أثناء سيرى فى طريق (بورتلاند) أخذ هذا الجنون شكلاً آخر... فقد بدأت أتذكر المحلات القديمة التى اختفت من الوجود وأقارن الشوارع الحالية بتلك التى كانت موجودة من قبل.. وكان تفكيرى المشوش والمضطرب بعد الشراب الذى تناولته واضحًا جدًا.. لكن الشىء الذى حيرنى فعلاً هو هل تلك الذكريات الذهنية الغريبة البالغة الوضوح، التى زحفت إلى عقلى هى كل الذكريات أو أن هناك ذكريات غادرته؟!

وقفت قبالة متجر (ستيفن) تاجر عاديات التاريخ الطبيعى،[٥] وأخذت أقدح زناد فكرى لكى أعرف ما العلاقة التى تربطه بى ومرت حافلة بجوارى وأحدثت جلبة مثل قعقعة القطار.. وبدا أننى دخلت فى أماكن بعيدة مظلمة لتجميع الذكريات.. وقلت أخيرًا "نعم بالطبع لقد وعدنى بإحضار ثلاثة ضفادع إلىّ غدًا.. والغريب أننى نسيت ذلك!".

وفى هذا الصدد أتذكر رؤيا تبدأ كشبح خافت ثم تكبر وتحل محل فكرة أخرى.. وبهذه الطريقة بدا لى أن مجموعة وهمية من الأحاسيس الجديدة تتصادم وتتعارك مع أحاسيس نفسى العادية.. وسرت فى طريق (إيوستون) إلى طريق (توتنهام كورت) وأنا مرتبك الذهن وخائف إلى حد ما.. ولم أكد ألاحظ الطريق الغريب الذى أسير فيه.. لأننى عادة أسير فى طريق مختصر خلال شبكة

---

(٥) علم الحيوان والنبات فى حالتها البرية (المترجم).

الشوارع الخلفية المتداخلة.. واستدرت ودلفت إلى شارع الجامعة، وعندها تذكرت أننى نسيت رقم سكنى.

وعصرت ذهنى حتى تذكرت الرقم (١١ أ) وآنذاك بدا لى ذلك كما لو أن شخصًا لا أتذكره هو الذى أخبرنى به.. وحاولت أن أثبت عقلى بتذكر أحداث العشاء.. والعجيب أننى لم أستطع تذكر شكل وجه مضيفى.. ورأيته فقط كشكل شبح أو ضباب.. كما يرى المرء صورته مثلاً فى زجاج النافذة عندما ينظر إليها.. وبدلاً من أن أراه، رأيت نفسى فى شكل خارجى غريب وجالسًا أمام مائدة متورد الخدين لامع العينين أتحدث فى جذل مثل أى شخص مهذار..

وقلت لنفسى: "لا بد أن أتناول هذا المسحوق الآخر.. إن هذا الوضع مستحيل".. وذهبت إلى الجانب الخطأ من القاعة بحثًا عن شمعتى وعيدان ثقابى.. واحترت فى أى مكان توجد غرفتى.. وقلت لنفسى: "إننى ثمل.. هذا مؤكد".. وسرت أتخبط.. ومن أول نظرة بدت حجرتى غير مألوفة لى.. وأخذت أحدق فيما حولى مندهشًا وقلت لنفسى: "ياللفوضى والفساد!".

".. وبذلت مجهودًا كبيرًا لكى أعود إلى رشدى.. وتبددت الحالة المنتعشة وعدت إلى طبيعتى المستقرة.

كانت هناك المرآة المعتادة ومذكراتى عن "الألبومين"[٦] ملتصقة بركن إطار المرآة.. وكل ملابسى وحللى اليومية مبعثرة على الأرض. ومع ذلك لم يكن ذلك حقيقيًا!.. أحسست بقوة إقناع حمقاء تسللت

---

(٦) بروتين يوجد فى بلازما الدم وينتج فى الكبد (المترجم).

إلى عقلى وأخذت تقنعنى بأننى راكب فى عربة قطار يوشك أن يتوقف.. وأننى أحدق إلى خارج نوافذ القطار فى محطة مجهولة لى.. وقبضت بقوة على سياج السرير لكى أطمئن نفسى، وقلت: "لعل هذا نوع من الاستبصار"[٧]! يجب أن أكتب إلى جمعية الأبحاث الفيزيائية لأحيطهم علمًا بذلك".

وضعت اللفافة على منضدة التَّزَيُّن، وجلست على سريرى ثم بدأت أخلع حذائى ذا الرقبة الطويلة وبدا لى الأمر كما لو أن أحاسيسى مرسومة على صورة تحاول الظهور أمامى.. وقلت: "اللعنة يبدو أننى أفقد السيطرة على عقلى! فلا يعقل أن أكون فى مكانين مختلفين فى نفس الوقت؟!".. وبينما كنت نصف عريان، صببت المسحوق كله فى كوب وشربته كله.. وفار الشراب ثم أصبح متألقًا بلون كهرمانى[٨].. وقبل أن أستلقى على السرير عاد إلى عقلى رزانته.. وأحسست بالوسادة على صدغى.. وبعد ذلك استسلمت للنوم استيقظت فجأة وأنا أحلم.. بوحوش غريبة.. ووجدت نفسى راقدًا على ظهرى.. ولعل الجميع يعرفون أن الحلم المخيف الذى يتراءى للمرء يصحو منه وهو مروّع.. وكان فى فمى مذاق عجيب وفى أعضائى تعب شديد.. ولدى إحساس بتوتر جلدى. وتمددت ورأسى بلا حراك على وسادتى متوقعًا أن يتبدد إحساسى بالغرابة والرعب.. ثم عندئذ أستطيع أن أغفو من جديد وأنام مرتاحًا.. ولكن بدلاً من ذلك زادت حدة إحساساتى الغريبة..

---

(٧) قوة إدراك الأشياء بغير الحواس (المترجم).

(٨) أصفر ضارب إلى الحمرة (المترجم).

وكان ثمة ضوء خافت فى الغرفة.. ضوء شديد الخفوت يوهمك أنه أول تباشير الفجر بعد الظلام الدامس.. وفى هذا الضوء الخافت، بدت لى قطع الأثاث منتصبة فى أشكال مظلمة غامضة وحدقت ببصرى فى ذهول بأرجاء الغرفة، على لا شىء بالمرة..

تبادر وقتئذ إلى ذهنى أن شخصًا ما دخل الغرفة ليسرق لفافة[٩] نقودى.. لكن بعد أن تمددت لحظات وتنفست بانتظام لكى أنام بسهولة.. أدركت أن ذلك كان مجرد وهم.. ومع ذلك استمر يقينى الكئيب بوجود شىء ما خطأ مسيطر على.. وبجهد رفعت رأسى من على الوسادة وحدقت حولى فى الظلام.. لكننى لم أستطيع أن أدرك حقيقة ما حولى.. ونظرت إلى الأشكال المعتمة حولى.. الظلام الدامس.. والبصيص الأقل يحدد معالم الستائر والمنضدة والمدفأة وأرفف الكتب وهكذا..

ثم بدأت ألاحظ أمرًا غريبًا فى الأشكال المعتمة من حولى.. ترى هل أصبح السرير مستديرًا؟ هناك يجب أن تكون أرفف الكتب.. ولكن ثمة شىء مغطى ولونه شاحب.. شىء لا يمكن أن يكون أرفف الكتب. ومع ذلك نظرت إليه. وكان بالغ الضخامة بحيث لا يمكن أن يكون قميصًا ملقى على أحد المقاعد.. تغلبت على هذا الخوف الطفولى، وأزحت أغطية السرير، وأخرجت ساقى.. وبدلاً من الهبوط من سريرى المنخفض ذى العجلات على الأرضية، وجدت أن قدمى وصلت بصعوبة إلى حافة الحشية[١٠]... ثم قمت بخطوة

---

(٩) قطع نقدية بغلاف ورقى (المترجم).

(١٠) الفَرشة (المرتبة) (المترجم).

أخرى، وجلست منتصبًا على حافة السرير. كان يجب أن تكون هناك شمعة بجوار سريرى، وعلبة ثقاب على الكرسى المكسور. مددت يدى، لكننى لم ألمس شيئًا.. لوحت بيدى فى الظلام فاصطدمت بشىء ثقيل معلق.. شىء طرى وسميك الملمس صدر عنه صوت كالحفيف عندما لمسته.. أمسكت بهذا الشئ وجذبته.. وبدا لى أنه ستارة معلقة فوق مقدمة سريرى.. عندئذ استيقظت تمامًا وبدأت أدرك أننى فى حجرة غريبة.. وتحيرت.وحاولت أن أتذكر ما حدث طوال الليلة.والغريب أننى وجدتها واضحة ومحفورة فى ذاكرتى. العشاء المتأخر، واستلامى لتلك اللفافة الصغيرة، تساؤلى عما إذا كنت ثملاً وخلعى ملابسى، ثم بعدها ببطء شعرت ببرودة وسادتى على وجهى المتورد.

أحسست بشك مفاجئ.. هل حدث هذا الليلة الماضية أو التى قبلها؟.. على أى حال كانت تلك الحجرة غريبة بالنسبة لى، ولم أتصور قط كيف دخلت فيها.. الظلام من حولى يضعف.. ثم أدركت أن هناك نافذة وزجاجًا بيضاويًا ومعتمًا مثل زجاج الحمام.. ووراءها ضوء الفجر الخافت الذى ينساب من خلال ستارة النافذة.

وقفت وأدهشنى وجود إحساس غريب لدىّ بالضعف والتراخى.. ومددت يدى المرتعشتين، وسرت ببطء تجاه النافذة.. ومع ذلك فقد أصيبت ركبتى بكدمة من كرسى اصطدمت به.. وأخذت أبحث حول لوح الزجاج الكبير الذى يحيط به إطار نحاسى جميل باحثًا عن حبل خفى للستارة.. لكننى لم أعثر عليه. وبالصدفة أمسكت

بالشُرّابة[11].. وعندما تك[12] الياى الموجود بها ارتفعت الستارة لأعلى على الفور.

وجدت نفسى أنظر إلى الخارج إلى مشهد غريب علىّ تمامًا! وكانت هذه الليلة حالكة الظلمة.. ومن خلال السحب الكثيفة الرمادية التى تشبه الصوف، نفذ شعاع خافت من ضوء الفجر.. وعند حافة السماء تقريبًا كان لظلال السحب حافة حمراء بلون الدم.. وأسفلها كان كل شىء معتمًا وغامضًا.. تلال مظلمة عن بعد. كتلة غامضة الملامح من المبانى التى ترتفع أبراجها عاليًا.. أشجار مثل بقع الحبر المسكوب.. وأسفل النافذة خطوط من شجيرات سوداء وممرات رمادية شاحبة اللون.

بدا كل شىء غير مألوف لى لدرجة أننى اعتقدت للحظة أننى ما زلت أحلم.. وتحسست منضدة التزين، وبدت لى كما لو كانت مصنوعة من خشب مصقول ومجهزة بشكل متقن نوعًا ما.. وعليها قارورات صغيرة من الزجاج وفرشاة.. علاوة على جسم صغير غريب، عندما تحسسته وجدته يشبه حدوة الحصان، وله بروزات صلبة ملساء، وموضوع فى طبق.. ولم أعثر على أى ثقاب أو شمعدان.

أخذت أتجول بنظرى فى أرجاء الحجرة من جديد.. فظهرت لى الستارة المرتفعة. وظهرت أطياف معتمة من ملحقاتها وسط الظلام.. وثمة سرير ذو ستارة ضخمة.. وعند قاعدتها مدفأة ورف

---

(11) حزمة من الخيوط السميكة مجتمعة فى عنقود واحد فى نهاية الستارة (المترجم).
(12) أصدر صوتًا (المترجم).

أبيض ضخم يومض بضوء خافت وكأنه مصنوع من الرخام واستندت على منضدة التزين وأغمضت عينى وفتحتهما مرة أخرى.. وحاولت أن أفكر.. فقد كان كل شىء غير حقيقى كما فى الأحلام.. وكنت أرجح أن هناك فجوة ما فى ذاكرتى حدثت بسبب تجرعى ذلك المشروب الغريب.. لعلنى حصلت على إرثى بالفعل.. ثم فجأة فقدت ذاكرتى.. بمجرد الإعلان عن ثروتى الضخمة هذه!.

وربما لو كنت انتظرت قليلاً، لأصبحت الأشياء أكثر وضوحًا.. ومع ذلك كان عشائى مع (إلفشام) العجوز قريبًا جدًا وواضحًا تمامًا فى ذهنى.. الشمبانيا.. السقاة النشطين.. المسحوق.. المشروبات.. وأراهن بحياتى أن هذا كله حدث منذ بضع ساعات فقط.

ثم حدث شىء تافه لكنه فى نفس الوقت مفزع لدرجة أننى أرتجف الآن من مجرد التفكير فى تلك اللحظة.. تحدثت جهارًا وقلت: "اللعنة! كيف جئت إلى هنا؟".. ولم يكن الصوت المتحدث هو صوتى!.. نعم لم يكن صوتى، بل كان صوتًا واهنًا.. وعملية التعبير الصوتى وطريقة نطق الحرف غير واضحة.. وحتى الرنين الذى ينبعث من قسمات وجهى مختلف.. ولكى أطمئن نفسى مررت بإحدى يدىّ على الأخرى، وأحسست بتجعدات جلدى.. ولين العظام بسبب الخمر.. وقلت بذلك الصوت الرهيب الذى وطد نفسه نوعًا ما فى حلقى "بالطبع.. بالطبع هذا الشىء حلم!".

وبسرعة لا إرادية دفعت أصابعى إلى داخل فمى.. وجدت أن كل أسنانى اختفت.. أطراف أصابعى تحركت على سطح رخو لصف

منتظم من اللثة المتغضنة.. وأحسست بالغثيان الفزع والاشمئزاز.. وفى ذلك الوقت أحسست برغبة شديدة فى أن أرى نفسى.. لكى أعرف على الفور التغيير المروع الذى حدث لى.. وتحركت وأنا أترنح بغير اتزان إلى رف المدفأة، ومددت يدى أتحسسه باحثًا عن الثقاب.. وأثناء ذلك انطلق من حلقى سعال كالعواء.. وقبضت بقوة على ملابس النوم الصوفية السميكة التى وجدتها بجوارى.

افتقدت أعواد الثقاب وفجأة أدركت أن أطرافى باردة.. وبسرعة أخذت ألتمس طريقى عائدًا إلى السرير وأنا شبه متشنج "لا شك أنه حلم.. لا شك أنه حلم".. ثم صعدت على السرير.. وجذبت أغطيته على كتفى وأذنى.. وأدخلت يدى تحت الوسادة وقررت أن أستسلم للنوم.. بالطبع كان كل ذلك حلمًا.. وفى الصباح سوف ينتهى الحلم وعندئذ أستيقظ نشيطًا ومعافى من جديد، شابًا يافعًا يمتلئ بالحيوية ثم أعود إلى دراساتى.. وأغمضت عينى وتنفست بانتظام.. ولما وجدت أننى ما زلت مستيقظًا بدأت أعد ببطء من واحد إلى ألف.

لكن ما أردته لم يحدث، ولم أستطع الخلود إلى النوم.. وازدادت وطأة الحقيقة المؤكدة للتغيير الذى حدث لى.. والآن أجد عينى مفتوحتين.. ونسيت العد حتى ألف.. وأشعر بأصابعى النحيفة على لثتى الذابلة.. لقد تحولت فجأة، فى الحقيقة، إلى رجل عجوز.. بطريقة غير مفهومة بالمرة لقد عشت حياة طويلة ثم هرمت.. بطريقة ما لا أدريها حرمت من أفضل سنوات عمرى.. من الحب والكفاح والقوة والأمل..

انبطحت على وجهى فوق الوسائد، وحاولت إقناع نفسى بأن مثل هذا الهذيان ممكن حدوثه، حتى بدأ انبلاج الفجر وأخيرًا وبعد أن فقدت الأمل فى أن أنام بعد ذلك، انتصبت جالسًا فوق السرير وأخذت أتطلع حولى، وأدى ضوء الشفق إلى أن تظهر لى الغرفة بكل تفاصيلها. لقد كانت رحبة وبها أثاث فاخر، أكثر من أى غرفة نمت فيها من قبل. وبين الظلال شاهدت شمعة وأعواد ثقاب تبدو معتمة، وهى موضوعة فوق دعامة صغيرة فى تجويف بالجدار أزحت أغطية السرير فأصابتنى قشعريرة بسبب برودة الصباح المبكر، بالرغم من أننا كنا فى فصل الصيف، هبطت من السرير وأشعلت الشمعة. ثم أخذت أرتعد بشدة، عندما نظرت فى زجاج النافذة، وطالعنى وجه (إلفشام)! وجسمه الضعيف الجدير بالشفقة والذى يرتدى ملابس نوم غير مهذبة من "الفانيلا" (١٣) الخشنة وأظهرت الصورة العنق المجعد والوجنتين الغائرتين والشعر الرمادى الأشعث والعينين المحمرتين والشفتين المرتعدتين. يبدو للعيان أثر خفيف باللون الأحمر الوردى لداخل الفم، وكذلك اللثة الداكنة المريعة. لا يمكن لأى إنسان أن يتصور مدى ما كنت أعانيه من شعور فظيع بسبب سجنى هذا. أن تكون فى شرخ الشباب وتمتلئ بالرغبة وبطاقة الشباب، ثم تجد نفسك فجأة محبوسًا ومسجونًا داخل هذا الجسم المتهالك.

ولبعض الوقت، صعقت بسبب هذا التغير المروّع الذى حدث لى. وعندما اشتد ضوء النهار استجمعت شجاعتى حتى أستطيع أن

---

(١٣) نسيج من الصوف والقطن (المترجم).

أفكر. لقد حدث التغيير لى بطريقة لا يمكن تفسيرها. وبعيدًا عن السحر، فإن هذا التغير قد حدث بالفعل. وبينما كنت أعمل تفكيرى، تذكرت تلك البراعة الشيطانية لإلفشام. لقد بدا واضحًا لى أنه استولى على جسمى وقوتى، وآمالى المستقبلية، فى حين أننى أحتل جسمه.

ولكن كيف أثبت ذلك؟ وعندما أخذت أفكر، أصبح ذلك الموضوع لا يصدق إلى الدرجة التى جعلت عقلى يضطرب.واضطررت إلى تحسس جلدى ولمس لثتى الخالية من الأسنان والنظر إلى نفسى فى المرآة ولمس الأشياء التى حولى قبل أن أتمكن من استعادة جأشى لمواجهة الحقيقة المروعة والوقائع الثابتة مرة أخرى.. ترى هل الحياة كلها نوع من الهذيان؟.. هل أنا (إلفشام) فعلاً وهو أنا؟.. هل كنت أحلم (بإدن) طوال الليل؟.. هل هناك أى (إدن) أصلاً؟.. وإذا كنت أنا (إلفشام)، لابد أن أتذكر أين كنت فى صباح أمس، واسم المدينة التى عشت فيها، وما حدث قبل أن يبدأ هذا الحلم.

أخذتنى الأفكار كل مأخذ.. وتذكرت الازدواجية العجيبة لذكرياتى طوال الليل.. لكن الآن أصبح ذهنى صافيًا.. ولم تعد ثمة أطياف من الذكريات إلا تلك الخاصة بـ (إدن).. ثم صحت بصوتى الحاد "لو استمررت هكذا فسوف أصاب بالجنون".

ووقفت على قدمى بصعوبة وأنا أترنح.. وتثاقلت أطرافى الضعيفة الثقيلة إلى المغسلة.. وأدخلت شعرى الأشيب فى حوض من الماء البارد.. وبعد أن جففت رأسى حاولت التفكير فى هذا

الأمر من جديد، لكن بلا جدوى كنت متأكدًا تمامًا أننى (إدن) ولست (إلفشام).. كل ما فى الأمر أننى (إدن) فى جسد (إلفشام)!

هل أنا إنسان أنتمى إلى عصر آخر.. لو كنت كذلك، لاستسلمت إلى قدرى كشخص وقع تحت تأثير السحر!.. لكن فى هذه الأيام المريبة فإن المعجزات لا تتم هكذا.. وهنا تكمن إحدى خداع علم النفس.. فما يفعله دواء ونظرة متفحصة، فإن عقارًا آخر أو نظرة متفحصة أخرى أو أى علاج مماثل، لا يمكن بالطبع أن يبطله.. وبعض الناس فقدوا ذاكرتهم قبلى.. لكن لا أظن أنهم تبادلوا ذاكرتهم كما يتبادل الناس مظلاتهم مثلاً!.. وضحكت لتلك الفكرة.. وللأسف لم تكن ضحكة طبيعية صحية، وإنما هى أقرب إلى النعيق أو الضحك السرِّى.

بإمكانى أن أتخيل (إلفشام) العجوز وهو يسخر من الورطة التى وضعت نفسى فيها.. وسرى فى أحاسيسى بركان فظيع من الغضب والحنق الغريب بالنسبة إلىّ.. وبدأت أرتدى بحماس الملابس التى وجدتها ملقاة بجوارى على أرضية الغرفة ولم أدرك إلا عندما ارتديتها أنها ملابس مساء وفتحت خزانة الملابس، ووجدت بعض الملابس المعتادة وسروالاً ذا أشكال مربعة وأيضًا روبًا منزليًا.. ووضعت على رأسى العارية قبعة قاتمة، ثم زفرفت من فرط إجهادى. وخرجت أترنح إلى منبسط الدرج.

لعل الساعة كانت وقتئذ السادسة إلا ربعًا.. وسائر النوافذ مسدلة، والمنزل ساكن وهادئ تمامًا.. وكان منبسط الدرج واسعًا وعريضًا.. والدرج نفسه مفروش بسجاجيد فاخرة، تهبط إلى ظلام

القاعة بأسفل.. وأمامى باب مفتوح قليلاً يكشف عن وجود مكتب ومكتبة دائرية، واستطعت رؤية مقعد المكتب ومجموعة أنيقة من الكتب المجلدة الموضوعة على أرفف بعضها فوق بعض.

تمتمت قائلاً: "مكتبى"، وسرت عبر منسبط الدرج إلى هناك.. وعندما سمعت صوتى خطرت لى فكرة ما.. فرجعت إلى المخدع، وركّبت طقم الأسنان فى فمى.. وانزلق الطقم بسهولة، كما لو أننى اعتدت على ذلك.. وقلت وأنا أصر عليه بلثتى "هذا أفضل" ثم عدت إلى حجرة المكتب.

وجدت أدراج المكتب مغلقة جميعها.. ولم أعثر على أى أثر للمفاتيح كما أنها لم تكن فى جيوب سروالى. وبسرعة عدت إلى غرفة النوم وبحثت فى كل مكان، وعلى منضدة التزين.. ثم فى جيوب جميع الملابس التى أمكننى الوصول إليها.. كنت متلهفًا إلى العثور على المفاتيح. واعتقدت أن اللصوص ربما يقتحمون هذا المكان لتفتيش غرفتى أثناء غيابى.. ولم يقتصر الأمر على عدم وجود مفاتيح، لكن لم يكن هناك أيضًا أى نقود أو قصاصات ورق.. باستثناء إيصال فاتورة عشاء أمس.

شعرت بجهد شديد، فجلست وحدقت فى الملابس المبعثرة هنا وهناك وجيوبها المسحوبة إلى الخارج. وفى كل لحظة، بعد أن تبدد فىّ الجنون المؤقت من فرط الصدمة، بدأت أدرك مدى الذكاء والتدبير المحكم لمخططات خصمى.. وأصبحت أرى بوضوح أكثر مدى عجزى وتهاوى موقفى هذا.. ووقفت بجهد وهرعت إلى حجرة المكتب من جديد.. قابلت على الدرج خادمة

ترفع ستائر النوافذ.. وأعتقد أنها حدقت نوعًا ما فى تعبيرات وجهى.

أغلقت باب حجرة المكتب خلفى وأمسكت بقضيب إذكاء النيران بالمدفأة، وبدأت هجومًا على الملك تب! وهكذا عثروا علىّ.. كان غطاء المكتب مشروخًا والقفل محطمًا والحجرة كلها انتقلت إليها الفوضى والخطابات ممزقة وخارج عيون حفظها ومبعثرة فى أرجاء الغرفة.. والواضح أنه فى ثورة غضبى أطحت بالأقلام والأدوات الكتابية الخفيفة الأخرى وقلبت دواية الحبر.. وعلاوة على ذلك فقد حطمت مزهرية كبيرة كانت على رف المدفأة، ولا أعرف بالضبط كيف حطمتها!.. ولم أتمكن من العثور على أى دفتر شيكات أو نقود أو أى معلومات تفيدنى أدنى فائدة فى استعادة جسمى. كنت أحطم الأدراج بجنون عندما هجم كبير الخدم ومعه خادمتان علىّ وشلوا حركتى تمامًا.

هذه باختصار قصة تحولى أو التغير الذى طرأ علىّ.. ولا أظن أن أحدًا سيصدق كلامى العجيب هذا.. وأنا أعامل الآن مثل شخص معتوه.. وحتى تلك اللحظة ما زلت محبوسًا.. غير أننى عاقل.. عاقل تمامًا.. ولكى أثبت ذلك فقد جلست لأكتب قصتى هذه بأدق تفاصيل ما حدث لى.. وأنا أقبل حكم القارئ علىّ.. فى تصرفاتى هذه أو فى أدق تفاصيل قصتى.

إننى شاب مسجون داخل جسم رجل عجوز!.. ولكن هذه الحقيقة الواضحة لا يمكن لأى أحد تصديقها.. والطبيعى أن كل من لا يصدق مقولتى هذه سيرانى معتوهًا أو مختلاً.. والحقيقة

أننى لا أعرف أسماء سكرتيراتى ولا الأطباء الذين كشفوا علىّ هنا، ولا خدمى ولا جيرانى بتلك البلدة (أيًا كان مكانها)، حيث وجدت نفسى.. وطبيعى أننى فقدت ذاتيتى فى منزلى، وأننى أعانى من منغصات وإزعاجات من كل نوع..

من الطبيعى أن أطرح أسئلة عجيبة، وأن أبكى وأصرخ وأن تنتابنى نوبات من القنوط واليأس والسأم.. فليس لدىّ أى مال أو دفتر شيكات.. والبنك لن يقبل توقيعى على ما أعتقد، لأن عضلاتى الحالية الواهنة سوف تجعل خطى فى الكتابة مثل خط (إدن) بالضبط. وأولئك الناس الذين يحيطون بى لن يدعونى أذهب إلى البنك بمفردى.. بل يبدو لى أنه لا يوجد بنك فى هذه البلدة.. وأن لدىّ حسابًا فى مكان ما آخر من (لندن).

ويبدو أن (إلفشام) أخفى اسم محاميه عن كل أسرته وخدمه.. ولكنى لا أستطيع أن أؤكد شيئًا ما فى هذا الصدد.. ولا ريب أن (إلفشام) كان تلميذًا نابهًا ومتعمقًا فى العلوم العقلية.. وكل إقراراتى بالحقائق ووقائع هذه القضية لا تؤكد سوى نظرية أن اختلالى العقلى نتيجة طبيعية للتأمل العميق فى علم النفس الذى أثر علىّ..

منذ يومين كنت شابًا ممتلئًا صحة وعافية، والحياة كلها أمامى مشرقة.. والآن أنا رجل عجوز غاضب مهمل ويائس ولا أمل له.. أتجول فى منزل غريب كبير وفاخر.. وكل من حولى يراقبنى ويخاف منى ويتجنبنى باعتبارى مجنونًا أو مختل العقل.. أما فى لندن فإن (إلفشام) يبدأ حياته مرة أخرى فى جسم فارع وقوى..

ولديه كل المعرفة والحكمة التى اكتسبها طوال سبعين عامًا.. إنه ببساطة سرق منى حياتى!!

لا أعرف بالضبط ما الذى حدث. وفى حجرة المكتب أجد مجلدات ومخطوطات تتناول أساسيات علم النفس الخاص بالذاكرة.. وكتابات يمكن أن تعتبرها حسابات أو رموزًا شيفرية بالغة الغرابة بالنسبة لى.. وفى بعض الفقرات والموضوعات توجد دلائل على انشغاله أيضًا بفلسفة الرياضيات (١٤) وأعتقد أنه قام بتحويل كل ذكرياته وكل المعارف التى تشكل شخصيته من عقله الذاوى الهالك إلى عقلى أنا.. وبالمثل حول ذكرياتى ومعارفى أنا إلى عقله المتهاوى.. أى من الناحية العملية تم تبادل جسمى مع جسمه..

غير أن معلوماتى تقصر عن إدراك كيفية حدوث هذا التبادل.. فقد كنت ماديًا(١٥).. طوال حياتى الفكرية ولكننى أجد هنا فجأة حالة لانفصال الإنسان تمامًا عن المادة. لكننى الآن على وشك إجراء تجربة متهورة بدافع اليأس المطبق علىّ.. وأنا أجلس الآن للكتابة قبل أن أنفذ ما عزمت عليه. فى هذا الصباح تمكنت بمساعدة سكين للمائدة أخفيته عند تناول إفطارى من كسر درج - من الواضح أنه سرى تمامًا - عنوة بالسكين لفتحه، هو أحد أدراج هذا المكتب المتهالك.

---

(١٤) إحدى فروع الفلسفة التى تدرس فرضيات وأساسيات ومفاهيم الرياضيات (المترجم).

(١٥) ينتمى للمذهب المادى الذى يقوم على أساس أن المادة هى الأساس، وأن كل شىء بما فى ذلك المشاعر والفكر والإرادة يمكن أن تفسر على أنها ظواهر مادية (المترجم).

لكننى لم أعثر فيه على شىء سوى زجاجة خضراء بداخلها مسحوق أبيض.. وحول عنق الزجاجة لصقت بطاقة مكتوب عليها كلمتين فقط "فك الغطاء".. والاحتمال الأكبر أن يكون هذا المسحوق سمًا. وأنا أفهم من هذا أن (إلفشام) يضع السم فى طريقى.. وأنا متأكد أن هدفه من هذا هو التخلص من الشاهد الوحيد الحى ضده.. والذى يعرف بخطته الرهيبة، إذ قد حل هذا الرجل عمليًا مشكلة الخلود!

وبخلاف مفاجآت القدر فإنه سوف يعيش فى جسدى حتى يهرم.. ثم لا يلبث أن يتخلص منه هو الآخر لكى يستولى على جسد شاب آخر وينعم بشبابه وقوته.. وعندما أتذكر تحجر قلبه.. وجمود عواطفه.. فإننى أرتعب من التفكير فى مدى ممارساته الجنونية هذه.. فأنت لا تعرف منذ متى وهو ينتقل من جسد إلى آخر؟..لكننى أشعر الآن بإرهاق من الكتابة.. ويبدو لى أن هذا المسحوق اللعين يذوب فى الماء بسهولة.. وكذلك فإن طعمه ليس سيئًا جدًا.

تم العثور على هذه القصة على مكتب السيد (إلفشام).. وكان جثته ملقاة بين المكتب والمقعد الذى تم دفعه إلى الوراء، ولعل ذلك حدث فى أثناء احتضاره.. وهذه القصة كتبت بالقلم الرصاص وبيد مرتعشة على غير دقته المعهودة.وتبقى هناك حقيقتان غريبتان يجب تسجيلهما.

لا ريب أن هناك علاقة ما بين (إدن) و(إلفشام)، لأن كل ممتلكات (إلفشام) ورثها الشاب (إدن) غير أنه لم يرث فى الحقيقة

شيئًا.. فعندما انتحر (إلفشام)، فإن (إدن)، وبالغرابة الأقدار مات هو الآخر!.. إذ قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة صدمته عربة ومات لفوره، فى التقاطع المزدحم لشارعى (جوار) و(إيستون) وعلى ذلك فإن الإنسان الوحيد الذى كان يمكن أن يلقى ضوءًا ما على هذه القصة العجيبة لم يعد ممكنًا سؤاله.

فى الهاوية

وقف الملازم البحرى أمام الكرة المعدنية وهو يقضم شظية من الصنوبر. وتساءل: "(ستيفنس)! ما رأيك فيها؟" أجاب (ستيفنس) بلهجة من يتمتع برجاحة العقل: "إنها فكرة مبتكرة".

قال الملازم: "أعتقد أنها سوف تتهشم تمامًا".

رد (ستيفنس) وهو ما زال غير متحيز: "يبدو أنه قد أجرى حساباته بدقة بالغة".

قال الملازم: "ولكن فكر فى الضغط الواقع عليه.. إنه يبلغ عند سطح الماء أربعة عشر رطلاً على كل بوصة، ويتضاعف على عمق ثلاثين قدمًا، ويصل إلى ثلاثة أمثال على عمق ستين قدمًا، وأربعة أمثال على عمق تسعين قدمًا. أما على عمق تسعمائة قدم فيصل الضغط إلى أربعين مثلاً. وعلى عمق خمسة آلاف قدم - أى نحو ميل - فيبلغ الضغط مائتى وأربعين رطلاً على البوصة المربعة، وهذا يعنى - دعنى أرى - أن الضغط على كل بوصة سوف يصبح طنًا ونصف الطن على كل بوصة مربعة. ويريد

الرجل أن يصل إلى عمق خمسة أميال فى المحيط. وهذا يبلغ سبعة ونصف....".

قال (ستيفنس) مقاطعًا: "يبدو أن الضغط سيكون هائلاً. لكن هذه الكرة من الصلب بالغ السماكة".

لم يجبه الملازم، بل استمر فى قضم شظية الصنوبر. كان حديث الرجلين يدور حول كرة عملاقة من الصلب، لها قطر خارجى يبلغ نحو تسعة أقدام، وتشبه قذيفة مدفع جبار. وقد وضعت بعناية فائقة فوق منصة هائلة على سفينة. أما قوائم الصوارى التى سوف تقذف بها إلى الماء، فقد أعطت مؤخرة السفينة، مظهرًا أثار فضول كل بحار له خبرة، وشاهد هذا المنظر منذ غادرت السفينة حضوها فى نهر (التايمز) حتى وصلت إلى (مدار الجدى).

وفى موضعين ـ أحدهما فوق الآخر ـ من كرة الصلب الجبارة، كانت هناك نافذتان مستديرتان تتميزان بزجاجهما شديد السماكة، وبدت الآن إحداهما ـ التى ثبتت فى إطار قوى من الصلب ـ مفتوحة جزئيًا بسبب فك مساميرها اللولبية، التى تحكم إغلاق إطارها المعدنى.

وكان الرجلان قد شاهدا قلب هذه الكرة المعدنية، لأول مرة هذا الصباح. كانت مبطنة بعناية بالوسائد الهوائية، مع وجود دعامات صغيرة بين الوسائد التى تبرز إلى الخارج، لراحة من يعمل فى هذه الكرة المعدنية. وبدا كل شىء مبطنًا بعناية فائقة، حتى جهاز (مايرز)، الذى كان مخصصًا لامتصاص حمض الكربونيك، وتجديد غاز الأوكسجين الذى يستنشقه راكب الكرة، عندما يزحف

إلى الداخل من خلال فتحة زجاجية ويستقر فى المكان المخصص له.

لقد كان داخل الكرة مبطنًا بعناية، إلى حد أنه إذا أطلق رجل من ماسورة مدفع، موجهًا إلى داخلها، فإنه لن يصاب بأذى على الإطلاق. وكان هذا هو المفروض عند تصميم الكرة المعدنية، لأنه عندما يزحف شخص ما إلى داخل الكرة، عبر تلك الفتحة الزجاجية، ثم يتم إحكام غلقها بالمسامير اللولبية، ويجرى قذف الكرة، من فوق جانب السفينة إلى المحيط، حيث تغطس إلى أسفل شيئًا فشيئا حتى تصل إلى عمق خمسة أميال، كما قال الملازم البحرى.

لقد استولت هذه الكرة المعدنية على كل تفكير الملازم وخياله، وجعلته يشعر بالسأم، ثم وجد (ستيفنس) - القادم الجديد - على متن السفينة، وشعر بأنه مبعوث السماء، ليتحدث معه فى هذا الصدد، مرة تلو الأخرى.

قال الملازم البحرى: "إن الرأى عندى، أن الزجاج سوف ينثنى وينتفخ ثم يتهشم تحت ضغط بهذه الشدة. إن (دوبريه) جعل الصخور تسيل كالماء، عندما وضعها تحت ضغوط جبارة... تذكر كلماتى ولا تنسها..".

قال (ستيفنس): "وماذا يحدث لو تهشم الزجاج؟".

"سوف يندفع الماء إلى داخل الكرة، كدفق من الحديد. هل شعرت من قبل بدفق مباشر من الماء تحت ضغط شديد؟ سيصيبك بعنف وكأنه رصاصة.. إنه سوف يطيح به ويسحقه، ويمزق حلقه ويمزق رئتيه ويفجر أذنيه....".

اعترض (ستيفنس) لأنه كان يتمتع بطبيعة متفائلة: "يا له من خيال يهتم بالتفاصيل الدقيقة!".

قال الملازم البحرى: "هذا مجرد عرض بسيط لأمور لا مفر منها".

"وماذا عن الكرة المعدنية؟".

"سوف يصدر عنها عدد قليل من الفقاعات الصغيرة، ثم تستقر فى أعماق المحيط إلى يوم الدينونة، بين طبقات من الرسوبيات الشبيهة بالطين، أما المسكين (الستيد) فسوف ينتشر جثمانه فوق وسائده المهشمة، مثل قطعة من الزبد فوق شريحة خبز!".

وكرر الجملة الأخيرة، إذ يبدو أنها راقت له كثيرًا "مثل قطعة من الزبد فوق شريحة خبز!".

"هل شاهدتما كرتى المعدنية؟" كان هذا صوت (الستيد) ذاته، وقد وقف خلفهما فى زى أبيض أنيق، ولفافة تبغ بين أسنانه، وعيناه تبتسمان من تحت ظلال حافة قبعته الكبيرة، التى كان يرتديها. واستطرد قائلاً: "ما هذا الأمر عن الزبد والخبز يا (وايبريدج)؟ هل تتذمر - كالعادة - من الرواتب الضئيلة التى يتقاضاها ضباط البحرية؟ سوف أبدأ بعد أقل من يوم. علينا أن نجهز الروافع اليوم. فهذه السماء الصافية وأمواج المحيط الرقيقة، ملائمة تمامًا، لإلقاء اثنى عشر طنًا من الحديد والرصاص فى الماء. أليس كذلك؟".

قال الملازم (وايبريدج): "إن هذا لن يؤثر فيك".

"كلا.. إذ بعد اثنتى عشرة ثانية سأكون على عمق ثمانين قدمًا، وحينئذ لن أشاهد جسيمًا واحدًا يتحرك حتى لو كانت العواصف الهوجاء تكتسح السطح، والأمواج العاتية ترتفع إلى نصف المسافة إلى السحب. كلا.. إننى سوف أجد فى الأعماق". وتحرك إلى جانب السفينة وتبعه الآخران. واتكأ الثلاثة على مرافقهم. يتطلعون إلى أسفل حيث المياه الصفراء الضاربة إلى الخضرة.

قال (الستيد) وهو ينهى أفكاره بصوت مسموع: ".. السلام".

سرعان ما سأله (وايبريدج): "هل أنت على ثقة أن آلية الساعة[1] سوف تعمل بكفاءة؟".

قال (الستيد): "لقد عملت خمسًا وثلاثين مرة. إنها ينبغى أن تعمل".

"ولكن إذا لم تعمل؟".

"ولماذا لا تعمل؟".

قال (وايبريدج): "إننى لن أخاطر بالهبوط فى هذا الشىء اللعين، ولو فى مقابل عشرين ألفًا من الجنيهات".

صاح (الستيد) فى مرح وهو يبصق على فقاعة ظهرت على سطح الماء: "يا لك من شاب مبهج!".

قال (ستيفنس): "إننى لا أفهم كيف تنوى تشغيل تلك الكرة المعدنية".

---

(١) آلية من العجلات المسننة التى تدار بنابض مثل الساعة الميكانيكية (المترجم).

رد (الستيد) قائلاً: "فى البداية، سوف يتم إحكام غلق الكرة علىّ. وعندما أطفىء النور الكهربى وأُضيئه ثلاث مرات ـ كإشارة بأننى على أهبة الاستعداد ـ حينئذ سوف يرفعنى هذا الونش، فوق مؤخرة السفينة، بكل هذه الأثقال من الرصاص المعلقة أسفل الكرة. وعند أعلى ثقل هناك أداة اسطوانية دوّارة تحتوى على نحو مائتى متر من الحبال القوية الملتفة، وهذا كل ما يربط أثقال الرصاص بالكرة المعدنية. وسوف تقوم هذه الحبال بإسقاطى إلى القاع ثم تقطع بعد ذلك. وقد فضلنا استعمال الحبال بدلاً من الأسلاك، لأنه أسهل فى قطعه عند الضرورة، كما أنه أكثر قابلية على الطفو فى الماء.

"وكما تلاحظ هناك ثقب فى كل ثقل من الرصاص، حيث سوف يتخلله قضيب من الحديد، يبرز إلى الخارج بنحو ستة أقدام فى الجزء الخلفى. ويعمل كل من هذه القضبان على دق رافع، يؤدى إلى تشغيل آلية الساعة، عند جانب الأسطوانة التى تُلف عليها الحبال".

"ثم تهبط الكرة تدريجيًا إلى الماء، حيث ستطفو بفعل الهواء الذى بداخلها، ومن ثم تصبح أخف من الماء ـ إلا أن أثقال الرصاص سوف تجذبها إلى أسفل، ويظل الحبل معلقًا بها، إلى أن تستقر فى الموضع المحدد لها".

"ولكن ما فائدة الحبل، ولماذا لا تثبت أثقال الرصاص مباشرة فى الكرة المعدنية؟".

"لتفادى ارتطام الكرة المعدنية بالقاع وتحطمها، فالهبوط سوف يكون سريعًا ميلاً بعد آخر. وسوف تتحطم الكرة إلى أجزاء عند

القاع، لو لم يكن هناك ذلك الحبل، الذى يخفض قليلاً من سرعتها إلى أن تتوقف فى النهاية، ثم تأخذ فى الطفو من جديد".

"وهنا سوف يأتى دور آلية الساعة. إذ بعد أن تتحطم أثقال الرصاص عند القاع، تتحرك القضبان وتقوم بتشغيل آلية الساعة، التى تجعل الحبال تلف مرة أخرى فوق الأسطوانة الدوّارة. وعندئذ سوف أهبط ببطء إلى قاع البحر. وهناك سأبقى نصف ساعة، والنور الكهربائى مضاء، لألاحظ ما ما حولى. ثم ستقوم آلية الساعة بإبراز سكين ميكانيكية، لقطع الحبل الذى يربط الكرة المعدنية بأثقال الرصاص، وهكذا أرتفع من جديد فى الماء، مثل فقاعة هواء فى زجاجة صودا".

قال (وايبريدج): "وماذا يحدث لو أنك ارتطمت بسفينة ما؟".

"سوف أصعد بسرعة مبتعدًا عنها، بسرعة قذيفة مدفع. فلا تقلق من هذه الناحية".

"ولنفرض أن حيوانًا بحريًا من القشريات(٢) اصطدم بتلك الآلية التى تتحدث عنها".

"سوف تكون هذه دعوة ملحة لى لكى أتوقف" قال (الستيد) هذا وأدار ظهره للماء ثم أخذ يحدق فى الكرة المعدنية.

أنزلوا (الستيد) من على متن السفينة، فى الحادية عشرة. وكان النهار رائقًا ومشرقًا والبحر هادئًا والضباب يلف الأفق. وومض

---

(٢) طائفة من مفصليات الأرجل كالجمبرى، تتنفس بالخياشيم ولها زوجان من قرون الاستشعار (المترجم).

النور الكهربى فى القسم العلوى الصغير، ثلاث مرات. وعندئذ أخذوا فى إنزاله ببطء إلى سطح الماء. وكان هناك بحار عند مؤخرة السفينة، يقف متأهبًا لقطع تلك الحبال التى تثبت أثقال الرصاص بالكرة المعدنية.

وفى هذه اللحظات، بدت الكرة المعدنية صغيرة الحجم للغاية عند مؤخرة السفينة، بعد أن كانت تظهر هائلة الحجم فوق سطحها. تأرجحت قليلاً، وظهرت نافذتاها المعتمتان ـ اللتان كانتا طافيتين مع الكرة على سطح الماء ـ مثل عينين تطوفان فى دهشة، وتحدقان فى الناس الذين احتشدوا عند سياج السفينة.

وتساءل صوت ما عما إذا كان (الستيد) يستمتع بتأرجح الكرة المعدنية.

وقال الرائد البحرى: "كل شىء على ما يرام، إذن دعوها تهبط".

قام أحد البحارة بقطع الحبل الذى كان يحول دون أن تهبط الكرة وراء أثقال الرصاص.

لوّح أحدهم بمنديل، وحاول شخص آخر أن يطلق صيحة تشجيع، وأخذ ضابط صف بحرى، فى العد ببطء: "ثمانية، تسعة، عشرة". تأرجح آخر ثم حركة سريعة مفاجئة وغوصة قصيرة فى الماء أطلقت رشاشًا، ثم وازت الكرة نفسها.

بدت الكرة المعدنية للمشاهدين كأنها ثابتة فى الماء، وأن حجمها أصبح أصغر فأصغر بسرعة. وسرعان ما غطاها الماء من أعلى

وتمكنوا من رؤيتها أسفله، وقد كبر حجمها بسبب انكسار موجات الضوء[٣]، وأصبحت أكثر عتامة، تحت سطح الماء.

وقبل أن يعد الشخص إلى ثلاثة، كانت الكرة المعدنية قد توارت. وتألقت ومضة من ضوء أبيض، بعيدًا فى أعماق الماء، وسرعان ما تضاءلت لتصبح خافتة ثم اختفت. وهكذا لم يعد هناك أى شىء، إلا أعماق المياه التى تكتنفها الظلمة، وعبرها كان يسبح قرش.

وفجأة بدأ لولب فى الكرة المعدنية يدور، واضطرب الماء من حولها وأخذ القرش يسبح مرتبكًا ثم اختفى، وتدفق تيار صاخب عبر سطح الماء البللورى والرائق، الذى ابتلع (الستيد) وكرته المعدنية.

قال بحار لآخر: "ما الذى حدث؟".

رد عليه زميله قائلاً: "علينا أن نبتعد بالسفينة نحو ميلين عن هذا الموقع، خوفًا من أن تصطدم بنا الكرة المعدنية عند صعودها".

وأبحرت السفينة ببطء إلى موقعها الجديد. وكل شخص على متنها - غير المكلف بأى عمل - كان يحدق فى الآثار البسيطة التى خلفتها الكرة المعدنية، عندما غطست إلى الأعماق. وخلال نصف الساعة التالية كان كل الحديث يدور حول (الستيد) وكرته المعدنية. كانت شمس ديسمبر تعلو السماء الآن، وقد ارتفعت الحرارة لحد كبير.

---

(٣) عندما تمر موجات الضوء من وسط إلى آخر مختلف الكثافة (المترجم).

قال (وايبريدج): "سوف يشعر بالبرودة الشديدة هناك فى الأعماق. يقال إنه عند عمق معين، تكاد المياه تكون فى حالة تجمد".

سأله (ستيفنس): "أين المكان الذى سوف يصعد منه. لقد فقدت اتجاهاتى".

قال الرائد البحرى الذى يفخر بأنه كلىّ المعرفة:"هذا هو الموقع" وأشار بإصبعه إلى الاتجاه الجنوبى الشرقى، ثم استطرد قائلاً: "وأعتقد أنه قد حان الوقت تقريبًا، لقد استمر فى الأعماق خمسًا وثلاثين دقيقة".

قال (ستيفنس): "كم هو الوقت اللازم للوصول إلى قاع المحيط؟".

"لعمق خمسة أميال، وبتسارع قدره قدمان فى الثانية، فإن الوقت اللازم هو ثلاثة أرباع دقيقة".

قال (وايبريدج): "لقد تم تجاوز هذا الوقت".

قال الرائد البحرى: "ليس تمامًا. إذ أعتقد أن لف الحبال يستغرق عدة دقائق".

قال (وايبريدج) فى ارتياح واضح: "لقد نسيت هذا الأمر".

ثم بدأ القلق. ومر الوقت ببطء شديد، ولم تظهر أية كرة خارجة من الماء، ولا حدث أى اضطراب لسطح الماء الهادئ. وأخذ البحارة يشرحون بعضهم لبعض، ذلك الأمر الخاص بلف الحبال. واحتشد الجميع عند سياج السفينة مترقبين.

قال أحد البحارة ذو شعر صدر كثيف. بنفاد صبر: "هيا اصعد يا (الستيد)!".

وشاركه الآخرون فى الصياح، وكأنهم كانوا ينتظرون رفع ستار مسرح.

نظر إليهم الرائد البحرى فى غضب وقال: "بالطبع لو كان التسارع أقل من قدمين فى الثانية، فسوف يستغرق وقتًا أطول. إننا لن نكون واثقين تمامًا من صحة هذا الرقم. إننى لا أُومن بالرياضيات".

ووافق (ستيفنس) بعبارة وجيزة. ولمدة دقيقتين ساد الصمت تمامًا سطح السفينة عند مؤخرتها. ثم طقطق غطاء الساعة المعدنى، الذى يرتديها (ستيفنس) فى يده. ومرت عشرون دقيقة - بعد أن اعتلت الشمس سمت السماء - وكانوا لا يزالون ينتظرون ظهور الكرة المعدنية من جديد، ولم يجرؤ أى شخص على متن السفينة أن يهمس بأنه لا رجاء. وكان (وايبريدج) أول من لمّح إلى هذا الأمر. تحدث وما زال صدى رنين ثمانية أجراس معلقًا فى الهواء، كنت دائمًا أشك فى تلك النافذة.

قال (ستيفنس): "يا إله السماوات! أنت لا تعتقد أن....".

رد (وايبريدج) قائلاً: "حسنٌ" وترك الباقى لخيال رفيقه.

كرر الرائد البحرى قوله: "إننى لا أعتقد جازمًا بالرياضيات" ثم استطرد قائلاً: "لهذا فلم أفقد الأمل بعد". وعند منتصف الليل، كانت السفينة الحربية تبحر ببطء فى دوائر، حول البقعة التى غطست عندها الكرة المعدنية.

وأخذ شعاع ضوء كهربى أبيض، ينتشر على صفحة الماء ويتوقف ويعود ليمسح - دون ملل - المنطقة، تحت النجوم الشاحبة، ولكن دون جدوى.

قال (وايبريدج): "إذا لم تكن النافذة قد تحطمت وأودت بحياته، فإن خللاً ما ربما يكون قد حدث للأجهزة الميكانيكية للكرة المعدنية، وأنه على قيد الحياة الآن، يرقد على عمق خمسة أميال تحت سطح الماء، حيث لا يصل أى ضوء منذ عصور موغلة فى القدم. إنه يتضور جوعًا ويعانى من الظمأ وخائف، ولعله يتساءل إذا كان يموت جوعًا أو من الاختناق! إن جهاز (مايرز) قد توقف حسب ما أعتقد!".

ثم صاح: "يا إله السماوات! أى مخلوقات ضعيفة نحن! أى شياطين صغيرة متهورة! كل هذه المياه التى تمتد تحتنا وحولنا لأميال وأميال، وهذه السماء مترامية الأطراف! هوّات تفغر فاها!".

فرد (وايبريدج) ذراعيه على اتساعهما ثم لوّح بهما. عندئذ انطلق ضوء أبيض فى سكون باتجاه الفضاء، وتحرك فى بطء. وسرعان ما أصبح نقطة ثابتة، وكأنما تكوّن نجم جديد فى السماء، وبعدها انحدر عائدًا من جديد، وفقد بين انعكاسات النجوم والغبش الأبيض لتوهج البحر الفوسفورى.

وما إن رآه (وايبريدج) حتى مد ذراعه وفتح فاه. ثم أغلقه ثانية وعاد وفتحه من جديد، ولوّح بذراعيه فى إشارة تعبر عن نفاد الصبر. وبعد هنيهة قال: "(الستيد)! أين أنت؟" وهرع إلى (ليندلى) المسئول عن الكشافات. وأخذ يصيح: "لقد رأيته! هناك عند

الميمنة[٤]! لقد برز من الماء فى التو! أحضروا الضوء هنا. يجب أن نراه وهو يطفو، عندما يصعد إلى سطح الماء.

بيد أنهم لم يلتقطوا المستكشف (الستيد) قبل الفجر، بعد أن قاموا بمحاصرة مكانه. وأنزلت الرافعة، واستقل طاقم من البحارة قاربًا، وربطوا الخطاف بواسطة سلسلة إلى الكرة المعدنية. وعندما وضعوها فوق متن السفينة بواسطة الرافعة، قاموا بحل المسامير اللولبية التى كانت تغلق الكوة، وحدقوا فى داخل الكرة، الذى تكتنفه الظلمة الدامسة؛ لأن النور الكهربائى الذى كان مقررًا له أن يضىء الماء من حول الكرة، قد أطفىء تمامًا.

كان الهواء حارًا للغاية فى الداخل، وقد بدأ المطاط الذى يحيط بإطار الكوة، يصبح رخوًا بسبب الحرارة. ولم تكن هناك أية إجابات لأسئلتهم المتلهفة، ولا صوت ينبىء عن حركة، فى الداخل. كان (الستيد) راقدًا بلا حراك متقوضًا فى قاع الكرة المعدنية. وجاء طبيب السفينة زاحفًا إلى الداخل ورفعه وخرج به إلى حيث الرجال بالخارج. وللحظات لم يعرف أحد إذا كان (الستيد) حيًا أو ميتًا. لكن وجهه كان يتصبب عرقًا. وحملوه إلى قمرته.

ألفوه على قيد الحياة، ولكن فى حالة سيئة بسبب الانهيار العصبى الكامل. بالإضافة إلى أن جسمه كان مليئًا بالكدمات العنيفة. وكان عليه أن يرقد ساكنًا تمامًا، لعدة أيام. وبعد أسبوع استطاع أن يروى التجارب التى مرت عليه أثناء هذه المغامرة. وكانت أولى كلماته أنه سوف يعود إلى الأعماق من جديد. وأن الكرة

---

(٤) الجانب الأيمن للسفينة عند مواجهة المقدمة (المترجم).

المعدنية يجب أن يعدل تصميمها، بحيث يمكنه أن يلقى بالحبال إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وهذا كل ما فى الأمر، لقد مر فى تجربة فريدة لا مثيل لها.

قال: "لقد خيِّل إليكم أننى لن أجد شيئًا سوى طبقات من الرسوبيات وطين ووحل فى الأعماق، كنتم تسخرون من استكشافاتى، ولكنى توصلت إلى اكتشاف فى عالم جديد!".

روى قصة مغامرته ، فى أجزاء غير متصلة، ومن ثم يكون من المستحيل أن نسرد كلماته بالحرف الواحد، بيد أننا سوف نسرد خلاصة ما قاله.

قال بأن الأمر بدأ مريعًا، إذ قبل أن ينتهى الحبل، أخذت الكرة المعدنية تتأرجح بعنف. وشعر بأنه مجرد ضفدع داخل كرة قدم! ولم يكن بإمكانه أن يرى أى شىء سوى الرافعة والسماء فوقه، مع لمحات - من وقت لآخر - للأناس المحتشدين عند سياج السفينة. لم يستطع أبدًا أن يحدد الطريق التى سوف تسكله الكرة المعدنية، أثناء تأرجحها فى الماء. وفجأة شعر بقدميه ترتفعان وفقد توازنه، ثم أخذ يتدحرج رأسًا على عقب وكيفما اتفق فوق كتل المادة الناعمة، المبطن بها الداخل. ولم يسترح إلى أى وضع اتخذه، تحت ذلك الضغط الرهيب للهوة أسفله.

وفجأة توقف التأرجح واتزنت الكرة، وبعد هنيهة عندما استطاع التقاط أنفاسه، شاهد الماء من حوله - عبر النافذة - وقد اختلط فيه اللونان الأخضر والأزرق، وشعاع ضوء رفيعًا يأتى مرشحًا من أعلى، وسربًا من أشياء صغيرة طافية تندفع إلى أعلى متجاوزة

الكرة المعدنية، وبدا له أنها تتجه صوب الضوء. وبينما كان يتطلع إلى الماء، أخذ يزداد قتامة. حتى بدا فى ظلمة سماء منتصف الليل، إلا من ظلال خضراء خفيفة. وراحت أشياء شفافة صغيرة تكوّن فى مجموعها ومضة خاطفة من الضوء، سرعان ما تندفع بعيدًا مخلفة وراءها خطوطًا باهتة ضاربة إلى الخضرة.

أما عن الإحساس بالسقوط فإنه يشبه ما تحس به عندما يبدأ المصعد فى الهبوط، ولكنها تكون حركة مستمرة لا تتوقف أبدًا. وعلى المرء أن يتصور، معنى أن تستمر فى الهبوط بلا توقف.

كانت هذه هى المرة الأولى ـ خلال تجربته ـ أن ندم (الستيد) على مغامرته؛ إذ أدرك أن الفرص كلها ضده، ورآها بشكل جديد. وفكر فى أسماك "الحبّار"(٥) الضخمة التى يعرف أنها تعيش فى منتصف المسافة بين سطح الماء والقاع، والتى يعثر على أجزاء منها ـ أحيانًا ـ نصف مهضومة، داخل معدة أحد الحيتان، أو ترى طافية وهى ميتة ومتعفنة، وقد أكل السمك قطعًا منها. لو أن إحدى هذه الحبارات، أمسكت بالكرة المعدنية ولم تتركها، فهل يمكن لآلية الساعة أن تعالج هذا الموقف؟ وهل تم اختبارها على هذا؟ وعلى أية حال، لم تعد هناك أدنى أهمية الآن، لرغبته فى الاستمرار أو العودة من حيث أتى.

وبعد خمسين ثانية، أصبح كل شىء مكللاً بالسواد، فى ظلمة الليل الذى بالخارج، ولم يبق سوى الضوء المنبعث من الكرة، الذى

---

(٥) أحد الحيوانات البحرية الرخوية، له جسم مستطيل وعشرة أذرع محيطة بالفم (المترجم).

يسقط من حين لآخر على سرب من الأسماك أو قطع من الأشياء الغارقة. وكان الضوء خاطفًا، بحيث لم يستطع تبين طبيعة تلك الأشياء. وذات مرة اعتقد أنه شاهد قرشًا يمر بالقرب من النافذة. وبعد ذلك بدأت درجة حرارة الكرة ترتفع، بسبب احتكاكها بالماء. ويبدو أنهم لم يأخذوا هذا الأمر فى الحسبان.

وأول ما لاحظه أنه يتصبب عرقًا بغزارة، ثم سمع صوت صفير حاد ـ تحت قدميه ـ أخذ يزداد رويدًا، وشاهد كميات كبيرة من الفقاقيع الصغيرة للغاية التى تتصاعد إلى أعلى فى شكل مروحى، خلال الماء فى الخارج. إنه بخارا وتحسس زجاج النافذة فوجده ساخنًا. أضاء المصباح الذى يضىء داخل الكرة، ونظر إلى الساعة، واتضح أنه قد سافر لمدة دقيقتين. وخطر بباله أن زجاج النافذة سيتحطم، نتيجة لاختلاف درجات الحرارة، لأنه ـ حسب علمه ـ فإن درجة حرارة مياه الأعماق، تقترب كثيرًا من درجة التجمد.

وفجأة، أحس بأن أرضية الكرة تضغط على قدميه، وأخذ تصاعد الفقاقيع فى الخارج، يقل تدريجيًا، وأخذ صوت الصفير الحاد يضعف. وتأرجحت الكرة المعدنية قليلاً، ولم يتهشم زجاج النافذة، كما لم تتوقف أية آلة، وأدرك فى هذه اللحظات أن مخاطر الغرق ـ بأى شكل ـ قد تلاشت.

عرف أنه بعد دقيقة أو نحوها، سوف يستقر فوق قاع الهوة. وحسب قوله، أخذ يفكر فى (ستيفنس) و(وايبريدج) وكل الباقين، وأنهم فى الوقت الحاضر على ارتفاع خمسة أميال، أكثر ارتفاعًا منه بالنسبة للسحب العالية التى تنساب فوق الأرض بالنسبة لنا.

أخذ يحدق فى النافذة المستديرة. لم يشاهد أية فقاقيع فى الخارج، كما توقف الصفير الحاد تمامًا، فى الخارج كانت الظلمة متكاثفة ـ كخمل أسود ـ إلا فى الأماكن التى يقتحم فيها النور الكهربائى الماء، ويظهر لونه الحقيقى، أصفر ضارب إلى الخضرة. ثم ظهرت ثلاثة أشياء مثل أشكال نارية، أخذت تسبح وتدنو من مدى نظره، يتبع كل منها الآخر، خلال الماء. ولم يستطع أن يقرر ما إذا كانت أشياء قريبة صغيرة الحجم أو بعيدة ذات حجم كبير.

كل منها كان مغلفًا بضوء ضارب إلى الزرقة، واتضح له أن هناك دخانًا يتصاعد من جانبيها، اللذين بهما بقع مضيئة، مثل النوافذ الدائرية للسفن. وبدا أن وميضها يخفت عندما يسلط عليه ضوء مصباح الكرة. وعندما اقتربت منه هذه الكائنات أدرك أنها أسماك صغيرة من نوع غريب، ذات رؤوس ضخمة وعيون واسعة وأجسام ضئيلة وذيول. اتجهت عيونها صوبه، وافترض أنها تتبعه. وتصور أن تألق ضوء مصباحه، هو ما جذبها إليه وسرعان ما انضمت إليها أسراب أخرى من نفس النوع.

وبينما كان يهبط، لاحظ أن الماء، أصبح ذا لون شاحب، وأن ثمة هباءات صغيرة تومض فى شعاع مصباحه، مثل الدقائق فى ضوء الشمس. وأدرك أنها ربما تكون قد نتجت عن سحب الطين والوحل، التى أثارتها أثقال الرصاص التى ارتطمت أولاً بالقاع. وعندما هبط بالمركبة، كانت تحيط به سحابة بيضاء كثيفة، ولم يستطع مصباحه الكهربائى أن يخترقها إلا لمسافة عدة ياردات فقط. ومرت دقائق عديدة، قبل أن تستقر فى القاع من جديد، تلك الرسوبيات التى كانت معلقة فى الماء.

وتمكن من رؤية كمية هائلة من الرسوبيات ذات اللون الأبيض الضارب إلى الرمادى - ترقد تحت تلك الظلمة الدامسة الممتدة بلا نهاية - وقد أضاءها مصباحه الكهربائى وسرب من الأسماك التى تنطلق منها الأضواء الحيوية. كما شاهد هنا وهناك نباتات سوسن الماء، تحرك مجساتها الجائعة فى الماء.

وأكثر بعدًا، لمح الهياكل الرقيقة نصف الشفافة لمجموعة من الإسفنج العملاق. وتناثرت فوق القاع، ما يشبه الأعشاب، ذات أشواك، ولونها يتباين بين الأرجوانى الزاهى والأسود، وأدرك (الستيد) أنها نوع من قنافذ البحر. كما شاهد كائنات صغيرة الحجم واسعة العيون أو عمياء، بعضها لها شبه غريب بقمل الخشب، وأخرى تشبه سرطانات البحر. كان تزحف حثيثًا على طول مسار الضوء، ثم تختفى فى طيات الظلمة من جديد، تاركة خلفها آثار أخاديد، وفجأة، يظهر حشد من الأسماك الصغيرة تنحرف وتأتى فى اتجاهه، كما قد تفعل طيور "الزرزور"، تجاوزته مثل الثلوج الوماضة.

عندئذ أبصر خلفها، مخلوقًا أكبر يقترب من الكرة المعدنية، فى البداية، لم يستطع أن يراه بوضوح بل فى غلالة معتمة، مجرد شكل يتحرك ببطء وكأنه رجل يسير، ثم جاء فى دائرة الضوء الصادرة عن المصباح الكهربائى. وما إن أدركه الضوء حتى أغلق عينيه مبهورًا. وأخذ يحدق فى ذهول.

لقد كان حيوانًا فقاريًا غريبًا، رأسه ذات اللون الأرجوانى الداكن تشبه رأس الحرباء إلى حد ما، إلا أن جبهته العالية وجمجمته

تختلفان عن مثيلاتهما فى الزواحف. وأغرب ما فى الأمر، أن الشكل العام لوجهه يضاهى وجه الإنسان! وكانت ثمة عينان واسعتان تبرزان من محجريهما مثل الحرباء، وكان له فم عريض ـ كالزواحف ـ وشفتان ذات نتوءات، تحت فتحتى أنف صغيرتين. وعند موضع الأذنين، غطاءان هائلان لخيشومين[٦]. ومن هذين الغطاءين تنبعث خيوط مرجانية اللون ـ تبدو مثل شجرة متفرعة ـ وهى تشبه إلى حد كبير الخياشيم الشجرية التى للقروش ولصغار أسماك (الراى)[٧].

بيد أن "إنسانية" الوجه، ليست هى أكثر الأمور غرابة فى هذا المخلوق العجيب. بل لأنه يسير على قدمين، وجسمه شبه الكروى يرتكز على رِجلين تشبهان رجلَى الضفدع، بالإضافة إلى ذيل طويل غليظ البنية، وعضواه الأماميان يشبهان رسمًا ساخرًا ليدَى الإنسان. أما ألوان المخلوق فكانت متباينة، فرأسه ويداه ورجلاه أرجوانية، لكن جلده ـ الذى كان يتهدل فوق أعضاء جسمه كما قد تبدو الملابس فوق الجسم ـ فكان رماديًا متألقًا بلون فسفورى. وكان المخلوق يقف هناك وقد غشى بصره الضوء.

وأخيرًا قام مخلوق الهوة الغامض، بفتح عينيه بعد جهد، وحجب عنهما الضوء بيده، ثم فغر فاه وأصدر صوتًا صارخًا وكأنه ينطق كلامًا، اخترق صلب هيكل الكرة. كيف يتم الصراخ دون رئتين؟ لم يستطع (الستيد) أن يقدم توكيدًا صريحًا. ثم تحرك المخلوق إلى

---

(٦) الخيشوم عضو التنفس فى كثير من الكائنات البحرية وخاصة السمك (المترجم).
(٧) أسماك بحرية غضروفية ذات جسم كبير مفلطح وذيل كالسوط (المترجم).

جانب، بعيدًا عن وهج الضوء، واختفى فى ظلمة الأعماق التى تحيط بالكرة المعدنية من كل جانب، وشعر (الستيد) بأن المخلوق يتجه إليه، على الرغم من أنه لم يشاهده يفعل هذا. واعتقد أن الضوء هو الذى جذبه، لهذا قام بتحريك المحوّل الكهربائى ليطفىء المصباح. وبعد دقائق، أخذ شىء ما ناعم يربت على الهيكل الصلب فتأرجحت الكرة.

بعد ذلك، تكرر صوت الصرخات، وخيل إليه أن أصداء على البعد تجيبها.

راحت الكرة تتأرجح من جديد، مرتطمة بأرض القاع. استوى جالسًا فى الظلمة الدامسة، وأخذ يحدق فى الليل اللانهائى للهوة.

وسرعان ما شاهد مجموعة من المخلوقات المتألقة شبه الآدمية ـ كانت بعيدة وغير واضحة تمامًا ـ تهرع فى اتجاهه. لم يستطع أن يقرر ما الذى يفعله. أخذ يبحث عن الزر الذى يضىء النور الكهربائى الخارجى، وعثر بالصدفة على مصباحه الكهربائى فوق الوسائد. ازداد تأرجح الكرة، فألقت به على أرضية الكرة، وتنامت إلى سمعه صيحات، وكأنها صيحات دهشة.

وعندما استطاع النهوض على قدميه وجد زوجين من الأعين، تحدقان إلى الداخل عبر النافذة المستديرة، وتعكسان الضوء الصادر عن مصباحه. وبعد دقائق، راحت أيدى تربت على الهيكل الصلب. كما سمع صوتًا ـ أصابه بالرعب ـ عبارة عن طرقات عنيفة على المعدن الذى يحمى آلية الساعة؛ إذ لو استطاعت هذه

المخلوقات الغامضة تدمير أجهزة الكرة المعدنية، فإنه لن يستطيعَ أبدًا العودة مرة أخرى.

أخذت الكرة المعدنية، تتأرجح بعنف وأحس بأرضيتها تضغط بقوة على قدميه. أطفأ المصباح الكهربائى الذى كان ينير الداخل، وأرسل أشعة باهرة من الضوء القوى - الذى كان فى حجيرة منفصلة - إلى الماء فى الخارج. ووجد أن قاع المحيط والمخلوقات شبه الآدمية، قد اختفت. وسقطت فجأة سمكتان كانت تطارد إحداهما الأخرى، بالقرب من النافذة.

فكر فى التو بأن هذه المخلوقات الغريبة التى تسكن أعماق المحيط، هى التى قطعت الحبل الذى يثبته إلى الأثقال، وأنه استطاع الهروب. كان يصعد بسرعة متزايدة، وفجأة توقف بحركة سريعة، أدت إلى الإلقاء به إلى أعلى ليصطدم بعنف بسقف الكرة التى أصبحت سجنًا له. ولمدة نصف دقيقة، كان مندهشًا تمامًا، حتى إنه لم يستطع التفكير.

ثم أحس بأن الكرة المعدنية تدور حول نفسها ببطء وتترنح، وبدا له أن شيئًا ما يسحبها عبر المياه. انحنى بقامته وطأطأ رأسه وركبتاه مثنيتان، واقترب من النافذة المستديرة، واستخدم ثقل جسمه ليحول هذا الجزء من الكرة إلى الأسفل. بيد أنه لم ير شيئًا، إلا ذلك الشعاع الباهت للضوء الذى أطلقه، يحاول أن يتخلل الظلمة، ولكن دون جدوى. وفكر فى أنه ربما لو أطفأ المصباح، يمكن أن تعتاد عيناه على تلك الظلمة المروعة والعميقة. وكان حكيمًا فى هذا القرار. وبعد عدة دقائق، تحولت الظلمة المخملية

الحالكة إلى سواد نصف شفاف، واستطاع أن يرى على مسافة بعيدة، أشباحًا باهتة تتحرك إلى الأسفل. وفكر فى أن تلك المخلوقات الغامضة قد قامت بقطع الكبل[٨] الذى كان يربط الكرة المعدنية بالسفينة، وأنها تجره الآن على طول قاع المحيط. حينئذ شاهد شيئًا ما باهتًا وبعيدًا ـ عبر الأرض المنبسطة تحت سطح البحر ذات الشكل الموجى ـ عبارة عن أفق عريض شاحب الضياء، يمتد هنا وهناك إلى أقصى ما يمكن أن تسمح به النافذة الصغيرة، من رؤية.

وكان يُسحب إلى هذا الأفق، كما يسحب رجال بالونًا من الريف إلى مدينة ما. كان يقترب ببطء شديد، وبدأ الضياء الباهت الذى تكاثف، يتخذ أشكالاً أكثر تحديدًا. كانت الساعة تقترب من الخامسة، عندما وصل إلى تلك المنطقة النورانية، واستطاع خلال هذا الوقت، أن يرى تركيبات توحى بطرق ومنازل تتجمع حول بناء رأسى بلا سقف. كانت هذه الطرق والمنازل منتشرة ـ كخريطة ـ من أسفله، كانت كل المنازل بلا سقوف ومخاطة بجدران، شيدت ـ كما رأى فيما بعد ـ من عظام متألقة، مما يعطى إحساسًا للمرء، بأنها بنيت من ضوء القمر الغارق فى المياه. وبين الكهوف الداخلية لهذا المكان، نمت أشجار متماوجة وتحمل زهورًا شبيهة بالزنبق، وتمد مجساتها فى كل اتجاه، وكذلك هناك أنواع متباينة من الإسفنج الطويل والرفيع والشفاف، تبدو كالمنارات المتألقة، كما ينمو أيضًا نبات السوسن، الذى يلقى ضوءًا رقيقًا، مقارنة بالتوهج الشديد

---

(٨) حزمة من الأسلاك معزولة بعضها عن بعض، وذات غلاف واق (المترجم).

للمدينة. واستطاع (الستيد) أن يرى حركة كثيفة لا تهدأ فى كل الأماكن المفتوحة، وكأنما هم حشود من البشر. لكنه كان على ارتفاع عدد كبير من "القامات" (٩) فوقهم، ومن ثم لم يستطع أن يميز أفرادًا بأعينهم من بين هذه الحشود المزدحمة.

حينئذ كانوا يجذبونه إلى أسفل. وبينما كانوا يفعلون ذلك، كانت تفاصيل المكان تتضح أكثر ـ ولكن ببطء ـ فى داخل ذهنه. ورأى أن تلك المبانى المغلفة بالضباب، قد تم تمييزها بواسطة أجسام صغيرة مستديرة كالخرز تمتد فى شكل صفوف، ثم لاحظ أنه فى أماكن كثيرة أسفله، فى مساحات عريضة مفتوحة. كانت هناك سفن غارقة غطتها القشريات.

كان يهبط ببطء ولكن فى اتجاه محدد، وراحت الأشكال من تحته، تصبح أكثر تألقًا ووضوحًا وتمايزًا. وأدرك أنه كان يقاد إلى مبنى ضخم فى مركز المدينة، وتمكن من مشاهدة الأشكال المتعددة التى كانت تجذب حبل كرته المعدنية. كان المكان مزدحمًا بكائنات متباينة تنظر إليه ثم ارتفعت جدران المبانى الهائلة، لتخفى المدينة عن عينيه.

وكانت هذه الجدران مشيدة من خشب السفن المشبع بالماء وحبال مبرومة من الأسلاك وقوائم من الحديد والنحاس وعظام وجماجم الغرقى. وقد تم ترتيب الجماجم فى شكل خطوط متعرجة حلزونية ومنحنيات رائعة، فوق المبانى. وكانت ثمة أسماك فضية

---

(٩) مقياس لعمق المياه ويبلغ نحو ١,٨ متر (المترجم).

صغيرة بأعداد هائلة، تخرج وتدخل من محاجر عيون هذه الجماجم.

فجأة سمع صراخًا وضوضاء تشبه أصواتًا صاخبة لأبواق، مهدت لانطلاق أنشودة غريبة. وهبطت الكرة المعدنية، متجاوزة النوافذ الهائلة ذات الحواف المستدقة، ومن خلالها شاهد عددًا كبيرًا من هذه الكائنات العجيبة الشبيهة بالأشباح، وهم يتطلعون إليه. وأخيرًا استقرت الكرة على ما يشبه المحراب فى وسط المكان.

وعند هذا المستوى، كان بإمكانه أن يشاهد سكان الهاوية بوضوح أكثر. ولدهشته كانوا يركعون أمامه ويظهرون له الاحترام، جميعهم باستثناء واحد منهم يرتدى ثوبًا من القشور وتاجًا متلألئًا، كان يقف فاتحًا فاه الشبيه بفم الزواحف، وهو يفتحه ثم يغلقه، وكأنما هو يقود إنشاد المتعبدين.

انتابت (الستيد) رغبة مفاجئة، أن يضىء الكرة من جديد، حتى يصبح مرئيًا للمخلوقات سكان الهاوية، وعلى الرغم من أن الضياء قد جعلهم يختفون على الفور إلى حيث الظلمة.

وبمجرد أن شاهدوه هكذا فجأة، ارتفع الإنشاد ليصبح هيجانًا من الصيحات المبتهجة، ولما كان (الستيد) حريصًا على مراقبتهم، فقد أطفأ الأنوار من جديد، وهكذا اختفى من أمام أعينهم. ولبعض الوقت، لم يستطع أن يعرف ما يفعلونه، وعندما ـ آخر الأمر ـ استطاع أن يراهم، كانوا يركعون من جديد. وهكذا استمروا فى "عبادته" دون توقف أو انقطاع لمدة ثلاث ساعات كاملة!

كانت قصة (الستيد) بالغة الغرابة، عن هذه المدن العجيبة وسكانها الذين يعيشون فى ليل أبدى، ولم يروا أبدًا شمسًا ولا قمرًا ولا نجومًا ولا الحياة النباتية الخضراء، ولا أى مخلوقات حيّة تتنفس الهواء الجوى، ولا يعرفون أى شىء عن النار أو أى ضوء، إلا الضوء الحيوى الذى ينبعث من بعض الكائنات الحية البحرية.

على الرغم من الأحداث المذهلة لهذه القصة التى من الصعب تصديقها، فإن بعض العلماء المرموقين ـ مثل (آدمز) و(جنكنز) ـ لا يجد فيها ما يدعو لإثارة الدهشة. وقد أبلغانى أنهما لا يجدان غرابة فى أن تعيش مخلوقات ذكية فقارية، تتنفس الغازات الذائبة فى الماء، اعتادت على درجات الحرارة المنخفضة والضغط الهائل وذلك الوزن الثقيل، إلى الحد أنها من المستحيل أن تطفو، حية أو ميتة.

ولا شك أن هذه المخلوقات التى تسكن أعماق المحيط، ترانا كائنات غريبة، اعتادت أن تسقط ميتة عبر ظلمات سمائهم المائية. ولسنا وحدنا الذين نهبط إلى عالمهم، فأحيانًا أيضًا تهوى سفننا العملاقة ومعادننا وأدواتنا، كلها تسقط كالأمطار فى أثناء الليل. وأحيانًا تقوم هذه الأشياء الغارقة بتحطيمهم، وكأنها عقاب من قوة عليا غير منظورة. لهذا يجب على المرء أن يفهم سلوكهم تجاه هبوط رجل على قيد الحياة فوق عالمهم، كما قد يفعل البدائيون عندما يهبط عليهم رائد فضاء فى زى براق.

ربما يكون (الستيد) قد حكى لضباط السفينة الحربية (تارميجان)، كل تفاصيل اثنتى عشرة الساعة التى قضاها فى

الهاوية. وقد وعدنا بأنه سوف يكتبها، ولكنه لم يفعل هذا قط. ومن ثم كان علينا أن نجمع أجزاء القصة، حسب ما يتذكرها الرائد البحرى (سيمونس) والملازم البحرى (وايبريدج) و(ستيفنس) و(ليندلى) وآخرون.

إننا نحاول أن نستكمل القصة بجمع كل هذه الأجزاء. كانت المبانى الهائلة الشبحية، والركوع والمخلوقات المنشدة برؤوسهم التى تشبه رؤوس الزواحف وأرديتهم التى تضىء فى خفوت، و(الستيد) يجلس فى داخل كرته المعدنية، وقد أطفأ الأنوار من جديد، يحاول جاهدًا أن يوصل إلى أذهانهم، أن الحبل الذى يربط الكرة المعدنية، يجب أن يقطع.

دقيقة بعد أخرى، و(الستيد) يرنو إلى ساعته، وقد رُوِّع إذ اكتشف أن مخزون الأوكسجين سوف ينفد بعد أربع ساعات فقط. لكن إنشاد المخلوقات استمر لتمجيده، ولكن خيل إليه أنها أنشودة جنازته.

ولا يستطيع (الستيد) أن يفسر كيفية تحرره، لكن يبدو أن طرف الحبل الذى كان متدليًا من الكرة، يوحى بأنه قد تمزق نتيجة احتكاكه بحافة المحراب. فجأة تدحرجت الكرة المعدنية، وهكذا بدأ فى الرحيل عن عالمهم، كمخلوق روحانى ينطلق من غلافنا الجوى عائدًا إلى عالمه الروحانى من جديد. لا ريب أن صعود الكرة المعدنية أثار دهشتهم البالغة، كما لو أن فقاعة هيدروجين تصاعدت بسرعة من غلافنا الجوى. لقد بدا لهم صعودًا غريبًا إلى المجهول!

انطلقت الكرة المعدنية إلى أعلى، بسرعة أكبر مما لو كانت محملة بأثقال الرصاص، ولكن ازدادت درجة حرارة الكرة بأكثر مما هو مقدر لها. ويذكر السيد (الستيد) أنه كان هناك تيار صاخب ومضطرب ومتدفق بسرعة من الفقاقيع، خلف زجاج النافذة. وتوقع أن تتوقف هذه الفقاقيع فى أسرع وقت. وفجأة أحس كأن عجلة هائلة فى داخل رأسه، وبدأت الحجرة المبطنة تدور من حوله، ثم أُغشى عليه. وعندما عاد إليه وعيه، كان فى قمرته والطبيب يتحدث إليه.

كانت هذه هى القصة بالغة الغرابة التى حكاها (الستيد) لضباط السفينة الحربية (تارميجان). وعد بأن يكتبها فى تاريخ لاحق، وكان مشغولاً للغاية، بإدخال بعض التعديلات على الكرة المعدنية، وتم هذا فى (ريو).

ولم يبق إلا أن نقول: إنه فى ٢ فبراير ١٨٩٦، قام (الستيد) بمحاولته الثانية للهبوط فى هاوية المحيط، بعدما أجرى تعديلات وجد أنها ضرورية بعد رحلته الأولى، أما ما الذى حدث بعد هذا، فإننا ربما لن نعرفه على الإطلاق، إذ إنه لم يعد أبدًا.

وظلت السفينة (تارميجان) تبحث عنه فى المكان الذى غطس فيه وفى المنطقة كلها، لمدة ثلاثة عشر يومًا، ولكن بلا جدوى. ومن ثم عادت إلى (ريو). وأرسلت برقيات إلى أصدقائه لإبلاغهم بهذا الأمر. وهكذا ينتهى الموضوع ولكن من الصعب التكهن، بأنه لن تجرى محاولات أخرى جديدة، للتحقق من هذه القصة بالغة الغرابة، والبحث عن تلك المدن العجيبة المشيدة فى أعماق المحيط.

التفاحة

قطع الرجل القابع فى ركن العربة الصمت فجأة بقوله: "يجب أن أتخلص منها".

رفع السيد (هنشكليف) بصره، وسمع الصوت كأنه صادر من بعيد.. كان سارحًا فى تأمل قبعة الكلية المربوطة بخيط فى مقبضى حقيبة سفره، وهى الدليل الواضح الخارجى لوظيفته التعليمية الجديدة، وفى تقدير قيمة قبعة الكلية والتوقعات السارة التى تثيرها فى مستقبل أيامه.. وكان السيد (هنشكليف) قُبل لتوه من جامعة لندن، وهو الآن فى طريقه للعمل مساعدًا مبتدئًا بمدرسة "هولموود" الثانوية، وهى وظيفة مرموقة للغاية.. وحدق فى زميله المسافر القابع فى الجانب الآخر من العربة..

قال هذا الشخص: "ولماذا لا تتخلص منها! هيا يا رجل ألقها.. أليس هذا ما تريد؟".

كان رجلاً فارع الطول داكن اللون، لفحت الشمس بشرته وشحب وجهه.. ذراعاه منطبقتان بقوة، وقدماه ترتكزان على المقعد الذى

أمامه.. وعادة يشد شعرات شاربه الأسود الهزيل.. وفجأة حدق بشدة فى أصابع قدميه.. وقال: "نعم، ولِمَ لا؟".

سعل السيد (هنشكليف).. وبعدها رفع الغريب عينيه السوداوين المتطفلتين وحدق بحيرة فى السيد (هنشكليف) برهة من الوقت. وبدأ وجهه يعبّر عن الاهتمام.. ثم قال ببطء:

- "نعم.. ولم لا؟.. يجب أن ينتهى كل هذا".

سعل السيد (هنشكليف) مرة أخرى وسأله: "إننى لا أستطيع أن أفهمك.. كما أشعر بالخوف".

ردد الغريب تلك الكلمات آليا: "أنت لا تستطيع أن تفهمنى؟".. فى حين انتقل بصره من السيد (هنشكليف) إلى الحقيبة ذات القبعة المعروضة بتباه ثم إلى وجه (هنشكليف) الهادئ.. الذى قال معتذرًا له:

- "إنك غامض بشكل ما، أليس كذلك؟".

قال الغريب وهو متابع لأفكاره: "ولِمَ لا؟..." ثم قال مخاطبًا السيد (هنشكليف) "إنك طالب، هيه؟".

أجاب السيد (هنشكليف) بفخر واضح وهو يحس بالضيق من رابطة عنقه "أنا.. طالب بالمراسلة.. بجامعة لندن". قال الغريب: "طلبًا للعلم والمعرفة"، وفجأة رفع قدميه من على المقعد ووضع قبضته على ركبتيه وحدق بشدة فى السيد (هنشكليف) كما لو لم ير طالبًا قط من قبل.. ثم قال: "نعم" وطوّح بإصبع سبابته إلى الأمام.. ثم وقف وأخذ حقيبته من حامل القبعات وفتحها.. وفى

صمت أخرج منها شيئًا مدوّرًا وملفوفًا فى عدد من الأوراق الفضية، ثم فكه بعناية.. وأخرجه فى مواجهة السيد (هنشكليف).. ثمرة صغيرة ملساء لونها أصفر ذهبى. انفتح فم (هنشكليف).. وتسمرت عيناه على هذا الجسم من فرط الدهشة.. ولم يحاول أن يأخذ هذا الشىء، لو افترضنا أصلاً أنه يمكن أخذه!

قال الغريب الأحمق ببطء شديد: "هذه.. تفاحة (شجرة المعرفة).. انظر إليها.. إنها صغيرة لامعة ورائعة.. نعم المعرفة.. وأنا سوف أعطيها لك".

دارت الأفكار كالدوّامة فى ذهن السيد (هنشكليف) لمدة دقيقة حتى برق فى عقله التفسير الكافى: "مجنون!".. نعم لابد أن ذلك يوضح الموقف برمته.. "رجل معتوه ساخر"!.. ثم حرك رأسه قليلاً إلى أحد الأجناب.

وقال السيد (هنشكليف) وهو يرمق التفاحة باهتمام مصطنع ماكر: "تفاحة شجرة المعرفة.. آه ها!".. ثم وجه بصره إلى محاوره: "لكن ألا تريد أن تأكلها بنفسك؟.. وبالمناسبة، كيف حصلت عليها؟".

"إنها لا تتلف قط.. لقد حصلت عليها منذ ثلاثة شهور، وما زالت براقة وملساء ناضجة ومغرية كما تراها". ووضع يده على ركبته ونظر إلى ثمرة الفاكهة بإعجاب.. ثم بدأ يلفها من جديد فى الأوراق، كما لو أنه تخلى تمامًا عن فكره إعطائها لأحد.

قال السيد (هنشكليف) وهو يتخذ جانبه من النقاش والحوار: "لكن من أين حصلت عليها يا رجل؟ وكيف تعرف أنها تفاحة شجرة

المعرفة؟ إن الأمر يستحق سماعه.. أليس كذلك؟" قال الغريب "لقد حصلت على هذه التفاحة منذ ثلاثة شهور مضت مقابل شربة ماء وكسرة خبز!.. الرجل الأرمنى الذى أبقيت على حياته بهذه المساعدة المتواضعة هو الذى منحنى إياها.. أرمينى! تلك البلاد الرائعة!.. أول بلد انطمرت فيه سفينة نوح وقت الفيضان الرهيب وسط الأنهار الجليدية بجبل "أرارات"، وما زالت قابعة هنالك حتى الآن. وهذا الرجل رأيته يهرب مع آخرين من الأكراد الذين انقضوا عليهم فجأة، ثم اتجهوا إلى أماكن عالية منعزلة وسط الجبال.. أماكن لا يعرفها معظم الناس.. وفى مسيرتهم للهرب من الخطر المحدق بهم، وصلوا إلى منحدر عال، وسط قمم الجبال، تكسوه النباتات الخضراء ذات الأوراق الحادة كالسكاكين، التى جرحت وقطعت بلا رحمة فى أجساد كل من حاول اختراقها.. كان الأكراد يطاردونهم بلا هوادة عن كثب.. ولم يكن بوسعهم سوى اختراق تلك الأشجار الخطرة، وكان ثمن ذلك الدماء التى سالت منهم وهم يشقون طرقًا لهم خلالها، والتى استفاد منها الأكراد فى اقتفاء أثرهم. وقُتِل جميع الهاربين باستثناء الرجل الأرمنى ورجل آخر معه.. وسمع صيحات زملائه الفارين وصرخاتهم وحفيف أوراق الأشجار حول أولئك الذين يطاردونهم.. كانت النباتات والأشجار طويلة تكاد تحسبها بلغت عنان السماء.. وسمع صيحات والرد عليها.. وعندما توقف برهة، لم يجد حوله سوى الهدوء التام المحفوف بالخطر الداهم.

واصل تقدمه لفترة وهو لا يعى ما يحدث.. وجسمه يدمى من الجروح، حتى وصل إلى منحدر صخرى وعر أسفل هوة عميقة..

ولدهشته وجد أن النباتات والأعشاب تحترق، ويتصاعد منها الدخان بحيث يشكل ساترًا بينه وبين أعدائه.. يا لحظه الرائع!

توقف الغريب عن الحديث، فقال السيد (هنشكليف) "نعم؟ وماذا بعد؟".

- كان يقف هناك.. ممزق الثياب وجسده مثخن بالجراح ودمه ينزف بسبب الأوراق الحادة جدًا للأعشاب.. والصخور تلمع تحت لهيب شمس ما بعد الظهيرة بلون النحاس المتوهج المصهور.. والدخان المتصاعد من الحريق يلفه من جميع الجهات. لم يجرؤ على البقاء فى هذا المكان.. لم يكن يخشى الموت وإنما العذاب الوحشى! وبعيدًا عن الدخان سمع صيحات وصرخات.. نساء يصرخن.. فأخذ يتسلق ممرًا ضيقًا بين الصخور.. وفى كل مكان حوله كانت تنمو أحراش ذات أغصان جافة تختفى كأشواك خطرة بين أوراق الأشجار.. حتى تمكن من الصعود فوق حافة سلسلة جبلية تمكّن من الاختفاء خلفها..

عندئذ قابل رفيقه الراعى الذى تمكن من الهرب مثله.. ولأنهما كانا مقتنعين بأن البرد القارس والجوع الشديد والعطش القوى لا شىء مقارنة بالأكراد الوحشيين، فقد واصلا طريقهما إلى أعالى الجبال، وسط الصخور والأحراش والثلوج.. وهاما على وجهيهما طوال ثلاثة أيام.

"فى اليوم الثالث جاءت الرؤيا.. وأعتقد أن الناس الجوعى عادة ما يرون تلك الرؤى!.. ثم جاءت تلك التفاحة". ورفع الكرة الملفوفة فى يده وأردف: "وسمعت ذلك أيضًا من بعض متسلقى الجبال

الذين لديهم بعض العلم بالأسطورة.. كان الوقت مساء، والنجوم يزداد عددها.. عندما هبطا من على منحدر من الصخور الملساء إلى واد مظلم واسع تحفّه أشجار غريبة ملتوية.. وفى تلك الأشجار تتدلى كريات مثل أضواء مدورة غريبة متوهجة بلون أصفر يأسر الأبصار"..

"فجأة أضاء هذا الوادى من بعيد.. من على مسافة عدة كيلو مترات بضوء ذهبى يسير حثيثًا باتجاه عرضى.. جعل الأشجار المتفرقة التى أمامها تبدو سوداء كالليل، وأحالت لون المنحدرات التى من حولهما وجسميهما إلى اللون الذهبى الملتهب.. وعند تلك الرؤيا علما ـ من واقع معرفتهما بأساطير الجبال ـ على الفور أن ما رأياه كان (جنة عدن) أو حراس جنة عدن.. وسقطا على وجهيهما كالصريعين..

عندما جرؤا على النظر إلى الوادى مرة أخرى.. لم يجدا سوى الظلام الحالك.. ثم فجأة عاد الضوء من جديد.. ضوء كهرمانى نارى..

"فى تلك اللحظة هبّ الراعى واقفًا على قدميه.. وجرى وهو يصيح تجاه ذلك الضوء.. لكن الرجل الآخر كان خائفًا جدًا ولم يتبعه.. وقف مصعوقًا ومندهشًا ومروّعًا وهو يراقب زميله وهو يدنو من الوهج المتحرك.. ولكن قبل أن يتحرك الراعى لمسافة كبيرة دوى صوت كالرعد.. خفقات من أجنحة خفية تنطلق فى فضاء الوادى. وشعر الرجل بخوف هائل.. وعندئذ استدار الرجل الذى أعطانى التفاحة ـ ولعله كان مضطرًا للهرب ـ ثم انطلق وهو لا يلوى على شىء صاعدًا فوق المنحدر مرة أخرى وتطارده ضوضاء منطلقة

بقوة.. ولم يلبث أن تعثر فى إحدى تلك الشجيرات المتفرقة.. ووجد فى يده إحدى ثمارها الناضجة.. هذه التفاحة!.. وفى الحال دمدمت الأجنحة والرعد من فوقه.. سقط مغشيًا عليه.. وعندما أفاق وجد نفسه جاثمًا وسط الأنقاض المظلمة لقريته، وأنا وبعض الناس من حوله نعتنى بجراحه.. هل ترى أن هذه مجرد رؤيا؟.. لكن التفاحة الذهبية للشجرة كانت فى يده القابضة عليها بقوة.. وكان الآخرون يعرفون الأسطورة.. يعرفون ما هى تلك الثمرة الغريبة". وتريث برهة ثم أردف: "وها هى التفاحة يا صديقى".

كانت هذه أعجب القصص التى يمكن أن يسمعها المرء فى إحدى عربات الدرجة الثالثة بقطارات "سوزكسى".. ويبدو أن الحقيقة مجرد ستار يفصلنا عن الخيال.. وها هو الخيال ينكشف الآن.. ولم يستطع (هنشكليف) أن يقول سوى: "أهى هذه؟".

أجاب الغريب: "الأسطورة تقول: إن تلك الأحراش من الأشجار المتفرقة التى تنمو فى الحديقة جاءت كلها من التفاحة التى أمسك بها آدم فى يده عندما طُرد هو وحواء من الجنة.. ثم أحس بشىء فى يده، ورأى التفاحة التى أكل نصفها هو وحواء، ولم يلبث أن طوحها بلا مبالاة.. وهناك نمت الأشجار فى هذا الوادى المقفر الذى يحيط به الجليد الدائم من كل جانب.. حيث تحميها السيوف النارية حتى يوم القيامة".

قال (هنشكليف): "لكننى اعتقدت أن هذه الأشياء". وتريث قليلاً ثم استطرد: "مجرد خرافات أو حكايات وأمثال رمزية.. والآن هل تريد أن تخبرنى أن هناك فى أرمينيا....".

أجاب الغريب عن السؤال غير المكتمل بأن فتح يده والتفاحة ساكنة بداخلها.

قال (هنشكليف): "لكنك لا تعرف أن هذه هى بالتحديد ثمرة من شجرة المعرفة.. الرجل الذى أعطاها لك ربما تعرض لوهم أو سراب أو خيال.. افترض أن ....".

قال الغريب مرة أخرى: "انظر جيدًا إليها".

كانت بالتأكيد كرة غريبة الشكل.. لكن (هنشكليف) رأى أنها ليست تفاحة بالضبط.. لونها ذهبى متألق عجيب كأن الضوء ذاته كامن فى مادتها.. وبينما هو ينظر إليها بإمعان، بدأ يرى السيوف النارية الحارسة والأحداث الموغلة فى القدم التى سمعها لتوه.. وحك عينيه بمفصل إصبعه وقال "لكن...".

ـ "لا تنسَ أنها ظلت هكذا ملساء كاملة طوال ثلاثة شهور وبضعة أيام.. لم يحدث لها أى جفاف ولا ذبول ولا تغضن ولا تعفن".

قال السيد (هنشكليف): "لكن هل أنت نفسك تؤمن حقيقة أن....".

– "قلت لك يا صديقى: إنها التفاحة المحرمة ذاتها.. صدقنى".

لم يكن هناك أدنى شك فى جدية الرجل والصدق الجلىّ من أسلوبه.. وأردف الرجل: "إنها تفاحة شجرة المعرفة".

قال (هنشكليف) بعد فترة من الصمت وهو يحدق فى التفاحة: "ولنفترض أنها كانت كذلك.. لكن على أية حال فهى ليست نوع المعرفة الذى يعنينى.. أقصد أن آدم وحواء أكلا التفاحة بالفعل".

قال الغريب: "إننا ورثنا أخطاءهما وليس معرفتهما.. إن هذا سوف يوضح كل شىء تمامًا.. يجب أن نمعن التفكير فى كل شىء وخلال كل شىء.. يجب أن نبحث عن أدق المعانى...".

قاطعه (هنشكليف) فى هدوء وكأن وحيًا هبط عليه لتوه: "ولماذا لا تأكلها بنفسك إذن؟".

قال الغريب: "لقد أخذتها وفى نيتى أن آكلها.. لقد هبط الإنسان بأكلها من الجنة.. ومجرد أكلها مرة ثانية ربما.....".

قال (هنشكليف): "ولكن المعرفة قوة.. أليس كذلك؟".

- "نعم هذا صحيح. لكن هل هى السعادة؟ إننى أكبر منك سنًا.. بل أكثر من ضعف عمرك.. مرة بعد أخرى أمسكت بهذه فى يدى، لكن شجاعتى خانتنى عندما فكرت فى كل ما يمكن لى معرفته.. هذا الصفاء أو النقاء الرهيب.. لتفترض مثلاً أن العالم بأسره أصبح جليًا لك بغتة بلا رحمة؟".

قال (هنشكليف): "أعتقد أنه على وجه العموم، سوف يكون ذلك مفيدًا جدًا!".

- "لكن افترض أنك غصت فى قلب كل إنسان من حولك وعقله.. وتمكنت من سبر غورهم وكشف خفايا أعماقهم.. وذلك لكل من تحبهم وتقدر حبهم كثيرًا".

هزت تلك الفكرة (هنشكليف) وبادر قائلاً: "وسوف تكتشف فورًا الغش والخداع والنصب فى كل مَنْ حولك".

- "بل وما هو أسوأ من ذلك.. سوف تعرف نفسك ذاتها عارية من كل الادعاءات والمزاعم.. سوف ترى نفسك كما هى على

حقيقتها.. كل غرائزك ونوازعك ونقاط ضعفك التى حالت دون قيامك بما يجب.. ولن يرحمك أحد".

- "لعل ذلك يكون شيئًا رائعًا أيضًا.. أن تعرف نفسك.. أليس ذلك رائعًا؟".

قال الغريب: "إنك ما زلت شابًا ولم تفهم الحياة ولا البشر".

- "وإذا كنت لا تهتم بأكلها وترى أنها تضايقك هكذا.. فلماذا لا تلقى بها بعيدًا عنك وترتاح؟".

- "هنا أيضًا فى هذه النقطة ربما لن تفهمنى.. بالنسبة لى أنا، كيف أرمى شيئًا متألقًا متلألئًا رائعًا كهذا؟".

بمجرد أن يحصل المرء على هذا الشىء، يجد نفسه مقيدًا أو مكبل اليدين. لكن من ناحية أخرى فإن إعطاءها لشخص ما يتوق إلى المعرفة أو لا يرى غضاضة فى فكرة اكتساب هذه المعرفة الخالصة الشاملة...".

قال (هنشكليف) وهو مستغرق فى التفكير: "طبعًا، طبعًا.. ربما تكون ثمرة سامة أو مدمرة نوعًا ما".

عندئذ أبصرت عيناه شيئًا ساكنًا.. آخر جزء من لوحة بيضاء مكتوبًا عليها بحروف سوداء خارج نافذة عربة القطار.. "هولم وود". حدق فيها بتشنج.. ثم هتف (هنشكليف): "يا إلهى!.. هولم وود!"..

ومحت تلك اللحظة الواقعية كل التداعيات الخفيّة التى كانت جاثمة على صدره.

بعد لحظة كان يفتح باب العربة وحقيبة السفر بيده.. كان حارس المحطة ما زال يرفرف الراية الخضراء للقطار.. وثب السيد (هنشكليف) على رصيف المحطة.. ثم سمع صوتًا جهوريًا من خلفه يقول: "ها هى!".. التفت ورأى العينين السوداوين للغريب تلمعان، والتفاحة الذهبية الساطعة الصغيرة تنطلق خارجة من باب العربة. التقطها لا إراديًا فى حين كان القطار قد شرع بالفعل فى التحرك.

صاح الغريب: "لا!".. وحرك يده حركة انقضاضية كما لو كان يريد استرداد هديته.

صاح حمال ريفى قائلاً: "ابتعد" وهو ينطلق للأمام لكى يقفل باب العربة.. وصاح الغريب قائلاً شيئًا ما لم يسمعه (هنشكليف)، ورأسه وذراعاه مندفعتان خارج النافذة.. ثم سقط عليه ظل الجسر ثم اختفى بلمح البصر.. ووقف (هنشكليف) مندهشًا ومحدقًا فى نهاية العربة الأخيرة وهى تبتعد عند الملف البعيد، وهو ممسك بيده التفاحة العجيبة، وتشتت ذهنه جزءًا من دقيقة، ثم لم يلبث أن أدرك أن اثنين أو ثلاثة أشخاص على رصيف المحطة يرقبونه باهتمام.. أليس هو المدير الجديد للمدرسة الثانوية قد حضر لتوه؟. وخطر على باله أنهم سيظنون أن التفاحة ما هى إلا برتقالة عادية طازجة.. تورد وجهه من تلك الفكرة، وأسرع بدسها فى جيبه الجانبى حيث برزت للخارج بشكل غير جميل.. ولم يكن بيده حيلة، لذلك اتجه صوبهم وهو يحاول أن يخفى إحساسه بالارتباك، لكى يسأل عن الطريق إلى المدرسة الثانوية، وعن كيفية نقل حقيبة السفر الكبيرة والصندوقين الموضوعين على الرصيف هناك.

ووجد أنه من الممكن نقل متاعه على شاحنة مقابل 6 بنسات، أما هو فيمكنه الذهاب راجلاً. ولاحظ لهجة ساخرة فى أصواتهم، ولم يتعجب لأنه كان يعلم أن شكله الجانبى ليس جميلاً.

استمرت أفكار (هنشكليف) مشغولة بعض الوقت بالجدية الغريبة للرجل الذى رافقه فى القطار وبالقصة الساحرة التى رواها له.. وعبرت تلك الأحداث كستار من الضباب يغلف اهتماماته الحالية.. أو كنيران تنطلق ثم تنطفئ.. إلا أن انشغاله بوظيفته الجديدة والانطباع الذى كان يريد أن يتركه لدى قرية "هولم وود" بصفة عامة، وقوم المدرسة الثانوية بصفة خاصة، أكسبته نشاطًا وحماسًا قبل أن يغادر المحطة وبددت من ذهنه كل الأفكار التى جثمت عليه. لكن من الغريب حقًا أن يؤدى وجود تفاحة ذهبية ملساء ولامعة ولا يزيد قطرها على ثلاث بوصات، إلى جعل مظهر شاب حساس غير مناسب بالمرة للموقف الحالى له.. فقد كانت بارزة بشكل سيئ من جيب سترته السوداء وأفسدت شكله العام تمامًا.

مر بسيدة عجوز قصيرة ترتدى ملابس سوداء وشعر بأن عينيها أخذت تركز ـ فورًا ـ على هذا البروز.. وكان لابسًا قفازًا واحدًا ويحمل الثانى مع عصاه.. ولذلك كان من المستحيل أن يمسك التفاحة بشكل يراه الجميع.

وفى مكان ما من الطريق المؤدى إلى القرية غير المطروق تقريبًا، أخرج التفاحة من جيبه ووضعها داخل قبعته.. لكنها كانت أكبر من اللازم مما جعل القبعة تتمايل بشكل مضحك.. وبينما كان يمد يده

ليأخذها من جديد.. ظهر صبى الجزار وهو منطلق بسيارته من ملف الطريق، وصاح السيد (هنشكليف): "اللعنة!".

كان بإمكانه أكل ذلك الشىء ليحصل على المعرفة الشاملة بكل شئ على الفور، لكن منظره كان سيصير مضحكًا لو دلف إلى القرية، وهو يلتهم تفاحة لحيمة بها الكثير من العصير. وإذا دنا منه أحد الصبية، فقد يسبب له أذى كبيرًا عندما يراه فى مثل هذا الوضع السيئ.. كما أن العصير قد يلطخ وجهه وربما أيضًا أطراف كميه .. وربما يكون العصير حمضيًا وقويًا مثل الليمون بحيث يطمس الألوان من ردائه.

ومن منعطف الطريق خرجت فتاتان رقيقتان تسقط عليهما أشعة الشمس.. كانتا تسيران بمَهَل باتجاه القرية وتثرثران.. وفى أى لحظة قد تلتفان وتريان شابًا متورد الوجنتين يسير خلفهما حاملاً نوعًا من الطماطم الصفراء المضيئة!.. لا شك أن ذلك سيكون مدعاة لضحكهما.

صاح السيد (هنشكليف): "اللعنة"! وبحركة سريعة طوّح التفاحة المربكة بقوة فوق الحائط الصخرى لبستان بارز على الطريق.. وعندما اختفت عن ناظريه، شعر بغصة فى حلقه لفقدها للحظة.. ثم عدل عصاه وقفازه فى يده وواصل سيره منتصبًا وواثقًا من نفسه وتجاوز الفتاتين.

لكن فى ظلام تلك الليلة حلم السيد (هنشكليف) حلمًا رأى فيه واديًا وسيوفًا نارية وأشجارًا ملتفة.. وأدرك فعلاً أن التى ألقاها بلا مبالاة فى الطريق كانت تفاحة شجرة المعرفة.. واستيقظ من نومه

قلقًا ومضطربًا. وفى الصباح انتهى ندمه، لكنه عاد بعد ذلك وضايقه.. لكن ليس وهو سعيد أو مشغول فى العمل.. وأخيرًا فى إحدى الليالى القمرية حوالى الساعة الحادية عشرة عندما أسدل السكون ستائره على قرية "هولم وود"، عاد إليه ندمه وأسفه لكن بقوة مضاعفة وصاحبه شعور بهاجس يدفعه إلى المغامرة. فتسلل من المنزل فى هدوء وتسلق جدار الملعب وسار فى سكون مخترقًا القرية الوادعة الساكنة حتى وصل إلى قرب محطة القطار. وهناك تسلق الجدار ووثب إلى داخل البستان الذى ألقى التفاحة فيه. لكنه لم يجد أى شىء وسط النباتات والأعشاب المرطبة بالندى وثمار "الهندباء" البرية الكروية الشكل المتساقطة فى كل مكان.

أثناء العملية الجراحية

"وماذا يحدث لو مت خلالها؟".. خطرت هذه الفكرة على ذهنى مرارًا وتكرارًا وأنا أسير من منزل (هادون).. ولم يكن ذلك إلا سؤالاً مجردًا.. وكنت خاليًا من الهموم والتوترات الشديدة التى تنتاب الرجل المتزوج.. وكنت أعلم أن القليل فقط من أصدقائى المقربين هم الذين سيجدون وفاتى مرهقة لهم أساسًا بسبب واجب تقديم العزاء. ولقد شعرت بالدهشة فعلاً وربما بقليل من الامتهان عندما قلبت الأمر على أوجهه كافة وخلصت إلى أن القليل فقط منهم هو الذى سوف يفى بما يزيد على التوقعات التقليدية فى مثل تلك الأحوال.

بدت لى الأشياء على حقيقتها مجردة من كل الزخارف، وواضحة تمامًا فى أثناء مسيرتى من منزل (هادون) متجهًا إلى (برمورس هيل). كان هناك أصدقاء شبابى.. وأعتقد الآن أن عواطفنا كانت تقليدًا، تكاتفنا جميعًا باهتمام ومتابعة للحفاظ عليه.. وفى مهنتى الأخيرة كان هناك المنافسون والمساعدون.. وأظن أننى كنت متبلد الشعور أو متحفظًا فى التعبير عن عواطفى

وأحاسيسى.. وأظن أن كليهما ينطوى على الآخر.. ويبدو لى أنه حتى القدرة على الصداقة هى أمر مرتبط بالقوة البدنية، ولقد كانت هناك أوقات فى حياتى حزنت فيها بشدة على خسارة صديق.. ولكن فى أثناء سيرى إلى منزلى عصر ذلك اليوم كان الجانب العاطفى من خيالى هاجعًا.. لم يكن بإمكانى أن أشعر بالأسى لنفسى أو لأحد من أصدقائى ولا حتى أن أتصور حزنهم علىّ.

كنت مهتمًا بهذا التبلد الطبيعى فى أحاسيسى باعتباره بلا شك ملازمًا لطبيعة وظائف أعضائى الراكدة.. واتجهت أفكارى باتجاه الخط الذى يوحى به.. ومرة واحدة من قبل أيام شبابى الغض تعرضت فجأة لفقدان بعض دمى وكنت قاب قوسين أو أدنى من الموت.. وأتذكر الآن أن صفاتى وانفعالاتى تبددت وتسربت منى، ولم تترك لى سوى التكيف الهادئ مع الظروف، أو التبعية الباقية من الإشفاق على الذات، ومرت أسابيع وأسابيع قبل أن تعود إلىّ طموحاتى القديمة وأحاسيسى وانفعالاتى وكل التفاعلات المعنوية المركبة للإنسان.

الآن ليس فى جسدى دم مرة أخرى، ويتم تغذيتى طبيًا منذ أسبوع أو أكثر.. لم أكن حتى جائعًا.. وجال بخاطرى أن المعنى الحقيقى لهذا الخمول وفقدان الحس هو الانسحاب التدريجى من ألم المتعة الذى يشعر به الإنسان الحيوانى الشهوانى.. لقد ثبت بالفعل ـ وأنا أثق فى ذلك ـ مثلما يمكن إثبات أى شىء فى هذا العالم أن الأحاسيس العليا والعواطف المعنوية وحتى حنان الحب

ورقته تنبثق كلها من الرغبات والمخاوف الجوهرية للحيوان العادى.. إنها الإطار الذى تظهر من خلاله الحرية العقلية للإنسان.. ولأن الموت يلقى بظلاله علينا كما أن إمكانية تصرفنا تقِل، فلعل هذا النمو المعقد للدوافع المتوازنة وأيضًا الميول والنفور المتوازنة، التى تحفز تفاعلاتها - بعضها مع بعض - سلوكياتنا، يظهر أيضًا من خلاله.. تُرى هل نسيت شيئًا؟

وفجأة عدت إلى الواقع بسبب الاصطدام الذى كاد يحدث مع صينية لصبى جزار.. كنت أعبر الجسر فوق قناة حديقة (ريجنت بارك) التى تمتد فى اتجاه موازٍ لها بحديقة الحيوان. وكان الصبى الذى يرتدى ملابس زرقاء ينظر من فوق كتفه عبر الجسر.. كانت الأشجار خضراء زاهية اللون.. والربيع الذى يبشر بالأمل ما زال بعيدًا عن التلوث بغبار الصيف وأتربته.. والسماء صافية ومشرقة.. والمياه هادئة ولكن تتخللها أمواج طويلة فى خطوط سوداء مهتزة فى حين شق زورق طريقه خلالها.. كان النسيم يهب بقوة، لكن ليس بقوة نسمات الربيع المعتادة.

ترى هل كان ذلك الخمول فى الأحاسيس مجرد توقع للأحداث؟.. كانت رباطة الجأش وليس تبلد الإحساس هى المسيطرة علىّ.. فهل كان هناك أى مبرر للاعتقاد بالموت فى الوقت الحالى؟.. وهل الرجل الذى أوشك على الموت يسحب نفسه غريزيًا أو تلقائيًا من تشابكات الأمور والأحداث، حتى قبل أن تمتد إليه يد الموت؟.. لقد شعرت بأننى معزول بشكل غريب.. معزول بلا ندم عن الحياة وكل أشكال الوجود حولى.. الأطفال الذين يلعبون فى ضوء

الشمس ويكتسبون القوة وخبرة الحياة، وحارس الحديقة الذى يثرثر مع إحدى الممرضات، و«الأم المرضع، والفتى والفتاة اللذان يحب بعضهما بعضًا وهما يمران بجوارى، والأشجار المتراصة على جانبى الطريق وتنتشر منها الأفرع والأغصان المورقة فى ضوء الشمس، وحركة تلك الأغصان يمنة ويسرة.. كل هؤلاء وأولئك كنت جزءًا منهم.. لكننى على أية حال فرغت من كل ذلك الآن.

وبعدما قطعت شوطًا عن طريق (برودووك)، أحسست بالتعب وبأن قدمىّ ثقيلتان. كان الجو حارًا عصر ذلك اليوم، فاستدرت وجلست على أحد المقاعد الخضراء التى تصطف على جانبى الطريق. وخلال دقيقة واحدة غفوت قليلاً وحلمت حلمًا، وغسل فيضان أفكارى رؤيا البعث بعد الموت.

كنت لا أزال قابعًا على المقعد، لكننى اعتقدت أننى مت فعلاً وذبلت جثتى وبليت وجفت ونقرتها الطيور "كما رأيت" إحدى عينىّ.. ثم دوى صوت "استيقظ!"، وعندئذ ثارت زوبعة شديدة من الغبار الذى يغطى الممر والفطريات التى تحت الأعشاب.. ولم أفكر قط من قبل فى أن حديقة (ريجنت بارك) يمكن أن تتحول إلى مقبرة، لكن الآن وسط كل تلك الأشجار التى تمتد إلى أى مسافات تراها العين.. وشاهدت سهلاً منبسطًا من الكروم المتموجة وشواهد القبور المائلة.

لكن بدا لى أن هناك مشكلة ما، هى أن الموتى الصاعدين كانوا يتدافعون إلى الخارج بشق الأنفس.. ونزفت دماء بعضهم أثناء الشجار.. وتمزق اللحم الأحمر بعيدًا عن العظام البيضاء.. ونادى

صوت ما "استيقظ!" .. لكننى صممت ألا أستيقظ وأصعد إلى تلك الأهوال. وسمعت الصوت من جديد "استيقظ!" .. إنهم لن يتركونى بمفردى.. ومرة أخرى "استيقظ يا هذا!". ولكن هذه المرة بصوت غاضب.. إنه ملاك من (لندن)!.. وكان الرجل الذى يبيع التذاكر يهزنى ويطلب منى بنسًا ثمنًا للتذكرة.

دفعت البنس المطلوب وأخذت تذكرتى فى جيبى.. ثم تثاءبت وفردت ساقىّ، وشعرت الآن بأننى أقل حذرًا.. ونهضت وسرت باتجاه قصر (لانجهام).. لكننى لم ألبث أن فقدت نفسى مرة أخرى وسط متاهة متقلبة من الأفكار عن الموت. وعبرت شارع (مارى ليبون) عند الهلال الموجود فى نهاية قصر (لانجهام).. ونجوت بأعجوبة من عرش عربة أجرة.. وواصلت سيرى وقلبى يدق بقوة وكتفى به كدمة من الارتطام.. وخطر ببالى أنه سيكون عجيبًا جدًا لو أن استغراقى فى فكرة موتى غدًا أدى إلى موتى فعلاً فى ذلك اليوم.

غير أننى لا أريد أن أثقل عليك بذكر المزيد مما حدث لى فى ذلك اليوم واليوم التالى له.. وعرفت أكثر من ذى قبل أننى سوف أموت فى أثناء العملية الجراحية.. وأعتقد أنه فى بعض الأوقات أردت أن أخلو بنفسى، وفى المنزل، وجدت كل شىء مرتبًا. غرفتى نظيفة وخالية من الأشياء التى لا حاجة لها ومفروشة بملاءات بيضاء.. وإحدى الممرضات موجودة وتتشاجر مع مديرة منزلى.. كانتا تريدان منى أن أخلد إلى فراشى مبكرًا، وبعد مقاومة قصيرة استسلمت لرأيهما.

فى الصباح كنت أشعر بالكسل.. ورغم أننى قرأت جريدتى والخطابات التى وصلت فى الصباح الباكر، إلا أننى لم أجد أيًا منها مثيرًا للاهتمام.. وأحدها كان رسالة ودية من (أديسون) صديق الدراسة القديم يلفت فيها نظرى إلى تعارضين فى كتابى الجديد وخطأ مطبعى به.. وأخرى من (لاندجريدج) تنفس بعض الضيق والغضب بشأن (منتون). بقية الرسائل كانت خطابات عمل. وألفيت أمامى قدحًا من الشاى دون أى شىء لآكله.. وكان الألم فى جانبى يبدو شديدًا.. وكنت أعرف أن ذلك ألم وقد خفف ذلك من إحساسى، كما تعلم، بشدة الألم.

قضيت الليل بأكمله مستيقظًا ومتوترًا وعطشان، لكن فى الصباح ارتحت كثيرًا. وفى الليل تمددت وأخذت أفكر فى الأحداث الماضية من حياتى، وفى الصباح نعست قليلاً وأنا أفكر فى موضوع الخلود. وحضر (هادون) فى ميعاده بالدقيقة ومعه حقيبة سوداء أنيقة، وسرعان ما لحق به (ماوبراى).. وأقلقنى حضورهما قليلاً، وبدأت أهتم شخصيًا أكثر بما يحدث.. وحرك (هادون) منضدة صغيرة مثمنة الأضلاع ووضعها بالقرب من سريرى.. وأعطانى ظهره الأسود العريض وبدأ يخرج الأشياء من حقيبته.. وسمعت قرقعة الأدوات الحديدية بعضها فوق بعض.. ولم يكن فى الحقيقة خيالى راكدًا تمامًا.. وقلت بلهجة فظة قليلاً: "ترى هل سوف يؤذينى ذلك؟".. فأجابنى (هادون) من فوق كتفه: "مطلقًا.. سوف نخدرك.. لأن قلبك فى قوة قلب الثور".. وفى أثناء كلامه شممت نفحة عذبة نفاذة للكلوروفورم المخدّر.

مددونى وكشفوا جانبى بالقدر المناسب.. وقبل أن أدرك ما يحدث أعطونى مخدر "الكلوروفورم".. ولذعنى المخدر فى منخارَى أنفى.. كما أحسست بأننى أختنق أولاً.. كنت أعرف أننى سأموت وأن هذه هى نهاية إحساسى بالحياة.. وفجأة أحسست بأننى غير مستعد للموت.. وبأن هناك واجبًا غامضًا تجاهلته، لكننى لا أعرفه بالضبط!.. ترى ما هو الشىء الذى لم أفعله؟ لم أستطع أن أفكر فى أى شىء أفعله.. لم أجد شيئًا معقولاً لم أفعله فى حياتى.. ومع ذلك كنت أمقت الموت بشدة وأنفر منه تمامًا.. والإحساس الجثمانى به كان ثقيلاً ومؤلمًا جدًا.. بالطبع لم يكن الأطباء يعرفون أنهم سيقتلوننى.. ومن الطبيعى أننى قاومت.. ثم رقدت فى سكون وصمت تامين.. صمت رهيب وظلام حالك جثما علىّ دون سابق إنذار..

لابد أننى مررت بفترة ما، لدقائق أو لثوان، فقدت فيها الوعى تمامًا.. ثم أدركت بوضوح عقلانى أننى لم أمت بعد.. كنت لا أزال داخل جسدى، ولكن كل الأحاسيس الكثيرة التى انصبت علىّ خلالها والتى شكلت خلفية الشعور والأحاسيس تبددت وتركتنى دون أى منها. لا، ليس دونها كلها.. إذ حتى ذلك الوقت كان هناك شىء ما يشدنى إلى اللحم البائس العارى الراقد على السرير. نعم يشدنى ولكن حتى الآن بقوة لا تكفى لكى أعتبر نفسى خارجها أو مستقلاً عنها أو أكافح للتخلص منها.

لا أظن أننى رأيت شيئًا أو سمعت شيئًا.. لكننى أحسست بكل ما يحدث.. وبدا كما لو أننى سمعت ورأيت معًا!.. كان (هادون) منحنيًا

فوقى وخلفه (ماوبراى).. ومشرط كبير يقطع فى لحمى فى الجانب الذى أسفل ضلوعى. كان مثيرًا حقًا أن أرى نفسى أقطّع كالجبن، دون أى ألم مباغت أو حتى خوف أو غثيان.. كان اهتمامى يشبه إلى حد كبير شعور المرء عندما يشاهد مباراة شطرنج بين شخصين لا يعرفهما.. وكان وجه (هادون) هادئًا ويده ثابتة.. لكن أدهشنى أن أتصور أنه يحس بشك هائل فى حكمته وقدرته على إنجاز العملية بنجاح.

أدركت كذلك أفكار (ماوبراى).. فقد كان يظن أن أسلوب (هادون) يدل على أنه خبير ماهر.. وانطلقت أفكار جديدة مثل التفاعلات خلال فيض من التأملات غير ذات القيمة، وتدافعت إحداها تلو الأخرى فى بقعة صغيرة صافية من إدراكه.. ولم يتمالك نفسه فى ملاحظة (هادون) والإعجاب بحذقه وبراعته، بالرغم من حسده له ورغبته فى الانتقاص من قدره.

رأيت كبدى مكشوفًا.. وتحيرت من حالتى.. لم أشعر بأننى ميت.. لكننى كنت مختلفًا نوعًا ما عن طبيعتى.. إن الاكتئاب الذى جثم على لعام أو أكثر وأثر فى كل أفكارى وأكسبها ألوانًا معينة توارى، وبدأت أفكر دون أى درجة من درجات العواطف.. وتساءلت هل ينظر كل إنسان إلى تلك الأشياء تحت تأثير "الكلوروفوم"، ثم ينساها مرة أخرى عندما يزول عنه تأثيرها المخدر.. ليس من المناسب أن تنظر داخل رؤوس الناس ثم لا تنسى.

رغم أننى لم أعتقد أننى مت، فقد رأيت بوضوح أننى سوف أموت عما قريب.. وأعادنى ذلك إلى التأمل فى تلك الإجراءات التى

اتبعها (هادون). نظرت إلى يده ورأيته خائفًا من قطع فرع من الوريد البابى. وتشتت انتباهى من التفاصيل الجراحية إلى التغيرات التى طرأت فى ذهنه. وكان إدراكه يشبه بقعة الضوء الصغيرة المهتزة التى تقذفها مرآة "الجلفانومتر" (مكشاف التيار الكهربائى).. لقد انسابت أفكاره عندها كجدول، بعضها من خلال بؤرة لامعة ومحددة، وبعضها ظليل فى عتمة الحافة.

الآن فقط أصبح التوهج القليل ثابتًا، لكن أقل حركة من جانب (ماوبراى) أو أقل صوت من الخارج، أو حتى أقل تفاوت فى الحركة البطيئة للحم الحى الذى يقطع فيه، جعلت نقطة الضوء تهتز وتدور. وطغى انطباع بإحساس جديد من خلال تدفق الأفكار.. وياللعجب!.. إن بقعة الضوء أخذت تبتعد عنا بأسرع من سمكة مذعورة.. ومن الغريب أن تعتقد أنه على ذلك الشىء المتشنج غير المستقر تعتمد كل الحركات المعقدة للإنسان.. وأنه لذلك فى غضون الدقائق الخمس التالية توقفت حياتى على تحركاتها.. وبدأ قلق الرجل يزداد فى أثناء مزاولته لعمله.. بدا لى الموقف كما لو أن صورة صغيرة لوريد مقطوع ازدادت وضوحًا.. وجاهدت لكى أطرد من دماغه صورة أخرى لقطع يحدث قبل العلامة.. كان الرجل خائفًا.. وكان فزعه من أن يقطع قبل العلامة لا يقل عن فزعه من أن يقطع بعدها.

ثم فجأة، مثل هروب الماء من تحت بوابة "الهويس"، حدثت طفرة كبيرة فى إدراكه دفعت تلك الأفكار لكى تدور فى دوامة.. وفى نفس الوقت أدركت أن الوريد قد قطع.. ارتد إلى الوراء مطلقًا صيحة

مبحوحة.. ورأيت الدم الأرجوانى يتجمع فى كرية سريعة ثم تقاطر.. بفعل الطبيب.. وخطف المشرط الملطخ بالدم الموضوع على المنضدة المثمنة الأضلاع وفى الحال انكفأ الطبيبان فوقى لبذل محاولات سريعة وغامضة لعلاج تلك الكارثة.. ثم صاح (ماوبراى) "الثلج!" وهو يلهث.. لكننى كنت أعلم أننى مت، بالرغم من أن دمى ما زال يسرى بجسمى!..

لن أصف هنا محاولاتهما المستميتة لإنقاذى، رغم أننى أتذكر كل تفاصيلها.. كانت أحاسيسى وإدراكاتى أكثر حدة وسرعة من أى وقت مضى طوال حياتى كلها.. وانطلقت الأفكار تدور فى رأسى بسرعة مذهلة ولكن بوضوح فائق الدقة. أستطيع فقط أن أقارن وضوحها بتأثيرات جرعة معقولة من "الأفيون".. وعرفت أن كل شىء سوف ينتهى فى لحظة وعندها أتحرر تمامًا.. وعرفت أننى خالد، لكن لم أستطع أن أعرف ماذا سيحدث.. مثلاً هل أنزاح فجأة مثل نفخة أو هبة من الدخان المنطلق من ماسورة بندقية على نوع ما من جسم نصف مادى فى شكل مخفف من ذاتى المادية؟ أو أجد نفسى فجأة بين مضيفين كثيرين جدًا للموتى وأعرف العالم من حولى كسلسلة من الأوهام تتعاقب فى الذهن، كما كان يبدو دائمًا؟ أو أنساق إلى جلسة تحضير أرواح الموتى. وهناك أقوم بمحاولات حمقاء وغامضة للتأثير على وسيط أعمى جزئيًا؟

كانت تنتابنى حالة من حب الاستطلاع العقلانى، أو من التوقعات المعتمة.. وعندئذ تنبهت لضغط متزايد علىّ.. إحساس كما لو أن مغنطيسًا بشريًا ضخمًا يجذبنى لأعلى إلى خارج

جسمى.. وبدأ الضغط يزداد ويزداد.. كنت أبدو كذرة ضئيلة تقاوم قوى هائلة مؤثرة عليها.. وللحظة وجيزة مروّعة عاد إلىّ إحساسى.. ذلك الإحساس بالسقوط منكبًا على رأسى الذى يأتى إلىّ فى الكوابيس.. ولكنه متضاعفًا ألف مرة، جنبًا إلى جنب مع رعب هائل، جثما على أفكارى كوابل عنيف.. وعندئذ تزحزح الطبيبان والجسد العارى مفتوح الجانب والغرفة الصغيرة بعيدًا من تحتى، ولم تلبث أن اختفت كلها كنقطة من الرغوة تتبدد وسط دوامة.

كنت فى الهواء.. وتحت منى بمسافة قصوى الجانب الغربى من لندن يبتعد بسرعة.. ويبدو لى أننى كنت أطير بسرعة إلى أعلى.. وبينما تبتعد الأرض إلى أسفل وتتجه غربًا، مثل مشهد كامل غير متقطع، أمكننى أن أرى ـ من خلال الضباب الدخانى الكثيف المتصاعد من عدد كبير من مداخن أسطح المنازل ـ الطرق الضيقة المنقطة بالناس والمركبات، ونقطًا صغيرة للميادين، وتبدو أبراج الكنائس كأجولة بارزة من نسيج قماشى.. إلا أن هذا المشهد دار بسرعة فى أثناء دوران الأرض ذاتيًا حول محورها.. وخلال بضع ثوان (كما بدا لى) كنت فوق بقع متناثرة من القرى عند (إيلنج) وبدا نهر "التيمز" الصغير يبدو كخيط أزرق إلى الجنوب.. وتلال (شيلترن هيلز) و(نورث داونز) كحافة حوض بعيد وخفيف بسبب الضباب.. وأخذت أندفع إلى أعلى.. وفى البداية لم يكن لدىّ أدنى فكرة عما يعنيه هذا الاندفاع المباغت إلى أعلى. وفى كل لحظة كانت دائرة الرؤية تحتى تتسع أكثر فأكثر.. وبدأت تفاصيل القرى والحقول والتلال والوادى تزداد ضبابية وخفوتًا وانطماسًا..

واختلطت زرقة التلال بلون رمادى متألق أكثر فأكثر.. وبخضرة المروج الفسيحة.. ورقعة صغيرة من السحاب منخفضة وقصية إلى الغرب تلألأت بلون أبيض باهر.

وبأعلى.. حيث أخذ الحاجز الجوى بينى وبين الفضاء الخارجى يزداد رقة.. والسماء - التى كانت زرقاء صافية وقت الربيع فى البداية - ازداد لونها دكنة وعمقًا.. وتدرج لونها بثبات خلال درجات متداخلة حتى أصبحت الآن سوداء مثل سواد ما بين النجوم شديد البرودة.. وأخيرًا بسواد لم أر مثله قط.. أولا نجم واحد، ثم بعده نجوم كثيرة.. وفى النهاية انفجر عدد لا يحصى من النجوم فى السماء.. المزيد من النجوم التى لم يرها أحد من على وجه الأرض من قبل.. ذلك أن زرقة السماء هى ضوء الشمس والنجوم المنتشرة بشكل يعمى الأبصار فى أرجاء السماء، حيث ينتشر الضوء حتى فى السماوات الأكثر إعتامًا فى الشتاء.

ونحن لا نرى النجوم فى النهار فقط بسبب إشعاعات الشمس المتألقة الباهرة. لكن الآن رأيت أشياء - ولا أعرف كيف، بالتأكيد دون عينين فانيتين - ولم يعد عيب إبهار العين يعمى بصرى. كانت الشمس غريبة ورائعة بشكل فوق الوصف.. وجسمها عبارة عن قرص متلألئ وضاء بضوء أبيض باهر، وليس مائلاً إلى الصفرة كما يبدو لأولئك الذين يعيشون على الأرض.. وإنما لونها أبيض شاحب ومجزعة بخطوط قرمزية اللون، ولها حافة هدابية ذات ألسنة متمعجة من نيران حمراء.. وهناك ريشتان ذات لون أبيض فضى تنطلقان إلى نصف المسافة عبر السماوات من جانب إلى

آخر، ومضيئتان بشدة تفوق تلك التى لمجرة "الطريق اللبنى".. وتجعلان الشمس أدنى ما تكون إلى الكرات المجنحة التى رأيتها فى التماثيل المصرية أكثر من أى شىء آخر أتذكره على الأرض.. نعم أنا أعرف هذا بالنسبة للهالة الشمسية، رغم أننى لم أر قط أى شىء من قبل سوى صورة لها فى أثناء أيام حياتى الأرضية.

عندما عاد اهتمامى بالأرض مرة أخرى، وجدت أنها ابتعدت كثيرًا جدًا عنى.. الحقول والقرى اختفت معالمها منذ فترة طويلة، وكل الدرجات اللونية المتباينة للبلاد اندمجت وتكاملت فى لون رمادى زاه موحد.. لا يكسره سوى اللون الأبيض الساطع للسحب المنتشرة فى كتل ذات زغب فوق "أيرلنده" وغرب "إنجلترا". أما الآن فإننى أرى معالم كل من شمال "فرنسا" و"أيرلنده" وكل الجزيرة البريطانية، باستثناء المنطقة التى تعبر فيها "اسكتلندا" الأفق إلى الشمال.. أو حيث تطمس السحب معالم الشاطئ.. وأصبح البحر لونه رماديًا كئيبًا وأكثر قتامة من الأرض.. وكل ذلك المشهد الكامل غير المتقطع تدور ببطء نحو الشرق.

كل ذلك حدث بسرعة حتى ابتعدت عن الأرض بمسافة بضع آلاف من الأميال أو نحو ذلك.. ولم تكن لدىّ أية فكرة عن نفسى. أما الآن فأتصور أنه ليس لدىّ يدان ولا قدمان، وليس لجسمى أجزاء أو أعضاء.. ولم أعد أشعر بخطر أو ألم.. وفى كل ما حولى أحسست بأن الفراغ (ذلك أننى تركت الهواء ورائى بالفعل) بارد بشكل يفوق الوصف.. بيد أن ذلك لم يقلقنى قط.. فقد كانت أشعة الشمس تخترق الفراغ ولكن ليس لها القدرة على إضاءته أو

تسخينه حتى تجد شيئًا ماديًا ترتطم به فى طريقها. كنت أرى الأشياء بنكران ذات حقيقى، كما لو كنت أحد آلهة الأساطير!

وتوجد أسفل منى هناك بقعة صغيرة معتمة على العلامة الرمادية التى تحدد موضع "لندن" بعيدًا عنى.. حيث يكافح طبيبان لإعادة الحياة لقشرة بائسة مقطعة وبالية تركتها لديهما هنالك.. وشعرت وقتئذ بالحرية.. وبالسكون والصفاء النفسى اللذين لا أستطيع مضاهاتهما بالمسرات والملذات الفانية التى عرفتها من قبل..

وفقط عندما فهمت كل تلك الأشياء بدأ معنى الاندفاع المباغت السريع للأرض يجلو فى ذهنى.. ومع ذلك كان من البسيط والواضح جدًا أننى اندهشت لعدم توقعى للشىء الذى سيحدث لى.. لقد انقطعت تمامًا عن ماديتى وابتعدت عنها.. كل شىء مادى بالنسبة إلىّ كان هناك على الأرض يبتعد باستمرار عنى ومشدود إلى الأرض بقوة جاذبيتها ويشترك مع الأرض فى قصورها.. ويدور ضمن إكليلها الملتف حول الشمس.. كما يشترك مع الشمس والكواكب فى مسيراتها الشاسعة مخترقة الفضاء.. ولكن اللامادة ليس لها قصور، ولا تشعر بشىء من جذب المادة للمادة.. وحيثما تفارق لباسها من اللحم.. فإنها تظل هناك ساكنة فى الفضاء طالما بقيت مرتبطة به.. لم أكن أترك الأرض بل الأرض هى التى تتركنى.. وليس الأرض فقط.. وإنما المجموعة الشمسية كلها تندفع إلى بعيد.. وفى كل مكان من الفضاء تنتشر حولى، بشكل خفىّ لا أراه، فى آثار حركة الأرض فى رحلتها الدائمة حول

الشمس، ولابد أن هناك عددًا لا يحصى من الأرواح العارية مثلى من المادة ومن عواطف الإنسان ومن العواطف الثرية للحيوانات الاجتماعية.. والكائنات العاقلة العارية.. والأشياء المتعلقة بالغرائب والأفكار الحديثة.. وتتعجب كلها من التحرر الغريب أو الانطلاق الذى هبط عليها فجأة..

بينما أنا أبتعد أسرع وأسرع عن الشمس البيضاء الغريبة الجاثمة وسط السماوات السوداء.. ومن الأرض الواسعة والزاهية التى بدأ عليها وجودى.. بدا لى أننى أزداد حجمًا بطريقة لا يمكن تصديقها.. ازداد حجمًا بالنسبة للأرض التى تركتها، وبالنسبة للحظات حياة الجنس البشرى وفتراته.. قريبًا جدًا رأيت الدائرة الكاملة للأرض.. ولكن المحدبة قليلاً مثل القمر عندما يقترب من اكتمال (طور البدر) .. ولكنها كبيرة جدًا.. الآن ظهر الشكل الفضى لـ "أمريكا فى حرارة الظهيرة" حيث كانت "إنجلترا" (على ما يبدو) تستدفئ بالشمس منذ بضع دقائق..

فى البداية كانت الأرض ضخمة وتتألق فى السماء وتملأ جزءًا كبيرًا منها.. لكن فى كل لحظة كانت تزداد صغرًا وتبتعد أكثر. وبينما أخذت تتضاءل، زحف القمر العريض فى ربعه الثالث حتى ظهر تمامًا فوق حافة قرصها. ونظرت باحثًا عن الأبراج النجمية.. لم يكن مختفيًا سوى ذلك الجزء من برج "الحمل" الموجود تحت الشمس مباشرة وبرج "الأسد" الذى كشفت عنه الأرض.. وتعرفت على الشريط الممزق المتعرج لمجرتنا (الطريق اللبنى).. ونجم "النسر الواقع" يلمع بشدة بين الشمس والأرض.. وكذلك يتألق كل من "الشعرى اليمانية" و"الجوزاء" بعظمة وسط خلفية سوداء لا يمكن

سبر غورها فى الربع المقابل من السماء.. والنجم القطبى بأعلى.. و"الدب الأكبر" عالق فوق جدار الأرض..

وبعيدًا أسفل فيما وراء الهالة اللامعة للشمس توجد مجموعات غريبة من النجوم لم أرها من قبل طوال حياتى.. أهمها مجموعة تشبه الخنجر أعرف أنها "صليب الجنوب".. كل تلك النجوم لم يزدد حجمها عما كانت عليه وقت سطوعها على الأرض.. إلا أن النجوم الصغيرة التى نادرًا ما يرى المرء إشراقها تسطع الآن أمام خلفية من فضاء معتم، بشدة إضاءة من الدرجة الأولى، بينما لم تزد الكواكب الأكبر حجمًا عن كونها نقاط ذات جمال وألوان رائعة تفوق الوصف.. ورأيت نجم "الدبران" كبقعة من نار بلون الدم الأحمر.. ونجم "الشعرى اليمانية" تضاءل إلى نقطة واحدة مضيئة لعالم من الياقوت الأزرق.. كما أنهما يسطعان بثبات ولا يبرقان أو يومضان، ورائعان بثبات ودوام.

اتسمت انطباعاتى بصلابة ونقاء الماس.. لم تكن هناك أى ضبابية تضعف الرؤية أو أى جو.. لا شىء سوى ظلام تام لا نهائى مزدان بأعداد هائلة من تلك النقاط المضيئة اللامعة والبقع الضوئية.. والآن عندما أنظر مرة أخرى لا تبدو لى الأرض الصغيرة أكبر من الشمس.. وإنما يتضاءل حجمها وأنا أنظر إليها.. حتى إنها تبدو لى بعد ثوان فقط كما لو أن حجمها قد نقص إلى النصف.. وهكذا تصغر بمعدل سريع للغاية..

وبعيدًا جدًا فى الاتجاه المعاكس، يبدو هناك رأس دبوس صغير من ضوء قرنفلى اللون يسطع بثبات هو كوكب "المريخ".. وسبحت

فى سكون فى الفضاء الواسع.. ودون أى قدر من الذعر أو الدهشة، أخذت أراقب رقعة الغبار الكونى التى نسميها "عالم" وهى تبتعد عنى باستمرار..

عندئذ خطر على بالى أن تقديرى للزمن قد اختل.. وأن عقلى لا يعمل أسرع وإنما أبطأ بشكل مستمر.. لدرجة أنه بين كل فكرة أو تصور مستقل تنقضى فترة أيام.. ووجدت القمر يدور حول الأرض مرة واحدة أثناء مراقبتى له.. كما أننى راقبت حركة "المريخ" فى مداره.. وعلاوة على ذلك بدا لى أن الوقت بين كل فكرة تخطر على بالى والتالية لها يزداد أكثر فأكثر.. حتى أصبح الألف عام أخيرًا لا يزيد على لحظة فى تصورى أو إدراكى الخاص..

فى البداية سطعت الأبراج النجمية فى سكون وسط خلفية من الفضاء اللانهائى المعتم.. لكن الآن بدت لى كما لو أن مجموعات النجوم حول كوكبة "الجاثى" وكوكبة برج "العقرب" تنكمش.. فى حين أن كوكبة "الجوزاء" وكوكبة "الدبران" والنجوم المجاورة لهما تنتشر وتتسع إلى الخارج. ورأيت أعدادًا هائلة من قطع الصخور الطائرة التى تظهر فجأة من وسط الظلام وتتلألأ مثل ذرات الغبار فى أشعة الشمس.. وتكتنفها غلالات ضبابية ضعيفة التألق.. وكلها تدور حولى ثم تختفى ثانية فى طرفة عين بعيدًا فى الخلف.. ثم رأيت بقعة ضوء ساطع أضاءت قليلاً على أحد جانبى مسيرتى، وأخذت تتضخم بسرعة فائقة.. وتصورت أنها كوكب "زحل" وهو يندفع بإزائى.. وأخذ حجمه يزداد باستمرار مبتلعًا السماوات وراءه.. وفى كل لحظة يخفى عددًا جديدًا من النجوم..

اعتقدت أن هذا الجسم المضىء المندفع مسطحًا قرصىّ الشكل.. وتبينت أقماره السبعة الصغيرة. واستمر فى التضخم حتى بلغ حجمه مبلغًا هائلاً.. ثم ألفيت نفسى أندفع بين عدد كبير من الأحجار المتصادمة باستمرار وجسيمات الغبار الراقصة والدوامات الغازية.. ورأيت للحظة الحزام الثلاثى الجبار مثل ثلاثة أقواس من ضوء القمر متحدة المركز فوقى، وظلالها السوداء جاثمة على الاضطراب الهائج أسفل منى.. وحدثت تلك الأشياء بسرعة خارقة تعادل عشر الوقت الذى تعبِّر فيه عنها. ومر الكوكب بجوارى كومضة برق.. ولبضع ثوان حُجب ضوء الشمس.. ومن وقت لآخر أصبحت مجرد بقعة سوداء مجنحة آخذة فى التضاؤل أمام خلفية مضيئة.. أما الأرض - التى هى الأم الصغيرة التى أوجدتنى - فلم يعد باستطاعتى رؤيتها بعد ذلك.

وهكذا ابتعدت المنظومة الشمسية بسرعة وعظمة وفى صمت عميق عنى.. كما لو كانت لباسًا خلعته.. حتى أصبحت الشمس مجرد نجم عادى وسط عدد هائل من النجوم.. ودوامة كواكبها الصغيرة المصاحبة لها توارت تمامًا وسط الأضواء المتداخلة الصادرة من بعيد. لم أعد مقيمًا بالمجموعة الشمسية، فقد بلغت الآن الفضاء الخارجى.. وبدا أننى أفهم الآن كل عالم المادة. وعلاوة على ذلك أحدقت أو تجمعت النجوم بسرعة حول البقعة التى اختفى فيها كل من قلب "العقرب" و"النسر الواقع" وسط ضباب متلألئ.. حتى أصبح ذلك الجزء من السماء يشبه كتلة دوّارة من السُّدُم.. ولم أر قط من قبل فجوات هائلة من الفضاء المظلم الفاغر فاه هكذا.. وأخذ لمعان النجوم يقل ويقل. وبدا لى أنها تحركت

باتجاه نقطة ما بين حزام "الجوزاء" و"السيف".. وازدادت هوة الفراغ حول هذه المنطقة أكثر فأكثر كل ثانية. إنها هوة سحيقة لا توصف من اللامادة كنت أسقط فيها بلا توقف وبلا رحمة.

أخذ الكون كله يندفع أسرع فأسرع من حولى.. وفى النهاية اندفعت دوامات من الأجسام الدقيقة والذرات إلى الفراغ التام فى صمت.. وسطعت النجوم بتألق وضياء متزايدين، وكواكبها الدائرة حولها تلتقط ضوءها بشكل شبحى وأنا أدنو منها، ثم لم تلبث أن اختفت من جديد.. ومذنبات خافتة الضياء، ومجموعات هائلة من الأحجار النيزكية، والجسيمات الصغيرة الوماضة، والنقط المضيئة الدوامية تئز أو تطن على مسافة مئات الملايين من الأميال أو نحو ذلك على الأكثر.. وبعضها أقل من ذلك.. وهى منطلقة بسرعات خارقة، والمجموعات النجمية المندفعة كسهام من النيران اللحظية التى تخترق الظلام أو الليل الرهيب.

بدا كل ذلك، أكثر من أى شىء آخر، كتيار من الغبار الكونى المضاء بأشعة الشمس.. وازداد الاتساع والعرض والعمق للفضاء الخاوى الخالى من النجوم.. أو الفراغ السحيق.. الذى كنت مندفعًا باتجاهه. وأخيرًا أصبح ربع السماء أسود وخاويًا تمامًا.. وكاد كل الكون النجمى المندفع ورائى يحوطنى مثل حاجز ضوئى متجاور ورائى.. ثم اندفع بعيدًا عنى مثل وهج مستنقعات رهيب تسوقه الرياح. وألفيت نفسى أدخل فى أجواء الفضاء اللانهائى.. وأخذ الفضاء الأسود يتسع من حولى حتى بدا لى أن حشود النجوم عبارة عن أسراب من بقع نارية تبتعد مسرعة عنى بسرعات خيالية..

وران من حولى ظلام وعدم وخواء من جميع الجوانب.. وبسرعة أخذ الكون المادى الصغير- أو بعض النقط التى بدأت من داخله- يتضاءل الآن إلى مجرد قرص من ضوء متألق.. والآن إلى قرص صغير جدًا من ضوء ضبابى.. وفى لمح البصر سوف ينكمش إلى نقطة، وأخيرًا يتوارى تمامًا عن الوجود.

فجأة عاد الشعور إلىّ.. لكنه شعور فى شكل رعب مروع.. الخوف من هذا الظلام الفسيح الذى تعجز الكلمات عن أن تصفه.. ولادة جديدة عاطفية للتعاطف والانسجام والتواصل الاجتماعى مع الآخرين.. لكن هل كانت هناك أرواح أخرى، خفيّة لى مثلما كنت لها، حولى فى هذا الظلام الرهيب؟ أو ترى هل كنت وحيدًا فعلاً كما شعرت؟ وهل حدث لى فعلاً أننى دلفت إلى شئ لا هو بالوجود ولا هو بالعدم؟ لكن كان غطاء جسمى وغطاء المادة ممزقًا فعلاً بالنسبة لى، وكل تلك التخيلات والرفقة والأمن.. كل شئ كان مظلمًا وصامتًا.. لقد شعرت بأن وجودى انعدم.. لم أكن شيئًا.. لم يكن هناك حولى شىء سوى نقطة ضوء صغيرة جدًا لم تلبث أن تبددت فى الفضاء السحيق.. بذلت جهدًا مضنيًا لكى أرى أو أسمع شيئًا.. لكن لفترة من الوقت لم يكن هناك سوى الصمت المطبق والظلام الحالك والرعب واليأس.

ثم رأيت أنه حول بقعة الضوء ـ التى تضاءل عالم المادة بأكمله إليها ـ يوجد وهج خافت.. وفى شريط على كلا جانبيها كان الظلام غير حالك.. راقبت ذلك المشهد مليًا ـ كما بدا لى ـ وطوال هذا الانتظار الطويل بدأ الضباب ينقشع قليلاً.. ثم ظهرت حول

الشريط سحابة غير منتظمة من لون أسمر شاحب.. شعرت بنفاد صبر عاطفى.. وبدأت الأشياء تزداد لمعانًا ببطء حتى بدا أنها لا تكاد تتغير.. ترى ما هو الشىء الذى كان يكشف عن نفسه؟ ما هو هذا الفجر الأحمر الغريب فى ذلك الليل الفضائى اللامتناهى؟

كان شكل السحاب غريبًا تمامًا.. بدا أنه متكون من عروات بامتداد جانبه الأدنى إلى أربع كتل بارزة.. وتنتهى من أعلى بخط مستيقم.. ما هو هذا الشبح؟ وأيقنت أننى رأيت هذا الجسم من قبل، لكننى لم أعرف ما هو وأين كان ولماذا.. ثم بدأت أدرك جيدًا الأمور.. إنها قبضة يد.. كنت موجودًا بمفردى فى الفضاء، ليس معى سوى تلك اليد الضخمة المبهمة التى جثم فوقها كل الكون المادى مثل ذرة تافهة من الغبار..

بدا لى كما لو أننى لاحظتها خلال فترات زمنية شاسعة.. وعلى طرف إصبعها السبابة توجد حلقة.. والكون الذى أتيت منه لم يكن سوى بقعة مضيئة على السطح المنحنى للحلقة.. والشىء الذى قبضت عليه اليد كان يشبه قضيبًا أسود.. لاحظت تلك اليد طوال الأزل، وكذا الحلقة والقضيب.. وأنا أتعجب وأخاف وأترقب فى عجز ويأس ماذا سيحدث بعد ذلك.. لكن بدا لى أن لا شىء سيعقب ذلك، وأنه يتعين علىّ أن أراقبها إلى الأبد.. وأرى فقط اليد والشىء الذى تمسك به ولا أعى شيئًا عن معناها أو مغزاها..

ترى هل يكون الكون بأكمله مجرد بقعة أو ذرة عاكسة موجودة على كائن أكبر وأعظم منه بكثير؟.. ألم تكن عوالمنا سوى ذرات من كون آخر وذلك الكون الآخر مجرد ذرات فى كون ثالث وهكذا فى

سلسلة لا تنتهى أبدًا؟.. ثم ماذا كنت أنا؟.. هل كنت روحًا أو كيانًا غير مادىّ؟.. وفجأة أحدق بى جسم من نوع غريب وأخذ يتجمع من حولى.. وأحسست بالقلق.. الظلام الحالك لليد امتلأ بما يوحى بأنه أشكال مهتزة غير محددة المعالم..

ثم سمعت صوتًا يشبه صوت قرع ناقوس.. صوت خافت جدًا كما لو كان صادرًا من بعد لا نهائى.. ومكتوم كما لو كان يُسمع من خلال حجب سميكة من الظلام.. عبارة عن رنين مهتز عميق، تفصل كل خبطة منه عن التى بعدها فترات كبيرة من السكون.. وبدا أن اليد تزداد قبضتها إحكامًا على القضيب الذى تمسكه.. ثم رأيت فوق اليد باتجاه قمة الظلام دائرة من الوميض الفسفورى الخفيف.. كرة غامضة لا أدرى كنهها تنبض منها تلك الأصوات.. بيد أنه بعد آخر ضربة أو دقة اختفت اليد تمامًا.. حيث إن الساعة قد حانت.. وسمعت ضوضاء لتدفق الكثير من المياه.. لكن القضيب الأسود بقى كيد ضخمة عبر السماء.. ثم صدر صوت، بدا أنه دوّى فى أقصى أجزاء الفضاء بعدًا، قائلاً: "لن يكون هناك مزيد من الألم".

فى تلك اللحظة أحسست بسعادة لا توصف وإشراق هائل.. ورأيت الدائرة تشع ضوءًا أبيض ساطعًا.. وكذا القضيب أسود ومتألق.. وكثير من الأشياء الأخرى واضحة ومحددة المعالم.. أما الدائرة فكانت وجه ساعة الحائط.. وأما القضيب فكان سياج سريرى الذى أرقد عليه.. وكان (هادون) واقفًا عند قدمىّ بعد السياج مباشرة.. وبين أصابعه مقص.. وعقربا ساعة الحائط

المعلقة فوق رف المدفأة فوق كتفه منطبقان بعضهما على بعض فوق الساعة الثانية عشرة.. أما (ماوبراى) فكان يغسل شيئًا فى حوض موضوع على المنضدة مثمنة الأضلاع..

وفى جانبى أحسست بشعور مكبوت يصعب على المرء أن يقول إنه ألم. وهكذا يتبين أن العملية الجراحية لم تقتلنى.. وفجأة أدركت أن الكآبة الشديدة التى خيمت علىّ لنصف عام قد أزيحت من على كاهلى وعقلى.

غـزاة البـحــر

- ١ -

حتى وقت وقوع تلك الأحداث المروّعة فى (سدماوث)[1]، لم يكن النوع المسمى (هابلوتيوثيس فيروكس) معروفًا للعلم، إلا فى إطار تقسيم تصنيفى علمى شامل، كان كل ما لدى العلماء مجسًا نصف مهضوم تم العثور عليه قرب جزر (آزور) وجسدًا متحللاً نقرته الطيور وقضمته الأسماك برفق وبشكل مستمر، والذى اكتشفه السيد (جيننجز) فى أوائل عام ١٨٩٦، بالقرب من (لاندزإند).

ولم يحدث فى أى قسم علمى ذى علاقة بعلم الحيوان، أن ساد الغموض فى أحد مجالات علم الحيوان، كما حدث بالنسبة للكائنات التى تعيش فى أعماق البحار ويطلق عليها (الرأسقدميات)[2]. وكانت محض مصادفة هى التى قادت أمير (موناكو) لاكتشاف نحو

(١) مدينة صغيرة ساحلية تقع جنوب غرب إنجلترا، على القناة الإنجليزية (بحر المانش). وهى جزء من المحيط الأطلسى (المترجم).

(٢) حيوانات من الرخويات لها رأس ضخم وعيون كبيرة ومجسات إمساكية (المترجم).

اثنى عشر نوعًا جديدًا منها فى صيف عام ١٨٩٥، ومن بين تلك الاكتشافات، ذلك المجس الذى تحدثنا عنه آنفًا.

وصادف أن قتل صيادو الحيتان حوت عنبر بعيدًا عن (تيرتشييرا)، وبينما كان يعانى سكرات الموت، اندفع إلى يخت الأمير، ولكنه فشل فى الوصول إليه، ومن ثم غطس تحته ومات فى حين كان على بعد عشرين ياردة من دفّته. وفى غُصَّة الموت، قذف بعدد من الأشياء الضخمة، التى اتضح للأمير أنها غريبة ومهمة، ومن ثم أمر بأن يتم انتشالها قبل أن تغرق، وكانت هذه العينات عبارة عن كائنات من (الرأسقدميات) أو أجزاء منها، وبعضها ذات أحجام ضخمة، وتكاد تكون كلها غير معروفة للعلم! وبالفعل، يبدو أن تلك المخلوقات العملاقة النشيطة والرشيقة، التى تعيش فى منتصف المسافة إلى أعماق البحار، ستبقى أبدًا مجهولة لنا؛ إذ إنها سريعة الحركة تحت الماء، ومن ثم يصعب اصطيادها بالشباك، ولولا مثل هذه الأحداث النادرة غير المتوقعة، لما أمكن الحصول على عينات منها.

وعلى سبيل المثال، ففيما يتعلق بكائنات الـ (هابلوتيوثيس فيروكس)، نحن ما زلنا نجهل موطنها كلية. تمامًا كما نجهل أماكن تكاثر أسماك (الرنكة) والطرق البحرية التى تتبعها أسماك (السلمون) أثناء هجرتها. ولا يستطيع علماء الحيوان تفسير سبب الظهور المفاجئ لكائنات الـ (هابلوتيوثيس فيروكس) على سواحلنا، لعل هذا يرجع إلى حدوث هجرة جماعية بسبب الجوع، مما أدى إلى صعودها من الأعماق. ولكن ربما كان من الأنسب أن نتفادى المناقشات العقيمة، وأن نبدأ فى سرد قصتنا على الفور.

كان أول رجل يرى أحد كائنات الـ (هابلوتيوثيس) ويبقى على قيد الحياة، هو تاجر شاى متقاعد يدعى (فيزون)، إذ إنه من المؤكد الآن أن حالات الغرق المتعددة وحوادث القوارب ـ التى كانت تمخر عباب الماء، على طول ساحلى (كورنوول) و(ديفون) فى أوائل شهر مايو ـ كانت بسبب تلك الكائنات الرهيبة.

كان السيد (فيزون) قد توقف فى (سدماوث) ونزل فى أحد فنادقها لفترة. وحدث فى ظهر أحد الأيام، أن كان يسير على طول الطريق الذى تحف به التلال، من (سدماوث) إلى خليج (لادرام). والتلال فى هذه المنطقة شاهقة الارتفاع، إلا أنه قد تم نحت مجموعة سلالم على جوانب كل منها. وكان (فيزون) بالقرب من الدرج، عندما أثار اهتمامه ما بدا له فى البداية، كحشد من الطيور تتقاتل، على قطعة من الطعام، تألقت فى ضوء الشمس بلون أبيض مائل إلى اللون الوردى. كان المد قد انحسر، وكان هذا الشىء بعيدًا بين مجموعة من الحواف المرتفعة من الصخور، التى تغطيها طحالب بحرية داكنة، وتتخللها برك أحدثها المد، تتلألأ بلون فضى، وكان (فيزون) قد انبهر بتألق المياه البعيدة.

وبعد دقائق، عندما رنا مرة أخرى إلى المشهد الذى كان يتراءى على البعد، اتضح له أنه كان مخطئًا، إذ كانت تعلو هذا الصراع والتقاتل، مجموعة من الطيور ومعظمها غربان الزرع والنوارس، التى كانت أجنحتها تتوهج بفعل أشعة الشمس، وكانت تبدو بالغة الضآلة مقارنة بالشىء الذى تدور حوله. وزاد فضول (فيزون) إلى حد كبير، لأنه لم يستطع أن يجد تفسيرًا لما يراه.

ولما لم يكن لديه شيء أفضل يسلى به نفسه، فقد آثر أن يسبر غور هذا الشيء ـ أيًا كان ـ بدلاً من السير إلى خليج (لادرام)، وفكر فى أن الشيء ربما يكون سمكة ضخمة انجرفت إلى الشاطئ وهى على وشك الهلاك. ومن ثم أخذ يهبط بسرعة على الدرج الطويل المنحوت فى التل، وهو يتوقف بين فترة وأخرى ـ كل ثلاثين قدمًا أو نحوها ـ ليلتقط أنفاسه ولكى يتفحص بدقة الحركة الغامضة.

وعندما بلغ أسفل التل، كان بلا شك أقرب إلى هذا الشيء، مما كان. لكنه بدا أكثر إعتامًا وغموضًا. وما كان مائلاً إلى اللون الوردى، أصبح الآن مختفيًا وراء حيد[٣] بحرى ممتلئ بالجلاميد[٤] التى تغطيها الأعشاب. واعتقد الرجل أن هذا الشيء مكون من سبعة أجزاء مستديرة، متمايزة أو متصلة، وأن الطيور تحدث ضوضاء وصراخًا، لكنها تبدو خائفة من هذا الشيء وتخشى الاقتراب منه.

لم يستطع السيد (فيزون) الانتظار، فقد استبد به الفضول. وأخذ يشق طريقه بين الصخور المتآكلة بفعل الأمواج، ووجد أن العشب المتراكم فوقها، قد جعلها زلقة للغاية. فتوقف وخلع حذاءه وجوربيه، وثنى سرواله إلى أعلى ركبتيه. لقد كان هدفه من هذا مجرد تجنب أن تزل به قدمه، فوق تلك الصخور الزلقة. وربما كان يشعر بالسعادة ـ مثل كل الرجال ـ لأنه وجد عذرًا لكى يسترجع إحساساته الممتعة عندما كان صبيًا. ومن المؤكد أنه يدين لهذا العمل بحياته.

---

(٣) حافة مرتفعة من الصخور (المترجم).

(٤) صخر ضخم مستدير (المترجم).

دنا من هدفه، مطمئنًا إلى الأمان المطلق الذى تكفله هذه الدولة لكل المقيمين فيها، من كل أنواع الحيوانات المؤذية.

تحركت الأجسام المستديرة فى الكائن وأخذت تهتز فى كل الاتجاهات، وما إن تسلق السيد (فيزون) الحيد الصخرى للجلاميد، حتى أدرك الطبيعة المروعة لاكتشافه. وجاءه هذا الإدراك بغتة. تباعدت الأجسام المستديرة، عندما وصل إلى الجرف، وتبين له أن الشىء المائل إلى اللون الوردى، هو جسد آدمى تم التهام جزء منه، ولكنه لم يستطع معرفة ما إذا كان جسد رجل أو امرأة. كانت الأجسام المستديرة غريبة الشكل، تشبه الأخطبوط إلى حد ما، ولها مجسات هائلة مرنة وطويلة للغاية، تلتف حول نفسها على الأرض. وكان جلد هذا الكائن له طبيعة براقة وسطح محبب وقاس، ومن ثم يبدو بغيضًا لمن ينظر إليه. وقواعد المجسات تحيط بالفم، وهناك زائدة لحمية فى الجانب، كل هذا مع العينين الذكيتين، أعطى الكائن إيحاء غريبًا، بأنه مثل الوجه الآدمى! وكان جسم الكائن يشبه خنزيرًا ضخمًا، وتصور أن المجسات يبلغ طولها عددًا كبيرًا من الأقدام. واعتقد السيد (فيزون) أن هناك سبعة أو ثمانية من هذه الكائنات. وعلى بعد عشرين ياردة خلفه، محاطة بالأمواج المتكسرة على الشاطىء، ووسط مياه المد التى أخذت تعلو تدريجيًا، كان هناك اثنان آخران من هذه المخلوقات، يخرجان من مياه البحر.

تمددت أجسامها على الصخور، وكانت عيونها تتطلع إليه فى فضول شرير، بيد أنه لا يبدو أن الخوف قد تطرق إلى قلب السيد

(فيزون)، أو أنه قد أدرك الخطر المحدق به. ربما كانت ثقته ترجع إلى ما لاحظه من أنها تتحرك بطريقة خرقاء بطيئة. ولكن من المؤكد أنه روّع وشعر بالتوتر والاستياء، عندما عرف أن هذه الكائنات الرهيبة تتغذى على اللحم البشرى. فكر فى أنها اقتنصت جسدًا غريقًا، فصاح فيها بهدف إرغامها على العودة للماء. ولما وجد أنها لم تتزحزح من مكانها، نظر حوله، والتقط صخرة مستديرة، وقذف بها أحد هذه الكائنات.

عندئذ أخذت الكائنات تفك مجساتها ببطء، وبدأت كلها تتحرك إزاءه، زاحفة فى بادئ الأمر بتمهل، وهى تصدر صوتًا ناعمًا بعضها لبعض. عندئذ أدرك السيد (فيزون) أنه فى خطر. صرخ من جديد ورمى حذاءه ذا الرقبة وأخذ يركض بكل قوته، ويقفز فوق الصخور، مبتعدًا عن هذه الكائنات. وبعد عشرين ياردة، توقف واستدار ليتعرف على السرعة التى تتحرك بها، وقدر أنها بطيئة. ولكنه فجأة شاهد مجسات أولها تضرب الصخرة التى كان يقف عليها منذ لحظات!

حينئذ صاح من جديد، ولكن فى هذه المرة لم يكن مهددًا، ولكنها كانت صرخة فزع، وأخذ يندفع.. ويقفز.. ويتخطى الصخور.. ويتعثر.. وينزلق.. ويخوض فى البرك، عبر الاتساع غير المهد بينه وبين الشاطىء. وبدت التلال - على حين غرة - على مسافة شاسعة. وشاهد عاملين - وكأنهما من عالم آخر - يصلحان السلالم التى توجد على جانب أحد التلال وهما غافلان عن تلك المطاردة الرهيبة التى كانت تجرى أسفلهما. وأحيانًا كان يسمع المخلوقات

وهى تنثر المياه فى البرك، من على بعد لا يزيد على اثنى عشر قدمًا من ورائه، وفى مرة انزلق وكاد أن يسقط، كانت تطارده حتى أسفل التلال، ولم تتوقف إلا عندما انضم إليه العاملان عند الدرج المحفور على جانب التل. أخذ الرجال الثلاثة يقذفونها بالحجارة لبعض الوقت، ثم هرعوا إلى قمة التل وعبروا الطريق المؤدى إلى (سدماوث) التماسًا للمساعدة وللبحث عن قارب، لينقذوا الجسد الممزق من هذه المخلوقات الرهيبة.

- ٢ -

وكأنما لم يصادفه ما يكفيه من المخاطر المهلكة فى هذا اليوم، فقد استقل السيد (فيزون) القارب مع بعض العمال ليحدد لهم الموقع الذى حدثت فيه مغامرته. كان المد قد انحسر، وتطلب الأمر دورانًا بدرجة كبيرة، للوصول إلى الموقع المستهدف. ولكن عندما وصلوا إلى السلالم كان الجسد المشوه قد اختفى. كان الماء يتدفق، ويغمر الصخور اللزجة وغيرها. أما الرجال الأربعة الذين يستقلون القارب فهم العاملان والمراكبى والسيد (فيزون). فقد حولوا انتباههم من مراقبة الشاطىء للبحث عن الكائنات الرهيبة، إلى المياه أسفل قاعدة القارب.

فى البداية، كان من الصعب رؤية ما تحت القارب، باستثناء غابة من الطحالب كثيرة اليود (المناريات)، ومن وقت إلى آخر تمرق أسماك صغيرة كالسهام. شعروا بخيبة أمل، إذ كانت ألبابهم مهيئة للاشتراك فى مغامرة، وعبروا عن هذا بعضهم لبعض. ولكن

سرعان ما شاهدوا واحدًا من الكائنات الوحشية، يسبح فى المياه متجهًا إلى البحر، وكان يتحرك حركة لولبية غريبة وكأنه يتدحرج. ذكّرت السيد (فيزون) بحركة دوران بالون مقيد بخيط.

وعلى الفور، بعد هذا اضطربت غابة (المناريات) لدقائق بسبب الدوامة التى اجتاحتها نتيجة لوجود تلك المخلوقات. وشاهد ركاب القارب، ثلاثة من هذه الوحوش –كأجسام معتمة –وهم يتقاتلون حول ما يبدو أنه جزء من جسد الغريق. وبعد دقائق، عادت أشرطة (المناريات) بلونها الأخضر الزيتونى الرائع، تتماوج فى أعماق المياه.

حينئذ راح الرجال الأربعة، وقد استثيرت عواطفهم، يضربون الماء بمجاديفهم وهم يصرخون، وعلى الفور شاهدوا اضطرابًا شديدًا وحركة عنيفة بين الطحالب البحرية. توقفوا ليروا بشكل أكثر وضوحًا، وما إن عادت المياه إلى هدوئها، حتى شاهدوا ـ كما بدا لهم ـ أن كل قاع البحر بين الطحالب البحرية، ممتلىء بالعيون! صاح أحد الرجال "أيتها الوحوش البشعة. إن هناك العشرات منها!".

وفى الحال. بدأت هذه الكائنات تصعد من الأعماق إلى سطح المياه بالقرب منهم وشرح السيد (فيزون) لكاتب هذه السطور، ذلك الثوران المذهل من بين مروج طحالب (المناريات) المتماوجة. لقد بدا له أن هذا الأمر، كأنما استغرق وقتًا طويلاً، ولكن الواقع أنه لم يستغرق إلا مجرد عدة ثوان!

لوقت ما، لم يشاهدوا سوى عيون ولكن سرعان ما رأوا المجسات تنبثق وتباعد ما بين الطحالب هنا وهناك. ثم أخذت هذه

الكائنات تتضخم شيئًا فشيئًا، حتى إنها ـ فى نهاية الأمر ـ غطت القاع بأشكالها الملتفة، كذلك شاهدوا الأطراف المستدقة للمجسات وهى ترتفع بألوانها الداكنة فى الهواء، فوق سطح الماء.

تجرأ أحد الرجال الأربعة، واتجه إلى جانب القارب، حيث كان يتشبث به ثلاثة من ممصات المجسات، وأربعة أخرى قُذف بها فوق الحافة العليا من جانب القارب، وكأنما تريد الكائنات إما إغراق القارب أو الصعود إليه. عندئذ أمسك السيد (فيزون) خطاف القارب وطعن بعنف تلك المجسات اللينة، ليرغمها على الانسحاب. ولكنه تلقى ضربة شديدة فى ظهره، كادت أن تلقى به من فوق القارب إلى الماء، وكان سبب هذا أن المراكبى كان يستخدم مجدافه لصد هجمة مماثلة على الجانب الآخر من القارب. وسرعان ما خففت المجسات قبضتها على جانبى القارب، وانزلقت لتهبط فى الماء، محدثة رشاشًا.

قال السيد (فيزون) وهو يرتعد بعنف: "من الأفضل لنا أن نغادر هذا المكان". واتجه إلى ذراع الدفة[٥]، فى حين جلس المراكبى وأحد العمال وأخذا يجدفان. أما العامل الآخر فقد وقف فى الجزء الأمامى من القارب، ممسكًا بخطاف القارب ومتأهبًا لتسديد ضربات قوية، لأى مجسات قد تظهر. وبقى الجميع صامتين. وشرح السيد (فيزون) الشعور السائد بالإحباط بينهم. وفى صمت وشعور بالخوف، وبوجوه بيضاء شاحبة، كانوا يحاولون الفرار من ذلك الموقف الرهيب، الذى وضعوا أنفسهم فيه، دون روّية. لكن بمجرد

---

(٥) رافعة تستخدم لإدارة القارب وتوجيهه (المترجم).

أن لمست المجاديف سطح المياه، حتى التفت حولها مجسات رفيعة كالحبال، أفعوانية ومستدقة وداكنة، وكذلك أمسكت بدفة القارب. ثم أخذت تزحف على جانبى القارب، بحركة دائرية، وهكذا عادت المصات من جديد.

حاول الرجلان أن يجدفا، ولكن الأمر كان يبدو كما لو أنهما يحاولان تحريك القارب عبر طوفان من الأعشاب البحرية.

صرخ المراكبى: "النجدة! هنا". وهرع السيد (فيزون) والعامل الثانى لمساعدته فى الإمساك بالمجداف. عندئذ نهض الرجل الذى يمسك بخطاف القارب - وكان اسمه (إيوان) - وهو يلفظ الشتائم والسباب، وأخذ يطعن - بقدر استطاعته - الكتلة المتراكمة من المجسات التى ظهرت له عند جانب القارب، والتى أخذت تتحرك ببطء وتتجمع على طول قاعدة القارب.

وفى الوقت نفسه، حاول الرجلان الآخران استعادة مجدافيهما بكل وسيلة. واستطاع المراكبى الحصول على مجدافه وأعطاه للسيد (فيزون) الذى أخذ يضرب به المجسات، وفى غضون ذلك أخرج المراكبى مدية جيب وفتحها ثم انحنى على جانب القارب، يطعن بضربات متوالية محاولاً تمزيق تلك الأذرع المروعة، التى تنزلق على عمود المجداف.

راح السيد (فيزون) يترنح بفعل اهتزاز القارب، وأخذت أسنانه تصطك. ولم يستطع أن يلتقط أنفاسه بسهولة، وازدادت ضربات قلبه، وأمسك المجداف بشدة. وعندما أدار وجهه فجأة ناحية البحر، شاهد على بعد أقل من خمسين ياردة - عبر الدوّارات التى

تحدث فى الماء، عند قدوم المد - قاربًا كبيرًا مواجهًا لهم، وعلى متنه ثلاث نساء وطفل صغير. وكان هناك مراكبى يجدف ورجل قصير ذو قبعة من القش ذات شريط أحمر وردى، وسترة بيضاء، وقف عند مؤخرة القارب يحييهم.

وبالطبع فقد فكر السيد (فيزون) فى أن يطلب منهم أن يغيثوهم، لكنه تذكر الطفل. وعلى الفور ترك مجدافه، ولوّح بذراعيه بحركة محمومة مليئة بمشاعر الإحباط، وصرخ للمجموعة التى على متن القارب أن يرحلوا "بحق السماء!". ولابد أن ننوه هنا إلى أن ما أبداه السيد (فيزون) من شجاعة وتواضع، حيث لم يلاحظ أية درجة من الشجاعة فيما فعله فى تلك المغامرة العجيبة، ولكنه كان عملاً بطوليًا بالفعل. أما المجداف الذى تخلى عنه فقد اختطف - على الفور - وجُذب إلى ما تحت سطح الماء، ولكنه سرعان ما ظهر من جديد، وهو يطفو على بعد حوالى عشرين ياردة من القارب.

عندئذ شعر السيد (فيزون) بأن القارب يترنح تحته بعنف، وتنامى إلى سمعه صرخة مخيفة تنم عن الرعب استمرت لعدة ثوان، وتبين أنها من (هيل) المراكبى، جعلته ينسى تمامًا مجموعة الأشخاص الذين يستقلون الجانب الآخر، ويقومون برحلة بحرية.

استدار (فيزون) بسرعة ليرى (هيل) محنى الرأس والركبتين عند بيت المجداف، وقد تقلص وجهه بتشنج من فرط الألم والرعب، وقد تدلت ذراعه اليمنى من على جانب القارب، وثمة شىء ما يجذبها إلى أسفل.

وكان يطلق صرخات حادة وقصيرة: "أوه! أوه! أوه!".

واعتقد السيد (فيزون) أن السيد (هيل) كان يطعن المجسات تحت مستوى سطح الماء، ولكنها استطاعت الإمساك بيده ومحاولة جذبها إلى الأعماق، ولكن من المؤكد أنه من المستحيل –الآن– أن نقرر ما الذى حدث. أخذ القارب يميل بشدة، حتى إن الحافة العليا من جانبه، كانت على بعد نحو عشر بوصات من سطح الماء، وأن كلا من (إيوان) والعامل الآخر، كانا يضربان بعنف شيئًا ما فى الماء، على كل من جانبى ذراع (هيل). وغريزيًا قام السيد (فيزون) بوضع نفسه كثقل موازن لهم، حتى لا ينقلب القارب.

كان (هيل) رجلاً قويًا مفتول الساعدين، ومن ثم بذل جهدًا خارقًا حتى تمكن من النهوض وتمكن من إخراج ذراعه من الماء، وهكذا تحررت. إلا أنها كانت ملفوفة بحبال بنية داكنة معقدة ومتشابكة. وظهرت –للحظات– عينا أحد هؤلاء الوحوش فوق سطح الماء. وهما تحدقان بتصميم وبشكل مباشر. أخذ القارب يميل أكثر وأكثر، وراحت الأمواج الخضراء والبنية، تتكسر على جانب القارب، وتبدو مثل شلالات صغيرة. حينئذ، انزلق (هيل) وسقط إلى جانب القارب بعد أن اصطدمت ضلوعه به،وغاصت كتلة المجسات التى كانت تمسك بذراعه فى لجة الماء. وكان قد لمس ركبة السيد (فيزون) بحذائه ذى الرقبة، حين حاول هذا أن يمسك به. وبعد لحظة أخرى، اندفعت مجسات أخرى لتحيط بخصر السيد (هيل) وعنقه، وبعد مقاومة مستميتة قصيرة، كاد فيها القارب أن ينقلب، سحبت الكائنات السيد (هيل) من فوق القارب،

إلى الماء. واعتدل القارب من جديد، بعد ارتجاجة عنيفة، دفعت بالسيد (فيزون) إلى الجانب الآخر، وأخفت الصراع ـ الذى كان يدور فى الماء ـ عن عينيه.

وقف السيد (فيزون) يتأرجح للحظات حتى تمكن من استرداد توازنه، وبينما كان يفعل هذا، أدرك أن هذا الصراع وتدفق مياه المد قد قرّبت القارب من الصخور التى تنمو عليها الأعشاب، من جديد.

عندئذ أخذ السيد (فيزون) المجداف من (إيوان) وضربه إلى جانب القارب ليدفع به إلى الأمام، ثم تركه وركض ناحية مقدمة القارب وقفز إلى حيث الصخور. شعر بقدميه تنزلقان فوق الصخور الزلقة، وبمجهود محموم قفز من جديد فى اتجاه كتلة أخرى من الصخور. تعثر ولكنه استطاع أن ينهض ثانية.

قال شخص ما: "احذر" ثم اصطدم به جسم ضخم بنى اللون لأحد العمال، أدى إلى سقوطه فى بركة. ثم أخذ يسمع صرخات مختنقة متحشرجة، اعتقد ـ فى ذلك الوقت ـ أنها صادرة من السيد (هيل)، وتعجب من حدة ومدى تنوع صوته. وثب عليه شخص ما ثم اندفع دفق من الماء الرغوى فوقه. وقف على قدميه، تتقطر من ملابسه قطرات الماء ودون أن ينظر إلى اتجاه مياه البحر، ركض بأسرع ما يمكنه فى اتجاه الشاطىء. وأمامه بين الصخور المبعثرة كان العاملان يجريان وكأنما يطاردهما شبح والمسافة بينهما نحو اثنتى عشرة ياردة.

نظر من فوق كتفه إلى الخلف، وتحقق من أنه لا أحد يطارده ثم نظر حوله. كان مذهولاً من سرعة تتابع الأحداث منذ صعود

الكائنات الرأسقدميات من أعماق البحر. وأنه تصرف بشكل لا يستطيع فهمه الآن! وبدا له أنه قد استيقظ فجأة من كابوس شيطانى.

كانت السماء بلا سحب ومتقدة بشمس بعد الظهيرة، والبحر يضطرب بسبب تألقها القاسى، كما كان هناك الزبد الناعم الذى يعلو المياه المتدفقة. والسلاسل الطويلة من الصخور، الداكنة والمنخفضة. وكان القارب الذى كانوا يستقلونه يطفو على المياه وهو يتأرجح بهدوء، على بعد نحو اثنتى عشرة ياردة من الشاطىء.

وتوارت آثار تلك المعركة المروعة التى دارت بين (هيل) والمخلوقات الرهيبة، وذلك القتال الشرس من أجل الحياة، وكأنها لم تكن.

كان قلب السيد (فيزون) يدق بشدة، وأخذ ينبض بقوة حتى أطراف أصابعه وأصبح تنفسه ثقيلاً. ثمة شىء ناقص. ولعدة دقائق لم يستطع أن يسبر غور ما حدث. ثم تذكر فجأة القارب الذى كان يضم مجموعة المتنزهين، واختفى. وتعجب إذا كان هذا القارب محض خيال. استدار وأبصر العاملين يقفان جنبًا إلى جنب، تحت الكتل البارزة للتلال العالية ذات اللون الأحمر الوردى. وتساءل هل يمكنه الآن أن يبذل محاولة لإنقاذ (هيل) من براثن المخلوقات الرهيبة. وشعر بأن حماسه قد فارقه فجأة، وتركه عاجزًا ولا هدف له. استدار وسار ناحية الشاطىء، أخذ يتعثر وينزلق ويخوض فى الماء، متجهًا ناحية العاملين رفيقيه.

ونظر خلفه من جديد، وشاهد قاربين طافيين والقارب البعيد فى عرض البحر مقلوب ومغطى بمادة لزجة.

- ٣ -

إذن هذه كانت (هابلوتيوثيس فيروكس) تفصح عن وجودها على ساحل (ديفونشاير). وحتى الوقت الحاضر، يعد هذا هو أخطر هجوم لها.

إن رواية السيد (فيزون) بالإضافة إلى الزيادة الكبيرة لضحايا حوادث القوارب والسباحة، والتى قد ألمحت إليها من قبل، وهروب السمك من سواحل (كورنيش) فى هذا العام، كل هذا يشير بوضوح إلى أن سربًا من هذه الوحوش الشرهة التى تعيش فى أعماق البحار، كانت تتجول خلسة ـ تحت الماء بهدف البحث عن فرائس ـ على طول خط الساحل.

أعرف أن ثمة من اقترح الهجرة بسبب الجوع، كقوة دافعة لهذه الوحوش لكى تجىء إلى هنا، إلا أننى أفضل تصديق النظرية البديلة التى صاغها العالم (همسلى). كان من رأى هذا العالم أن سربًا من هذه الكائنات استساغت طعم اللحم البشرى، بعد أن غرقت سفينة بينهم، ومن ثم تجولت للبحث عن اللحم البشرى، بعيدًا من موطنها الأصلى، فى البداية كانت هذه الكائنات تترصد وتتتبع السفن، وهكذا جاءت إلى شواطئنا، مع الزيادة المطردة للملاحة البحرية فى المحيط الأطلسى..

ولكن لكى نناقش حجج (همسلى) المقنعة والتى تبعث على الإعجاب، فهو خارج نطاق حديثنا هذا.

وفيما يبدو أن شهيات هذا السرب من الوحوش، قد أشبعها التهام أحد عشر إنسانًا، إذ من المؤكد أن القارب كان يحمل عشرة

أشخاص. وليس ثمة دليل على وجود هذه الكائنات المتوحشة بالقرب من (سدماوث) فى ذلك اليوم. وجابت الدوريات الساحل من (سياتن) إلى (بادلى سالترتون) طوال هذا المساء والليل، وكانت تتكون من قوارب شرطة بحرية، وعليها رجال مسلحون بالحراب والقطالس[٦]، وحين اقترب المساء، انضمت إليهم مجموعة من المدنيين المسلحين، ولم يشترك السيد (فيزون) فى أى من هذه الدوريات.

وعند منتصف الليل دوت صافرات متوالية من فوق قارب فى عرض البحر، على بعد نحو ميلين من جنوبى شرق (سدماوث)، كما شوهد فانوس يؤشر بطريقة غريبة، نحو الخلف والأمام وإلى أعلى وأسفل.

هرعت القوارب التى على مقربة، نحو مصدر الاستغاثة. واتضح أن راكبى القارب ـ وهم بحار ومساعد قسيس وطالبان ـ قد شاهدوا بالفعل هذه الوحوش وهى تنساب تحت قاربهم. ويبدو أن هذه الكائنات البحرية ـ كمعظم كائنات الأعماق ـ يصدر عنها تألق فوسفورى، وكانت تسبح على بعد حوالى خمس قامات[٧] تحت سطح الماء، ومن ثم بدت وكأنها مخلوقات من ضوء القمر، عبر ظلمة الماء. وكانت مجساتها مطوية إلى الخلف، وكأنما هذه الكائنات نائمة، وكانت تدور وتدور، وتتحرك ببطء فى تشكيل يشبه الوتد، فى حين تتجه إلى الجنوب الشرقى.

---

(٦) سيف قصير ثقيل ذو نصل منحن (المترجم).

(٧) مقياس لعمق المياه ويعادل ١,٨٢ متر (المترجم).

وبينما كان ركاب القارب يحكون قصتهم، انضم إليهم قارب بعد الآخر، وفى النهاية كان هناك أسطول صغير، قوامه ثمانية أو تسعة قوارب، وصدرت عنهم جلبة وضوضاء ـ كما يحدث فى السوق ـ عكرت صفو سكون الليل. ولم تكن هناك أية نية لتتبع سرب الكائنات المتوحشة، فلم يكن لدى الناس أى أسلحة أو خبرة لمثل هذه المطاردة المحفوفة بالمخاطر. وسرعان ما عادت هذه القوارب إلى اتجاه الشاطىء.

والآن نسرد أغرب الحقائق عن هذه الحادثة العجيبة والتى ليس لها مثيل. نحن لا نعلم على الإطلاق التحركات المتعاقبة لهذا السرب من الكائنات المتوحشة، على الرغم من أن كل الساحل الجنوبى الغربى، يعلم بوجوده ويقظ لكل الاحتمالات. وربما كان من الأهمية بمكان أن نذكر أنه وجدت جثة لأحد حيتان العنبر ملقاة على شاطىء (ستارك) فى ٣ يونيو. وبعد أسبوعين وثلاثة أيام بعد حادثة (سدماوث)، عثر على (هابلوتيوثيس) على رمال شاطىء (كاليه). وكان حيًا، لأن العديد من الشهود رأوا مجساته تتحرك بطريقة تشنجية. ولكن ربما كان الكائن يعانى سكرات الموت. وقد قام شخص يدعى السيد (بوشيه) بإطلاق النار عليه.

وكان هذا آخر ظهور لـ (هابلوتيوثيس) حيًا. ولم يظهر أى كائن منها على طول الشاطىء الفرنسى. وفى الخامس عشر من شهر يونيو، اكتشف كائن ميت، أعضاؤه كاملة أو تكاد، وكان قد جرف إلى الشاطىء بالقرب من (توركاى)، ثم عثر على بقايا من هذه الكائنات فى أماكن متفرقة. وفى آخر أيام شهر يونيو، كان السيد (إجبرت

كين) ـ الذى يعمل رسامًا ـ يسبح بالقرب من (نيولين)، وفجأة صرخ ولوّح بذراعيه ثم سُحب إلى الأعماق. ولم يحاول صديق له، كان يستحم بالقرب منه، أن يبادر بإنقاذه، بل آثر أن يسبح إلى الشاطىء على الفور.

وهذه هى آخر حقيقة أبلغها لكم عن تلك المغامرة فائقة الغرابة، من أعماق البحار. ومن قبل الأوان، أن نذكر أن هذه هى آخر الأخبار عن تلك الكائنات الرهيبة، ولكن نعتقد ـ وبالطبع يحدونا الأمل ـ أنها قد عادت إلى موطنها الأصلى فى أعماق البحار، حيث الظلمة الشديدة، التى غادرتها وصعدت ـ بغاية الغرابة والغموض ـ إلى سطح الماء.

(بولوك) ورجل (البوروه)[١]

التقى (بولوك) ورجل (البوروه) لأول مرة فى قرية مليئة بالمستنقعات على ضفة نهر فيما وراء شبه جزيرة (تيرنر)[٢]. وتشتهر النساء فى هذه القرية، بالوسامة والجمال. إنهن من (الجاليناس)[٣] مع لمسة من الدم الأوروبى. التى يرجع تاريخها إلى أيام (فاسكو دى جاما)[٤] وتجار الرقيق الإنجليز، ولعل رجل (البوروه) أيضًا به أثر ضئيل من (القوقازية)[٥] فى بنيته وتكوينه العقلى (وقد يكون أمرًا مثيرًا للدهشة أن نفكر بأن بعضنا كان له أبناء عمومة بعيدون من أكلة لحوم البشر فى جزيرة (شيربورو) بالمحيط الأطلنطى أو شاركوا فى الغزوات مع مقاتلى "الصوفا")[٦].

---

(١) اسم قبيلة فى دولة (سيراليون) التى تقع فى غرب أفريقيا (المترجم).

(٢) شبه جزيرة طولها نحو ١١٠ كيلو مترات وتقع جنوب (سيراليون) (المترجم).

(٣) شعب كان يعيش فى الشمال الغربى من (ليبيريا) وأجزاء متاخمة من (سيراليون) (المترجم).

(٤) ملاح ومستكشف برتغالى (١٤٦٩ ـ ١٥٢٤) (المترجم).

(٥) يتميز أفراده ببشرة فاتحة أو سمراء وشعر مجعد أو ناعم مسترسل ويشمل شعوب أوروبا وشمال وغرب أفريقيا (المترجم).

(٦) محاربون أشداء من إمبراطورية (مالى) الأفريقية (١٢٣٠ ـ ١٦٠٠م) (المترجم).

على أية حال، فقد طعن رجل (البوروه) امرأة فى قلبها، كما لو كان مجرد إيطالى من السوقة، وكاد يطعن (بولوك) أيضًا، إلا أنه أخطأه بمسافة قصيرة للغاية. عندئذ استخدم (بولوك) مسدسه لتفادى الطعنة الخاطفة، التى كانت مسددة للعضلة "الدالية"(٧)، وأطلق الرصاص فطار الخنجر المعدنى فى الهواء، وأصيب رجل (البوروه) فى يده.

أطلق (بولوك) رصاصة أخرى ولكنه أخطأ الهدف، وأصاب نافذة كوخ فتهشمت. انحنى رجل (البوروه) عند المدخل، وحدق بحدة فى (بولوك)، الذى ألقى نظرة خاطفة على وجهه المقلوب رأسًا على عقب، فى ضوء الشمس.

ثم أصبح الرجل الإنجليزى وحيدًا ومريضًا، وأصابته رعدة من الحدث الجلل، فى شفق المكان. لقد وقع كل شىء فى وقت أقل من الوقت اللازم لقراءة ما كتب عنه. كانت المرأة ميتة، وبعد أن تحقق (بولوك) من هذا الأمر، ذهب إلى مدخل الكوخ وتطلع إلى الخارج، كان كل شىء متألقًا يبهر النفس. وكان ستة حمالين من حمالى البعثة يقفون فى مجموعة بالقرب من الأكواخ الخضراء التى يقطنون فيها، كانوا يحدقون فى اتجاهه، متعجبين مما يمكن أن تعنيه هذه الطلقات.

وخلف هذه المجموعة من الحمالين، كانت ثمة مساحة عريضة من الطين الأسود كريه الرائحة بجانب النهر، وكذلك غطاء أخضر هائل ـ يشبه السجادة ـ من نباتات البردى والأعشاب المائية، وبعده

---

(١) عضلة الكتف مثلثة الشكل (المترجم).

تمتد المياه الراكدة. وتلوح أشجار التين الهندى خلف الجدول، ولكنها تبدو ضبابية، خلال الغمام الأزرق. لم تكن هناك أية دلائل تشير إلى حدوث شىء مثير فى القرية الرابضة هناك، التى يظهر سورها بصعوبة، فوق الحشائش العالية.

خرج (بولوك) متوخيًا الحذر، من باب الكوخ وسار فى اتجاه النهر، ناظرًا من فوق كتفه إلى الخلف، من وقت لآخر. بيد أن رجل (البوروه) كان قد اختفى.

وبعصبية أحكم (بولوك) قبضته على مسدسه.

جاء أحد رجاله ليقابله، وبينما كان يقترب، أشار إلى الشجيرات خلف الكوخ الذى اختفى فيه رجل (البوروه). كان لدى (بولوك) اقتناع ـ سبب له إزعاجًا ـ بأنه جعل من نفسه أحمق مطبقًا، شعر بالمرارة والهمجية، لما انتهت إليه الأمور. وعلاوة على ذلك، كان عليه أن يبلغ (ووترهاوس) بما حدث. (ووترهاوس) العاقل، المثالى، الحذر، إنه بالتأكيد سوف يأخذ الأمر بجدية. وأخذ (بولوك) يلفظ الشتائم والسباب على حظه العاثر الذى جعله يعمل مع (ووترهاوس) ويأتى إلى ساحل أفريقيا الغربى. شعر بأنه قد سئم هذه البعثة تمامًا طوال الوقت، كان غير واثق، من المكان المحدد ـ ضمن الأفق المرئى ـ الذى يمكن أن يوجد فيه رجل (البوروه).

على الرغم من أن قتل المرأة كان أمرًا صادمًا. فإنه لم يسبب له الإزعاج الذى أصبح يشعر به. فقد رأى الكثير من مظاهر الوحشية فى الشهور الثلاثة الأخيرة. العديد من نساء قتيلات وأكواخ

محترقة، وهياكل عظمية يابسة، على طول نهر (كيتام) خيالة (الصوفا)، حتى أصبح متبلد الحواس.

إن ما يعكر صفوه هو اعتقاده الراسخ بأن هذه الأحداث فى بدايتها وأنها سوف تستمر. لعن الزنجى الذى جرؤ وألقى عليه سؤالاً، واستمر يسير نحو الخيمة التى تحت أشجار البرتقال، حيث كان (ووترهاوس) مستلقيًا فى الظل. شعر (بولوك) بأنه مثل طالب ذاهب إلى حجرة مدير المدرسة.

كان (ووترهاوس) متأثرًا بآخر جرعة تناولها من دواء (الكلورودواين) المنوم، فجلس (بولوك) فوق إحدى الحقائب بجانبه وأشعل غليونه، منتظرًا (ووترهاوس) حتى يستيقظ. وأخذ يتأمل الأوعية والأسلحة المبعثرة، التى جمعها (ووترهاوس) من قبيلة (المندى)، التى كان يعتزم شحنها فى زورق (الكانو) إلى (سوليما)، سرعان ما استيقظ (ووترهاوس)، وبعد أن تثاءب وتمطى، قرر على نحو حاسم بأنه أصبح ـ من جديد ـ سليمًا ومعافى. أحضر له (بولوك) بعض الشاى. وبينما كان يحتسى الشاى، روى له (بولوك) أحداث بعد الظهيرة، بعد أن عبث قليلاً بإحدى الشجيرات القريبة كثيفة الأغصان. وأخذ (ووترهاوس) الأمور أكثر جدية مما توقع (بولوك). إذ لم يكتف بالاستهجان بل أتبعه بالتأنيب بقسوة والإهانة. قال بقمة انفعاله: "إنك أحد هؤلاء الحمقى أعوان الشيطان، الذين يعتقدون أن الزنوج ليسوا بشرًا. وما إن أمرض حتى ليوم فقط، حتى تتورط فى بعض المآزق القذرة. تلك هى المرة الثالثة فى شهر واحد، التى تتشاجر فيها مع أحد الوطنيين، ولكن

فى هذه المرة كان الدافع هو الانتقام. رجل (بوروه) مرة ثانية! إنهم يريدون الانتقام منك، بعد أن قمت بكتابة اسمك السخيف على الصنم الذى يعبدونه! إن هؤلاء الشياطين مميزون برغبتهم فى الانتقام. إنك تجعل الإنسان يخجل من كونه متحضرًا. عندما أفكر فى أنك من عائلة عريقة! ولو حدث وعملت مرة ثانية مع إنسان غبى وأثيم وأخرق مثلك، فلسوف...".

غمغم (بولوك) بلهجة كانت دائمًا تثير حنق (ووترهاوس): "الآن أرجو أن تهدأ".

عندئذ أصبح (ووترهاوس) عاجزًا عن الكلام ثم نهض ووقف. قال بعد أن كافح لكى يتحكم فى تنفسه: "(بولوك)! اسمع ما أقوله لك، خير لك أن تعود إلى الوطن. لا أريدك أن تبقى هنا لمدة أطول. لقد أصبت بالمرض بسببك..".

حدق (بولوك) فى عينى (ووترهاوس) وقال له: "احتفظ باتزانك ولا تغضب. فأنا على استعداد للرحيل، بعد أن سئمت كل شىء".

أصبح (ووترهاوس) هادئًا من جديد وجلس على مقعد خفيف يُطوى وقال: "حسن جدًا. ليكن، إننى لا أريد شجارًا. أنت تعلم يا (بولوك) أنه مما يضايق الإنسان أن يرى خططه تفسد بسبب شىء كهذا. سأصحبك إلى (سوليما) وأطمئن إلى أنك ركبت على متن السفينة سالمًا".

قال (بولوك): "لا حاجة بك إلى هذا. أستطيع الذهاب بمفردى. من هنا".

رد (ووترهاوس) بقوله: "لن تذهب بعيدًا. إنك لا تفهم جيدًا أساليب (البورروه)!".

قال (بولوك) بمرارة: "كيف كان لى أن أعلم أنها تخص أحد رجال (البورروه)؟".

قال (ووترهاوس) مؤكدًا: "حسن. لقد كانت كذلك. إنك لن تستطيع إصلاح الأمور. اذهب وحدك إذن. إننى أتساءل عما قد يفعلونه بك. يبدو أنك لا تفهم تلك القواعد الخداعية لقبيلة (البوروه) هى لهذه الدولة، بمنزلة القانون، والدين، والدستور، والطب والسحر. إنهم يعينون الرؤساء. محاكم التفتيش فى أوجها. إنك لا تستطيع أن تتحدى أفراد هذه القبيلة. ربما يرسلون (أواجيل) الرئيس هنا فى أعقابنا.

من حسن الحظ أن حمالينا من قبيلة (ميند يس)، وعلنيا أن نغادر مستعمرتنا الصغيرة هنا، ونستبدلها بأخرى. لقد أربكتنا يا (بولوك)! وعليك بالطبع أن تبتعد عن طريق رجل (البورروه)".

راح يفكر مليًا، وكانت كل أفكاره مزعجة. وسرعان ما وقف وأمسك ببندقيته وغادر المكان وهو ينظر وراءه ويقول: "لو كنت مكانك لما ابتعدت كثيرا. سوف أذهب لأبحث الأمر ولكى أعرف ما الذى يمكننى عمله فى هذا الصدد".

مكث (بولوك) جالسًا فى الخيمة يتأمل ما حدث، ويقول لنفسه فى حسرة، فى حين كان يشعل غليونه: "لقد خلقت لأحيا حياة متحضرة. وكلما أسرعت بالعودة إلى (لندن) أو (باريس)، كان هذا أفضل لى".

ووقعت عيناه على الحقيبة المختومة بالشمع الأحمر، التى يضع فيها (ووترهاوس) السهام المسمومة، التى اشتروها من بلد قبيلة (المندى). قال (بولوك) بحنق بالغ: "كم كنت أتمنى أن أضرب ذلك التعس فى مقتل".

عاد (ووترهاوس) بعد انقضاء فترة طويلة. لم يتحدث بالكثير على الرغم من الأسئلة العديدة التى طرحها عليه (بولوك). يبدو أن رجل (البوروه) كان عضوًا بارزًا ومعروفًا فى ذلك المجتمع الغامض بل كان أيضًا طبيبًا ساحرًا. وكانت القرية كلها مهتمة بما حدث، ولكنها لم توجه أى إنذار يشكل خطرًا.

وكان كل أهل القرية يعلمون أن الطبيب الساحر رجل (البوروه)، حتى اختفى بين الأدغال الكثيفة. إنه طبيب ساحر عظيم. واختتم (ووترهاوس) حديثه بقوله: "يبدو أنه على وشك القيام بشىء ما" ثم صمت.

قال (بولوك) بلا اكتراث: "وماذا عساه أن يفعل؟".

أجابه (ووترهاوس) بعد فترة صمت: "يجب أن أنقذك من هذا الموقف. فثمة شىء يدبر فى الخفاء، ولن تبقى الأمور هادئة كما هى الآن. أراد (بولوك) أن يعرف ما الذى يدبر فى الخفاء. قال (ووترهاوس): "طقوس وثنية. رقص داخل حلقة من الجماجم البشرية. تخمير مواد ذات رائحة نتنة فى أوعية من نحاس!" كان (بولوك) مصرًا أن يعرف كل شىء بالتفصيل. أصبح (ووترهاوس) غامضًا، وأخذ (بولوك) يلح عليه. وفى نهاية الأمر فقد (ووترهاوس) أعصابه وصاح: "بحق الشيطان! كيف لى أن

أعرف؟.." بعد أن سأله (بولوك) نحو عشرين مرة، عما ينوى أن يفعله رجل (البوروه). واستطرد (ووترهاوس) قائلاً: ".. لقد حاول أن يقتلك بطريقة مرتجلة فى الكوخ، وأعتقد أنه الآن يفكر فى خطة أكثر إحكامًا. سوف تعرف هذا عما قريب. لا أريد أن أفقدك أعصابك، ربما كان الأمر كله مجرد هراء وسخف".

فى هذه الليلة بينما كانا يجلسان حول النيران، حاول (بولوك) من جديد، أن يقوده باتجاه الأساليب التى يمكن لرجل (البوروه) أن يتبعها. قال له (ووترهاوس): "الأفضل لك أن تخلد للنوم. سوف نبدأ رحلتنا مبكرين فى الصباح. إنك فى حاجة للاحتفاظ بأعصابك سليمة تمامًا".

"ولكن أى أسلوب سوف يتبعه؟".

"لا أستطيع تحديد أسلوب معين. إنهم قوم متقلبون ولهم أساليب عديدة متباينة، وكلها خادعة وقذرة؛ فهم يعرفون الكثير من الحيل الخطيرة. اسأل عنها الوطنى الذى يدعى (شكسبير).

فجأة التمعت ومضة، ودوى انفجار قوى، من طيات الظلمة خلف الأكواخ، رصاصة اندفعت تصفر بالقرب من رأس (بولوك). وكان هذا ـ على الأقل ـ أسلوبًا بدائيًا للغاية. قفز السود ـ الذين كانوا يجلسون ويثرثرون حول النار ـ وأطلق أحدهم النار فى الظلام، حيث جاءت الرصاصة. قال (ووترهاوس) بهدوء ودون أن يتحرك: "الأفضل لك أن تذهب إلى أحد الأكواخ". نهض (بولوك) وأمسك بمسدسه، وفكر فى أنه لا يخشى القتال. لكن الرجل الذى يختبئ فى الظلام، يكون محاطًا بأفضل الدروع على الإطلاق. وبعد أن

أدرك مدى صدق نصيحة (ووترهاوس)، ذهب إلى الخيمة وتمدد هناك.

وكانت الفترة القصيرة التى نام فيها، زاخرة بالأحلام. أحلام مزعجة ومتباينة. وبصفة أساسية تراءى له وجه رجل (البورره) فى اضطراب وفوضى شديدة، عندما خرج من الكوخ، وأخذ يرمقه فى تحد. وكان غريبًا أن يكون هذا الانطباع العابر، قد ثبت بهذا العمق فى ذاكرة (بولوك). وإلى جانب ذلك كان يعانى من آلام غريبة لم يشعر بها من قبل، فى كل أعضاء جسمه. وباكرًا فى صباح اليوم التالى، الملفع بالضباب الأبيض. بينما كانوا يحملون قوارب (الكانو)[٨] انطلق فجأة سهم له أشواك، ليسقط قريبًا من قدم (بولوك). وحاول الحمالون ـ بقليل من الحماسة والاهتمام ـ البحث فى الدغل القريب عن الرامى، بيد أن مجهوداتهم باءت بالفشل.

بعد هذين الحادثين، كان ثمة اتجاه لدى رجال البعثة، بتجنب (بولوك). وللمرة الأولى فى حياته شعر (بولوك) برغبته فى أن يندمج مع الوطنيين السود. واستقل (ووترهاوس) قاربًا، أما (بولوك) فقد اضطر لركوب آخر، على الرغم من رغبته فى أن يثرثر دون تكلف مع (ووترهاوس).

تركوا (بولوك) وحيدًا فى الجزء الأمامى من القارب، ووجد مشقة كبيرة فى إقناع الرجال ـ الذين لا يحبونه ـ أن يبقوا القارب فى وسط النهر، على بعد نحو مائة ياردة أو أكثر، عن كل ضفة. ومع هذا فقد استطاع أن يقنع (شكسبير) ـ الرجل القادم ـ من

(٨) قارب طويل ضيق يقاد باستعمال مجداف أو أكثر (المترجم).

(فريتاون)[٩] ـ بالمجىء إلى مقدمة القارب، ويجلس إلى جواره ليحدثه عن (البوروه). وبعد أن فشلت محاولات (شكسبير) لتركه وحيدًا، أخذ يتحدث معه بتحرر ومتعة.

وانقضى صباح اليوم، وكان القارب ينساب بنعومة وسرعة، على صفحة المياه، بين ضفتين تنمو عليهما أشجار التين وتلك المنحنية إلى الأمام والنخيل وثمة مستنقع إلى اليسار تنمو فيه أشجار (المنجروف)[١٠] الداكنة، ومن خلالها يمكن للمرء أن يسمع ـ من حين لآخر ـ هدير أمواج المحيط الأطلسى، المتكسرة على الشاطىء.

أخذ (شكسبير) يحكى له، بلغته الإنجليزية الضعيفة غير الواضحة. كيف يمكن لرجال قبيلة (البوروه) أن يصبوا لعناتهم، وكيف يجعلون الرجال يفقدون نضارتهم وحيويتهم. وكيف أن بإمكانهم أن يرسلوا الكوابيس والشياطين. وكيف عذبوا وقتلوا أبناء (إيجيبو). وكيف أنهم خطفوا تاجرًا أبيض من (سوليما) ـ لأنه أساء معاملة واحد من طائفتهم ـ ثم قتلوه وشوهوا جثته.

أخذ (بولوك) يسمع فى رعب هذه القصص، وهو يلعن فى سره، تلك الحملات التبشيرية التى تسمح بوقوع مثل هذه الأحداث، والحكومة البريطانية التى تحكم هذا القطاع الوثنى المظلم من (سيراليون).

وفى المساء، وصلوا إلى بحيرة (كازى)، وما إن شاهدتهم

---

(٩) عاصمة (سيراليون) (المترجم).

(١٠) شجر استوائى دائم الخضرة (المترجم).

مجموعة من التماسيح حتى تحركت بتثاقل بعيدًا عن الجزيرة، التى تنوى البعثة أن تعسكر فيها طوال الليل.

فى اليوم التالى، وصلوا إلى (سوليما). وهناك تمتعوا بنسيم البحر المنعش، لكن (بولوك) كان مضطرًا إلى البقاء هنا لخمسة أيام، قبل أن يستطيع الإبحار إلى (فريتاون) وكان (ووترهاوس) يعتبر أن صديقه آمن نسبيًا هنا. ومن ثم تركه وعاد مع رجال البعثة إلى (جبيما). وخلال هذه الفترة، أصبح (بولوك) صديقًا حميمًا لشخص يدعى (بيريرا) ـ التاجر الأبيض الوحيد المقيم فى (سوليما) ـ وبلغت صداقتهما حدًا، أنهما كانا يذهبان معًا فى كل مكان. كان (بيريرا) برتغاليًا يهوديًا قصير القامة، عاش فى إنجلترا لفترة ما.

وكان يقدر صداقة الإنجليزى (بولوك) ويعتبرها شرفًا عظيمًا له.

مر يومان دون حدوث شىء يعكر صفو الأمان، وكانا يقضيان الوقت فى ممارسة لعبة "الناب"، وهى اللعبة الوحيدة التى يشتركان فى معرفتها، ثم ـ فى مساء اليوم الثانى ـ تلقى (بولوك) النبأ البغيض، بأن رجل (البوروه) موجود الآن فى (سوليما). وعرف بهذا الأمر، عندما اخترقت قذيفة من الحديد، لحم كتفه. وكانت قد أطلقت القذيفة من مسافة بعيدة، ومن ثم استنفدت قوتها عندما أصابته. ولكن مع هذا نقلت رسالتها بوضوح كاف. جلس (بولوك) طوال الليل فى أرجوحته الشبكية والتى علقت بين شجرتين، ومسدسه فى يده، وفى صباح اليوم التالى، أفضى للتاجر البرتغالى بسره.

وأخذ (بيريرا) الأمر بجدية. فقد كان يعلم جيدًا بالتقاليد المحلية، وقال: "يجب أن تعرف أنها مسألة شخصية. رغبة فى الانتقام. لقد خشى أن تغادر البلاد. وعمومًا فلن يتدخل أحد الوطنيين فى النزاع بينك وبينه. ومن ثم عليك أن تواجه الأمور وحيدًا. وإذا واجهته فى أى مكان فعليك أن تقتله إلا إذا قتلك أولاً.." ثم استطرد بعد هنيهة قائلاً: ".. ثم تأتى مشكلة السحر الأسود. وبالتأكيد أنا لا أومن به، إنها مجرد خرافات. لكنك ـ دون شك ـ سوف تبقى قلقًا من فكرة أن هناك رجلاً أسود يمارس طقوسًا سحرية، ويرقص من حين لآخر حول النيران فى ضوء القمر، لكى يبعث لك بالأحلام المزعجة. هل تراءت لك أحلام مزعجة مؤخرًا؟".

قال (بولوك): "إلى حد ما. لكن ما يزعجنى هو رؤيتى للوجه المقلوب لرجل (البوروه)، وهو ينظر إلىّ ويفتر ثغره عن ابتسامة عريضة، مظهرًا كل أسنانه، كما فعل عند مدخل الكوخ، وكان دائمًا يقترب منى ثم يبتعد كثيرًا عنى، ولكن سرعان ما يعود من جديد، إنه أمر لا يخيفنى. ولكن ـ بطريقة ما ـ يصيبنى بالشلل من فرط الرعب أثناء نومى. كم هى غريبة تلك الأحلام! أعلم طيلة الوقت أننى أحلم، لكننى لا أعرف كيف أستيقظ منه".

قال (بيريرا): "هذه مجرد تخيلات! إن رجالى يقولون بأن رجال (البوروه) بمقدورهم إرسال ثعابين. هل رأيت أى ثعابين مؤخرًا؟".

"واحدًا فقط. لقد قتلته صباح اليوم، فوق الأرضية بالقرب من أرجوحتى الشبكية. كدت أن أطأه عندما استيقظت من النوم، ونزلت من فوق الأرجوحة الشبكية".

قال (بيريرا): "آه" ثم استطرد بصوت يعيد الطمأنينة إلى (بولوك): "بالطبع هذه مجرد صدفة. ومع هذا يجب أن تكون حذرًا. هل هناك آلام فى عظامك؟".

"أعتقد أنها بسبب مرض (الميازما)".

"ربما كان هذا مجرد صدفة! متى بدأت تشعر بهذه الآلام؟".

عندئذ تذكر (بولوك) أنه بدأ يشعر بهذه الآلام لأول مرة، فى الليلة التى تلت المعركة التى دارت فى الكوخ.

قال (بيريرا): "الرأى عندى أنه لا يريد قتلك. على الأقل ليس فى الوقت الحاضر. لقد سمعت من رجالى، أن أسلوب رجال (البوروه) يتمثل فى إخافة الشخص وإزعاجه وإثارة قلقه، بواسطة تعويذاتهم والأسلحة التى تكاد تصيب الهدف، والآلام الروماتيزمية والأحلام المزعجة، وما شاكل هذا، حتى يسأم الشخص الحياة. وبالطبع هذه مجرد أقاويل، فلا تقلق بشأنها. ولكنى أشعر بالفضول مما قد يفعله فى المرة القادمة".

حدق (بولوك) بكآبة فى أوراق اللعب الملوثة بالدهن، والتى كان (بيريرا) يضعها فوق المنضدة، وقال: "يجب أن أبادر بفعل شىء ما. إذ لا يناسب شخص فى منصبى. أن يتبعه قاتل ويطلق عليه الرصاص ويفسد حياته. وأتساءل إذا كان رجل (البوروه) قد استطاع بسحره أن يجعلك تخسر فى ألعاب الورق؟".

وتطلع إلى (بيريرا) بنظرات مرتابة.

قال (بيريرا) بصوت مفعم بالحماس فى حين كان يخلط أوراق اللعب معًا: "إنهم رجال مدهشون".

وبعد ظهر ذلك اليوم، قتل (بولوك) ثعبانين فى أرجوحته الشبكية، واتضح له أيضًا أن هناك زيادة غير عادية فى أعداد النمل الأحمر، التى أخذت أسرابها تجتاح المكان. وكانت هذه المضايقات سببًا فى أن يناقش بعض الأمور مع أحد رجال (المندى)، الذى عرض على (بولوك) خنجرًا معدنيًا صغيرًا، وأخذ يشرح له، أين يطعن به فى العنق، بطريقة جعلت (بولوك) يرتعد، إلا أنه - لاعتبارات معينة - شكر رجل (المندى) ووعده بإهدائه بندقية بماسورتين، وذات قفل مزخرف.

وفى المساء بينما كان (بولوك) و(بيريرا) يلعبان الورق، جاء رجل (المندى) عبر الباب، وهو يحمل شيئًا ملفوفًا فى قطعة من القماش الوطنى، غارقة فى الدماء. قال (بولوك) والكلمات تتلاحق بسرعة فوق شفتيه: "ليس هنا! ليس هنا!".

لم يكن سريعًا بما يكفى، لإيقاف رجل (المندى) الذى كان متشوقًا لأخذ المكافأة. فتح القماش الملفوف ورمى برأس رجل (البوروه) المقطوع على المائدة، التى سرعان ما تدحرج إلى الأرضية، تاركًا خطًا أحمر فوق أوراق اللعب، ثم استقر فى أحد الأركان، وكان وجهه مقلوبًا، ولكن العينين كانتا تحدقان بحدة فى (بولوك).

قفز (بيريرا) فى فزع، عندما سقط الرأس المضرج بالدماء، على أوراق اللعب فوق المنضدة. وأخذ يتكلم بسرعة وبلا وضوح باللغة البرتغالية، فى حين انحنى رجل (المندى) وهو ما يزال ممسكًا بالقماش الملطخ بالدماء، وصاح قائلاً: "البندقية". حدق (بولوك) فى الرأس الموجود فى الركن. كان الوجه يحمل تمامًا نفس التعبير،

الذى تراءى له فى أحلامه. كان ثمة صوت حاد فى ذهنه، وهو ينظر إلى الرأس.

استطاع (بيريرا) أن يجد لغته الإنجليزية أخيرًا، بعد الصدمة. قال: "هل طلبت من شخص ما أن يقتله؟ ألم تقتله بنفسك؟".

قال (بولوك): "لماذا يجب علىّ أن أقتله بنفسى؟".

"هكذا لن يستطيع إزالته الآن!".

"يزيل ماذا؟".

"لقد تلفت كل أوراق اللعب".

قال (بولوك): "ماذا تعنى بأنه لن يستطيع إزالته الآن؟".

"يجب أن ترسل لى مجموعة جديدة من أوراق اللعب من (فريتاون). يمكنك شراؤها من هناك".

"ما الذى لن يستطيع إزالته؟".

"إنها مجرد خرافة. لقد نسيت، يزعم الزنوج أنه إذا لعنك أحد السحرة، فعليك أن تجعله يزيل اللعنة أو تقتله بنفسك. وهذا ينطبق على رجل (البوروه) تمامًا، لأنه كان ساحرًا. ولكن هذا أمر سخيف للغاية!". لفظ (بولوك) فى سره الشتائم والسباب، وهو ما يزال يحدق فى الرأس التى عند الركن.

قال: "إننى لا أستطيع تحمل هذه الحملقة" وفجأة اندفع إلى مكان رأس القتيل وركله. فتدحرج لعدة ياردات، بعدها استقر بنفس وضعه السابق، بالمقلوب، وما زالت العينان تحدقان فيه.

قال الرجل الأنجلو برتغالى أخيرًا: "إن وجهه بشع، بل غاية فى البشاعة، إنهم يحدثون الشقوق فى وجوههم بالسكاكين الصغيرة، كعلامة على الجمال!".

كاد (بولوك) أن يركل الرأس من جديد، لكن رجل (المندى) لمسه فوق ذراعه وهو ينظر إلى الرأس بعصبية: "البندقية!".

قال (بولوك) بحنق: "سأعطيك بندقيتين، لو أنك أخذت هذا الشىء المروع من هنا".

إلا أن رجل (المندى) هز رأسه بالنفى، وقال بلهجة حميمية بأنه لا يريد سوى بندقية واحدة حسب الاتفاق. وسوف يكون ممتنًا لهذا. وحاول (بولوك) بالتودد وبالتهديد باستعمال القوة، ولكن دون جدوى. كان لدى (بيريرا) بندقية للبيع (بربح يصل إلى ثلاثمائة بالمائة)، أعطاها لرجل (المندى)، فأخذها وانصرف.

حينئذ نظر (بولوك) من جديد - رغمًا عنه - إلى رأس رجل (البوروه) الملقى على الأرضية. قال (بيريرا) وهو يضحك بعصبية: "أمر غريب أن يفضل هذا الرأس الوضع المقلوب. لا ريب أن مخه ثقيل للغاية. مثل الدمى التى نراها فى الصور، وفيها يعمل ثقل على أن تبقى دائمًا منتصبة القامة. سوف تأخذ الرأس معك عندما تذهب من هنا. ويمكن أن تأخذه الآن. لقد تلفت كل أوراق اللعب. هناك متجر يبيعها فى (فريتاون). أصبحت حجرتى فى حالة يرثى لها. كان يجب عليك قتل رجل (البوروه) بنفسك!".

استجمع (بولوك) شجاعته، وسار إلى حيث الرأس والتقطه من على الأرضية. وفكر فى أنه يمكن أن يعلقه فى خطاف المصباح

بالسقف فى وسط حجرته، ولكنه آثر أن يحفر له قبرًا على الفور. وكان لديه انطباع بأنه حمل الرأس من شعره، لكن لابد أنه كان مخطئًا، لأنه حين نظر للرأس مرة أخرى، اتضح له أنه يحمله من الرقبة ومن ثم كان مقلوبًا! دفن الرأس قبل غروب الشمس، فى قبر حفره فى الجزء الشمالى من منطقة الكوخ الذى يقطنه، وذلك حتى لا يمر على القبر، فى الظلام عندما يعود من عند (بيريرا) ليلاً. وتمكن من قتل ثعبانين آخرين قبل أن يخلد للنوم.

وفى أعماق الظلام، استيقظ فزعًا، إذ سمع صوت نقر خفيف وشىء ما يحك فى الأرضية. استوى جالسًا بهدوء فى فراشه، وتحسس مسدسه تحت الوسادة. وتلا هذا صوت دمدمة منخفضة غير واضحة. فأطلق رصاصة على مصدر الصوت. كان هناك نباح قصير، ومر شىء ما أسود للحظة، عبر الضباب الخفيف الأزرق عند المدخل. قال (بولوك): "إنه مجرد كلب" وعاد يستلقى على الفراش من جديد.

وعندما بزغ الفجر، استيقظ مرة أخرى، ولديه إحساس غريب بعدم الراحة. وأدرك أن الألم فى عظامه قد عاد. ولبعض الوقت، رقد يراقب النمل الأحمر، الذى كان يسير فى حشود على السقف، ثم بعد أن تزايد إشراق الصباح، لمح عند طرف أرجوحته الشبكية – التى يستخدمها كفراش –شيئًا مظلمًا على الأرضية. تحرك بعنف حتى إن أرجوحته ألقت به من فوقها.

وجد نفسه يرقد، ربما على بعد ياردة واحدة، من رأس رجل (البوروه)!

كان الكلب قد مزق الوجه، أما الأنف فكان مشوهًا! وكان النمل والذباب يحتشد فوق الرأس، لكنه ظل –ربما بالصدفة المحضة – فى ذلك الوضع المقلوب وما زالت تلك النظرة الشيطانية الكريهة فى عينيه.

جلس (بولوك) غير قادر على الحركة أو التصرف، ينظر برعب إلى ذاك الرأس المشوه. نهض من فراشه وسار حوله ـ تاركًا مسافة كافية بينهما ـ ثم خرج بسرعة من الكوخ. وكان الضياء الصافى الذى صاحب شروق الشمس، والتمايل النابض بالحياة للخضرة، فى النسيم المنعش للصباح. والقبر الخالى وبه آثار مخالب الكلب، كل هذا خفف إلى حد ما من الذعر الذى كان يثقل عقله.

حكى لصديقه (بيريرا) كل ما حدث، ساخرًا من خيالاته غير المبررة، قال (بيريرا) بمرح متكلف: "ما كان ينبغى عليك إخافة هذا الكلب!".

طوال اليومين التاليين ـ وحتى جاءت السفينة البخارية ـ ظل (بولوك) يحاول إيجاد السبل الفعالة للتخلص من رأس رجل (البوروه) . كان يحاول التغلب على حالة الاشمئزاز التى تنتابه كلما أمسك بذاك الرأس. وأخيرًا توجه إلى مصب النهر، وقرر أن يلقى بالرأس هناك، ولكن ـ بمعجزة ما ـ نجا من التماسيح ثم جرفه المد فوق وحل الشاطىء. حيث وجده عربى مثقف وعرضه على (بولوك) و(بيريرا) لشرائه كشىء غريب ولافت للنظر. وعندما شاهد أمارات الفزع على وجهيهما. انتابه الذعر هو الآخر وتركهما. ولكنه عندما مر بالكوخ الذى يقطنه (بولوك)، رمى بالرأس داخله، واكتشف (بولوك) وجوده فى صباح اليوم التالى.

عندئذ بدأ (بولوك) يدخل فى حالة هياج عقلى عنيف. وقرر أن يحرق هذا الرأس المروع. وفى فجر اليوم التالى صنع محرقة كبيرة من أغصان مقطوعة، وأراد أن ينتهى منها، قبل أن يصطلى بحرارة النهار اللافحة.

وأوقف عمله، صوت صفير السفينة البخارية التى تسير على الخط الملاحى بين (مونوروفيا) و(باثورست)، إنها السفينة التى ينتظرها منذ أيام.

قال (بولوك) بصوت نابع عن تقوى: "شكرًا للسماء". وبيد مرتعدة أشعل النيران فى المحرقة بسرعة، وألقى فيها بالرأس. وذهب لكى يحزم حقيبته الكبيرة، ويودع صديقه (بيريرا).

وبعد ظهيرة هذا اليوم، شعر بارتياح لا حدود له، وأخذ يحدق فى المستنقع المسطح الذى يمثل مقدم شاطئ (سوليما)، وهو يصغر ويصغر كلما ابتعدت السفينة. وراحت الثغرة التى تظهر الخط الأبيض الطويل المتماوج، تضيق وتضيق. وبدا له أنها تنغلق لتبعده عن كل متاعبه. وأخذ الشعور بالرعب والقلق يفارقه رويدًا. لقد ابتعد عن (سوليما) حيث يعتقدون هناك بسحر رجال (البوروه)، الذى أصبح يجتاح البلاد منذرًا ومهددًا. ومن السفينة كانت تبدو منطقة نفوذ (البوروه)، مساحة صغيرة من الأرض، مجرد شريط أسود رفيع، بين البحر ومرتفعات (مندى) التى تغلفها السحب الزرقاء.

صاح (بولوك) بمرح: "وداعًا يا (بوروه)! وداعًا وليس إلى لقاء!".

جاء قائد السفينة البخارية ووقف إلى جواره متكئًا على سياج السفينة وأخذ يرمق الماء، وتمنى له ليلة سعيدة. وقال: "لقد التقطنا

من فوق الشاطىء شيئًا غريبًا ولافتًا للنظر، شيئًا لم أصادفه أبدًا فى هذه المنطقة من قبل".

قال (بولوك): "وما عسى أن يكون هذا الشىء؟".

أجابه قائد السفينة قائلاً: "رأس إنسان محترق ومدخن".

قال (بولوك): "ماذا؟".

قال قائد السفينة: "نعم مدخن.. يصدر عنه دخان.. إنه رأس واحد من رجال (البوروه) الذين يزينون وجوههم بشقوق سكين صغير. ماذا ألمّ بك؟ لا شىء؟ إننى لم أتصور أنك شخص عصبى! لقد أصبح وجهك شاحبًا! لقد وضعت الرأس مع بعض الثعابين فى الكحول فى مرطبات بقمرتى. إننى أحب الاحتفاظ بهذه الأشياء الغريبة. والعجيب أن رأس (البوروه) هذا، يطفو فى وضع مقلوب! ماذا بك؟".

أطلق (بولوك) صرخة، وتخللت أصابعه شعره. وركض إلى حيث صندوق عجلة التجديف فى السفينة، وللحظة فكر فى أن يرمى بنفسه إلى المياه، ولكنه سرعان ما عاد إلى صوابه.

صاح قائد السفينة: "ماذا بك؟ هل جننت؟".

وضع (بولوك) يده فوق رأسه. وحاول أن يشرح الأمر: "أعترف أننى أحيانًا أصاب بنوبات جنون! إنه صداع مفاجئ أشعر به هنا. أرجو أن تأذن لى بالانصراف".

كان شاحب الوجه وجبهته تتصبب عرقًا. وأدرك فجأة - وبوضوح تام - تلك الأخطار التى سوف يتعرض لها، لو حسبه قائد السفينة

مجنونًا. ومن ثم فقد بذل جهدًا لكى يسترجع ثقة قائد السفينة، وذلك بأن يجيب على كل استفساراته بطريقة ودية، واحتسى معه عدة كئوس من (البراندى) بل وأخذ يسأل قائد السفينة عن تجارته الخاصة فى التحف والسلع النادرة. وراح قائد السفينة يصف له رأس (البوروه) بالتفصيل. كل هذا و(بولوك) يحاول أن يقنع نفسه، بأنه من المستحيل أن يتصور أن السفينة أصبحت شفافة كالزجاج، وأنه يمكنه أن يشاهد الرأس فى قمره قائد السفينة فى وضعه المقلوب، وأن العينين تحدقان فيه بتحد.

وهكذا قضى (بولوك) وقتًا أكثر سوءًا، عن ذلك الوقت فى (سوليما). وطوال النهار كان يحاول أن يتمالك نفسه حتى لا ينفعل بشدة، وهو يدرك الوجود القريب لهذا الرأس المروع، الذى أصبح يلقى بظلاله على عقله. وفى الليل عادت إليه الكوابيس تطارده بلا رحمة، فكان يستيقظ بشعور مؤلم وحاد من الخوف والرعب، وثمة صرخة مريعة محتبسة فى حلقه. ترك رأس (البوروه) فى (باثورست)، حيث غيّر السفينة مبحرًا إلى (تاناناريف)، بيد أن كوابيسه لم تفارقه. وكذلك آلام عظامه، وكان الرأس يسيطر على خياله دائمًا ويتبعه فى كل مكان.

وحاول فى (تاناناريف) أن ينسى لعب القمار وجرّب لعب الشطرنج، حتى إنه استغرق فى قراءة الكتب، ولكنه لم يسرف فى الشراب لأنه كان يعرف خطورة ذلك.

وكان يحدث له أمر غريب! فكلما شاهد ظلاً أسود كروى الشكل، أو أى شىء أسود مستديرًا، كان يتصوره رأس (البوروه)!

كان يدرك تمامًا أن خياله أصبح خائنًا له يخدعه، ومع هذا ففى بعض الأوقات، تصور أن السفينة التى يبحر عليها ورفقاءه فى السفر والبحارة والبحر مترامى الأطراف، كل هذا عبارة عن سلسلة من الأوهام تتعاقب فى ذهنه، تعمل كستار يفصله عن عالم حقيقى مروّع. ولكن رجل (البوروه) كان يمزق برأسه الشيطانية هذا الستار. وكأنه هو الشىء الحقيقى الوحيد الذى لا يمكن إنكاره!

وعندما تنتابه هذه الأفكار، كان يلمس أو يتذوق أو يقضم أى شىء أمامه، وأحيانًا كان يلسع يده بعود ثقاب مشتعل أو يثقب جلده بإبرة.

وهكذا ظل (بولوك) يعانى من هذا الصراع المروع مع خياله المثار والمنفعل، حتى وصل إلى (إنجلترا). وهبط من السفينة فى (ساوث أمبتون) ، وذهب على الفور فى عربة أجرة من (وولترلو) إلى (كورنهيل)، حيث البنك الذى يتعامل معه. وهناك قام بعقد بعض الصفقات التجارية مع مدير البنك فى حجرة منعزلة. وفى كل الأوقات كانت لديه صورة ذهنية، لرأس (البوروه) وهو معلق ـ وكأنه حلية ـ تحت رف الرخام الأسود الموجود فوق المدفأة ـ تتقطر منه الدماء فوق السياج. كان يستطيع سماع قطرات الدماء وهى تتساقط، ويرى لونها الأحمر على السياج[١١].

قال مدير البنك وهو يتابع عينى (بولوك): "نبات (سرخس) جميل، إلا أنه يجعل سياج المدفأة مغطى بالصدأ"[١٢].

(١١) الشبكة المعدنية الحامية من المدفأة (المترجم).

(١٢) غالبًا يكون لون الصدأ بنيًا محمرًا.

قال (بولوك): "نعم إنه نبات (سرخس) بالغ الجمال. ولكن هذا يذكرنى بأمر ما. هل يمكنك أن توصى لى بطبيب أمراض عقلية؟ إذ إننى أعانى أحيانًا من بعض.. ما هو اسمها؟ (الهلوسة)!".

وهناك ضحك الرأس المعلق، بوحشية وبربرية،ودهش (بولوك)، من أن مدير البنك لا يلاحظ وجود الرأس. وكان المدير يحدق فى وجهه طوال الوقت.

أمسك (بولوك) بعنوان الطبيب فى يده، واتجه إلى (كورنهيل). ولم تكن هناك عربة أجرة على مرمى البصر. ومن ثم سار إلى الجانب الغربى من الطريق، وحاول العبور من هناك. إن عبور الطريق - حتى بالنسبة لأحد سكان (لندن) ذوى الخبرة فى هذا المجال - أمر تكتنفه صعوبة، إذ إن هناك تيارًا متلاحقًا من عربات النقل والشاحنات وعربات الركاب وعربات البريد والحافلات. وبالنسبة لرجل قادم لتوه من (سيراليون) حيث العزلة والهدوء، يبدو الطريق متأججًا بالفوضى المجنونة. ولكن عندما يأتى رأس مقلوب السحنات، يتواثب - مثل كرة مطاطية - بين قدميك، تاركًا لطخات من الدماء، فى كل مرة يلمس فيها الأرض، فإنك فى هذه الحالة لا تستطيع تفادى وقوع حادث لك، رفع (بولوك) ساقيه بتشنج، حتى يتجنب الرأس، ثم ركله بعنف بالغ. عندئذ ارتطم شىء ما بقوة فى ظهره، وشعر بألم مبرح فى ذراعه.

لقد صدمته إحدى الحافلات، مما أدى إلى كسر ثلاثة من أصابع يده اليسرى، عندما وطأها حافر أحد الخيول التى تجر

الحافلة، وكانت هذه هى نفس الأصابع التى كان يمسك بها بالمسدس الذى أطلق منه الرصاصة على رجل (البورره)!

أخرجوه من بين حوافر الخيل، ووجدوا عنوان الطبيب بين أصابعه المهشمة.

وخلال يومين لم يشعر (بولوك) بأى شىء، سوى الرائحة الحادة واللاذعة للـ (الكلوروفورم)[١٢]، وكانت قد أجريت له عمليات جراحية، لم تسبب له أى ألم، كان يرقد فى سكون دون حراك، وكان يقدم إليه الطعام والشراب. ثم أصيب بحمى خفيفة، وأحس بالعطش الشديد، وتراءى له الكابوس القديم. وعندما عاد أدرك أنه لم يره منذ يوم كامل.

قال (بولوك) وهو مستغرق فى التفكير ومحدق برعب فى الوسادة التى اتخذت شكل رأس أسود رهيب: "لو كانت جمجمتى هى التى تحطمت بدلاً من أصابعى، لذهب الرأس إلى غير رجعة".

فى أول فرصة أبلغ (بولوك) الطبيب بما يعانيه من اضطرابات عقلية. وصارحه بأنه إذا لم يحدث تدخل سريع لإنقاذه، فإنه سوف يجن لا محالة. وشرح له ـ كاذبًا ـ بأنه شاهد إعدام أحد المجرمين بقطع رأسه فى (داهومى)، ومن هذا اليوم وذاك الرأس المقطوع يطارده فى كل مكان، وكأنه أحد الأشباح. وبالطبع لم يشأ أن يذكر الحقائق بحذافيرها. وبدا الطبيب مهمومًا، وكأن الأمر يحتاج

---

(١٢) مادة مخدرة تستخدم فى العمليات الجراحية (المترجم).

للكثير من التفكير، وسرعان ما تحدث فى تردد وحيرة: "هل كانت تربيتك الدينية جيدة أثناء طفولتك؟".

قال (بولوك): "قليلة للغاية".

تجهم وجه الطبيب وقال: "لا أدرى إن كنت قد علمت بالعلاجات الروحية الخارقة - التى ربما لا تكون كذلك - التى تجرى فى (لورد)؟".

قال (بولوك) حين كان يرمق الوسادة التى تكورت مثل رأس أسود: "العلاج بالإيمان! أخشى أن هذا لن يناسبنى كثيرًا!".

أخذ رأس رجل (البوروه) - بقسماته المشوهة - يحدق فيه منذرًا. واقترح الطبيب حلاً آخر، مبديًا حماسًا مفاجئًا: "إن خيالك هو الذى يهيىء لك هذه الأشياء. إنها حالة يمكن شفاؤها بالعلاج بالإيمان. لقد انخفضت كفاءة جهازك العصبى. وأصبحت تعانى من ضعف تدريجى فى صحتك، ومن ثم تسيطر عليك الخيالات والأفكار المرعبة. كان مشهد الإعدام أكثر مما تتحمل. سوف أقدم لك وصفات، يمكنها أن تقوى من جهازك العصبى.. خاصة مخك. وعليك القيام بتدريبات جسمية وعقلية".

قال (بولوك) متجهمًا: "إننى لا أصلح للعلاج بالإيمان".

"لذلك السبب، عليك أن تسترد صحتك وعافيتك، باتباع أساليب أخرى. ابحث عن الهواء المنعش فى (اسكتلندا).. (النرويج).. (جبال الألب).."

ومع هذا، قرر (بولوك) بمجرد أن تشفى أصابعه، أنه سوف يبذل محاولة جادة وأمينة، لينفذ تعليمات الطبيب. حدث هذا فى

شهر (نوفمبر). فحاول أن يلعب كرة القدم، لكن المباراة كانت ـ بالنسبة إليه ـ ركل رأس مقلوب مروّع فى أنحاء الملعب! ومن ثم كان لاعبًا سيئًا. فقد كان يركل الكرة فى جنون وبنوع من الرعب، حتى عندما وضعوه فى مركز حارس مرمى، وكانت الكرة تنطلق إليه مسرعة، كان يصرخ فجأة ويهرب مذعورًا، بعيدًا عن طريقها. إن القصص الشائنة، التى دفعته لمغادرة إنجلترا والتجول فى البلاد الأفريقية، قد باعدت بينه وبين معارفه إلا نفر قليل منهم، والآن كان لسلوكه الذى يزداد غرابة يومًا بعد يوم، أثره فى أن يتجنبه حتى أصدقاؤه المقربون. ولم يعد الأمر يقتصر على مجرد مشاهدة الرأس، بل تعداه إلى أنه أصبح يتحدث إليه ويثرثر. وشعر به حقيقية لها وجود. وكان يسب الرأس ويلعنه. ويتحداه وأحيانًا كان يضعف ويناشده أن يتركه وحيدًا. وعلى الرغم من محاولاته الدؤوبة لضبط النفس، فإنه تحدث إلى الرأس ـ مرة أو مرتين ـ فى حضور آخرين. كان يشعر بالشك المتنامى فى عيون الناس. الذين يلاحظونه بانتباه، مالكة المبنى الذى يقطنه وخادمه ومرؤوسه.

وفى أوائل شهر (ديسمبر) جاء ابن عمه لزيارته ليطمئن عليه ويخرجه من عزلته، وقد روّع عندما شاهد وجه (بولوك) الشاحب الغائر، وأخذ يراقبه بعينين ضيقتين تواقتين. وبدا لـ (بولوك) أن القبعة التى يحملها ابن عمه فى يده، لم تكن قبعة على الإطلاق. بل ذاك الرأس الشيطانى الأسود، ذا الوجه المقلوب. الذى كان يحملق فيه بتحد وتوحش، ويسلبه تفكيره المنطقى. كان (بولوك) مصممًا على أن يعرف حقيقة ما يحدث. فاستأجر دراجة وسار بها على

الطريق المكسو بالصقيع من (واندزوورث) إلى (كنجستون)، وشاهد الرأس يتدحرج بجانب الدراجة، ويترك أثرًا أسود خلفه. ضغط على نواجزه، وانطلق بسرعة أكبر.

وبينما كان يهبط التل عند (ريشموند بارك) وجد الطيف المتجسد فجأة يتدحرج أمامه وتحت العجلة، حدث هذا بسرعة كبيرة، حتى إنه لم يجد الوقت الكافى ليفكر، ومن ثم دار على نحو مفاجىء ليتفادى الاصطدام بالرأس، فانقذف من فوق الدراجة بعنف، فوق كومة من الحجارة، مما أدى إلى كسر معصمه اليسرى.

وجاءت النهاية فى صباح يوم الاحتفال بـ (كريسماس). ظل طول الليل يعانى من الحمى، وكانت الضمادات التى تحيط بمعصمه مثل طوق من النار، وكانت أحلامه المزعجة مفعمة بالحيوية ومرعبة أكثر من أى وقت مضى. وفى الضوء الشاحب المتقلب لذلك الفجر البارد، قبل شروق الشمس. جلس (بولوك) فى فراشه، وشاهد الرأس موجودًا فوق رف، مكان إناء برونزى ظل هناك طوال الليل.

قال (بولوك) بريبة فى قلبه سببت له قشعريرة: "أعلم أن هذا إناء برونزى". وسرعان ما أصبح الشك لا يقاوم. فنهض من فراشه بتؤدة، وهو يرتعد، وسار إلى حيث كان الإناء، ورفع يده ناحية الرف.. وكان على ثقة بأنه الآن سيعرف أن خياله قد خدعه, وسوف يتعرف على بريق البرونز المميز. وفى النهاية ـ وبعد تردد طويل ـ لمست أصابعه الخد المتغضن للرأس! سحب أصابعه بتشنج. حينئذ أدرك أن هذه هى المرحلة الأخيرة. حتى حاسة اللمس قد خانته! أخذ يرتعد ويتعثر وهو فى طريقه إلى الفراش، ركل حذاءه

بقدميه العاريتين، دوامة تتحرك بسرعة حوله، تلمس طريقه إلى منضدة التزين، وأخذ الموسى فى يده. وفى المرآة تطلع إلى وجهه بالغ الشحوب والمرهق، والذى ترتسم عليه أقصى أمارات اليأس والمرارة. وأخذ يتذكر - بتتابع فى الترتيب والتسلسل - تفاصيل الأحداث التى مرت عليه فى حياته، بيته التعيس وأيام دراسته الكئيبة، وسنوات حياته الفاسدة، وعملاً فاضحًا يقود إلى آخر. وكلها تتسم بالأنانية. لقد اتضح كل شىء الآن، وليس هناك مجال لطلب الرحمة، بدت حماقة كل حياته وقذارتها، فى ذلك الفجر البارد ذى الضوء الشاحب. وتذكر الكوخ والتقاتل مع رجل (البوروه) إلى الانسحاب عبر النهر إلى (سوليما)، السفاح رجل (المندى) وطرده الأحمر. والمحاولات المحمومة للتخلص من الرأس، حتى تزايدت هلوسته. إنها هلوسة! كان يعرف هذا! مجرد هلوسة. للحظة تعلق بالأمل. ابتعد بنظره عن المرآة، وفوق الرف أخذ الرأس المقلوب يبتسم ابتسامة عريضة أحيانًا ويكشر عن أسنانه تارة أخرى! ورفع أصابعه المتيبسة ليده المضمدة، ليلمس بها عنقه ويتحسس نبض شرايينه. كان الصباح باردًا للغاية، ومن ثم كان ملمس النصل الصلب للموسى، على عنقه، كالثلج.

الحجرة الحمراء

قلت: "أستطيع أن أؤكد لك، أن الأمر يحتاج لشبح حقيقى وقوى كى يخيفنى".

ووقفت أمام المدفأة وكأسى فى يدى.

قال الرجل ذو الذراع الضامر، أخذ يرمقنى بطرف عينه: "إنه اختيارك الحر".

قلت: "لقد عشت ثمانية وعشرين عامًا، لم أشاهد فيها شبحًا واحدًا".

أخذت السيدة العجوز تحدق بحدة فى نيران المدفأة، وعيناها الرماديتان مفتوحتان بشكل تام، شاركت فى المناقشة، وقالت: "حقًا! لقد عشت ثمانية وعشرين عامًا. ولكنى أعتقد أنك لم تشاهد فيها مثيلاً لهذا المنزل، ثمة الكثير مما يمكنك أن تراه عندما يكون المرء ما يزال فى الثمانية والعشرين من عمره".

وراحت تؤرجح رأسها ببطء من جانب إلى آخر: "أشياء كثيرة تراها، وتندم عليها".

ساورتني الشكوك في أن العجوزين يحاولان بإصرار تضخيم الرعب الروحي الذي يخيم على منزلهما. وضعت كأسي الفارغة على المنضدة، وأخذت أتطلع حولي في الغرفة. واختلست نظرة إلى صورتي في المرآة القديمة ذات الشكل الغريب، الموضوعة عند نهاية الغرفة.

قلت: "حسن، لو شاهدت شيئًا ما في هذه الليلة، فسوف أزداد معرفة. لأنني أتيت إلى هذا المنزل منفتحًا للأفكار الجديدة".

قال الرجل العجوز ذو الذراع الضامر مرة أخرى: "إنه اختيارك الحر".

سمعت صوت عصا وخطوات متثاقلة على أرضية الممر بالخارج، تحرك الباب فأحدثت مفصلاته صريرًا، حين دلف إلى الغرفة عجوز آخر، أكثر انحناء وتجعدًا وأكبر سنًا حتى من العجوز الآخر. كان يستند على عكاز وحيد، وعيناه حمراوان وتتدلى شفته السفلى الشاحبة، أمام أسنان صفراء بالية. اتخذ طريقه مباشرة، إلى كرسي ذي ذراعين، يوجد عند الطرف الآخر من المنضدة، تهالك فوقه وأخذ يسعل. نظر الرجل ذو الذراع الضامر إلى القادم الجديد، نظرة سريعة تنم عن كراهية أكيدة، أما المرأة العجوز فلم تأبه بحضوره، ولكنها ظلت تحدق بثبات في نيران المدفأة.

عندما توقف السعال لهنيهة، قال العجوز ذو الذراع الضامر: "كنت أقول.. إنه اختيارك الحر".

أجبته: "نعم إنه اختياري الحر".

عندئذ لاحظ الرجل ذو العينين الحزينتين، وجودى لأول مرة، فألقى برأسه إلى الوراء لعدة ثوان ثم إلى جانب، ليرانى، ولمحت عينيه، كانتا صغيرتين ولامعتين ومصابتين بالتهاب، حينئذ بدأ يسعل من جديد ويخرج صوتًا كالبصق.

قال الرجل ذو الذراع الضامر: "ألا تريد أن تشرب؟".

ودفع بزجاجة البيرة نحوه. صب الرجل ذو العينين الحمراوين لنفسه كوبًا ممتلئًا بيد مرتعدة، فتناثرت كمية تعادل نصف ما فى الكوب، فوق المنضدة. وفجأة ظهر خيال عملاق له فوق الجدار، أخذ ينحنى ويقلد حركاته عندما صب البيرة وشربها. ويجب أن أعترف أننى لم أتوقع أبدًا وجود هؤلاء الأوصياء الغرباء. إن فى ذهنى شيئًا ما غير إنسانى فيما يتعلق بالتدهور العقلى والجسدى المميز للشيوخ، وانحناء الجسم، والتأسُّل[1]، إذ أعتقد أن الصفات البشرية تتساقط تدريجيًا مع التقدم فى السن، دون أن يدركوا ذلك. وهؤلاء الأوصياء الثلاثة، يجعلوننى أشعر بالاضطراب والانزعاج، بسبب إغراقهم فى الصمت، وتحركهم بأجسامهم المنحنية، بالإضافة إلى عدم مودتهم الواضحة، تجاهى وتجاه كل منهم للآخر.

قلت: "أرجو أن ترشدونى إلى تلك الحجرة المسكونة، حتى أستريح هناك".

دفع الرجل الذى كان يسعل، برأسه على حين غرة، مما جعلنى أجفل، ورمقنى بنظرة أخرى من عينيه الحمراوين، ولكن لم يجبنى

---

(١) ظهور بعض الصفات الوراثية بسبب اختلاط الجينات (المترجم).

أحد منهم. انتظرت دقيقة وأنا أوجه لهم نظرات سريعة، لواحد تلو الآخر.

قلت بصوت أعلى قليلاً: "إذا أرشدتمونى إلى تلك الحجرة المسكونة، فسوف أريحكم من مشقة تسليتى!".

قال الرجل ذو الذراع الضامر وهو ينظر إلى قدمىّ: "هناك شمعة فوق لوح خشبى بجانب الباب. لكنك إذا كنت سوف تدخل الغرفة الحمراء هذه الليلة...".

(قاطعته السيدة العجوز قائلة: "هذه الليلة من بين كل الليالى").

استطرد الرجل قائلاً: "... فيجب أن تذهب وحدك".

أجبته قائلاً: "حسن جدًا. ولكن ما هو الطريق إلى الحجرة الحمراء؟".

قال: "اذهب عبر هذا الممر لمسافة قصيرة، حتى تصل إلى باب خلفه درج حلزونى، وفى منتصف المسافة إلى أعلى هناك منبسط للدرج(٢) ثم باب آخر يغطى باللباد الأخضر ادخله ثم امش فى الممر الطويل الذى سوف يصادفك ـ حتى نهايته، وستجد الحجرة الحمراء إلى يسارك".

قلت: "أرجو أن أكون قد فهمت هذا جيدًا". وأعدت ترديد إرشاداته. وصحح لى معلومة واحدة.

قال الرجل ذو العينين الحمراوين: "هل تذهب حقًا؟"، ثم نظر إلىّ من جديد، وهو يميل بوجهه بطريقة غريبة غير طبيعية.

---

(٢) منصة تقع وسط مجموعة من درجات السلم (المترجم).

(وكررت المرأة العجوز قولها: "هذه الليلة من بين كل الليالى").

قلت له: "هذا ما أتيت من أجله" ,وتحركت ناحية الباب. وما إن فعلت هذا، حتى نهض الرجل ذو العينين الحمراوين وأخذ يسير مترنحًا حول المنضدة، ليقترب من الآخرين ونيران المدفأة، وعند الباب استدرت ونظرت إليهم، ولاحظت أنهم متقاربون بعضهم من بعض، ويبدون كالظلال فى ضوء المدفأة، ويرمقوننى من فوق أكتافهم وعلى وجوههم المتغضنة تعبير Intent .

قلت وأنا أوشك على فتح الباب: "عمتم مساء".

قال الرجل ذو الذراع الضامر: "إنه اختيارك الحر".

تركت الباب مفتوحًا على مصراعيه، حتى تأكدت من إشعال الشمعة، حينئذ أغلقت الباب عليهم، وسرت عبر الممر البارد الذى يردد الصدى، يجب هنا أن أعترف بمدى غرابة هؤلاء الثلاثة المتقاعدين، والتى تركت لهم السيدة النبيلة (الليدى)، هذه القلعة وأثاثها العتيق وكذلك حجرة الحارس التى تجمعوا فيها. كنت متأثرًا بكل هذا، على الرغم من محاولاتى أن أكون غير عاطفى. كان هؤلاء العجائز الثلاثة، ينتمون إلى عصر آخر، عصر قديم. حيث كانت الأمور الروحية تختلف عما هى عليه الآن، من حيث إنها أصبحت مشكوكًا فيها. وفى هذا العصر القديم كانت التعاويذ والساحرات قابلة للتصديق، وكانت الأشباح حقيقة لا ينكرها أحد.

لقد بدا لى أن العجائز الثلاثة مجرد أطياف أتت من هذا العالم القديم، بثيابهم العتيقة التى لا تمت للعصر الحاضر بصلة، حتى أثاث الزخرفة وأسلوبها وديكورات الحجرة التى يجلسون فيها، تبدو

شبحية، وتعبر عن أفكار أناس رحلوا عنا منذ زمن بعيد، وهى تلقى بأطيافها ولا تشارك بالفعل فى عالم اليوم.

بذلت جهدًا حتى أبعد هذه الأفكار عن ذهنى. كان الممر الطويل باردًا يقع تحت الأرض، ويتعرض للتيارات الهوائية، وممتلئًا بالغبار والتراب. وأخذت شمعتى تحتدم، فتجعل الظلال على الجدران تنكمش وتهتز، وترددت الأصداء أعلى الدرج الحلزونى وأسفله، وشاهدت ظلاً يرتقى الدرج بعدى، وآخر يفر من أمامى ويتلاشى فى الظلمة بأعلى. وصلت إلى منبسط الدرج، وتمهلت هناك للحظات، أحاول الإنصات إلى الحفيف الذى خيّل إلىّ أننى سمعته، وبعد أن تأكدت من الصمت المطبق، فتحت الباب المكسو باللباد، وتوقفت فى الردهة.

كان التأثير غير ما توقعته، إذ كان ضوء القمر يتسلل عبر النافذة الضخمة، التى تقع أعلى الدرج الحلزونى الكبير، إما أن يلقى ظلالاً أو يضفى ضياء فضيًا على الأشياء. كان كل شىء فى موضعه، وكأن القلعة مهجورة بالأمس فقط، وليس من ثمانية عشر شهرًا.

كانت هناك شموع فوق أرفف جدارية، والغبار الذى تراكم على السجاد والأرضيات المصقولة، لم يكن مرئيًا فى ضوء القمر، ذلك أن كمياته كانت متساوية فى كل مكان. كنت على وشك أن أخطو إلى الأمام، ثم وقفت على نحو مفاجىء. كانت مجموعة من التماثيل البرونزية موضوعة فوق منبسط الدرج، وكانت غير مرئية لى، إذ يحجبها عنى ركن الجدار. ولكن خيالها سقط على كسوة الجدار

البيضاء[٣]، وأعطانى إيحاء بأن شخصًا ما محنى القامة يتربص بى. تجمدت لنصف دقيقة أو كِدْت، وكانت يدى فوق جيبى حيث وضعت مسدسى. تقدمت ببطء، لأكتشف تمثالاً من البرونز، يتلألأ فى ضوء القمر.

وقد أعاد لى هذا الحادث - لبعض الوقت - شجاعتى وثباتى، حتى إنه عندما اهتزت رأس التمثال الخزفى الكبير الموضوع على منضدة مطعمة بالصدف، عندما مررت بجانبه، فإنه لم يحرك فىّ ساكنًا.

كان الباب الموصل إلى الحجرة الحمراء، والدرجات الصاعدة المؤدية إليه، كانت كلها فى ركن تكتنفه الظلال. فأخذت أحرك شمعتى من جانب إلى آخر، حتى أتبين بوضوح طبيعة هذا المكان المعزول، الذى أقف فيه قبل أن أفتح الباب.

وهنا - على ما أعتقد - وجدوا الشخص الذى سبقنى إلى الغرفة الحمراء. وعندما تذكرت تفاصيل تلك الحادثة، أصابنى الاضطراب والانزعاج بشكل مفاجىء. حدقت إلى الخلف حيث تمثال مغمور بضوء القمر، وفتحت باب الحجرة الحمراء بسرعة، فى حين كنت أدير وجهى إلى حيث الصمت الكئيب عند منبسط الدرج.

دلفت إلى الداخل، وأغلقت الباب ورائى على الفور، وأدرت المفتاح فى القفل، إذ وجدته فى الباب من الداخل. ووقفت ممسكًا بالشمعة عاليًا، ورحت أتفحص بدقة المشهد الذى سوف أقضى فيه

---

(٣) ألواح خشبية زيتية متصلة يكسى بها الجدار (المترجم).

سهرتى، الحجرة الحمراء العظمى بقلعة (لورين)، والتى مات فيها الدوق[٤] الشاب.

أو - على الأصح - حيث بدأ يعانى سكرات الموت، لأنه فتح الباب وسقط على وجهه ثم تدحرج على سلالم الدرج الذى صعدت عليه فى التو. وكانت تلك نهاية نوبة حراسته، ومحاولته النبيلة لدحض الفكرة السائدة عن وجود أشباح فى هذه الغرفة؟ ولم يكن يعرف أنه بهذا كان يخدم - إلى حد كبير - الاعتقاد فى الخرافات.

وثمة قصص عديدة تسبق هذه الحادثة، إحداها عن تلك الزوجة الجبانة التى حاول زوجها أن يمزح معها بأن يخيفها، وتلك النهاية المأساوية التى أسفرت عن هذا الأمر.

أخذت أحدق فى كل أنحاء هذه الحجرة المتسعة التى تكتنفها الظلال، والنوافذ الناتئة المعتمة والمضاجع والأثاث والديكورات، وأدركت جيداً منشأ تلك الأساطير التى تعلقت فى جوانبها السوداء وظلامها المتكاثف.

لقد كانت شمعتى مجرد قبس ضئيل من النور فى هذه الحجرة فسيحة الأرجاء، وهذا جعلنى غير قادر على اختراق الظلمة لأرى نهاية الحجرة فى الجانب المقابل، ومن ثم كان هناك محيط مترامى الأطراف من الغموض والأسرار والتساؤلات، وراء جزيرة الضوء الصغيرة هذه، والتى كشف عنها ضوء الشمعة الهزيل.

---

(٤) لقب لأحد النبلاء (المترجم).

اعتزمت أن أجرى فحصًا يتسم بالدقة لهذا المكان على الفور، مع استبعاد الأفكار الخيالية عن غموضها، قبل أن تؤثر فىّ. وبعد أن طمأنت نفسى بغلق الباب بإحكام، أخذت أذرع الحجرة، محدقًا فى كل قطعة أثاث، ورافعًا أغطية الزينة التى على الأسرّة ومُزيحًا كل ستارة بالكامل لأعرف ما خلفها.

حينئذ تفحصت النوافذ لأتأكد من أنها موصدة بإحكام بمصاريعها، ثم انحنيت ونظرت إلى أعلى، وحدقت فى سواد المدخنة العريضة للمدفأة، ونقرت على كسوة الجدار - المصنوعة من خشب البلوط - لأتأكد من عدم وجود فتحات سرية.

كانت ثمة مرآتان كبيرتان فى الحجرة الحمراء، على جانب كل منها رفان جداريان يحملان شموعًا. كما كانت توجد شموع أيضًا فى شمعدانات من الخزف، فوق رف المدفأة. أضأت كل تلك الشموع الواحدة تلو الأخرى. وكانت الأخشاب معدة فى المدفأة، وهو تقدير لم أتوقعه من الحارس العجوز للقلعة، قمت بإشعالها لأنعم بالدفء وكى أجرد ما فى نفسى من رغبة فى الارتعاد، وما إن بدأت نيران المدفأة فى التأجج، حتى أدرت لها ظهرى وعدت أتأمل الحجرة من جديد.

جذبت كرسيًا ذا ذراعين مغطى بقماش سميك ملون، ومنضدة. ووضعتهما أمامى كنوع من المتاريس. وعلى المنضدة وضعت مسدسى، جاهزًا للاستعمال عند الضرورة. لقد أفادنى تفحصى الدقيق للحجرة الحمراء، بإدخال بعض الطمأنينة إلى قلبى. إلا أننى ما زلت أجد أن الظلمة التى تكتنف الجزء البعيد

من الحجرة، بالإضافة إلى ذلك الصمت المطبق، يمكن أن يثيرا خيالى.

لم أجد أية راحة فى ترديد أصداء أصوات طقطقة النيران واضطرامها فى المدفأة وذلك الظل عند طرف الفراش ـ بالتحديد ـ له طبيعة خاصة من الصعب تفسيرها، ولكنه يوحى بغموض، بشىء حىّ، جاء بسهولة بالغة إلى هنا، حيث الصمت والوحدة. وأخيرًا، وحتى أدخل الطمأنينة إلى نفسى، حملت الشمعة فى يدى، وتوجهت إلى هناك لأتأكد من عدم وجود أى شىء مادى فى هذه الظلال. ووضعت الشمعة على الأرضية بجانب الفراش، وتركتها هناك.

حينئذ كنت متوتر الأعصاب إلى حد بعيد، على الرغم من عدم وجود ـ من وجهة نظرى ـ أى سبب كاف لهذه الحالة. ومع هذا، كان عقلى صافيًا تمامًا.

أكدت لنفسى بوضوح، أنه لا ظواهر خارقة للطبيعة يمكن أن تحدث هنا، وأخذت أغنى بعض الألحان لتمضية الوقت. وأحيانًا كنت أتلو بعض الأشعار بصوت مرتفع، ولكن النتيجة لم تكن جيدة على الإطلاق، وبعد وقت قصير، تخليت عن مناقشة نفسى عن استحالة وجود الأشباح والأماكن المسكونة بالأرواح.

وعدت للتفكير فى العجائز الثلاثة الطاعنين فى السن، الذين تركتهم أسفل الدرج، ثم سرعان ما تحولت إلى الموضوع الرئيسى، وأقصد به الحجرة الحمراء.

كانت الألوان الحمراء والسوداء ليست زاهية بل معتمة، ومن ثم ضايقتنى، فحتى مع وجود سبع شموع مضاءة، كان المكان مظلمًا.

وعندئذ توهجت الشمعة التى عند الفراش، لتأثرها بتيار هواء، واشتعال النار بارتجاج، جعل الظلال وأشباه الظلال، تتحرك وتتبدل بشكل دائم.

وعندما ألقيت نظرة على ما حولى، محاولاً أن أجد علاجًا لهذا الأمر. حينئذ تذكرت تلك الشموع التى رأيتها فى الممر، ذهبت إلى الباب بخطوات بطيئة وأنا أحمل شمعة وفتحته ثم خرجت من الحجرة الحمراء إلى ضوء القمر، تاركًا الباب مفتوحًا.

وسرعان ما عدت ومعى عشر شمعات، وضعتها فى حليات صغيرة للزينة من الخزف، كانت متناثرة فى كل أنحاء الحجرة الحمراء، بعضها فوق الأرضية وبعضها الآخر عند النافذة، واخترت الأماكن بحيث تكون عند المواضع التى تتكاثف فيها الظلال.

وفى النهاية كانت شموعى السبع عشرة موزعة بانتظام، بحيث لا توجد بوصة واحدة فى كل الغرفة، غير مضاءة على الأقل بشمعة واحدة. وفكرت فى أنه لو أتى شبح إلى هذه الحجرة، فعلىّ أن أنذره حتى لا يتعثر فى إحدى هذه الشموع، ويسقط !

لقد أصبحت الحجرة الحمراء الآن مضاءة ومتألقة.

كان هناك شىء مبهج ومطمئن فى هذا اللهب المتدفق من كل هذه الشموع، وظللت أتشمم رائحتها المميزة. مما أعطانى إحساسًا بعودة الطمأنينة إلى قلبى، وجعلنى أجد وسيلة لتمضية الوقت.

وعلى الرغم من هذا، فإن توقعى لنوبة حراسة طويلة، ظل جاثمًا على صدرى. وحدث بعد منتصف الليل أن انطفأت الشمعة التى

عند الفراش فجأة. فقفز الظل الأسود إلى مكانه فى موضعها. إننى لم أشاهدها تنطفىء. فقط عندما أدرت رأسى وجدت أن الظلام يكتنف هذا المكان، كما لو أن شخصًا رفع عينيه وشاهد غريبًا لم يتوقع وجوده.

صحت بصوت مرتفع: "يا إله السماوات! هذا التيار الهوائى كان قويًا!".

أخذت عدة أعواد ثقاب من على المنضدة، وسرت عبر الحجرة بخطوات متمهلة؛ لأعيد إشعال الشمعة. لم يشتعل عود الثقاب الأول، ونجحت فى إشعال العود الثانى.

ثم أحسست بشىء ما يومض بومضات متقطعة، على الجدار أمامى. استدرت برأسى لا إراديًا، فلاحظت أن الشمعتين اللتين توجدان على المنضدة الصغيرة بجوار المدفأة، قد انطفأتا، نهضت على قدمى على الفور وقلت: "يا له من أمر عجيب! هل أطفأت الشمعتين بنفسى، وأنا شارد الذهن؟".

عدت إلى الوراء وأعدت إشعال واحدة، وما إن فعلت هذا، حتى شاهدت الشمعة التى فوق الرف الجدارى الأيمن لإحدى المرايا، أخذت تخفق ثم انطفأت. وعلى الفور تبعتها رفيقتها. لم يكن هناك أى خطأ فى هذا. لقد اختفى اللهب، وكأنما انضغط الفتيل بقوة ما بين سبابة وإبهام لشخص ما، تاركًا فتيل الشمعة غير متوهج ولا مدخن بل فقط أسود.

وبينما كنت أحدق فيما حولى فاغرًا فاهى، انطفأت الشمعة

التى عند الفراش من جديد، وبدا لى أن الظلال أخذت خطوة أخرى، فى اتجاهى. قلت: "إن هذا لن يصلح".

حينئذ انطفأت أول شمعة فوق رف المدفأة وتلتها الثانية.

صحت بصوت غريب تعجبت له: "ما الذى يحدث؟"، وفى هذه اللحظة انطفأت الشمعة التى فوق خزانة الثياب ثم تلك التى أعدت إشعالها أسفل الفراش.

قلت بصوت يكاد يكون هستيريا: "توقف عن هذا! إن هذه الشموع مهمة لى".

عندئذ انطفأت الشمعة الموجودة على رف المدفأة فى الشمعدان. كانت يدىّ ترتعدان ومن ثم أخطأت مرتين فى حك عود ثقاب بالسطح الخشن للعلبة. وما إن أشعلت الشمعة فى الشمعدان، حتى انطفأت شمعتان فى الجزء البعيد من النافذة. ولكن بنفس عود الثقاب، استطعت إعادة إشعال الشموع الكبيرة عند المرآة، وتلك التى على الأرضية بالقرب من مدخل الحجرة. وللحظة شعرت بأننى قد انتصرت على محاولات إطفاء الشموع.

ولكن على حين غرة! انطفأت أربع شموع مرة واحدة، فى أركان مختلفة من الحجرة الحمراء. فأشعلت عود ثقاب آخر بلهفة وبيد ترتعد. ووقفت متحيرًا ومتسائلاً: "أى شمعة سوف أشعلها به".

وعندما كنت أقف غير قادر على اتخاذ قرار، شعرت بأن يدًا خفية، قد أطفأت الشمعتين اللتين على المنضدة، انطلقت منى صرخة رعب، واندفعت إلى الفراش وإلى ركن الحجرة والنافذة.

واستطعت إعادة إشعال ثلاث شموع ولكن شمعتين أخريين انطفأتا عند المدفأة!

عندئذ فكرت فى طريقة أفضل لإعادة إشعال الشموع. وضعت أعواد الثقاب فوق منضدة فى ركن الحجرة. وأمسكت بالشمعدان، وهكذا أتجنب التأخير فى اشتعال الثقاب ولكن على الرغم من هذا، فإن عملية الانطفاء قد استمرت، وأخذت الظلال التى كنت أخافها وأحاربها، تعود وتزحف فى اتجاهى، خطوة فى هذا الجانب منى، وخطوة فى الجانب الآخر. كانت مثل عاصفة مروعة فى الفضاء، تكتسح النجوم.

كنت لا أكاد أعيد إشعال شمعة حتى تنطفىء أخرى. كنت أرتعد خوفًا من الظلمة المروعة القادمة، وتخلت عنى رباطة جأشى. أخذت أهرع من شمعة لأخرى لأعيد إشعالها، فى صراع محموم ضد ذلك التقدم المرعب للظلال نحوى. أصبت بكدمة فى فخذى نتيجة لاصطدامى بحافة المنضدة، وأطحت بأحد المقاعد، تعثرت وسقطت، آخذًا مفرش المنضدة معى. عندما سقطت انطفأت إحدى الشموع فى الشمعدان وانتزعت أخرى أثناء نهوضى من فوق الأرضية، وسرعان ما انطفأت الشمعتان الباقيتان.

بيد أن الحجرة لم تظلم تمامًا، فقد كان هناك ضوء أحمر آت من المدفأة، وهو الذى أبعد عنى الظلال. ويا لها من فكرة! إذ يمكننى أن أشعل شمعتى من نيران المدفأة.

اتجهت إلى المدفأة حيث اللهب يتراقص بين الفحم المتوهج، والانعكاسات الحمراء تتواثب فوق الأثاث. سرت خطوتين فى اتجاه

المدفأة، وفجأة تضاءلت النيران وتلاشت واختفى التوهج حتى الانعكاسات الحمراء بأكملها أصبحت أثرًا بعد حين. وبينما كنت أدفع بالشمعة بين قضبان المدفأة لأحاول إشعالها، أطبقت الظلمة عليّ، مثل انغلاق جفنى العين. التفت حولى فى عناق خانق وأصابتنى بالعمى ودمرت آخر ما تبقى فى رأسى من منطق. سقطت الشمعة من يدى. مددت ذراعى أمامى بتشنج محاولاً إبعاد هذه الظلمة المروّعة عنى.

صرخت بأعلى صوتى وبقمة انفعالى، مرة ومرتين وثلاث مرات. وكان جسمى يترنح بقوة. وفكرت فجأة فى الردهة المغمورة بضوء القمر، حنيت رأسى ووضعت ذراعىّ فوق وجهى، وركضت نحو الباب. بيد أننى نسيت الموضع الدقيق لباب الحجرة الحمراء، ووجدتنى أصطدم بعنف بركن الفراش. رجعت إلى الخلف واستدرت وارتطمت بقطع أثاث ضخمة. لا تسعفنى ذاكرتى، لأتذكر كل ما ارتطمت به فى الظلام الدامس، هنا وهناك. ولكنى أذكر أنه كان ثمة صراع يدور وكنت أصرخ بلا وعى ثم تلقيت ضربة هائلة، فوق جبهتى، سقطت على أثرها فاقدًا للوعى.

فتحت عينى فى ضوء النهار، رأسى ملفوف بضمادات خشنة، وكان الرجل ذو اليد الضامرة، يراقب وجهى. نظرت حولى، محاولاً أن أتذكر ما حدث، ولفترة لم أستطع. وفى ركن الحجرة كانت المرأة العجوز ـ التى لم تعد شاردة الذهن ـ تصب بعض قطرات من دواء ما، من زجاجة صغيرة زرقاء اللون، فى كوب زجاجى.

سألتهم: "أين أنا؟ إننى أتذكركم ، ولكنى لا أتذكر من تكونون؟".

عندئذ قصوا علىّ كل شىء، وكنت أسمعهم يتحدثون عن الحجرة الحمراء وكأننى أستمع لقصة خيالية!

قال الرجل العجوز ذو الذراع الضامر: "وجدناك عند الفجر، وكان هناك دم فوق جبهتك وعلى شفتيك".

رحت أسترجع ذاكرتى ببطء شديد، وتلك التجربة الرهيبة التى مررت بها.

عاد العجوز يقول: "هل عرفت الآن، بأن الحجرة الحمراء مسكونة بالأشباح؟".

ولم يعد يتحدث كشخص يرحب بغريب، ولكن كمن يعبر عن الحزن لفقد صديق.

قلت: "نعم، الحجرة مسكونة".

"وقد رأيت أنت ذلك. ونحن الذين عشنا عمرنا كله هنا، لم نشاهد شيئًا قط. لأننا لم تواتنا الشجاعة قطّ.. قل لى.. هل هى (الإيرل)(٥) العجوز الذى....؟

قاطعته قائلاً: "لا.. ليس هو".

قالت السيدة العجوز والكوب الزجاجى بيدها: "كما قلت لك. إنها تلك (الكونتيسة)(٦) الشابة البائسة التى روّعها الخوف..".

قلت: "لا.. ليست هى. لم يكن هناك شبح (الإيرل) أو شبح

---

(٥) لقب إنجليزى للنبلاء (المترجم).

(٦) لقب إنجليزى للنبيلات (المترجم).

(الكونتيسة) فى الحجرة الحمراء. إذ ليس هناك أشباح على الإطلاق. لكن ثمة ما هو أسوأ.. أسوأ بكثير!".

قالوا: "حسن. وما هو؟".

قلت: "إن أسوأ كل الأشياء التى تخيف البشر الفانين.. هو الخوف! الخوف الذى لا ضوء له ولا صوت، الذى لا يخضع للمنطق، ولكنه يصم ويعمى ويسيطر. لقد تبعنى عبر الردهة وحاربنى فى الحجرة الحمراء..". وتوقفت فجأة وران الصمت لمدة قصيرة، ورفعت يدى إلى أعلى لأتحسس ضماداتى.

تنهد الرجل ذو العينين الحمراوين وقال: "نعم. كنت أعلم هذا. قوة الظلام. أن تصب لعنة على امرأة! إنه يتربص هناك دائمًا. يمكنك أن تشعر به حتى فى وقت النهار".

وفى صباح مشرق من أيام الصيف. إنه هناك فى الصور المعلقة ووراء الستائر، يظل يسير خلفك أينما يممت وجهك. وفى وقت الغسق[٧] يزحف على طول الردهة ويتبعك كظلك، ومن ثم لا تجرؤ على أن تدير رأسك. إن الخوف موجود فى حجرتها، الخوف الأسود، وسيظل باقيًا، ما بقيت هذه القلعة التى تكتنفها الخطايا.

---

(٧) ظلمة أول الليل (المترجم).

القُمْــع

ذات ليلة حارة ملبدة بالغيوم، والسماء محفوفة بغروب صيفى متباطئ جلسا بالقرب من النافذة المفتوحة يطير بهما الخيال إلى هواء نقى هناك حيث تنتصب الأشجار والشجيرات صلبة معتمة، وفيما وراء ذلك يشتعل مصباح الغاز على الطريق بضوئه البرتقالى فى مواجهة زرقة المساء المعتمة، والإشارات الثلاث للسكة الحديد، علامة جلية عبر السماء ويتجاذب الرجل والمرأة الحديث فى صوت منخفض. قال الرجل فى عصبية: "لم يشك؟" فردت المرأة فى شراسة وكأنه أغاظها: "ليس هو". "إنه لا يفكر إلا فى الأعمال وأسعار الوقود. لا تصور للجمال عنده ولا الشعر" فتطرق الرجل قائلاً ببلاغة: "إن مثل هؤلاء الرجال العاملين فى مجال الحديد لا يمكن أن يكون لديهم مثل تلك الأحاسيس" "إنهم بلا قلوب" وأضافت المرأة: "ليس له قلب" ثم استدارت بوجهها الحزين ناحية النافذة. يقترب مندفعًا صوت بعيد يزمجر.. فيرتعش المنزل ويهتز وتسمع القرقعة المعدنية القادمة. عندما مر القطار اندفع معه ضوء يعلوه صخب وضجيج الدخان، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة،

سبعة، ثمانية أشكال مستطيلة ـ ثمانية شاحنات مرت عبر رصيف ضفة النهر الرمادى الباهت والتى انطفأت نارها واحدة تلو الأخرى داخلة فى فوهة النفق الذى يبدو وكأنه ابتلع القطار والدخان والصوت ابتلاعًا مفاجئًا. قال الرجل: "إن هذا البلد كان كله نقيًا وجميلاً قبل ذلك. فى نهاية ذلك الطريق لا يوجد سوى أكوام الأوانى ومداخن النيران البيضاء والغبار فى وجه السماء ولكن ماذا يحدث؟ حتمًا ستأتى النهاية، نهاية كل شىء، نهاية كل هذه القسوة.. "غدًا!" إنها آخر كلمة نطق بها همسًا، فهمست هى الأخرى: "غدًا!" ثم قال: "عزيزتى!" واضعًا يده على كتفها، فبادرت ملتفتة وعيونها تبحث عن عيونه قالت وعيناها الرقيقتان أمام حملقته: "عزيزى! ثم استأنفت كلماتها "يبدو أنه شىء غريب أن تدخل حياتى هكذا.. لتفتح!.. وصمتت . فقال: "لتفتح؟" فردت وهى مترددة "... كل هذا العالم الرائع" وقالت برقة أكثر.. "كل عالم الحب لى" وفجأة سمعا طقطقة الباب وإغلاقه، فأدارا رأسيهما وتقهقرا فى ذعر. وقف الشبح صامتًا فى ظلال الحجرة. ورأيا وجهًا فى ظل ضوء ضعيف لا يكشف ظلامه الراكد أى بقعة تحت حافة سقف حظيرة المنزل فتقلصت كل عضلة فى جسم (روت).. "متى فتح الباب؟". "ماذا سمع؟" "هل سمع كل شىء؟" "ماذا رأى؟" أتت كل هذه الأسئلة مضطربة برأسه. وأخيرًا جاء صوت القادم بعد صمت بدا كأنه أبدىٌّ قائلاً: "حسنٌ؟" فبادر الرجل القابع بالقرب من النافذة قائلاً بصوت غير ثابت وهو يجذب حافة النافذة بيده: "عذرًا.. فقد افتقدتك يا (هوروكس)". فخرج (هوروكس) من الظل بخطوات ثقيلة ولم يجب على ملاحظة (روت) وفى لحظة تطلع إليهما فتوقف قلب

المرأة بين ضلوعها. وقالت بصوت ثابت: "لقد أخبرت السيد (روت) أنك ستعود فى الحال" فجلس (هورركس) ـ الذى ظل صامتًا ـ فجأة على كرسى قريب من منضدة العمل الصغيرة الخاصة بها. وأطبقت يداه الضخمة وظهر الشر فى عينيه تحت ظل جفونه. وأثناء تنفسه تتجول عيناه بين تلك المرأة التى أعطاها ثقته وصديقه الذى وثق به وتقع العين على المرأة مرة أخرى. لقد فهم الثلاثة تقريبًا كل منهم الآخر فى هذه اللحظة لم يجرؤ أحد منهم أن يفصح بكلمة تخفف الأشياء المكبوتة التى صدمتهم. إنه صوت الزوج الذى كسر الصمت أخيرًا قال: "هل جئت لترانى؟" فرد (روت) بنفس طريقة حديثه: "أتيت لأراك" مبررًا ما حدث منه من كذب سابق فقال (هورركس): "نعم".. "لقد وعدتنى أن ترينى بعض التأثيرات الجميلة لضوء القمر والدخان". وردد (هورركس) فى صوت باهت لا لون له "وعدتك أن أريك بعض التأثيرات لضوء القمر والدخان". وتابعه (روت) قائلاً: "واعتقدت أنه يمكن لى أن ألحق بك هذه الليلة قبل الذهاب إلى مكان عملك وآتى معك".. تخيم فترة صمت أخرى.. "هل قصد الرجل أن يأخذ الأمر ببرود؟ هل بعد ذلك قد عرف؟ ما المدة التى مكثها بالحجرة؟". فى لحظة سمعوا الباب يفتح...!! لقد لمح (هورركس) ظل المنظر الجانبى لهيئة المرأة فى الإضاءة الخافتة. وبعد ذلك لمح (روت) وهو يعدل من نفسه قال فجأة "طبعًا.. لقد وعدتك أن أريك مكان عملى".. تحت ظروفهم الدرامية الصحيحة شىء غريب أن يمكننى النسيان. وبادر (روت): "إذا كنت أسبب لك المتاعب...." وفجأة ظهر بريق جديد فى عينى (هورركس) يكشف عن الكآبة والضيق بعد أن بدأ الحديث مرة أخرى. قالت المرأة: "هل

أخبرت السيد (روت) عن تلك المتناقضات، اللهب والظل والتى يعتقد أنها عظيمة جدًا" ملتفتة لأول مرة نحو زوجها وقد عادت إليها الثقة بالنفس مرة أخرى. ولوحظ ارتفاع صوته بصورة كبيرة. تلك نظريته الرهيبة التى تقول: إن الآلات شىء جميل وكل شىء فى العالم غيرها هو قبيح. أعتقد أنه لا يعفيك ذلك يا سيد (روت) فهى نظريته العظيمة.. اكتشافه فى الفن. فرد عليها (هورروكس) بقسوة مسببًا لها الكآبة "إننى بطىء فى اكتشافاتى ولكن الذى اكتشفته هو....! ثم توقف. قالت "حسنٌ؟" قال: "لا شىء" ثم نهض فجأة وتوجه إلى (روت) واضعًا يده الكبيرة مطبقة على كتف صديقه "وعدتك أن أريك الأعمال بالمصانع وأنت الآن مستعد للذهاب". وعلى إثر ذلك نهض (روت) قائلاً: "تمامًا" ومضت فترة صمت أخرى ـ وكل واحد من الثلاثة يحملق ـ خلال غموض الغسق ـ فى الاثنين الآخرين، يد (هورروكس) ما زالت مستقرة على كتف (روت). ومازال خيال (روت) الضعيف يتصور بعد ذلك كله أن ما حدث كان عبثًا ولكن زوجة (هورروكس) تعرف زوجها جيدًا، تعرف له تلك القسوة الكامنة فى هدوء صوته. فرسمت بعقلها المضطرب ذلك الشكل الغامض شرًا مجسدًا.. "حسنٌ" "حسنٌ" قالها (هورروكس) ملقيًا يده من على كتف (روت) ومتجها نحو الباب. وفى ذلك الضوء الخافت التفت (روت) وكأنه يبحث عن شىء وصاح "أين قبعتى؟" وبادرت زوجة (هورروكس) تقول: "إنها فى حافظة الأدوات!" وقد أطلقت ضحكة هيستيرية مفاجئة وتلاقت أيديهما خلف المقعد ثم قال "هاهى تفضلى". ثم انتابتها رغبة شديدة فى تحذيره بشكل غير ظاهر ولكنها لم تستطع أن تتخير الكلمات فقالت بعد عناء

ذهنى: "لا تذهب" "احذر منه" ومضت لحظة صمت سريعة، ونهض (هوروكس) إلى الباب نصف المفتوح وخطى (روت) خطوات نحوه، وفى نغمة هادئة أشد قسوة قال الرجل الجامد: "أليس من الأفضل أن تودعها" فاستدار (روت) إليها قائلاً: "عمت مساء يا سيدتى" وتلامست أيديهما. وأمسك (هوروكس) بالباب المفتوح بطريقة مؤدبة غير عادية وغير مناسبة للرجال.. خرج (روت).. وبعد نظرة صامتة لها، تبع زوجها. وقفت كالغريبة بينما يجتاز الاثنان الممر معًا، وقع أقدام خفيفة لـ (روت) ودقات عنيفة لأقدام زوجها ممثلة أدنى درجات الصوت وأعلاه. وما إن أغلق الباب بقوة، تحركت إلى النافذة فى بطء، منحنية إلى الأمام تراقبهما.. ظهر الرجلان للحظة عند البوابة ومرا فى الطريق تحت مصباح الشارع ثم اختفيا بين الشجيرات الكثيفة، سقط ضوء المصباح برهة على وجهيهما مبينة فقط تلك البقع الشاحبة التى لا معنى لها، ولا تخبر عما يزال مخيفًا ومريبًا وهى تتوق عبثًا أن تعرف. جلست القرفصاء فغرقت بالمقعد وعيناها مفتوحتان تحملق فى تلك الأضواء الحمراء المنبعثة من الأفران بالخارج وحتى عنان السماء، ومضت ساعة وما زالت ساكنة فى مكانها ونادرًا ما تغير فى وضعها. وقع السكون الطاغى لذلك المساء بثقله على (روت) لقد ذهبا جنبًا إلى جنب بالطريق فى صمت، وفى صمت استدارا داخلين منطقة بالوادى بها أخشاب متفحمة على الطريق قد يتم فتحها قريبًا، ذلك الوادى اللغز الذى يحفه الغمام الأزرق والتراب والضباب الخفيف حيث الكتل الرمادية والسوداء طاغية مما يجعل النقط الذهبية لمصباح الشارع تبدو كأنها نادرة. وتظهر هنا وهناك نافذة يخرج منها غاز

مشتعل، أو وهج أصفر لمصنع يعمل فى وقت متأخر، أو منزل مزدحم بالسكان. وتتضح خارج هذه الكتل المداخن الطويلة مرتفعة فى سماء ذلك المساء.. معظمها متقارب ويصعب عدها، والقليل منها لا ينبعث منها الدخان أثناء موسم "العمل".. تتناثر بقعة باهتة هنا وهناك ما يشبه المناحل باهتة سوداء شاحبة رهيبة تبرز كأوانى مصفوفة أو أطر سوداء مدببة متجهة نحو السماء الساخنة القريبة، مميزة منجماً للفحم. والسكة الحديد ممتدة والقطارات شبة المرئية قريبة فى متناول الأيدى كأنها هبات ثابتة ورعدية. بين الحين والآخر تسمع هزة عنيفة وسلسة اصطدامات ورحلة مرورية من الهبات المتقطعة من الدخان الأبيض عبر المنظر البعيد. وعلى الجانب الأيسر والكتلة المظلمة للتل المنخفض بالخلف تهيمن على المشهد كله بسواد حبرى هائل يتوج بالدخان وألسنة اللهب المتقطعة تقف مواقف شركة (جِدّة) للأفران العالية، صروحًا شامخة رئيسية للعمل فى مجال "الحديد" والتى كان (هوروكس) مديرًا لها. فهى تقف متغطرسة ومتوعدة ممتلئة بألسنة من النيران المتواصلة الغليان وحديد منصهر يفور. وعند أقدامهم توجد مطاحن دائرية تقرقع، ومطرقة البخار تضرب بقوة وشرارات الحديد الأبيض تتناثر هنا وهناك. وفى نفس الوقت يرقبون الوقود المشحون ينطلق إلى شئ عملاق وألسنة اللهب تومض والدخان المضطرب والغبار الأسود يغلى متصاعداً إلى السماء. قال (روت) ـ كاسرًا حاجز الصمت المخيف ـ "إن لون أفرانك قد أضفت عليك بعض التأثيرات الجميلة". زمجر (هوروكس) ووقف ويداه فى جيوبه ويتطلع عابسًا إلى مشهد السكة الحديد الباهت من تأثير البخار. ومن خلفهما

مصانع الحديد العاملة، أخذ يكشر وكأنه يفكر فى مشكلة شائكة. لاحظه (روت) فابتعد مرة أخرى مكملاً حديثه وهو ينظر إلى أعلى "إن تأثير ضوء القمر كاد يكون رطبًا وما زال القمر يختنق من تأثيرات ضوء النهار.. طبعًا، طبعًا" ناظرًا هو الآخر إلى القمر والشحوب مازال يغطى سماء منتصف الصيف. وفاجأه: "فلنستأنف المسير" وجذب ذراع (روت) واتجه إلى الطريق الذى يؤدى بهما إلى السكة الحديد. تراجع (روت) مترددًا وتلاقت أعينهما حيث رأيا ألف شىء فى اللحظة التى كادت شفاهما أن تنطق. يد (هورروكس) تحكم قبضتها ثم تتراخى. وقبل أن يشعر (روت) بالقلق يتأبطان ذراعيهما ويمضيان فى طريقهما أحدهما مضطرًا إلى المسير مع الآخر: "هل رأيت تأثيرات اشارات السكة الحديد المتجهة إلى "بورسلم" قالها (هورروكس) فى لحظة جذبه لكوعه بإحكام وبسرعة خاطفة. "هاهى أضواء خضراء خفيفة، وحمراء وأخرى بيضاء كلها تقابل الضباب، إن لك عينًا مؤثرة يا (روت) وأثرها لطيف انظر إلى أفرانى كيف أنها ترفعنا إلى أعلى حين نهبط إلى التل، إنها محبوبتى التى على اليمين على ارتفاع سبعين قدمًا منه، حزمته بنفسى فانطلق - منشرحًا - يغلى بالحديد فى أحشائه على مدى خمسة أعوام. إن لى تصورى له، ذاك الخط الأحمر هناك والذى نسميه البرتقالى المحبب الدافئ قليلاً، ألا ترى يا (روت) تلك الأفران هناك فى الضوء الساخن ثلاثة أشكال سوداء؟ ألم تر الرذاذ الأبيض للمطرقة البخارية؟ تلك الطواحين الدائرة؟.. "فلنستأنف المسير" - كأنها دقة الأجراس، فعقعة، يا لها من دقات متلاحقة على الأرض.

"فلنستأنف المسير".. اضطر إلى التوقف لالتقاط الأنفاس، وقد لف ذراعه بذراع (روت) بطريقة محكمة تشل حركته "لقد سار بخطوات واسعة نحو الطريق الأسود المتجه إلى السكة الحديد بالرغم من أنه مضطر إلى ذلك لم ينطق (روت) ببنت شفة فهو ببساطة تحت سيطرة (هوروكس) الذى يجرّه بكل قوته "أقول!!" بدأ كلامه ضاحكًا بعصبية ولكن - يتخلل صوته زمجرة - قاطعه (روت) قائلاً: "لماذا بحق السماء تقبض على ذراعى وتجرجرنى بهذا الشكلِ؟؟ فحرره - بعنف - وفك ذراعه. وغيَّر من سلوكه مرة أخرى: "معذرة يمكنك أن تفك ذراعك. لكنك أنت الذى علمتنى الطريقة الصحيحة للسير - بطريقة ودود - رد (روت) بطريقة مصطنعًا الضحك: "ولكنك لم تتعلم إتقان تلك الطريقة بعد" وبلا تقديم اعتذار قال (هوروكس): "أنا رجل متناقض". هما الآن يقفان فى سفح التل يقتربان من سور يحد السكة الحديد. بدت أفران الحديد كبيرة ومنتشرة عندما يدنوان منها، ينظران إلى أعلى حيث الأفران العالية بدلاً من النظر إلى أسفل وتلاشت مناظر (اتروريا) و(هانلى) عند نزولهما، وأمامهما مطلع يرتفعان من خلاله إلى مكان منبسط. ما زالت الرؤى باهتة، والكلمات "احذر من القطارات" اختفت مع رذاذ الطين الفحمى، "تأثير جميل" قالها (هوروكس) ملوحًا بذراعه ثم استأنف "هنا يأتى قطار وهبات الدخان والوهج البرتقالى ينبعث من العين المستديرة للضوء أمامهم، إنه التلاقى الرخيم العذب. لقد شردنا "الأقماع" من حلوقها لتوفير الغاز.. "كيف؟" قالها (روت) مستفسرًا.. "الأقماع" يا رجل "الأقماع" سوف أريك واحدًا منها عندما نقترب، تستعمل ألسنة اللهب للاشتعال خارج الحلوق

المفتوحة.. إنها عظيمة! نهارًا تظهر أعمدة السحاب من الدخان الأسود والأحمر، وأعمدة من النيران ليلاً، إننا نطفئها من الأنابيب ونشعلها لتسخن الفرن العالى. وأعلاها يغطيها القمع، ولسوف يشد اهتمامك ذلك القمع، وعقّب (روت): ولكن بين الحين والآخر تجد انفجارًا للنار ويتصاعد الدخان إلى أعلى!! لفرع غير مثبت بل إنه معلق بسلسلة متصلة برافعة مساوية بقوة متوازنة، سوف تتأكد منها عندما تراها. وهناك شيء آخر.. ألا وهو: بالطبع لا يوجد طريقة لإدخال الوقود فى ذلك الشيء فبين الحين والآخر يغطس القمع فجأة فيحدث الاشتعال. "أفهم ذلك" ناظرًا فوق كتف (هورروكس) وقال: إن القمر يبدو أكثر سطوعًا. "فلنستأنف المسير" قال ذلك وقد جر كتف (روت) على حين غرة ليجعله يتجه فجأة إلى عبور السكة الحديد. إن ما يأتى من حدث لطيف ما يلبث أن يتبعه بسرعة أثر فى الريبة والتقلب، وعند منتصف الطريق أطبقت فجأة يد (هورروكس) عليه وكأنها تلازمه وقام بهزه إلى الخلف وباستدارة غير كاملة لكى ينظر أعلى الخط. وتأتى سلسلة من المصابيح معلقة على النوافذ وتنظر إليهما وكأنها تتجه نحوهما والضوء الأحمر والأصفر للمحرك يتزايد أكثر فأكثر. مندفعة إلى أسفلهما. "ماذا يعنى عندما أمسك بى؟ أدار وجهه لـ (هورروكس) ودفع بكل قوته الذراع التى أمسكت به للخلف، وهى بين القضبان لم يستمر الصراع وقتًا طويلاً إذ أصبح من المؤكد أن (هورروكس) أمسك به وهو يلهث حين كان القطار يأتى مقعقعًا.. والآن يقفان يلهثان أمام مصانع الحديد.. قال (روت) فى هدوء: " لم أر القطار يأتى". وبالرغم من مخاوفه حاول أن يحافظ على الانسجام العادى. رد

عليه (هورووكس) بصرخة غاضبة "القمع" وكأنه الشخص الذى أراد أن يتمالك نفسه "اعتقدت أنك لم تسمع".. رد (روت) "لا لم أفعل" قال (هورووكس): "أردت أن لا تُصدَم بالقطار، ولا يهمنى بعد ذلك العالم كله".. قال (روت): فقدت أعصابى تلك اللحظة". فنهض (هورووكس) نصف دقيقة ثم استدار فجأة تجاه مصانع الحديد مرة ثانية. انظر كم هو شىء جميل تلك التلال العظيمة الخاصة بى هذه الأكوام من برادة الحديد. انظر ، هاهى الشاحنة هناك إنها متجهة إلى أعلى تنقل العادم بعد صهر الحديد (الخبث) انظر إلى تلك المواد الحمراء وهى تهتز وتنزلق على المنحدر وعند اقترابنا يرتفع التكويم قاطعًا الأفران العليا. انظر ترتفع الهزة فتعلو على أكبر واحد "لا ليس هذا هو الطريق" بل من هنا بين الأكوام التى تصب فى الأفران، ولكنى أريد أن أريك القناة أولاً. فأتى وأخذ (روت) من كوعه وعلى ذلك سارا جنبًا إلى جنب أجاب (روت) (هورووكس) بجفاء. سأل نفسه: ماذا حدث بالفعل على خط السكة الحديدية؟ هل كان يخدع نفسه بتصوراته أو أن (هورووكس) بالفعل أمسك به للخلف ليبعده عن القطار، هل كان بينه وبين أن يُقتل قيد شعرة؟ هل يفترض أن ذلك الوحش العابس كان يعرف أى شىء عن علاقته بزوجته؟؟ لقد انتاب (روت) الخوف على حياته لمدة دقيقة أو دقيقتين ولكن الحالة النفسية هدأت بعد مناقشته مع نفسه، وبعد ذلك فربما يكون (هورووكس) لم يسمع شيئًا، وعلى أى حال فقد أبعده عن القطار فى الوقت المناسب. وربما كان سلوكه الشاذ بسبب مجرد غيرة سبق أن بدت عليه من قبل. وحديثهما الآن فى أكوام البرادة والقناة.. قال (هورووكس): "ايه" فرد (روت): "ماذا؟ إن ضباب

ضوء القمر جميل، وتوقف (هورروكس): فجأة "قناتنا"، "قناتنا هى مؤثر جمالى كبير بضوء القمر مع ضوء النار "ألم تر ذلك أبدًا؟ تخيل ذلك! إنك قضيت كثيرًا جدًا من لياليك تلهو وتلعب فى (نيوكاسل) هناك سأخبرك بالمؤثرات الجميلة الحقيقية. لكنك سوف ترى، الماء المغلى....." وبعد أن خرجا من فوضى أكوام البرادة وتلال الفحم والحديد الخام، تسمع أصوات المطاحن الدائرة، عالية، قريبة ومميزة، وإذا بثلاثة عمال يمرون يرفعون بقبعاتهم لـ (هورروكس)، وجوههم بدت باهتة فى الظلام. لقد وجد (روت) صعوبة فى التعرف عليهم وقبل أن يكوّن كلماته، مروا فى الظلال، وأشار (هورروكس) إلى القناة القريبة أمامهم والتى بدت مكانًا موحشًا عليها انعكاسات الأفران ذات اللون الأحمر الدموى وهاهى شدة الغليان تبدو على ارتفاع خمسين ياردة تقريبًا، والبخار يرتفع من الماء فى أعمدة وخطوط من الدخان الأبيض الساكن ملفوفًا ومغلفًا بالرطوبة المبللة، وتتابع أشباح بلا توقف تصعد من دوامات سوداء وحمراء مما يجعل البياض المتصاعد فى سباحة رأسية، والبرج الأسود اللامع لأكبر فرن عال يرتفع عاليًا فوق الضباب وضجيجه المدوى يملأ آذانهما ونجد (روت) يبتعد عن حافة المياه مراقبًا (هورروكس). ويصيح (هورروكس): "ها هو الأحمر، البخار الأحمر الدموى يتلون باللون الأحمر الساخن كالخطيئة ولكن يسقط ضوء القمر عليه فيقوده عبر أكوام البرادة، إنه أبيض كالموت". استدار (روت) برأسه قليلاً ثم عاد مترددًا إلى مراقبة (هورروكس) الذى قال: "هيا فلنتجه نحو الطواحين" والإمساك التهديدى لم يتضح جليًا فى تلك المرة فاطمأن (روت) قليلاً، ولكن

سرعان ما عاد إلى ذهنه كل شىء ، بحق السماء ماذا يقصد (هوروكس) بـ "أبيض كالموت"، و"أحمر كالخطيئة" هل هناك توافق للعبارتين؟ ربما، .. وقفا قليلاً خلف العاملين فى مجال صهر الحديد ثم اجتازا الطواحين حيث تضرب المطرقة البخارية المتأنية فيخرج صوت الآلة ضجيجًا بلا توقف، مخرجة عصارة الحديد اللين الأسود، مارد شبه عار مندفع وأذرعه بلاستكية، كالشمع الأحمر بين الإطارات، وفى آذن (روت) قال (هوروكس): "فلنستأنف المسير".. فساروا مطلين من خلال فتحة زجاجية صغيرة خلف فتحات الأفران، ورأيا النيران المضطربة تتلوى فى حفرة من جوف أحد الأفران العليا، ونظرا نظرة من الخلف لبرهة مع تراقص البقع الزرقاء والخضراء عبر الظلام، وذهبا إلى "الرافع أو المصعد" الذى تستخدمه شاحنات الحديد والوقود والجير للرفع إلى أعلى وعاء أسطوانى كبير. وهناك حيث الحاجز الضيق المعلق بالفرن. انتابت (روت) الشكوك مرة أخرى وسأل نفسه أى عقل أو حكمة فى وجودنا هنا؟ هل عرف (هوروكس) كل شىء؟ ولم يستطع أن يقاوم رعدة عنيفة، على اليمين وتحت قدمه العمق السحيق ذو السبعين قدمًا يا له من مكان خطير! دفعتهما شاحنة الوقود ليصلا إلى مكان له سياج. ان رائحة الفرن النتنة والتى تخالطها رائحة البخار الكبريتى ذى الرائحة اللاذعة هى التى تكون ارتجافًا جانب التل البعيد لـ (هانلى). والآن نجد القمر يمتطى كومة من السحاب المنساب حيث يعلو فى السماء ـ عند منتصف الطريق ـ فوق الخطوط الخشبية المتموجة لـ (نيوكاسل)، وتهرب القناة البخارية من تحتهم أسفل كوبرى مميز، وتتلاشى فى الضباب الباهت

للحقول المستوية المتجهة نحو (بورسليم). صاح (هورروكس): "هاهو القمع الذى حدثتك عنه من قبل"، "وتحته ستون قدمًا من النيران والمعدن المنصهر يتخلله تيار الفرن الساخن يرغى ويزيد كالغاز المتصاعد من المياه الغازية". تشبث (روت) بالسور بقوة وحملق إلى أسفل فى القمع حيث الحرارة مركزة، وغليان الحديد، واضطرام سخونة الفرن أضفت الرعدية إلى صوت (هورروكس) ولكن الشىء الذى يجب أن يُجتاز الآن. ربما بعد كل ذلك..." صاح وصرخ وكأنه يسب ويشتم "فى المنتصف" "تقترب درجة الحرارة من الألف درجة" لو أنك سقطت فيها... إن الومضة باللهب كلسعة البارود للشمعة. أخرج يدك وتحسس حرارة أنفاسه. لماذا؟ فى هذا المكان العالى لقد رأيت ماء المطر يغلى خارج الشاحنة وذاك القمع هناك. إنه لمحة لعينة حارة وساخنة جدًا، إن أعلى جزء منه تبلغ درجة حرارته ثلاثة آلاف درجة مئوية، تخيل! إنها تجعل الدم يغلى فى التو والحال. "إيه؟" قالها (روت) ثم التفت، قال (هورروكس) "سوف يغلى الدم خارجك فى..." فقاطعه (روت) لا تفعل!، دعنى أذهب.

"دعنى واترك ذراعى لأذهب"، أطبق على السور بيد واحدة ثم أمسك به باليدين وترنح الرجلان للحظة. وفجأة، وفى تشنج عنيف لفه (هورروكس) من كتفه فتشبث بـ (هورروكس) ثم أفلت منه. فتراجعت قدمه فى الهواء. لف نفسه وهو بالهواء فاصطدم الخد والكتف، والركبة بالقمع الساخن معًا فأمسك بالسلسلة التى يعلق منها القمع وقد غرق شىء ما بمقدار لا نهائى حين اصطدم به، وظهرت حوله دائرة من الوهج وخبطه لسان من اللهب وكأنه تحرر

من الشتات والفوضى. هاجمه الألم الشديد فى ركبته واشتم رائحة لفح حريق يديه.

تحامل واقفًا على قدمه محاولاً تسلق السلسلة وفى تلك اللحظة أحس بشىء ما يضربه على رأسه. وفى الظلام وضوء القمر ارتفع لهب الفرن مقتربًا منه. وهو يرى (هوروكس) يعلو سور أحد شاحنات الفحم. كان شبحه المشار إليه لامعًا وأبيض وهو فى ضوء القمر صاح: أيها الأحمق، صائد النساء. ليسخن دمك أيها الكلب طريد العدالة، اغلِ!! اغلِ!! اغلِ!!" وفجأة أخذ حفنة من الفحم من الشاحنة وقذف بها قطعة بعد قطعة على (روت) الذى صرخ: "(هوروكس)، (هوروكس)"، تشبث بالسلسلة وهو يصرخ دافعًا نفسه إلى أعلى الحريق الذى بالقمع، وكل قذيفة يرميها (هوروكس) تصيبه. تفحمت ملابسه وتوهجت وكلما كافح أسقط القمع وتخرج دفعة من الغاز الخانق وتحرق حوله فى هبة مروعة من اللهب. ملامحه البشرية رحلت عنه. عندما تمر لحظة بعد لحظة يرى (هوروكس) الشكل الأسود المتفحم ورأسه ملطخة بالدماء وما زال ممسكًا بالسلسلة ـ يتلوى فى النزع الأخير حيوان محترق ومخلوق متوحش غير آدمى بدأ صراخًا متقطعًا. ثم هدأ الروع عن رجل الحديد عند رؤية هذا المشهد. وقد أصيب بإعياء شديد، إن رائحة اللحم البشرى المحترق انسابت إلى فتحات أنفه، ثم عادت إليه صحته وعقله فصاح: "اللهم اغمرنى برحمتك. يا إلهى! ما الذى فعلته؟" لقد علم أن ذلك الشىء الذى كان يتحرك ويحس أصبح جثة هامدة ولأن الدم كان يغلى فى عروق ذلك البائس المسكين، إنه إدراك مركز فى سكرات الموت أخذ عقله وسيطر على جميع

أحاسيسه. وبعد لحظة قام (هورُوكس) لا يعرف ما الذى يقرر أن يفعله وعندئذ التفت إلى الشاحنة وأخذ يهجم عليها ويضرب عشوائيًا مكوناتها ويتحسر على ذلك المسخ الذى كان فى وقت ما إنسانًا. سقطت الكتلة بارتطام ومر إشعاعها على القمع. انتهت الصرخة بهذا الارتطام، واضطرب الغليان للدخان والغبار ولسان اللهب اتجه ناحيته، بعد أن مر ذلك رأى القمع واضحًا مرة أخرى. فكافح وصارع للعودة إلى الخلف، وقف يترنح معلقًا بالدرابزين بكلتا يديه، تحركت شفتاه، ولكن لم تأت الكلمات إليهما. وتحت فى الأسفل كان هناك صدى أصوات وخطوات أشخاص يركضون، وتوقف فجأة صليل الأسطوانات الدوارة فى مصنع الحديد.

القلنسوة الأرجوانية

كان السيد (كومبس) قد سئم الحياة. لقد خرج من مسكنه البائس وهو يشعر بالضجر لا من وجوده هو فقط، بل من وجود كل إنسان غيره، استدار جانبًا وسار فى طريق (كاسوورك لين) الضيق ليتفادى المرور فى المدينة، ثم عبر الجسر الخشبى، الذى يمتد على القناة حتى (ستارين كونتجيز). وسرعان ما وصل وحيدًا إلى غابة الصنوبر الرطبة، كان هناك بعيدًا عن مشاهدة أى شىء أو سماعه يأتى من أماكن الإقامة. إنه لن يستطيع تحمل المزيد، ظل يردد هذه المقولة بصوت عال، ومعها بعض عبارات التجديف التى فيها كفر، وهى غريبة عليه.

كان (كومبس) رجلاً قصيرًا، شاحب الوجه وعيناه سوداوان وله شارب رقيق شديد السواد. وكان لقميصه ياقة متصلبة للغاية ومرتفعة قليلاً ونسيجها بال إلى حد ما. مما يعطى الرجل مظهرًا خادعًا بأنه مزدوج الذقن، ومعطفه (على الرغم من رثاثته)، فإن حوافه كانت من "الأصطراخان"[١]، وكان قفازه ذا لون بنى لامع مع

(١) فرو أسود مجعد الشعر (المترجم).

وجود خطوط سوداء فوق مفاصل اليد، ومشقق عند نهايات الأصابع.

وكما أخبرته زوجته ذات مرة، فى تلك الأيام العزيزة الماضية التى ولت دون رجعة قبل أن يتزوجها، أن له مظهرًا عسكريًا. أما الآن فإنها تدعوه ـ ويا له من أمر بغيض أن تقوله زوجة لزوجها ـ "الدويدة الصغيرة!"(٢).

بيد أن هذه لم تكن التشبيه الوحيد الذى أطلقته عليه، فهناك الكثير.

لقد نشب شجار بينهما من جديد بسبب الفتاة الوضيعة (جين). كانت (جين) صديقة لزوجته، وكانت تأتى لتناول العشاء فى كل يوم أحد مبارك، دون دعوة من السيد (كومبس). وكانت تحدث فوضى واضطرابًا طوال فترة ما بعد الظهر. كانت فتاة ضخمة الجسم، تحدث ضجيجًا شديدًا، وتهوى الألوان الفاقعة وذات ضحكة طنّانة. وتجوزت كل تطفلاتها وسخافاتها السابقة هذا الأحد، بأن أحضرت معها شابًا مبهرجًا وبغير ذوق مثلها للعشاء. وكان السيد (كومبس) يرتدى ياقة نظيفة مقساة بالنشا، ويرتدى "فراك"(٣) يوم الأحد. جلس إلى المنضدة مفتقرًا إلى القدرة على الكلام وحانقًا، فى حين كانت زوجته وضيفاها يتحدثون عن أمور تافهة لا أهمية لها، ويضحكون ملء أشداقهم وبصوت عال، على أية حال، تحمل السيد (كومبس) كل هذه السخافات، وبعد العشاء (الذى كان "كالمعتاد"

---

(٢) يرقانة دودية (المترجم).

(٣) سترة رجالية سوداء تبلغ الركبتين (المترجم).

متأخرًا)، كان لا بد أن تذهب الآنسة (جين) إلى البيانو، وتعزف نغمات صاخبة، وكأن هذا يوم عادى من أيام الأسبوع، وليس يوم أحد مبارك! إن الإنسان الذى من لحم ودم لا يمكنه أن يحتمل كل هذه الأعمال المستنكرة. سوف يستمع الجيران إلى كل هذا الصخب، وكذلك من يسيرون فى الشارع بالقرب من منزله، إنه إعلان عام عن سوء السمعة والخزى. لذا قرر السيد (كومبس) أن يتكلم.

شعر بأن وجهه يشحب، وأن نوعًا من الرعشة قد أصابت تنفسه، عندما أراد أن يعبر عما فى داخله. لقد كان يجلس على أحد المقاعد بجانب النافذة، إذ اختار الضيف الجديد لنفسه المقعد المريح ذا المسندين. عندئذ أدار السيد (كومبس) رأسه وقال من فوق ياقته، بصوت شخص يعطى إنذارًا : "إنه يوم الأحد!"، وعاد يكرر: "إنه يوم الأحد!" بلهجة يعتبرها الناس "كريهة ومقززة".

واستمرت (جين) تعزف على البيانو، أما زوجته ـ التى كانت تتصفح بعض الكراسات الموسيقية التى كانت مكدسة فوق البيانو ـ فقد استدارت إليه وحدقت فى وجهه وقالت: "ما الخطأ فى هذا؟ ألا يستطيع الناس أن يمتعوا أنفسهم فى أى وقت؟".

قال السيد (كومبس) قصير القامة: "إننى لا أمانع فى التسلية العقلانية على الإطلاق، ولكنى لا أسمح بهذه النغمات الصاخبة، أن تعزف فى منزلى فى يوم الأحد المبارك".

توقفت (جين) عن العزف واستدارت بسرعة فوق كرسى البيانو، الذى أحدث صريرًا عاليًا ,وقالت: "والآن ، ما العيب فى عزفى؟".

شعر (كومبس) بأن ثمة شجارًا يلوح فى الأفق، ومع هذا فقد اندفع يقول بعنف، كما هو الحال بالنسبة لكل الرجال العصبيين فاقدى الثقة بالنفس، فى كل أنحاء العالم: "اثبتى فوق مقعد البيانو، ولا تتحركى كثيرًا! إنه لم يُصنع ليتحمل الأوزان الثقيلة!".

قالت (جين) بصوت ينم عن الحنق: "دعك من الأوزان الثقيلة! ماذا كنت تقول عن عزفى من وراء ظهرى؟".

قال الضيف الجديد وهو يتكىء فى مقعده ذى المسندين ويطلق سحابة من دخان سيجارته: "بالتأكيد أنك لا تمانع فى التمتع بشىء من الموسيقى فى يوم الأحد، يا سيد (كومبس)" ثم ابتسم فى إشفاق.

عندئذ قالت الزوجة شيئًا ما لصديقتها، بما معناه: "(جين)! دعك منه وواصلى العزف".

قال السيد (كومبس) مخاطبًا الضيف الجديد: "إننى بالفعل أمانع".

قال الضيف الجديد، وكان يبدو واضحًا أنه يستمتع بكلٍ من سيجارته واحتمال الدخول فى مناقشة: "هل لى أن أسأل لماذا؟".

وإذا كان الشىء بالشىء يذكر، فقد كان الشاب طويلاً ونحيلاً، بالغ الأناقة، إذ كان يرتدى سترة لونها بنى فاتح. ورابطة عنق بيضاء، بدبوس فضى وبه لؤلؤة.

فكر السيد (كومبس) بأنه كان من الأفضل أن يأتى مرتديًا سترة سوداء.

استهل السيد (كومبس) حديثه بقوله: "لأن هذا لا يناسبنى. فأنا رجل أعمال. وعلىّ أن أدرس علاقاتى. وأتمتع بتسلية عقلانية".

قالت السيدة (كومبس) بسخرية: "علاقاته! هذا ما يقوله دائمًا. علينا أن نفعل هذا.. وذاك؟".

قال السيد (كومبس): "إذا كنت لا تهتمين بعملى. إذن لماذا تزوجتنى؟".

قالت (جين): "إننى أعجب!" واستدارت من جديد إلى البيانو.

قالت السيدة (كومبس):" لم أصادف فى حياتى رجلاً مثلك. لقد تبدلت تمامًا منذ زواجنا، وقبل ذلك...".

عندئذ بدأت (جين) فى قرع مفاتيح البيانو: ".. تم.. تم.. تم" مرة أخرى!

هنا لم يتحمل السيد (كومبس) أكثر من هذا. فاض به الكيل. فاندفع واقفًا ورفع صوته صائحًا: "أصغ إلىّ! إننى أقول لك: لا أريد هذه الأصوات الصاخبة هنا" وفى أثناء ثورة غضبه سحب "الفراك" وراءه بقوة.

جلس الشاب النحيل طويل القامة الذى يرتدى السترة البنية الفاتحة وقال: "أرجو ألا تلجأ للعنف".

قال السيد (كومبس) بحنق بالغ: "ومن تكون أنت بحق السماء؟".

حينئذ بدأ الجميع يتحدثون فى نفس الوقت.

قال الضيف الجديد: "إن أمر (جين) يهمه، ومن ثم فعليه

حمايتها، وقال السيد (كومبس) بأن من حقه أن يقوم بهذا، فى أى مكان ما عدا فى منزله، منزل السيد (كومبس)".

وقالت السيدة (كومبس) بأنه يجب أن يشعر بالخجل من نفسه، لإهانته ضيوفه، (كما ذكرت من قبل) قد تحول إلى دويدة صغيرة! وفى النهاية، طلب السيد (كومبس) من ضيفيه مغادرة المنزل، ولكنهما رفضا، ومن ثم أعلن أنه سوف يغادر المنزل بنفسه!

احتدم وجهه من فرط الحنق، واغرورقت عيناه بالدموع من الانفعال الذى يشعر به، واتجه إلى الممر داخل منزله، وبذل جهداً ليرتدى معطفه، واشتبك كماه أعلى ذراعه ثم نظف ـ بعصبية ـ قبعته الحريرية بفرشاة.

وعادت (جين) من جديد للعزف على البيانو، وهى تشبعه بالألحان إلى خارج المنزل. "تم.. تم.. تم". وصفق الباب خلفه بعنف، فارتج المنزل كله.

هذا باختصار، هو السبب المباشر فى سوء الحالة النفسية للسيد (كومبس)، ولعلك قد بدأت تدرك سر اشمئزازه من الوجود كله.

وبينما كان يسير فوق الممر الموحل تحت أشجار "التنوب" –كان هذا آخر شهر (أكتوبر) والخنادق ممتلئة بأكوام من إبر أشجار "التنوب" ونبات الفطر –أخذ يسترجع ذكرياته عن قصة زواجه التى تبعث على الكآبة. كانت مقتضبة وعادية. إنه يدرك الآن بوضوح كاف، أن زوجته قد تزوجته، بدافع من الفضول الطبيعى، ولكى تهرب من حياتها القلقة والشاقة والمتقلبة، بوصفها عاملة.

ومثل معظم أفراد طبقتها العاملة، كانت من الغباء بحيث لم تدرك أن من واجبها أن تتعاون معه فى عمله. وكانت شديدة التوق إلى المتعة والثرثرة وإلى الحياة الاجتماعية، وبدا جليًا أنها أحبطت عندما وجدت أن أغلال الفقر ما زالت تطوقها. وأزعجها كثيرًا قلقه عليها. وأية محاولة لتبصيرها بحقيقة الأمور، كان ينتج عنها تذمرها بطريقة فظة، وكانت تقول له دائمًا: "لماذا لا تكون لطيفًا كما كنت دائمًا؟". والسيد (كومبس) رجل يتميز بالوداعة والمسالمة، اعتاد أن يعتمد على نفسه فى كل شىء، وأن ينكر ذاته وينافس الآخرين، إلى أن وصل فى النهاية إلى تحقيق "الاكتفاء الذاتى". حينئذ دخلت (جين) إلى حياتهما مثل النسخة النسائية من "مفستوفيليس"[٤]، وأخذت تقنع زوجته دائمًا، بارتياد المسارح وما شابهها. وبالإضافة إلى هذا كانت خالات زوجته وعماتها وأولادهن وبناتهن. الذين كانوا بزيارتهما يلتهمون رأس ماله ويهينونه شخصيًا، ويفسدون ارتباطاته، ويضايقون عملاءه، وعامة حطموا حياته.

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يغادر منزله غاضبًا وساخطًا وفى نفسه شىء من الخوف، وفى كل مرة كان يقسم بهياج، وأحيانًا بصوت مرتفع، بأنه لن يتحمل المزيد، ولكن سرعان ما تتبدد كل انفعالاته.

بيد أنه لم يصل أبدًا إلى هذه الدرجة من كراهية الحياة، مثلما حدث فى هذا العصر من يوم الأحد. وربما كان العشاء له دور فى

(٤) الشخصية التى تمثل الشيطان فى الأساطير الشعبية عن العلامة الألمانى (فاوست) الذى يبيع روحه للشيطان، ومعنى كلمة "مفستوفيليس" (الذى لا يحب الضوء). (المترجم).

حالة اليأس التى انتابته، ولعلها السماء الرمادية هى التى أسهمت فى ذلك. وربما أيضًا كان من الأسباب الإحباط الذى شعر به، عندما أدرك أنه حقق إخفاقًا شديدًا فى عمله، وكاد أن يفلس، نتيجة لزواجه. وماذا بعد هذا؟ لعل زوجته تندم بعد ذلك. ولكن سيكون الوقت قد فات.

وكأنما القدر هو الذى زرع الممر فى تلك الغابة، بالفطر ذى الرائحة الكريهة والذى يوجد متكاثرًا بأشكال وأحجام متباينة، ليس إلى اليمين فحسب ولكن إلى اليسار أيضًا. لقد كان فى موقف بالغ الحزن، حيث استحالت زوجته إلى إنسانة غادرة، كان رأس ماله كله مربوطًا بتجارته، وإذا انفصل عن زوجته فإن هذا يعنى انضمامه إلى المتعطلين فى مكان غريب من الأرض.

إن ترف الطلاق بعيد عن كل منهما، والتعريف القديم التقليدى للزواج بأنه الحياة معًا على السراء والضراء، لا يناسبه أبدًا، إذ بلغت الأمور ذروتها المأساوية. إن البنائين حين يغضبون من زوجاتهم، فإنهم يركلونهن حتى الموت، والنبلاء يخونون زوجاتهم، أما بين الموظفين الصغار وأصحاب المتاجر فقد تفشت فى الوقت الحاضر عادة ذبح زوجاتهم بلا رحمة!

وفى ظل تلك الظروف التى تواجه السيد (كومبس)، كان يعمل عقله لبعض الوقت، لوضع نهاية قاطعة لآماله المحبطة. فأخذ يفكر فى الأمواس والمسدسات وسكاكين الخبز، وإرسال خطابات مؤثرة إلى الشرطة ليبلغ عن أعدائه، كل باسمه، ويطلب المغفرة. وبعد مرور بعض الوقت، أفسحت شراسته المكان لحالة من الاكتئاب

الشديد. لقد تزوج بنفس هذا المعطف الذى يرتديه الآن، وكذلك الفراك، الذى يثبت بأزرار تحته. وبدأ يتذكر أنهما كانا يسيران فى نفس هذا الطريق، وكم كافح واقتصد لسنوات كثيرة، حتى استطاع توفير رأس المال الكافى، وأيام زواجهما الأولى التى كانت واعدة ومفعمة بالأمل، ثم انتهى كل شىء! ألا يوجد أى حاكم فى هذا العالم، ميال إلى التعاطف والمواساة؟ ألا يوجد خير على وجه الأرض؟ وعادت الفكرة الرئيسية التى اختمرت فى ذهنه عن الموت.

فكر فى القناة التى عبرها توًا، وأن يغطس فيها حتى تغطيه المياه تمامًا، ويغرق. وبينما كان الغرق هو الفكرة المسيطرة على ذهنه، لمح القلنسوة الأرجوانية.

حدق فيها دون وعى لنحو دقيقة، ثم توقف وانحنى ناحيتها لكى يلتقطها، وظنها فى بادىء الأمر مجرد قطعة جلد صغيرة ولعلها حافظة. ولكنه أدرك بعد ذلك أنها قمة نبات الفطر، فطر أرجوانى سام، دبق، براق، له رائحة لاذعة.

مد السيد (كومبس) يده لالتقاط الفطر، إلا أنه تردد فى اللحظة الأخيرة، عندما كانت يده على بعد نحو بوصة واحدة منه، وفجأة خطرت فى ذهنه فكرة السم. وعندئذ التقط الفطر، واستوى على قدميه من جديد، وهو يمسك بنبات الفطر الأرجوانى.

كانت رائحة الفطر ـ دون شك ـ قوية وحادة، بيد أنها لا توقع النفور فى النفس، بأية حال من الأحوال. كسر جزءًا من قشرة الفطر، فألفى تحتها مادة بيضاء دسمة مصفرة شبيهة بالقشدة، تحولت فى ظرف عشر ثوان —وكأنما هى مادة سحرية —إلى اللون

الأخضر الضارب للصفرة. لقد كان هذا التغير العجيب مثيرًا للدهشة والعجب. ولهذا قام بكسر جزءين آخرين، حتى يرقب هذه الظاهرة وهى تتكرر. إن الفطريات أشياء رائعة، هكذا فكر السيد (كومبس)، بيد أنها سامة ومميتة. وكما كان يقول له والده دائمًا. الفطريات سامة ومميتة!

إن الوقت مناسب لاتخاذ القرارات المتهورة. لماذا لا يكون الآن وفى نفس هذا المكان؟ تذوق قطعة صغيرة جدًا من الفطر. الواقع مجرد كسرة بالغة الضآلة. كانت لاذعة المذاق، إلى حد أنه كان يبصقها ثم أصبحت حريفة وذات نكهة مميزة. كأنها نوع من "المسطردة"(٥) الألمانية مع لمسة من "فجل الخيل"(٦). ابتلع قطعة الفطر كاملة، بانفعال لحظى. ترى هل راقه طعمها أو لا؟ لقد كان عقله غير مبال بغرابة، سوف يجرب قطعة أخرى. فى حقيقة الأمر أن القطعة الأولى لم تكن سيئة الطعم بل كانت مستساغة. ونسى كل متاعبه فى هذه النشوة اللحظية. لقد كان يلعب مع الموت! أخذ قضمة أخرى أكبر، بحيث ملأت فاه.

عندئذ انتابه إحساس غريب بالوخز الخفيف، فى أطراف أصابع يديه وقدميه، وتسارع نبضه. وشعر بالدماء فى أذنيه، وكأنه تيار الماء السريع الذى يدير عجل الطاحون.

قال السيد (كومبس): "فلأجرب قطعة أخرى من الفطر".

---

(٥) مادة من الخردل تتميز بأنها لاذعة وحادة الطعم. تضاف إلى بعض المأكولات لتكسبها نكهة (المترجم).

(٦) جذور هذا النبات تستخدم توابل (المترجم).

استدار وتطلع لما حوله، ووجد أن قدميه لم تكونا مستقرتين فوق الأرض. شاهد وكافح للوصول إلى مجموعة من الفطر الأرجوانى على بعد نحو اثنتى عشرة ياردة. قال السيد (كومبس): "مذاقه رائع.. أريد المزيد". اندفع إلى الأمام وسقط على وجهه، وكانت يداه ممدودتين فى اتجاه مجموعة من Pilei، بيد أنه لم يأكل المزيد منها. وعلى الفور نسى كل شىء.

تدحرج ثم استوى جالسًا، ونظرة دهشة فى عينيه. وكانت قبعته الحريرية التى قام بتنظيفها بعناية، قد تدحرجت بعيدًا فى اتجاه القناة. ضغط بيده على حاجبه. لقد حدث شىء ما، ولكنه لم يستطع أن يحدد بدقة كنهه. على أية حال، لم يعد الآن متبلد الحس أو مكتئبًا، وأحس بأنه أصبح متقد الذكاء ومبتهجًا. وأحس بأن حنجرته تشتعل! ضحك إذ شعر بابتهاج فى قلبه. هل كان من قبل مكتئبًا ومثبط الهمة؟ إنه لا يدرى. ولكنه على أية حال لن يصبح أبدًا مكتئبًا ومثبط الهمة.

نهض ووقف مترنحًا، ثم راح ينظر للكون بابتسامة راضية. وبدأ يتذكر. ولكنه لم يستطع أن يتذكر التفاصيل الدقيقة، بسبب أن ما يشبه الضباب يغلف ذاكرته. إلا أنه يعرف أنه قد حدث خلاف فى منزله، لمجرد أنهم أرادوا أن يكونوا سعداء. لقد كانوا على حق تمامًا، إذ لابد أن تكون الحياة مرحة ومشرقة بقدر الإمكان. سوف يذهب من جديد إلى المنزل إذن ليعيد الأمور إلى نصابها ويدخل الطمأنينة إلى قلوبهم. وتساءل: لماذا لا يأخذ معه بعض هذا الفطر مظلى الشكل المحبب للنفس ويقدمه لهم ليأكلوه؟ مجرد ملء قبعة لا

أكثر. وكذلك بعض ذلك الفطر أحمر اللون ذى البقع البيضاء، وقليلاً من الفطر الأصفر. لقد كان ثقيل الظل ومتبلد الحس، عدوًا للمتعة والمرح. سوف يتغير تمامًا، ويعوض ما فاته. سوف يكون أمرًا مبهجًا أن يقلب جيوب معطفه إلى الخارج، ويثبت بعض زهور "الوزال" الصفراء، فوق جيوب صدريته، ويعود إلى منزله منشدًا الأغانى، لكى يقضى أمسية مرحة.

بعد مغادرة السيد (كومبس) منزله غاضبًا، توقفت (جين) عن العزف، واستدارت إلى الخلف، بمقعد البيانو وقالت: "يا لها من جلبة من أجل لا شىء" وقالت السيدة (كومبس): "أترى الآن ما أعانيه يا سيد (كلارنس)؟".

قال السيد (كلارنس) بحكمة: "إنه رجل سريع الغضب والانفعال قليلاً".

قالت السيدة (كومبس): "إنه لا يدرك على الإطلاق مركزنا الاجتماعى. هذا هو سبب شكواى وتذمرى، إنه لا يبالى بأى شىء إلا متجره العتيق، وإذا اتخذت بعض الأصدقاء، أو أردت شراء شىء ما يجعل مظهرى لائقًا، أو إذا أردت الحصول على سلعة ما من نقود إدارة شئون المنزل، يصبح سيىء الطبع بغيضًا، ويصيح: "الاقتصاد" و"بذل الجهد من أجل لقمة العيش" وعبارات أخرى كثيرة على هذه الشاكلة. إنه يسهر الليالى مستيقظا، يفكر فى الطرق التى يمكن بها حرمانى من كل شلن لدىّ. لقد حاول مرة أن يجعلنا نأكل زبدة (دورسيه) رخيصة الثمن. ولو أننى خضعت لمطالبه، حينئذ..".

قالت (جين): "إنك على حق".

استرخى السيد (كلارنس) فى مقعدة المريح ذى المسندين: "لو قدر الرجل قيمة المرأة، فإن عليه أن يقدم التضحيات من أجلها.." ثم استطرد وهو يرمق (جين): ".. أما عن نفسى فإننى لن أفكر فى الزواج حتى أصبح فى وضع اجتماعى يسمح لى بالزواج بشكل لائق. وبغير هذا يكون الرجل أنانيًا. يجب أن يكافح بشدة ويجتاز الصعاب بنفسه، ولا يجر زوجته معه...".

قالت (جين): "إننى لا أوافق على هذا أبدًا. إذ لماذا لا يطلب الرجل من امرأته أن تساعده، طالما أنه لا يعاملها بشكل وضيع دنىء؟ هذا شىء لا معنى له..".

قالت السيدة (كومبس): "ربما لا تصدقنى. لكننى بالفعل كنت حمقاء حين رضيت به زوجًا. ولولا مساعدة أبى، ما كنا وجدنا عربة لتنقلنا إلى حفل زفافنا".

صاح السيد (كلارنس) مصدومًا إلى حد بعيد: "يا إلهى! ألم يوفر لك هذا؟".

"قال: إنه يحتاج للمال من أجل تجارته أو شىء من هذا الهراء! بل لم يوافق على أن تأتى سيدة لتساعدنى فى أعمال المنزل مرة فى الأسبوع. ولولا أننى واجهت الموقف بشجاعة لأصبحت الأمور مستحيلة. وبالإضافة إلى الشجار الدائم بسبب المال، فإنه كان يأتى إلى المنزل، فى حالة نفسية سيئة يكاد يبكى، ومعه أوراق ممتلئة بالأرقام، ويصيح فى وجهى: "لو لم نقتصد فى مصاريفنا هذا العام، فلسوف يصيبنا الإفلاس" فأقول له: "سوف نفلس إذا لم نوفر فى

مصاريفنا العام القادم!". أعتقد أنك لم ترنى فى يوم من الأيام، وأنا أنفق النقود ببذخ. لماذا لا تتزوج جارية إذا أردت واحدة، بدلاً من فتاة محترمة مثلى؟".

إلى هذا الحد وصلت السيدة (كومبس). ولكننا لن نتتبع هذه المناقشة غير المجدية بعد. ونكتفى بالقول بأنهم كانوا راضين تمامًا لرحيل السيد (كومبس)، وجلسوا لفترة لا بأس بها، أمام المدفأة ينعمون بالدفء. ثم ذهبت السيدة (كومبس) لتحضر الشاى، وجلست (جين) بدلال على مسند مقعد السيد (كلارنس)، حتى جلبت السيدة (كومبس) أدوات الشاى، محدثة قرقعة.

قالت السيدة (كومبس) فى مرح: "ما هذا الذى سمعته؟" إذ كان هناك مزاح ومداعبة. كانوا يجلسون حول المنضدة الدائرية، عندما سمعوا ما يؤكد بأن السيد (كومبس) قد عاد. كانت ثمة محاولة لفتح مزلاج الباب الخارجى.

قالت (كومبس): "ها هو سيدى يعود! لقد غادر المنزل كأسد ثائر وعاد كحمل وديع". سقط شىء ما فى الردهة، ربما كان مقعدًا. ثم سمعوا أصوات وقع أقدام متعثرة فى الممر. ثم فتح الباب، وظهر السيد (كومبس). ولكنه كان شخصًا مختلفًا، فقد مزقت ياقته النظيفة بإهمال من عند عنقه. وقبعته الحريرية الأنيقة نصف ممتلئة بالفطر المحطم، ويحملها تحت إبطه، وكانت جيوب معطفه مقلوبة، وصديريته مزدانة بحزمة من زهور "الجولق" الصفراء، وهذه الاختلافات المركزية الغريبة فى زى يوم الأحد، فاقها، مع هذا، ذلك التغير الهائل فى وجهه، فقد أصبح أبيض شاحبًا، وكانت

عيناه ـ على غير العادة ـ واسعتين مشرقتين، أما شفتاه الضاربتان إلى الزرقة فقد ارتسمت عليهما ابتسامة عريضة. توقف عن الرقص حتى يتمكن من فتح الباب وصاح بجزل: "امرحوا! تسلية عقلانية. ارقصوا". ثم سار إلى داخل الحجرة بثلاث خطوات طويلة ومترنحة ثم وقف وانحنى.

صرخت السيدة (كومبس): "(جيم)!" أما السيد (كلارنس) فقد جلس متحجرًا فى مكانه، فاتحًا فاه فى ذهول.

قال السيد (كومبس): "أريد شايًا ومقعدًا دوّارًا أيضًا".

قالت (جين) بصوت هامس: "إنه ثمل". بيد أنها لم تر أبدًا رجلاً ثملاً بهذا الشحوب المتعاظم غير الطبيعى، ولا هاتين العينين البراقتين المتسعتين.

مد السيد (كومبس) يده الممتلئة بفطر "الغاريقون" قرمزى اللون، إلى السيد (كلارنس).

وصاح به: "نوع رائع. تذوق بعضه". وإلى هذه اللحظة، كان رقيق الجانب لطيفًا، ولكن ما إن رأى نظراتهم المشدوهة، حتى تغير أسلوبه، بذلك التغير الفورى من حالة الاختلال العقلى إلى الهياج الذى يسود بثقل وقوة. وبدا كأنه تذكر فجأة ذلك الشجار الذى على أثره غادر المنزل. وصرخ بصوت عال لم تسمعه زوجته من قبل: "هذا هو منزلى. وأنا السيد هنا. كل ما أعطيه لك دون مناقشة!".

ووضح أن السيد (كومبس) يصرخ عاليًا دون أن يبذل مجهودًا

يذكر، ودون أية إيماءات عنيفة، ووقف فى الحجرة جامدًا وكأنه مجرد شخص يهمس، وفى يده حفنة من الفطر.

وهنا أثبت السيد (كلارنس) أنه جبان. إذ إنه لم يتحمل النظرات المجنونة والهائجة التى فى عينى السيد (كومبس)، ومن ثم نهض من فوق المقعد ذى المسندين. وأزاحه جانبًا، واستدار وهو محنى الرأس ومستسلم. عندئذ اندفع إليه (كومبس). ووجدت (جين) أن هذه فرصة لها. فأطلقت صرخة متحشرجة، وهرعت فى اتجاه الباب. وتبعتها السيدة (كومبس). وحاول (كلارنس) أن يراوغ بالمكر والخداع. ولكن طاولة الشاى انقلبت وتحطمت فوق الأرضية، فى حين أمسك به (كومبس) من ياقته بإحكام، محاولاً دس الفطر فى فيه، وكان (كلارنس) قانعًا بترك ياقته وراءه، واندفع إلى الممر، ومازالت قطع صغيرة حمراء من فطر "الغاريقون" ملتصقة بوجهه. صاح السيد (كومبس): "أمسكوا به" وجدت (جين) باب المتجر ـ الملحق بالمنزل ـ مفتوحًا، ومن ثم اختبأت فيه، وأغلقت الباب خلفها، بينما هرع (كلارنس) إلى المطبخ. وحاول السيد (كومبس) فتح الباب بالقوة. وعندما وجدت السيدة (كومبس) أن المفتاح كان فى الداخل، ارتقت الدرج بسرعة إلى الطابق العلوى وحبست نفسها فى حجرة النوم الإضافية. وهكذا تجلى فى الممر ذلك التحول إلى الاستمتاع المرح بمباهج الحياة، وعلى الرغم مما أصاب السيد (كومبس) من تمزيق لملابسه الأنيقة. فإنه كان يمسك بحرص بقبعته الممتلئة بالفطر. وقف، وقد انتابته الحيرة، عند ملتقى ثلاثة اتجاهات متباينة، وفى نهاية الأمر اختار الاندفاع إلى المطبخ، حيث كان (كلارنس) يحاول البحث عن المفتاح، وبعد هنيهة تخلى عن

محاولاته، وهرب إلى حجرة غسل الأطباق المجاورة، ولكنه وقع فى "المصيدة" قبل أن يفتح الباب الخلفى. ولم يفصح السيد (كلارنس) لأى شخص فيما بعد، عن تفاصيل ما حدث. ولكن يبدو أن حالة الهياج التى انتابت السيد (كومبس) قد اختفت من جديد، وعاد إنسانًا رقيق الجانب ولطيفًا ومرحًا.

ولما كانت هناك سكاكين وسواطير لحم حولهما، فقد قرر (كلارنس) أن يتظاهر بالمرح أمام (كومبس)، حتى لا تتطور الأمور وتصبح مأساوية. ومما لا شك فيه أن السيد (كومبس) تلاعب بأعصاب السيد (كلارنس) حتى النهاية، وأسعده هذا إلى حد بعيد. لقد ظهر الرجلان فى ذروة الحميمية والمرح. كما لو كانا صديقين منذ سنوات طويلة. وألح (كومبس) على (كلارنس) بابتهاج، أن يتذوق الفطر، وبعد نقاش ودى، أبدى فيه (كومبس) ندمه لضيفه على ما سببه له من "فوضى" فى وجهه.

ويبدو أن (كومبس) جر (كلارنس) تحت الحوض، وتم حك وجهه بفرشاة تنظيف الفرن، لكنه ظل يدعى المرح خوفًا من ذلك المجنون. وفى نهاية الأمر، كان شعره أشعث وملابسه مجعدة وممزقة وملطخة و ـ بطريقة ما ـ وجد نفسه داخل معطفه ثم ألقى به إلى الخارج من خلال الباب الخلفى، وكانت (جين) قد أغلقت باب المتجر من الداخل.

عندئذ بدأ السيد (كومبس) يفكر فى (جين) فعاد إليها. لم تستطع (جين) فتح باب المتجر من الداخل، ومن ثم أحكمت إغلاق باب المتجر من الداخل بالمزلاج فى حالة ما إذا استخدم

السيد (كومبس) مفتاحه. وهكذا قضت باقى المساء حبيسة المتجر.

ويبدو أن السيد (كومبس) رجع من جديد إلى المطبخ، باحثًا عن المزيد من المتعة، حيث شرب خمس زجاجات من شراب قوى (وسكب من محتوياتها الكثير فوق صدارة الفراك الأنيق الذى يرتديه والذى لا يملك غيره). وكانت زوجته تدعى أنها تحتفظ بها من أجل صحتها!

أحدث السيد (كومبس) جلبة مريعة وهو يكسر أعناق زجاجات الخمر، بعدد من الأطباق التى تلقتها زوجته هدية زفاف، وكان ينشد ـ خلال هذا ـ أغانى شعبية مرحة متنوعة، وجرح إصبعه مرة بإحدى الزجاجات المكسورة ـ وتلك هى إراقة الدم الوحيدة فى قصتنا هذه ـ كما أصابته حالة من التشنج الخفيف، لأنه غير معتاد على احتساء هذا الخمر القوى الخاص بزوجته، وربما ساعد على حدوث حالة من الهدوء فى نفسه، ذلك السم الموجود فى الفطر الشيطانى. وعلى أية حال، نفضل أن نسدل الستار على الوقائع التى حدثت فى عصر ذلك الأحد، والتى انتهت فى القبو الذى يخزن فيه الفحم، بنوم عميق.

ومرت خمس سنوات. ومن جديد كان عصر يوم أحد فى شهر أكتوبر. ومرة أخرى سار خلال أشجار غابة الصنوبر، فيما وراء القناة. ولم يزل هو نفس الرجل الذى تعرفنا عليه، بعينيه السوداوين وشاربه بالغ السواد، وقصر قامته، كما كان فى بداية القصة، لكن ذقنه المزدوجة لم تعد ذات طبيعة خادعة وموهمة، كما كانت من

قبل. وكان معطفه جديدًا بطية صدر من المخمل، وياقته أنيقة وعلى أحدث طراز، وذات طيات وزوايا، وغير مقساة بالنشا، وقد استبدلت بالياقة القديمة التى كانت تحيط برقبته من كل جانب. وكانت قبعته براقة وقفازاه جديدين، على الرغم من أن أحد أصابعه كان قد تمزق فإنه تم إصلاحه بعناية. ويمكن لشخص ما عابر، أن يلاحظ فى مظهره ورأسه المنتصب، الذى يميز الشخص الذى يحس بالثقة بنفسه، إن السيد (كومبس) الآن صاحب عمل وله ثلاثة مساعدين، وإلى جواره يسير شخص شبيه له ولكنه أطول منه وقد لفحته الشمس، إنه أخوه (توم)، العائد حديثًا من (استراليا)، وكان توم يلخص صراعاتهما الماضية، وكان يقول لأخيه (كومبس): "إنه مشروع تجارى طيب يا (جيم). وفى هذا الزمن الذى تشتد فيه المنافسة، أنت جد محظوظ لأنك استطعت إدارة أعمالك بكفاءة، وبجانبك زوجتك التى تقدم لك دائمًا يد المساعدة".

قال السيد (كومبس): "بينى وبينك. لم تكن الأمور بهذا الشكل فى الماضى. ولم تكن الزوجات دائمًا هكذا، بل كن أحيانًا طائشات ومستهترات. فالنساء مخلوقات مخادعة".

"حقًا!".

نعم، ربما لن تصدق هذا، ولكنها كانت مبذرة للغاية، مما أربكنى ماليًا. لقد كنت متساهلاً ومحبًا. فاعتقدت أنها أصبحت تستحوذ على كل شىء. فقد أحالت منزلنا إلى فندق حيث تستضيف فيه صديقاتها وأصدقاءهن. وكانوا ينشدون الأغانى المرحة الهزلية فى أيام الآحاد المباركة. أما أنا فقد كنت أعانى من الخسائر فى عملى.

وهى مستمرة فى لهوها حتى مع الشباب الذين يأتون لزيارتنا. أؤكد لك يا (توم)، أن المنزل لم يعد منزلى!".

"لم يخطر هذا على بالى".

"كان الوضع هكذا تمامًا. حاولت أن أكون منطقيًا معها. وقلت لها: "لست دوقًا، لأحتفظ بزوجة وكأنى أربى حيوانًا أليفًا. لقد تزوجتك لتساعدينى فى الحياة ولأسعد برفقتك. عليك أن تساعدينى فى عملى". ولكنها لم تأبه لما أقول ولم تنصت لى. فقلت لها: "حسن. إننى رجل مسالم وطيب إلى أن يثيرنى شخص ما، وكدت أن أصل إلى هذه المرحلة. ولكنها لم تصغ إلى أى من تحذيراتى".

"وماذا حدث بعد ذلك؟".

"ذلك هو حال النساء على الدوام. لم تحسبنى قادرًا على أن أثور. إن النساء من هذا النوع - وليكن الأمر بينى وبينك يا (توم) - إنهن لا يحترمن الرجل إلا إذا أدخل فى قلوبهن الخوف بعض الشىء. ولهذا قررت أن أريها. وذات يوم جاءت فتاة تدعى (جين) وكانت تعمل معها، ومعها صديقها الشاب، وكانا يحدثان ضجة وضوضاء عالية، فتشاجرنا وتركت لهم المنزل ثم عدت وانتقمت منهم، بما فيهم زوجتى".

"هل فعلت هذا؟".

"نعم، لقد أصابنى الجنون، فعدت إلى المنزل وضربت الشاب وأخذت أطاردهم وأطيح بالأشياء وأهشمها مما أدخل الخوف فى

قلوبهم، وفرت زوجتى واختبأت فى حجرة النوم الإضافية فى الدور العلوى".

"وماذا حدث بعد ذلك؟".

"هذا كل شىء. وفى صباح اليوم التالى قلت لها: "أنت الآن تعرفين كيف أكون عندما يثيرنى شخص ما". ولم أكن فى حاجة إلى أن أقول كلمة واحدة أخرى.

"وهل أصبحت سعيدًا بعد ذلك؟".

"إلى حد بعيد، ليس ثمة أفضل من أن يصدر الإنسان أمرًا بينًا حازمًا فى مواجهتهن. ولولا تلك الأحداث المتعاقبة فى عصر يوم الأحد هذا، لكنت الآن أهيم فى الطرقات على غير هدى. أما هى فلعلها كانت تتذمر منى بطريقة فظة، وعائلتها تشكو من أنها أصبحت فقيرة بسببى. إننى أعرف جيدًا طرقهم الوضيعة، ولكننا على ما يرام الآن. وكما قلت أنت، إننى أمتلك مشروعًا تجاريًا طيبًا".

وسار الشقيقان فى طريقهما، وكل منهما مستغرق فى أفكاره، قال (توم): "إن النساء مخلوقات غريبة".

قال (كومبس): "يجب معاملتهن بشدة وصرامة".

وسرعان ما أبدى (توم) ملاحظة قائلاً: "يا لها من كمية فطريات نامية هنا فى كل مكان، إننى لا أستطيع أن أدرك مدى النفع منها!".

قال (كومبس) وهو ينظر حوله: "أعتقد أن الله خلقها لحكمة خالدة".

وكان فى هذا اعتراف بالجميل، لتلك القلنسوة الأرجوانية التى التقطها السيد (كومبس) وأصابت هذا الرجل القصير العبثى بالجنون، إلى الدرجة التى دفعته إلى اتخاذ قرار مصيرى، وهكذا غير حياته بالكامل.

خداع جيـن

بينما كنت جالسًا أكتب فى مكتبى ترامى إلى سمعى وقع أقدام خادمتنا (جين) نازلة الدرج ومعها المكنسة والمنفضة، فلقد اعتادت فى السابق أن تردد ألحان ترانيم أو ألحان النشيد الوطنى البريطانى أثناء عملها بهذه الأدوات، ولكنها مؤخرًا كانت تعمل صامتة وحريصة فى عملها. وكنت أصلى بحرارة لأنعم بمثل هذا الهدوء، وكانت زوجتى تتمنى هذا الحرص فى العمل، ولكن عندما تحقق ذلك الآن لم نصبح سعداء كما توقعنا. ففى واقع الأمر كان ينبغى أن أسعد سرًا - بالرغم من أنه من الضعف الذى لا يليق برجل أن أعترف بذلك - لسماعى (جين) تنشد (ديزى) أو سماعى صوت تحطم أى طبق ولكنها كانت واحدة من أسعد لحظات (أوفيميا) أن تعلم بانتهاء فترة خطوبة (جين). فكم طال انتظارنا لسماع نهاية قصة الشاب المرتبط بـ (جين) قبل أن نسمع عن نهايتها بالفعل! فدائمًا كانت (جين) منطلقة فى حديثها مع زوجتى، فلقد كانت تتحدث فى المطبخ عن مواضيع عدة، حتى أننى أحيانًا كنت أترك باب مكتبى مفتوحًا - فمنزلنا صغير حيث لا يمكننا

تقاسمه مع آخرين ـ ولكن بعد أن ظهر (ويليام) فلقد كان (ويليام) هو الشغل الشاغل لا شيء سوى (ويليام)، (ويليام) حضر.. (ويليام) ذهب وعندما كنا نعتقد أن (ويليام) منهك ومتعب تمامًا نرى (ويليام) أمامنا! فلقد دامت الخطبة ثلاثة أعوام ولكن كيف تعرفت بـ (ويليام) وأغرمت به إلى هذا الحد فلقد ظل ذلك سرًا. فمن جانبى أعتقد أن التعارف تم فى زاوية الشارع حيث اعتاد القس (بارناباس روكس) القيام بالخدمة المفتوحة بعد فترة الترانيم فى كل يوم أحد. وكان كيوبيد يحلق مثل الفراشة حول الضوء فى فناء كنيسة "هاى تشيرش" وأتخيل أنها وقفت تنشد الترانيم هناك من الذاكرة وخيالها، بدلاً من العودة للمنزل لتناول العشاء. واقترب منها (ويليام) وقال: "مرحبًا" فأجابت: "مرحبًا بك" : ومضَيا فى حديثهما. وحيث إن زوجتى (أوفيميا) لديها أسلوب مستفز فى ترك خادميها يتحدثون إليها فلقد سمعت بشأنه قريبًا فلقد أخبرتها (جين) قائلة: "هو شاب محترم يا سيدتى" وسألت زوجتى لمعرفة المزيد عن هذا الـ (ويليام) فأخبرتها (جين) قائلة: "إنه يعمل سائقًا ثانيًا لدى مؤسسة ماينارد ـ التى تبيع الملابس والأقمشة ويحصل على ١٨ جنيهًا إسترلينيًا أسبوعيًا. وعندما يتقاعد السائق الأول سيصبح هو السائق الأول. فأقاربه من علية القوم يا سيدتى. فهم ليسوا من الطبقة الكادحة على الإطلاق. فلقد كان والده يمتلك متجرًا لبيع الخضر والفاكهة وتعرض للإفلاس مرتين، وتمتلك إحدى شقيقاته متجرًا للصباغة سيكون ذلك اختيارًا مناسبًا بالنسبة لى يا سيدتى بالنسبة لى بصفتى فتاة يتيمة" . فسألتها زوجتى قائلة: "إذن فأنت مخطوبة له" فأجابتها (جين): "لست مخطوبة له يا سيدتى، ولكنه

يدخر المال لشراء خاتم الخطبة". فأجابتها زوجتى (أوفيميا) التى تمتلك تصورًا يوحى بشأن واجبها تجاه خادماتها قائلة "حسنٌ يا (جين) عندما تُخطبين له رسميًا فربما تطلبين منه الحضور إلى هنا فى مساء كل أحد وتتناولين الشاى معه فى المطبخ".

وأصبحت بعد ذلك تجوب المنزل مرتدية الخاتم بتباهٍ، لذلك فلقد استاءت الخادمة الأكبر سنًا السيدة (ميتلاند)، وأخبرت زوجتى أن الخادمات لا يجب أن يرتدين خواتم، ولكن زوجتى أخذت تبحث فى كتب (انكواير ديزين) وكتاب السيدة (موزرلى) لقواعد إدارة المنزل ولم تجد أى مانع لذلك الأمر، لذلك ظلت (جين) محتفظة بهذه السعادة مضافة إلى حبها لـ (ويليام).. ولقد بدا لى "كنز" قلب (جين) على أنه ما يسميه الناس الوقورون شابًا مناسبًا تمامًا وفجأة فى أحد الأيام قالت (جين) فى سعادة غامرة لم تستطع إخفاءها عندما كانت تعد زجاجات النبيذ "ويليام يا سيدتى لا يشرب الخمور نعم يا سيدتى وهو لا يدخن أيضًا فالتدخين يا سيدتى ضار بالصحة إضافة إلى أنه مضيعة للمال ورائحته أيضًا فأنا أعتقد أن مسألة الرائحة الطيبة مهمة للبعض". وربما بدا على (جين) أنها تنعكس بشكل مؤلم على حظ (أوفيميا) السيئ بالمقارنة ثم أضافت بلطف قائلة: "إنى متأكدة من أن سيدى يكون سعيدًا عندما يشعل الغليون أكثر من أى وقت آخر "ولقد بدا (ويليام) فى البداية شابًا رث الثياب مرتديًا زيًا يشبه معطف المدرسة الجاهز الأسود ولديه عوينات رمادية ومظهر عام يناسب شقيق عاملة فى متجر للصباغة ولم تتخيله (أوفيميا) بشكل مناسب حتى فى البداية فلقد بدا وقاره الزائف من خلال شمسية لم يسمح لنفسه

بمفارقتها. وقالت (جين): "إنه يذهب إلى الكنيسة يا سيدتى.. ووالده يا سيدتى كان يسمى (تشيرش) والسيد (مينارد) كان أخًا فى كنيسة الأخوة. ويعتقد (ويليام) أنه لمن السياسة أن يذهب إلى هناك حيث يذهب (مينارد) ويحادثه بصورة ودية حيث لا يتحدثان عن العمل بل يتحدثان عن أمور روحية". ثم علمنا أن السائق الأول بمؤسسة (مينارد) قد رحل وأصبح (ويليام) هو السائق الأول براتب ٢٣ جنيهًا استرلينيًا أسبوعيًا وقالت (جين): "إنه أفضل من مجرد سائق يقود شاحنة" ووعدت بتباهٍ أنها ستتوسط لنا لدى (ويليام) ليزكينا حيث يمكن أن نحصلَ على طرود من الملابس الجاهزة من مؤسسة (مينارد) بسرعة خاصة. وبعد هذه الترقية بدت مظاهر الرخاء سريعًا على الشاب خطيب (جين). وعلمنا ذات يوم أن السيد (مينارد) أعطى (ويليام) كتابًا وقالت (جين): "إن الكتاب يحمل عنوان "ابتسم وساعد نفسك" ولكنه لم يكن كتابًا فكاهيًا فهو يخبرك كيف تفهم العالم وكان بعض ما قرأه لى (ويليام) أمرًا مشوقًا يا سيدتى". فلقد أخبرتنى (أوفيميا) حول هذه الفكاهة ثم أصبحت حزينة فجأة وقالت لى: "هل تعلم يا عزيزى فلقد أخبرتنى (جين) بأمر لا أستسيغه"، وصمتت لبرهة ثم قالت فجأة: "(ويليام) أعلى مستوى منى يا سيدتى أليس كذلك؟". فأجبتها: "أنا لا أرى شيئًا فى ذلك". وفى أمسية أحد الآحاد كنت جالسًا إلى مكتبى - ربما كنت أقرأ فى كتاب شيق - عندما مر شىءٌ ما بجوار النافذة وسمعت ورأيت (أوفيميا) عاقدة ذراعيها وعيناها متسعتان وقالت لى فى صوت هامس "(جورج).. هل رأيت". ثم تحدثنا بعضنا إلى بعض فى نفس اللحظة ببطء وبهدوء: "قبعة حريرية

وقفاز أصفر وشمسية جديدة!". وقالت (أوفيميا): "ربما أكون أتخيل ولكن رابطة عنقه تشبه رابطة عنقك تمامًا أعتقد أن (جين) هى من تجعله يرتدى رابطة العنق هذه، فلقد أخبرتنى منذ فترة قصيرة بإعجاب عن بقية ملابسك حيث قالت لى: "إن سيدى يرتدى رابطات عنق جميلة يا سيدتى" وهو الآن يقلد كل مقتنياتك.

ومر الخطيبان بنافذتنا مرة أخرى فى طريقهما لتمشيتهما المعتادة فلقد كان يتأبط ذراعها وبدت (جين) فخورة وسعيدة ولكن يبدو عليها عدم الارتياح وهى ترتدى قفازًا أبيض قطنيًا فى حين يرتدى ويليام القبعة الحريرية وبديا أنيقين بشكل استثنائى. وعندما عادت علمت سر سعادة (جين) حيث قالت: "لقد كان السيد (مينارد) يتحدث مع (ويليام) يا سيدتى ف (ويليام) الآن يقوم بخدمة العملاء تمامًا مثل الشاب الأنيق الذى يعمل فى المتجر وإذا أبلى جيدًا فسوف يُرقى إلى مساعد فى أول فرصة يا سيدتى. وإذا لم يُبلِ حسنًا فيكون ذلك على سبيل التجربة ". فأجابتها زوجتى: "إنه يبلى حسنًا (جين)". وقالت (جين) شاردة: "نعم يا سيدتى إنه يبلى جيدًا". وأطلقت تنهيدة.

وفى يوم الأحد التالى بينما كنت أتناول الشاى سألت زوجتى "لماذا يبدو هذا الأحد مختلفًا عن الآحاد الأخرى يا عزيزتى؟ فماذا حدث؟ هل قمت بتغيير الستائر وقمت بتغيير نظام الأثاث أو أين هو وجه التغيير؟ أو هل تغيرين طريقة تصفيف شعرك دون أن تخبرينى؟ فأنا لا أستطيع تحديد ذلك التغيير". ثم أجابت زوجتى بصوتها الحزين قائلة " (جورج).. ذلك التغيير هو أن (ويليام) لم يحضر اليوم و(جين) تبكى حزينة فى الطابق العلوى".

ثم سادت فترة من الصمت فلقد توقفت (جين) عن الغناء ـ كما قلت ـ فى أرجاء المنزل وبدأت تحرص على مقتنياتنا القابلة للكسر أثناء عملها وهو ما أدهش زوجتى كعلامة على الحزن. وفى يوم الأحد التالى والتالى طُلب من (جين) الخروج للسير مع (ويليام) وأعطتها زوجتى ـ التى لم تحاول مطلقًا استدراجها ومعرفة السر ـ الإذن بالخروج ولم تسألها أى أسئلة. وفى كل مرة تعود (جين) غاضبة ومندفعة. وأخيرًا وفى أحد الأيام أرادت التحدث. حيث قالت فجأة: "إن (ويليام) يؤخذ منى. نعم يا سيدتى فإن من تأخذه وتبعده فتاة ثرية يمكنها أن تعزف على البيانو". فقالت لها زوجتى: "لقد اعتقدت أنك كنت تخرجين معه يوم الأحد".

فأجابتها (جين) " لم أخرج معه بل كنت أتعقبه فلقد كنت أسير خلفهما وأخبرتها أننى مخطوبة له" فقاطعتها زوجتى: "عزيزتى (جين) هل فعلت ذلك؟ وماذا كان ردهم؟ فأجابتها (جين): "لم يلتفتا إلىّ كما لو كنت نفاية لذلك أخبرتها أنها ستندم على ذلك" فقاطعتها زوجتى "لا يمكن أن يكونوا متوافقين يا (جين)" فأجابتها: "إن إرتباطهما لا يخلو من المصلحة يا سيدتى". وأضافت (جين) "كنت أتمنى أن أعرف العزف على البيانو يا سيدتى ولكن على أى حال فأنا لا أنوى تركها تأخذه بعيدًا عنى فهى أكبر منى سنًا وشعرها مصبوغ بالأصفر يا سيدتى". لقد كنا مقبلين على إجازة أغسطس عندما وقعت هذه الأزمة ولم نعلم تحديدًا تفاصيل المشاجرة ولكن علمنا فقط بالرتوش التى أفضت بها المسكينة (جين)، فلقد عادت إلى المنزل متربة ومتوترة وقلبها مشتعل داخلها فلقد اعتقدت أن والدة الفتاة (ميليز) و(ويليام) أقاما حفلاً فى

متحف الفنون بجنوب كينجستون وبطريقة ما لحقت بهما (جين) فى هدوء ولكنها تحدثت إليهما بأسلوب حاد فى مكان ما فى الشارع وأكدت على حقها فيما اعتبرته ملكيتها غير القابلة للتحويل وأعتقد أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك بوضعها أيديها عليه فتعاملوا معها بتعالٍ وأشاروا لسيارة أجرة وأتخيل مشهد الزج بـ (ويليام) فى السيارة من جانب زوجة المستقبل وحماته ضد أيدى (جين) المسكينة المعارضة لجذبه للسيارة وكان هناك تهديدات بتوجيه اتهامات لها. فقالت لها زوجتى: "عزيزتى (جين) المسكينة إنه لمن المخزى لهم حيث لم يعد بإمكانى التفكير فى ذلك الأمر فهو لا يستحقك" فأجابت (جين): "لا. سيدتى فهو ضعيف إنها تلك المرأة هى التى فعلت ذلك". فهى لم تكن لتنطق اسم هذه المرأة أو تريد أن تعترف بأنها فتاة حيث قالت (جين): "إننى لا أستطيع التفكير فى وجود عقول لدى بعض السيدات تحرضهن على إبعاد خطيب عن خطيبته. إنه لمن المؤلم الحديث عن ذلك الأمر".

وبعد ذلك استراح منزلنا من (ويليام) ولكن كان هناك شىء ما فى أسلوب تنظيف (جين) أمام المنزل وتنظيف الحجرات. نوع من الغضب، مما أقنعنى بأن القصة لم تنته بعد. ففى أحد الأيام قالت (جين) لزوجتى: "من فضلك يا سيدتى أيمكننى الذهاب لحضور حفل زفاف غداً؟". فلقد علمت زوجتى بالبديهة حفل زواج من كان هذا فسألتها: "هل تعتقدين أن ذلك من الحكمة (جين)؟" فأجابت (جين): "أود أن أراه للمرة الأخيرة؟" ودخلت زوجتى لغرفتى مسرعة تقول :"عزيزى.. لقد كانت (جين) عند خزانة الأحذية وأخذت كل الأحذية ووضعته فى حقيبة وذهبت إلى حفل الزفاف، فمن المؤكد

أنها تنوى....". فقلت لها (جين) شخصية مكافحة دعينا نأمل فيما هو أفضل". وعادت (جين) ووجهها شاحب عابس وبدا أن كل الأحذية لا تزال فى الحقيبة وعندما رأت زوجتى ذلك أطلقت زفرة ارتياح. وسمعنا صوت أقدام (جين) تصعد الطابق العلوى وتضع الأحذية فى مكانها بصوت واضح. وقالت لزوجتى بأسلوب حوارى وهى جالسة فى المطبخ الصغير تقوم بتقشير البطاطس قائلة: "لقد كان الحفل مليئًا بالمدعوين يا سيدتى" ومضت تسرد بعض تفاصيل "لقد كان يومًا بهيجًا بالنسبة لهم فلقد كانوا جميعًا وقورين ومتأنقين يا سيدتى ولكن والدها لم يكن يرتدى معطفًا أسود وبدا أنه لا ينتمى للحفل، إن اسمه السيد (بيدينج كيرك)" فقاطعتها زوجتى "من؟" فأجابت (جين) "السيد (بيدينج كيرك) . وكان (ويليام) يرتدى قفازًا أبيض ومعطفًا يشبه رجل دين ويضع زهرة فى جيبه العلوى، فلقد بدا وسيمًا جدًا يا سيدتى. وكانوا يسيرون على سجادة حمراء مثل تلك التى يسير عليها الصفوة ويقولون: إنه أعطى الموظف المسئول عن عقد الزواج أربعة جنيهات استرلينية يا سيدتى. فلقد كان حفلاً بهيجًا وعندما خرجوا من الكنيسة كانوا ينثرون الأرز وكانت شقيقاتها الصُغريات ينثرن الورود ثم قام شخص ما برمى صندل فقمت بإلقاء حذاء". فقاطعتها زوجتى "هل قمت بإلقاء حذاء يا (جين)!" فأجابتها "نعم يا سيدتى فلقد قصدتها هى بالحذاء لكنه أصابه هو. نعم يا سيدتى لقد كان أمرًا صعبًا فلقد أصاب عينه كان يجب أن أفكر فلقد ألقيت بحذاء واحد فقط ولم أجرؤ على محاولة تكرار ذلك فلقد ضحك كل الصبية عندما أصابه الحذاء الذى ألقيته". ثم سكتت لبرهة فلقد كانت تقوم

بتقشير البطاطس بعنف "لقد كان دائمًا أعلى مستوى منى وهاهو يُؤخذ بعيدًا عنى " . وكانت البطاطس قد أُعدت ونهضت (جين) بزفرة بعد أن انتهت وقالت: "أنا لا أهتم فهو سيكتشف قريبًا الخطأ الذى وقع فيه. وهذه التجربة ستفيدنى فلقد تعلقت به وما كان يجب أن أنظر وأتطلع لما هو أعلى مستوى منى وأنا سعيدة بأن الأمور انتهت إلى ما هى عليه الآن" . فقد كانت زوجتى فى المطبخ تشرف على الطهى وبعد الاعتراف برمى الحذاء لابد أنها شاهدت (جين) المسكينة وهى تستشيط غضبًا ورأت شعورًا بعدم الارتياح فى عينيها البنيتين ولكنى أتخيل أنهما هدآ مجددًا بسرعة. وفى تحول مدهش للحديث قالت (جين) "أجل يا سيدتى عندما أفكر فيما حدث أجد نفسى سعيدة وكان علىّ أن أعرف ذلك ولكنى لم ألحظ فلقد كنت حانية معى وتركتنى أتحدث إليك يا سيدتى، لأن الأمر كان صعبًا علىّ سيدتى. نعم كان صعبًا" . وأعتقد أن (أوفيميا) نسيت نفسها حيث تركت (جين) تفضى لها ببعض ما يجيش فى خاطرها، وتفرغ همومها على صدر حانٍ والحمد لله أن (أوفيميا) لم تستوعب جيدًا أهمية المحافظة على وضعها ومنذ ذلك الحين اختفت نبرة الخوف والمرارة أثناء عمل (جين) وتنظيفها للمنزل. وفى اليوم التالى مر شىء مع صبى الجزار ولكن هذا لا يخص هذه القصة. إلا أن (جين) لا تزال صغيرة ويقوم الزمن والتغيير بعملهما معها، فنحن جميعًا لدينا أحزان ولا أعتقد كثيرًا فى الأحزان التى لا تندمل.

قصة حب لا تثير الشفقة

لا شك فى أن أى مثقف مطلع قد سمع عن (أوبرى فير). فلقد نُشر له فى ثلاث مناسبات مقاطع من قصائده الرصينة وأيضًا كان يكتب عمودًا شهيرًا بعنوان "شئون أدبية" بمطبوعة "كليماكس" فلقد أذيعت له مقابلة كان قد أجراها مع برنامج "السيدة الكاملة" بوجهه الذى يشبه (لورد بيرون)[1]. وأنه (أوبرى فير) ـ على ما أعتقد ـ من أوضح أن الأعمال الفكاهية من مؤلفات (ديكنز)[2] كانت أسوأ من مؤلفاته العاطفية، وهو أيضًا من قام بتتبع الطابع البرجوازى الضمنى فى أعمال شكسبير، إلا أنه من غير المعروف للجميع أن (أوبرى فير) مر بتجارب جنسية كما كانت له مؤلفات جنسية. فلقد تبنى منهج (جوته)[3] بعض الوقت فى أعماله الأدبية وربما يكون لذلك علاقة بفترة انحطاطه الأخلاقى العارضة بعد التزامه الجنسى. ويعد هذا الأمر من أبرز الأشياء التى تؤدى إلى تقويض

---

(١) شاعر إنجليزى (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤) (المترجم).

(٢) روائى إنجليزى (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) (المترجم).

(٣) شاعر ألمانى (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) (المترجم).

الأدباء مما يعطينا صورة كاملة إضافة إلى الانحدار فى حياتهم الرزينة مما يقربهم من الانحراف، ذلك بالإضافة إلى الشراب ومعاقرة الخمر، ويسمى هذا النوع من عدم الاستقرار بالنبوغ أو بالأحرى، ضمير النبوغ كما حدث مع (أوبرى فير). ومنذ أن أرسى (شيلى)[٤] هذه النظرية القائلة: إن الموهوبين مكفول لهم ألا يتعارض واجبهم تجاه أنفسهم مع واجبهم تجاه زوجاتهم. حيث لم أقابل بعد مبدعًا صغيرًا لم تتحول عواطفه إلى تشوش واختلاط معقد أو من يستطيع فصل مؤلفاته عن مشكلاته الخاصة. وحتى (أوبرى فير) فعل ذلك حيث كان ينظم القصائد القصيرة خلال الليل فى كتاب مذكراته ويتظاهر بأنه يكتب مقالات أدبية عندما تنزل زوجته مرتدية خفيها لمعرفة سبب تأخره بالأسفل. وبالطبع لم تفهمه. فلقد كان يفعل ذلك حتى قبل ظهور المرأة الأخرى فى حياته. ومن ثم فإن الخيانة الزوجية متأصلة فى العقل الموهوب. وفى واقع الأمر فإنه كتب قصائد قصيرة من هذا النوع الجنسى قبل ظهور هذه المرأة أكثر مما كتبه بعد ظهورها حيث إنه قضى الكثير من وقت فراغه فى تعديل إنتاجه القديم وتنقيحه وتشذيب ذلك النموذج العام لعاطفته ليناسب الطبيعة والشكل المميزين لهذه المرأة. فلقد كان (أوبرى فير) يقيم فى فيللا صغيرة حمراء بها حديقة صغيرة فى الخلف وتطل على منظر من التلال خلف السهول. فلقد كان يعيش على الاستثمار الحكيم للدخل الذى يدره عليه العمل الأدبى. فلقد كانت زوجته جميلة ولطيفة ورقيقة ولها ذلك التواضع الحانى لزوجة صالحة، وكانت تجد سعادة حياتها فى

(٤) شاعر إنجليزى (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) (المترجم).

إعداد العشاء الجيد لزوجها (أوبرى فير)، وأيضًا فى أن ترى منزلهما أفضل وأبهى من كل المنازل التى دخلتها. فلقد تمتع (أوبرى فير) بتناول وجبات العشاء التى تعدها زوجته وكان فخورًا بمنزله. إلا أنه بدأ يتذمر لأن عبقريته تراجعت إضافة إلى أنه بدأ يشعر بالامتلاء وأخذت البدانة تهدده. ولقد علم (أوبرى فير) أن روحه لا تستطيع أن تنتج إذا لم تتحرك مشاعره. وكانت المشكلة تتمثل فى كيفية تحريك مشاعره. حيث إن الحى الذى يسكنه حى محافظ. لذلك فلقد جاءت رغبات (أوبرى فير) لبعض الوقت مثل نبتة نبات متسلق مزروعة وسط حوض زهور، ولكن أخيرًا وفى الوقت الموعود، ظهرت المرأة الأخرى لتحتوى شغاف قلب (فير) المتلهف ومضت مغامرته العاطفية كما سيتم سردها هنا بأمانة شديدة.

فلقد كانت المرأة الأخرى فتاة وكان (أوبرى فير) قد التقاها فى مباراة تنس فى (ردهيل) ولم يكن (أوبرى فير) يمارس لعبة التنس بعد الحادث الذى وقع لعين الآنسة (مورتون) وأيضًا لأن هذه اللعبة تجعله يلهث ويتصبب عرقًا أكثر مما ينبغى أن يكون عليه شاعر، ولم تأتِ هذه الفتاة إلى (إنجلترا) سوى مؤخرًا ولا يمكنها لعب التنس. لذلك فلقد انجذبا إلى المقعدين الشاغرين إلى جوار السيدة الصماء عمة (باينى). أمام الزهور الجميلة وأخذا يتحادثان على سجيتهما. ولم يكن اسم المرأة الأخرى مناسبًا ـ فلقد كان اسمها الآنسة (سميث) ـ لكنك لا تتوقع هذا الاسم إذا نظرت إلى وجهها ومظهرها. فلقد كان نسبها واعدًا. فلقد نشأت يتيمة وكانت والدتها هندوسية وكان والدها موظفًا عموميًا هنديًا. وأيضًا كان (أوبرى فير) نفسه مزيجًا نادرًا من عناصر أوروبا الغربية (أيرلندا وويلز)

وعنصر ألمانى كما هو الحال مع كل الأدباء هذه الأيام. فهذا اعتقاد طبيعى فى العواقب الأدبية لتمازج الأعراق، ولقد كانت الفتاة ترتدى فستانًا أبيض، فلقد كانت ملامحها فاتحة ولها قوة تأثير غاية فى العمق ولديها شعر أسود ينساب على عينيها السوداوين ونظرت إلى (أوبرى فير) نظرة فضول مشوبة بالخجل مقارنة بصراحة فتيات حى (ريجيت) الذى يسكنه. وقال (أوبرى فير) راغبًا فى فتح حوار: "إن هذه أفضل مرجة خضراء، إنها الافضل فى (ريدهيل) وأنا أحبها كثيرًا لأن بها مروجًا مخصصة ـ مشيرًا بيده إلى كل المروج الأخرى ـ فأجابته الفتاة التى ترتدى الملابس البيضاء قائلة: "نعم فهناك أزهار جميلة ودائمًا أراها تميز (إنجلترا) ربما من خلال صورة رأيتها "هناك" عندما كنت صغيرة، لأطفال يصنعون عقود الفل، ووعدت نفسى بالقيام بهذا الأمر الممتع عندما أعود لوطنى ولكنى أشعر الآن بأننى أصبحت كبيرة على مثل هذه الأمور". "فأنا لا أفهم لماذا لا نستطيع الاستمتاع بمثل هذه المتع البسيطة عندما نكبر؟ ولماذا يتضمن نضوجنا نسيان الكثير من الأمور. ومن جانبى....".

وفجأة سألت عمة السيدة (باينى) الصماء مقاطعة: "هل حصلت زوجتك على وصفة (جين) لطريقة عمل حشوة السمك" فأجابها (أوبرى فير): "لا أعرف حقًا" فقالت عمة السيدة (باينى) الصماء "حسنٌ فإن ذلك الأمر كان يجب أن يسعدك". فأجاب (أوبرى فير): "أى شىء يسعدنى لا أهتم به كثيرًا".

فقالت عمة السيدة (باينى) الصماء: "إنه طبق جميل حقًا"، ثم استغرقت فى التأمل. ثم قال (أوبرى فير): "كنت أقول إننى أعتقد

أننى لا أزال أجد أفضل متعة لدىّ فى تذكر أيام الطفولة الماضية و(بى) الآن ابن شقيقى الصغير أرى فيه طفولتى وعندما نقوم باللعب بالطائرات الورقية معًا وأنا متأكد أنه سيكون من الصعب القول من منا أكثر سعادة عندما نقوم بذلك. وبالمثل يجب أن تحصلى على عقد الأقحوان[٥] بهذه الطريقة من خلال اللهو مع فتاة صغيرة.

"ولكنى فعلت ذلك فلقد اصطحبت فتاة صغيرة للسير خلال المروج الخضراء وطرقنا هذا الموضوع فوبختنى على اقتراحى أن نلعب "لعبة المسّاكة"، وكان ذلك أمرًا محبطًا، فأجابها (أوبرى فير): "المربية هنا تسرق الطفل من طفولته بشكل فظيع، فأى حياة ستكون، تلك التى لا طفولة فى بدايتها؟ بعض البشر هنا لم يعيشوا طفولتهم ولا ينضجون أبدًا فلقد عاشوا حياة لا معنى لها. فلقد عاشوا حياة باهتة. حيث لم يشعروا بالحب أو يشعروا بفقدانه. فهم - ولا يحضرنى الآن صورة أفضل من ذلك - بمنزلة أوعية بشرية لم تُزرع فيها روح. ولكن أى روح بشرية تنضج بشكل مناسب يجب أن تمر بمرحلة طفولة نضرة".. فأجابت الفتاة السمراء بتأمل: "نعم. الطفولة الطائشة وعنفوان الانطلاق، يجب أن تكون تلك هى البداية".

"ثم نمر بالمراهقة والتحول إلى مرحلة الشباب" فأجابت الشابة السمراء مثبتة عينيها الحالمتين نحو التلال، وتوترت أصابعها على ركبتيها عند حديثها قائلة: "القوة والنشاط إنهما أمران حيويان

---

(٥) زهر اللؤلؤ له أوراق وردية أو بيضاء (المترجم).

للحياة وكذلك الحرية والاعتماد على النفس". فأجابها (أوبرى فير): "وهكذا أخيرًا نصل إلى السكون وتتويج الحياة" ثم يصمت ويحدق فيها ثم يخفض صوته ليهمس لها: "وسكون الحياة واستقرارها هو الحب". ثم التقت أعينهما للحظة ولكنها حولت ناظريها على الفور. وشعر (أوبرى فير) برعدة لم يشعر بها من قبل وضيق فى التنفس ولكن مشاعره كانت أعقد من أن توصف. فلقد كان لديه إحساس ما بالمفاجأة وأيضًا بطريقة سير محادثتهم. ثم وكزته عمة السيدة (باينى) الصماء فجأة فى صدره بسماعة أذنها عندما صاح أحدهم بملعب التنس "صفر الجميع"[٦]، وسألته عمة (باينى) الصماء: "هل أخبرتك بأن بنات (جين) أصابتهم الحمى القرمزية؟" فأجابها (أوبرى فير): "لا" فأجابته: "نعم وهم يتماثلون للشفاء الآن"، وسادت فترة من الصمت بدا ثلاثتهم شاردين بعمق حتى إنهم لم يستطيعوا الحديث. ثم بدأ (أوبرى فير) الحديث بأسلوب فلسفى بحت مسترخيًا على كرسيه عاقدًا يديه أمامه مثل أيدى قديس يصلى، ومحدقًا فى مقدمة حذائه قائلا: "الحب. الحب ـ كما أعتقد ـ هو الأمر الحقيقى الوحيد فى الحياة حيث إنه يسمو فوق العقل والمنطق أو المصلحة أو الشرح. إلا أننى لم أقرأ مطلقًا عن عصر انزوى فيه الحب كما هو الوضع الآن. وما كان يتوقع مطلقًا أن يسير الحب عبر قنوات محددة فما كان الحب مطلقًا موضع استخفاف أو رقابة أو توجيه أو مواراة. ويقول رجال الشرطة: إنه أسلوب (إيروس)[٧]. ونتيجة لذلك نقوم بتفريغ

---

(٦) نتيجة فى التنس الأرضى (المترجم).

(٧) إله الحب وابن أفروديت عند الإغريق (المترجم).

إمكاناتنا العاطفية فى جمع الذهب والشهرة وبالرغم من كل شىء ومع أفضل حظ فى كل هذه ـ نأخذ فى الاعتماد على الصور المزخرفة لنجاحنا وبذلك نكون عبيدًا أشقياء بقلوب متذمرة فى موكب الحياة". ثم أطلق (أوبرى فير) زفرة ثم سادت فترة من الصمت ونظرت إليه الفتاة بعينيها اللتين تنمان عن الغموض. فلقد قرأت الكثير من الكتب ولكن (أوبرى فير) كان أديبها المفضل ـ فلقد أخذت هذا النوع من الأمور كنزعة واتجاه ـ كما فعلت فتيات من قبل. ومضى (أوبرى فير) فى حديثه منتبهًا للانطباع الجيد الذى تركه لدى الفتاة قائلاً: "نحن مثل الألعاب النارية أشياء جامدة شبه ميتة حتى تأتى الشرارة الموعودة بعدها ـ إن لم تكن قد أصابتها الرطوبة ـ تنفجر الأرواح الخاملة بقوة بكل ما فيها من حرارة وجمال. هذه هى الحياة. أتعلمين؟ إننى أحيانًا أعتقد أننا سنكون أسعد إذا ما متنا بعد فترة قصيرة من هذه الفترة الذهبية ـ مثل ذبابة مايو ـ فهناك تراجع وتلاشٍ يبدأ بعد هذه الفترة". فقاطعته عمة السيدة (باينى) الصماء قائلة "ماذا؟. لم أسمع ما تقول" فصاح (أوبرى فير) محولاً اتجاه أفكاره: "كنت أقول: إنه لا يوجد أشخاص كثيرون فى (ريدهيل) يمكنهم مجاراة زى السيدة (مورتون) الأخضر الأنيق". فأجابت عمة السيدة (باينى) الصماء صائحة: "لقد لاحظ آخرون ذلك الأمر فذلك منذ أن قامت باستعمال طاقم أسنان" ولقد أدت هذه المقاطعة إلى تغيير مسار الحديث قليلاً وقالت الفتاة السمراء لـ (فير) عندما افترقا ذلك المساء " سيد (فير) علىَّ أن أشكرك. لأنك قدمت لى الكثير لأفكر بشأنه". ومن أسلوبها فى الحديث تبين (أوبرى فير) بوضوح أنه لم يكن يضيع وقته سدى فى

هذه المحادثة. وربما يتطلب الأمر قلما أكثر براعة من قلمى لأصف كيف نما حب الآنسة سميت ـ مثل يقطين يونس[٨] ـ فى قلب (أوبرى فير). فلقد أصبح شاردًا وعصبيًا عندما يطول غياب الآنسة (سميث). وشعرت السيدة (أوبرى فير) بهذا التغير الذى طرأ عليه وأرجعت السبب وراء ذلك إلى أنه ربما تلقى نقدًا لاذعًا على مؤلفاته من أحد نقاد صحيفة "ساترداى" "فساترداى" دائمًا ما تفعل ذلك، وأعاد (أوبرى فير) قصيدته "تآلفات انتقائية" وأعارها للآنسة (سميث). وإنه لمن المدهش كما بدا واضحًا لأعضاء نادى (أريوبيجس كلوب" ـ حيث تعرفنا على (أوبرى فير) ـ فلقد أبدى عاطفة واضحة لا يرقى إليها شك، تجاه هذه الفتاة الجميلة الذكية ذات العينين السوداوين. فلقد تحدث إليها كثيرًا بشأن الحب والقدر، وحول كل الأعمال المجيدة للشاعر الصغير. وتحدثا معًا حول موهبته وأخذ يثنى بإفراط ـ وأيضًا بحرص ـ على مجتمعها وقدم وقرأ لها أعذب قصائده التى لم تنشر. ونعتقد أن ملامحه البايرونية شاحبة وغير مألوفة ولكن العقل الأنثوى له قوانينه الخاصة. وأعتقد ـ أيضًا ـ عندما لا تكون الفتاة حمقاء ـ أن أى أديب تكون له أفضلية كبرى عن أى شخص آخر، باستثناء الوعاظ، فى إمكانية تعبيره عن مكنونات قلبه. وأخيرًا جاء اليوم فى ذلك الصيف الذى التقى فيه بها بمفردها ـ ربما من قبيل الصدفة ـ فى أحد الأزقة الهادئة المؤدية لـ "هورلى" وكان هناك سياج كثيف من الشجيرات على كلا الجانبين وتحادثا بود حول طموحاته وتطلعاته

(٨) نبات مثل القرع يحمل ثمارًا ذات قشرة قاسية ويتميز بسرعة نمو (المترجم).

الشعرية، ثم قرأ عليها تلك القصائد التى نُشرت له فيما بعد فى مجلة "هوبسونز ماجازين" بعنوان "لقد أصبحت فى أضعف حالاتى منذ أن قابلتك" فلقد كتب ذلك فى اليوم السابق وبالرغم من أنى أعتقد أن العاطفة مبتذلة على نحو غير مألوف فإن هناك ملحوظة تعويضية بشأن جودة الأبيات وهو أمر غير واضح فى شعر (أوبرى فير). فلقد قرأ القصيدة بشكل جيد، وشابَ صوته التعبير بعاطفة حقيقية عندما كان يتلو القصيدة فى حين تشير يده الشاحبة لتوافق الإيقاع الأبياتُ وأنهى قصيدته متطلعًا فى وجهها قائلاً: "سيبقى حبى لك للأبد" وقبل أن يرفع عينه عن الورقة كان يفكر فى قصيدته وتأثيرها. وكان ذراعاها ممتدين أمامها ويداها متشابكتين وكانت عيناها حانيتين. وقالت له فى نعومة: "قصائدك تنفذ إلى شغاف القلب"، وكانت ملامحها المتحركة قادرة على التعبير بمهارة وفجأة نسى زوجته ومركزه بوصفه شاعرًا صغيرًا عندما نظر إليها ومن المحتمل أن ملامحه الكلاسيكية ربما تكون مرت بتغيير. فللحظة قصيرة - وربما انطبعت فى ذاكرته - رفعه القدر فوق ذاته الضعيفة إلى مستوى أرفع من البساطة. وطارت نسخة قصيدته "أضعف حالاتى" من بين يديه وتلاشت من ذهنه كل الاعتبارات ولم ير سوى شىء واحد هام.

فقال لها: "أحبك" فعلا تعبير الخوف وجهها واشتدت قبضة يديها بعضهما على بعض وأصبح وجهها شاحبًا. ثم حركت شفتيها كما لو كانت ستتكلم مقربة وجهها قليلاً من وجهه ولم يشعر أى منهما فى هذه اللحظة بأى شىء فى عالم سوى بعضهما ببعض وكانا يرتعشان بشدة وقالت له بصوت هامس: "تحبنى؟"، ووقف

(أوبرى فير) يرتعش دون أن يتكلم ينظر فى عينيها. حيث لم ير مطلقًا مثل هذا البريق الذى يراه الآن من قبل. فلقد كان فى اضطراب عاطفى حاد، وكان خائفًا بشدة مما فعله ولم يستطع قول كلمة أخرى. نكس رأسه، ثم سألته بنفس الصوت الهامس: "وهذه القصيدة كتبتها لأجلى؟ حبيبى. حبيبى!" ثم عانقته ووضعت وجنتيها على صدره، ووجد شفتيه على شفتيها. وبعد ذلك وصل (أوبرى فير) إلى الذكرى الأساسية فى حياته وحتى هذا اليوم.. تظهر هذه الذكرى فى أعماله. وكان صبى يقوم بتسلق السياج الشجرى بالقرب من الزقاق عندما رأى هذا المشهد بدهشة تحول إلى ازدراء واحتقار وغير مبال بقدرة تحول بعيدًا شاعرًا بأنه على الأقل لا يمكنه الوصول إلى هذه الحالة من عدم الرجولة التى لا يُنطق بها التى تجعله يحتضن الفتيات. وغير سعيد بفضيحة حى "زيجلت" شعر بأن الخزى الذى جلبه على بنى جنسه أكبر من أن يُنطق بها. وبعد ساعة عاد (أوبرى فير) إلى منزله واجمًا وكان هناك شطائر بعد تناوله الشاى وكانت السيدة (أوبرى فير) قد تناولت شطائرها وكان هناك زهور بيضاء - الزهور التى طالما أحبها - موضوعة فى وعاء خزفى كان يعجب بها. ووقفت زوجته لتقبله وهو جالس يأكل وكانت تقبله تحت أذنه. ثم مر الأمر بذهن (أوبرى فير) بوضوح شديد - فى حين أن فمه ملىء بالشطائر وزوجته تقبل أذنه - فالحياة أمر معقد بشكل كبير. ومضى الصيف وجاء الخريف وبدأت أوراق الشجر فى التساقط. وكان الوقت مساء عندما كان شعاع الغروب الدافئ يداعب التلال ولكن أعلى الوادى كان الغمام الأزرق يتحرك ببطء وكان هناك مصباح أو اثنان

مضاءين فى حى (ريجيت) وفى منتصف الطريق تقريبًا على الطريق المنحدر الذى يؤدى إلى التلال كان ثمة مقعد خشبى حيث يستطيع المرء الحصول على رؤية جيدة للفيلات الحمراء المتناثرة فى الأسفل ولسلسلة التلال الزرقاء خلفها حيث كانت الفتاة ذات الوجه الأسمر جالسة. وكان على ركبتيها كتاب ولكنه ظل مهملاً فلقد كانت تتطلع للأمام وكانت تسند ذقنها على كفها ومحدقة عبر الوادى نحو السماء المظلمة بعينين مضطربتين. وظهر (أوبرى فير) من ثنايا الأشجار وجلس إلى جوارها وكان ممسكًا بأوراق أشجار ذابلة بين يديه ولم تغير من جلستها وقالت "حسنٌ؟". فسألها "هل هذا يعد هروبًا؟".

وكان (أوبرى فير) شاحبًا بعض الشىء فلقد مر بليال سيئة انتابته فيها أحلام حول نشر قصته فى صحيفة "كونتيننتال إكسبرس" وكانت السيدة (أوبرى فير) أيضًا مستمرة فى ملاحقته فلقد تخيلها تقوم بتضخيم المأساة من خلال إحضارها جوارب إضافية وأى أشياء تافهة من هذا القبيل كان قد نسيها معها. وتخيل ثورة حى (ريجيت) و(ريد هيل) بسبب قصته هذه. فهو لم يهرب مع عشيقته من قبل وانتابته رؤى حول وقوع مشكلات مع أصحاب الفنادق وربما تسبق السيدة (أوبرى فير) وتنشر قصته وحتى انتابته رؤى توقعية بشأن العناوين الرئيسية فى الصحف المسائية الرخيصة والتى تخيلها تقول: "فتاة تخطف شاعرًا صغيرًا" لذلك تهدج صوته وهو يسألها؛ "هل هذا يعد هروبًا؟"، فأجابته دون أن تنظر له "كما ستفعل" فقال (أوبرى فير) ببطء محدقًا فى أوراق الأشجار فى يده: "أريدك أن تفكرى خاصة فى كيف سيؤثر ذلك

الأمر عليك. فالرجل يحصل على مكاسب وزهو ما من هذه العلاقات ولكن بالنسبة للفتاة فإن ذلك فساد اجتماعى وأخلاقى. فقالت له الفتاة ذات الملابس البيضاء: "هذا ليس حبًا" "نعم يا عزيزتى فكرى فى نفسك" وقالت الفتاة بصوت خافت: "يا للحماقة"! "هل تحدثيننى؟"، "لا، لا شىء"، "لكن ألا يمكننا الاستمرار فى مقابلة بعضنا بعضًا وحب بعضنا بعضًا دون أى فضيحة أو شقاء؟، ألا يمكننا ذلك". فقاطعته الآنسة (سميث): "سيكون ذلك أمرًا فظيعًا للغاية"، هذا حوار مروّع بالنسبة لى فالحياة شىء معقد فهى مثل شبكة من الخيوط التى تشدنا إلى هذا الاتجاه أو ذاك. فلا يمكننى أن أخبرك ما هو الصحيح. يجب أن تفكرى فى الآخر"، ما "الرجل كان ليقطع هذه الخيوط" فأجاب (أوبرى فير) بتوهج مفاجئ للنزعة الأخلاقية "ليس هناك أى رجولة فى فعل الخطأ يا عزيزتى"، فأجابته: "يمكننا على الأقل أن نموت معًا يا عزيزى". فأجابها (أوبرى فير): قائلاً: "يا إلهى - أعنى - التفكير فى زوجتى"، "أنت لم تفكر فيها حتى الآن" فقال (أوبرى فير) "هناك نبرة جبن فى الهجر وشأن الانتحار، فبصراحة لدى النزعة الإنجليزية ولا أحب أى نوع من الهروب" وابتسمت الآنسة (سميث) ابتسامة باهتة: "أرى الآن بوضوح ما كنت غافلة عنه، فحبى وحبك أمران مختلفان" فأجابها (أوبرى فير): "ربما هو الاختلاف الجنسى" ثم عندما شعر بعدم كفاية كلامه دخل فى فترة صمت. ثم جلسا صامتين بعض الوقت وتضاعف عدد المصابيح المضاءة فى حى (ريجيت) إلى عدد من النقاط اللامعة وظهر نجم فوقهما فى السماء وفجأة بدأت فى الضحك بصوت ليس بمرتفع وكان ضحكها هيستيريًا مما أزعج

(أوبرى فير) بشدة ثم وقفت قائلة: "سيتساءلون عن غيابى أعتقد أنه علىّ الذهاب" ثم تبعها إلى الطريق وقال لها فى مزيج غريب ومتناقض من الشعور بالارتياح والندم الشديد"،: "إذن فهذه النهاية؟" فأجابته: "نعم إنها النهاية" وتحولت عنه. ووقع فى نفس (أوبرى فير) شعور بالخسارة المفجعة. فلقد كان هذا شعورًا جديدًا تمامًا. وكانت تبعد عنه عشرين ياردة عندما بدأ ينتحب بصوت عال وبدأ يجرى خلفها فاتحًا ذراعيه وأخذ يصيح "(آنى). (آنى) لقد كنت أتحدث معك بحماقة. (آنى) الآن أدرك أنى أحبك ولا يمكن أن أضيعك هذا مستحيل، فأنا لم أكن أدرك". ثم صاح بصوت متهدج: "(آنى) توقفى"، وامتلأت عيناه بالدموع. ثم تحولت إليه فجأة ونزّل ذراعيه إلى جواره وتغير تعبيره عندما رأى وجهها الشاحب وقالت له: "ألم تفهم، لقد قلت: وداعًا" ثم نظرت إليه وهو فى غاية الإحباط، وكان قد توقف لتوه عن النحيب. ووصل إلى حالة يرثى لها ثم اقتربت منه وأخذت وجهه البايرونى بين يديها وأخذت تقبله. قائلة: "وداعًا أيها الرجل الصغير الذى أحببته ووداعًا لهذا الحب الأحمق" ثم بشىء ربما كان ضحكة أو تنهيدة ـ لم تعرف هى نفسها ماذا كان هذا الشىء عندما أخذت تكتب كل هذا فى روايتها ـ تحولت وأسرعت مبتعدة ثانية وخرجت من الممر الذى لابد أن يتتبعه (أوبرى فير) الواقع فى مفترق الطرق. ووقف (أوبرى فير) حيث قبلته بعقل مشلول مثل جسده حتى اختفى فستانها الأبيض ثم أطلق زفرة تلقائية، زفرة منهكة طويلة. وهكذا أيقظ نفسه وبدأ فى السير جارًا قدميه خلال أوراق الأشجار الذابلة على الأرض متجهًا لمنزله. فالمشاعر أشياء مريعة. سألته السيدة (أوبرى فير) على

العشاء قائلة: "أتحب البطاطس يا عزيزى؟ فلقد طهوتها بنفسى".
وهنا هبط (أوبرى فير) من مستوى التأملات المعنوية السامية إلى مستوى البطاطس المقلية. فأجاب بعد فترة حاول خلالها بشدة جمع شتات نفسه قائلاً: "هذه البطاطس. نعم هذه البطاطس لها نفس ألوان أوراق الأشجارِ الذابلة". فقالت السيدة (أوبرى فير): "يا له من شاعر حالم"! ثم أردفت: "تذوق هذه البطاطس.. إنها شهية حقًا".

الكارثة

لم يكن المتجر الصغير يُدر العائد المعقول.. وجاء التحقق من ذلك بشكل يتسم بالجمود واللامبالاة.. لم يكن (وينسلو) الرجل المناسب لعمليات الجمع والطرح واكتشاف أى تلاعب فى السلع. وأصبح واعيًا بالحقيقة فى عقله تدريجيا، كما لو أنها كانت موجودة دائمًا. لقد أدت مجموعة من الحقائق المتجمعة إلى وجوده فى هذا المكان.

كانت هناك مجموعة من أقمشة الكريتون، أربع قطع نصفية تحديدًا، التى لم تُمس باستثناء نصف ياردة بيعت لعمل كسوة لمقعد.. وقماش القمصان الذى يُباع بسعر ٤,٧٥ بنس ـ وكان متجر "بندر سناتس" فى (برودواى) يبيعه بسعر ٢,٧٥ بنس أى بأقل من تكلفته فى الحقيقة. وهكذا يحق لنا القول: إن متجر (بندرسناتس) يسمح للمرء أن يعيش!.. كذلك فإن مجموعة قبعات الخدم كانت تحتاج للتجديد.. مما أعاد إلى الذاكرة موزعى الجملة الوحيدين التابعين لـ (وينسلو)، وهم (هيلر)، و(سكلتر)، و(جراب)، والأرباح الضخمة التى حققوها.

وقف (وينسلو) وأمامه صندوق أخضر ضخم مفتوح على نضد الخزينة وهو يفكر فى ذلك.. واستدارت قليلاً عيناه الرماديتان واختلج شاربه غير المنتظم أصفر اللون قليلاً.. وكان الرجل يؤدى عمله روتينيًا يومًا بعد آخر.. كان يذهب إلى نضد الخزينة المتقوص فى الركن.. حيث كانت نقطة ضعف (وينسلو) أن يبيع سلعه على طاولة البيع ويعطى العملاء فاتورة من أصل وصورة.. ثم يسرع إلى نضد الخزينة لتسلُّم المال.. كما لو أنه يشك فى أمانته هو شخصيًا.

تحرك إصبعه السبابة الهزيل بارز المفاصل إلى أسفل التقويم اللامع الصغير (حيث إن أقطان كلاك تعيش إلى الأبد).. وقال وهو يحصى: "واحد ـ اثنان ـ ثلاثة .. ثلاثة أسابيع ويوم واحد!.. فى مارس!.. فقط ثلاثة أسابيع ويوم واحد.. هذا غير ممكن".

قالت السيدة (وينسلو) وهى تفتح الباب ذا الكرة الزجاجية والستارة البيضاء التى توصل بالردهة: "الشاى يا عزيزى".. فقال (وينسلو): "دقيقة واحدة" وبدأ يقفل نضد الخزينة.. ودخل سيد عجوز ثائر جدًا ومنفعل ومحتقن الوجه ويرتدى سترة ثقيلة مبطنة بالصوف بجلبة واضحة.. واختفت السيدة (وينسلو).

قال السيد العجوز: "أوه!.. أريد مناديل للجيب وبسرعة!".. وبدأ (وينسلو) يشعر بالضيق، وأحضر علبتين من المناديل وبدأ يقول: "ها هى يا سيدى".. فأمسك السيد العجوز بنسيجها الخشن وقال: "إنها خشنة ولعلها تجرح أنفى عندما أتمخط.. هل لديك نوع آخر؟".. فقال (وينسلو): "نعم مناديل قطنية".. قال السيد العجوز "وما ثمنها؟".

"سبعة بنسات يا سيدى.. ألا تحب أن أريك شيئًا آخر؟.. مثلا ربطات عنق، حمالات...؟".

قال السيد العجوز وهو يعبث فى جيبه "اللعنة!" .. وأخيرًا أخرج نصف كراون[1]. ونظر (وينسلو) حوله باحثًا عن دفتر الإيصالات الذى يضعه فى أماكن مختلفة تبعًا للظروف!.. ثم وجد نفسه يواجه نظرات السيد العجوز.. وذهب مباشرة إلى نضد الخزينة وأحضر الباقى، ضاربًا عرض الحائط بروتين العمل فى المتجر!

كان (وينسلو) يتضايق أحيانًا من بعض العملاء.. لكن نضد الخزينة المفتوح يذكره بمشكلته.. لكن لم يخطر ذلك بباله فى الحال.. ثم سمع طرقًا رقيقًا بأظافر الأصابع على الزجاج.. وعندما نظر رأى عينىّ (مينى) فوق الستارة.. أقفل المكتب وأغلقه بالمفتاح، ثم دخل فى الغرفة الخلفية لتناول الشاى.

لكنه كان مشغول الفكر.. ثلاثة أسابيع ويوم واحد!.. أخذ قضمات كبيرة للغاية من الخبز والزبد.. وحدق بشدة فى برطمان المربى الصغير.. ورد على كلمات (مينى) القليلة بذهن شارد.. وجثم على طاولة الشاى طيف (هيلر) و(سكلت) و(جراب).. كان يصارع فكرة الفشل الجديدة هذه.. الإدراك الملموس الذى نما واشتد، إذا جاز التعبير، من واقع الارتباك الغامض الذى استمر لأيام كثيرة.. وفى الوقت الحالى تحوّل إلى حقيقة واحدة مؤكدة.. لم يتبق فى البنك سوى ٣٩ جنيهًا.. وفى نفس هذا اليوم بعد ثلاثة أسابيع سوف تطالبه شركة (هيلر وسكلتر وجراب) لملابس

---

(١) عملية بريطانية قديمة تساوى خمسة شلنات (المترجم).

الشباب للرحلات والمعسكرات..الخ.. بمبلغ ثمانين جنيهًا المستحق لها.

بعد تناول الشاى حضر عميل واحد أو نحو ذلك.. مجرد مشتريات صغيرة.. بعض القماش القطنى وقماش للبطانات ومريلة لوقاية الملابس وشريط وجورب قطنى. ولما عرف أن قطه الأسود (بلاك كير) يختبئ فى الأركان المظلمة للمتجر، أضاء ثلاث لمبات مبكرًا وبدأ العمل وأعاد طىّ مطبوعاته القطنية المصورة، ورأى خيال (مينى) فى الحجرة الأخرى وهى تتحرك حول المائدة، حيث كانت مشغولة فى طى ثوب قديم لها.

بعد العشاء تمشى قليلاً، وقام بزيارة قصيرة لجمعية الشبان المسيحيين لكنه لم يجد أحدًا لكى يتحدث معه، وفى النهاية ذهب إلى مخدعه. كان هناك قطه الأسود (بلاك كير) بالفعل منتظرًا إياه، وأخذ يكزه ويدفعه بلطف ليلفت انتباهه حتى ظل مستيقظًا إلى حوالى منتصف الليل.

كان قد تأخر فى السداد مرة أو مرتين من قبل، إلا أن هذه المرة كانت أسوأ. أولاً جاءت شركة (هيلر وسكلتر وجراب) ومطالبتها بثمانين جنيهًا.. وهو مبلغ هائل عندما يكون رأس مالك الأصلى فقط مائة وسبعين جنيهًا. جثم هؤلاء القوم -إذا جاز التعبير- أمامه وحاصروه.. وتمسك هو بالظلام المحدق بهم كذريعة!

لنفترض أنه باع أشياء معينة وحصل على أى مبلغ.. وحاول أن يتخيل صفقة ناجحة للغاية على نحو غير متوقع.. وفى نفس الوقت تحقق أرباحًا معقولة، على الرغم من التخفيضات أقل من سعر

التكلفة. ثم اشتركت شركة (بندرسناتش) المحدودة وعنوانها ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧ شارع (برودواى) فى الحصار.. وهى واجهة تجارية طويلة.. عبارة عن مجموعة من واجهات المحلات التى تُباع فيها السلع بربع بنس زيادة على التكلفة.. فكيف يتأتى له أن ينافس مؤسسة تجارية كهذه؟.. وعلاوة على ذلك فماذا لديه ليبيعه؟

بدأ يراجع موارده وإمكاناته.. فماذا لديه من سلع ومنتجات تشجع على شرائها؟.. ثم على الفور جاءت تلك القطع من قماش الكريتون الأسود والأصفر المنقوشة بزهور خضراء مائلة إلى الزُرقة.. وأقمشة التنورات التى بها عيوب.. والأقمشة المطبوعة الكئيبة.. والخردوات والكلف والنثريات الخاصة بالملابس.. وبعض القفازات الرديئة ذت أربعة أزرار.. ويا لها من مجموعة لا قيمة لها!

كانت هذه هى كل ما فى جعبته من قوة يواجه بها (بندرسناتش) و(هيلر وسكلتر وجراب) وكل هذا العام القاسى الذى لا يرحم.. تُرى أيًا كان ما يفكر فيه، فما الذى يدفع الناس لشراء هذه الأشياء؟.. ولماذا اشترى هذه الأشياء وتجاهل تلك؟.. وفجأة أدرك شدة كراهيته لشركة (هيلر وسكلتر وجراب).

ثم بدأ يعانى من تأنيب الذات.. وكان قد قضى وقتًا طويلاً جالسًا أمام طاولة الخزينة.. تُرى ما هى الحاجة الماسة إلى هذه الطاولة؟.. وسرعان ما تبين له انعدام أهمية هذه الطاولة عندما نظر إلى أعماق ذاته نظرة متفحصة.. وماذا بشأن الأنوار؟.. خمسة جنيهات!.. وفجأة تذكر إيجار المتجر وسرت فى بدنه رعدة مفاجئة.

تـأوه واسـتـدار.. وهـنـاك تحت جـنـح الـظلام رأى (بـروز كتف) السـيـدة (ويـنسلو).. وحمـلـه ذلك على أن يـسـتـديـر فـى اتجـاه آخـر.. وأدرك بشكل قوى احتيـاج (مينى) إلى الإحسـاس والعـاطفـة. هـاهو الآن قلق للغاية بشأن تجارته، وهـى نائمـة كطفل صـغير. ونـدم على زواجه وشعر بمرارة شديدة لا يشعر بها قلب المرء إلا فى السـاعات المبكرة من الصباح.. وبدا هـذا البـروز الأبيض غيـر مفيد بالمرة، بل بدا كعبء أو مسئولية!

ما أغبى الرجال الذين يتزوجون!.. إن الارتياح الداخلى لـ (مينى) ضايقه لدرجة أنه كاد يوقظها ليخبـرها بأنهما قد "تحطما".. وسوف يكون عليها أن تعود إلى عمها.. وعـمها هـذا كان دائمًا يقف ضده.. وبالنسـبة إلى مستقبله، فإنه (ويـنسلـو) لم يـكن متـأكدًا من شىء.. وهـكذا نجد بائع المتجـر الذى تمـكن من إنشـاء محل بـاسمه يلاقى صعوبة فائقة فى استعادة توازنه من جديد.. وبدأ يتصور نفسه كمن يفتش فى الزرائب مرة أخرى.. متنقلاً من هـذا المحل لبيع الجملـة إلى ذاك، وكاتبًا لخطابات كثيرة للالتحاق بعمل..

مـا أشـد كرهه لكتابة مثل تلك الخطابات!.. التى تـبدأ عادة بالجملة التقليدية: "سيدى، بعد التحية.. بالإشارة إلى إعلانكم فى جريدة (كريستيان وورلد)....". ونظر باستغراق إلى موقفه الحالى المتسم بالسخط والاستياء وخيبة الأمل.. وانتهى من ذلك إلى إدراك عمق الهوة بين الواقع وما كان يجب أن يكون عليه الحال.

ارتـدى مـلابسه وهـو يـتثـاءب وهـبط إلى أسفل لـيفتح المـتجـر.. وشعر بالإجهاد قبل أن يبدأ يوم العمل.. وبينمـا هـو يفتح سـتائـر

النوافذ، أخذ يسأل نفسه ما إذا كان ما يفعله صواب أو خطأ. كانت النهاية حتمية سواء رضى بها أو لا.. ونفذ ضوء النهار المشرق فى المتجر وأظهر مدى قِدم الأرضية ووعورتها وتشقّقها، ومدى تقوض طاولة البيع المتهالكة، ومدى بؤس المتجر بأكمله.

كان يحلم فى تلك الشهور الستة الماضية بمتجر أنيق وزوجين سعيدين وربح متواضع ولكن معقول يتحقق باستمرار.. ثم استيقظ فجأة من هذا الحلم الوردى.. ودون أن يشعر اشتبك الشريط الزينى الذى يربط حافة سترته السوداء الأنيقة ـ وكان فى الواقع سائبًا قليلاً ـ بسقاطة باب المتجر وتمزق تمامًا.. ولم يلبث ذلك أن حوّل بؤسه إلى حنق شديد..

وقف يرتجف للحظة..ثم شد شريط سترته بعصبية فقطعه تمامًا، وذهب إلى (مينى) وقال لها مؤنبًا: "هنا.. انظرى هنا.. يجب عليك أن تهتمى بزوجك أكثر من ذلك":.. فقالت "لم أر قط أنه قُطع".. فقال (وينسلو) وهو يظلمها ظلمًا بينًا: "إنك لا تفعلين شيئًا قط إلا بعد فوات الأوان".

نظرت (مينى) فجأة فى وجهه وقالت: "سوف أخيطها لك الآن يا (سيد) إذا رغبت فى ذلك".. فقال (وينسلو): "نتناول إفطارنا أولاً.. ثم نفعل الأشياء فى أوقاتها المناسبة".

كان مشغول الفكر فى أثناء تناول الإفطار، وراقبته (مينى) بقلق.. وكان كل ما قاله أن بيضته كانت فاسدة.. ولم تكن كذلك، وإنما كانت غير مستساغة الطعم قليلاً.. إذ إنها تباع كل خمس عشرة منها بشلن واحد.. ولا بأس بها حقيقة.. دفعها بعيدًا عنه،

وبعد أن أكل شريحة من الخبز والزبد، اعترف بخطأه واستعاد البيضة!

وعندما وقف ليذهب إلى المتجر مرة أخرى قالت له (مينى): "(سيد).. إنك لست على ما يرام يا عزيزى".. فنظر إليها كما لو كان يكرهها: "إننى بخير وفى أحسن حال".. فقالت: "إذن لا بد أن هناك أمرًا آخر.. إنك لست متضايقًا منى يا (سيد) بشأن شريط سترتك.. أليس كذلك؟.. هيا بربك أخبرنى ما الأمر؟.. إنك كنت فى نفس هذه الحالة وقت أن تناولنا الشاى أمس.. ثم وقت العشاء.. إذن ليس الشريط هو السبب".

قال: "الأمر ليس كذلك بالضبط!". فبدت على وجهها علامات الاستفهام وقالت: "يا إلهى! ما هو الأمر إذن؟".. ووجدها (سيد) فرصة مناسبة عليه أن يغتنمها.. وبدأ يقول الأخبار السيئة بشكل مفاجئ" ما الأمر؟.. لقد فعلت كل شىء بوسعى، وها نحن الآن.. هذا هو الأمر!.. إذا لم أسدد لشركة (هيلر وسكلتر وجراب) ثمانين جنيهًا، مثل اليوم بعد ثلاثة أسابيع" وتريث برهة ثم واصل: "سوف يُباع متجرنا هذا!.. سوف نُعرض للبيع.. هذا هو الأمر سوف تُباع ممتلكاتنا بالمزاد!".

قالت (مينى): "أوه (سيد).. يا إلهى....".. وأغلق الباب بقوة، وشعر للحظة أنه تخفف من نصف أسباب بؤسه وحزنه على الأقل. وبدأ ينفض الغبار عن الصناديق والكراتين التى ليس عليها غبار، ثم أعاد تستيف كراتين الكريتون التى كانت مستفة جيدًا بالفعل.. كان فى حالة سيئة من البؤس والإحباط.. كشهيد يتلاعب به القدر!.

على أية حال لا يصح أن يقال: إنه فشل بسبب تقصيره فى العمل.. فالحقيقة أنه خطط كثيرًا وتعب وعمل كثيرًا!.. لكن الأمور آلت هكذا!.. وشعر بشكوك هائلة.. فالعناية الإلهية و(بندرسناتش) لا يتفقان بعضهما مع بعض!.. ألا يحتمل أن يكون هذا "ابتلاء" له؟.. ودفعه هذا التصور إلى اتجاه جديد ومريح جدًا.. موقف الشهيد.. الذى يتحمل آلامًا مثلما يتحمل الذهب حرارة الفرن.. ولازمه ذلك الإحساس طوال النهار.

وعند العشاء وجد أمامه فطيرة البطاطا.. ورفع بصره فجأة ووجد وجه (مينى) يحدق فيه.. وبدت شاحبة الوجه وحول عينيها منطقة حمراء صغيرة.. وفجأة جثم عليه شىء غريب أثر على حلقه.. وترنحت كل أفكاره وتركزت فى اتجاه جديد.. ودفع طبقه بعيدًا عنه وحدق فيها كشخص لا يعى شيئًا.. ثم وقف ودار حول المائدة واتجه إليها وهى ما زالت تحدق فيه.. وركع على ركبتيه بجوارها دون أن يتفوه بكلمة وقال: "أوه، (مينى)!".. وأدركت فجأة أن الوئام عاد بينهما وحوطته بذراعيها وبدأت تبكى وتنشج بأنفاس متقطعة.

وبكى هو مثل طفل صغير، وسالت دموعه على كتفيها لشعوره بأنه أخطأ فى حقها حيث تزوجها وأوصلها إلى هذه الحال.. وبأنه لا يتحمل مسئوليتها على الوجه الأكمل.. وبأن كل شىء هو خطأه هو.. على الرغم من أنه لم يكن يتمنى ذلك.. ولم يلبث أن انفجر مولولاً.

أما هى فبكت برقة وربتت على كتفيه وقالت: "هش!" برقة لكى توقفه عن البكاء..حتى تمكنت من تهدئة عواطفه الجياشة.. ثم رن

فجأة الجرس المجنون على باب المتجر، واضطر (وينسلو) إلى الوثب واقفًا على قدميه وأصبح رجلاً مسئولاً مرة أخرى.

بعد ذلك المشهد بحثا الموضوع برمته فى أثناء تناول الشاى وفى أثناء العشاء وفى السرير وفى كل وقت ممكن بين تلك الأحداث بهدوء ودون عصبية أو تشنج.. وهما ينظران معظم الوقت أمامهما.. مع شعورهما بقدر ما من الارتياح المتبادل.. وكان أهم ما قاله (وينسلو): "أنا لا أعرف ماذا يجب عمله".

حاولت (مينى) أن ترى فى الأمر شيئًا يسعدها.

ووجدت أنها فى حاجة إلى أن تستجمع كل ما بها من قوة. وأن عمها قد يساعدها من جديد، ربما فى الوقت الحرج. فلم يسبق للقوم أن كانوا فخورين جدًا بشىء ما بالإضافة إلى أنها كانت تؤمن دائمًا بأن أمرًا ما قد يحدث".

وتركز كل الأمل، فى توقع تدفق مفاجئ من عدد كبير من العملاء. وقالت (مينى): "قد بلغ عدد العملاء خمسين شخصًا، إنهم يعرفونك جيدًا ويثقون بك إلى حد ما" قاما بمناقشة هذه النقطة. وفى الوقت الذى كان هناك احتمال بأن يسدد (هيلر) و(سكلتر) و(جراب) ما عليهم من ديون. عندئذ ـ وبأقل قدر من الجهد ـ يمكن معاودة النشاط.

وبعد نصف ساعة من تناول الشاى، فى اليوم الذى يلى اكتشافات (وينسلو) عادت إليهما بهجتهما من جديد، كانا يضحكان حتى على ما يحيط بهما من مخاوف تخلع القلوب. فلو عادا إلى منزلهما بعشرين جنيهًا، لكان هذا كافيًا. وبعد ذلك ـ وبشكل

محير ـ أدبر ما كان يكتنف (هيلر) و(سكلتر) و(جراب) من بهجة وولت مع الريح، ووجد (وينسلو) نفسه، فى قعر هوة من الكآبة والحزن. بدأت عيناه تتجولان فى الأثاث. وكانت "الشيفونيرة" جيدة إلى حد ما، كان عليها بعض الأطباق القديمة، التى اعتادت والدة (مينى) أن تقتنيها. ثم أخذ يفكر فى أعمال مناسبة تنسيه هذا اليوم المقوث. لقد سمع فى يوم ما، عن "سندات البيع"، وراقت له هذه الفكرة على الفور، ثم تساءل: "لماذا لا ألجأ لمقرضى الأموال؟". وفى يوم الخميس التالى، حدث شىء أدخل السرور إلى قلبه. إذ جاءت فتاة صغيرة ودخلت عليه وهى تحمل أداة كالختم تستخدم لطبع علامات على سطوح الأشياء، واستطاع أن يعمل مثله، ولم تكن لديه القدرة ـ من قبل ـ على أن يقوم بمثل هذا العمل. وبعد ذلك ذهب ليخبر (مينى). وهذه الحادثة أوردتها فقط، خشية أن يتخيل القارئ أن (وينسلو) كان يعانى من يأس مطبق.

وفى صباح اليوم التالى وما تلاه، فتح (وينسلو) المتجر فى وقت متأخر، لأنه لم يستطع النوم إلا قليلاً، ولم يكن لديه أى أمل؛ إذ ما الفائدة من الاستيقاظ مبكرًا، ملتزمًا بوقت محدد؟ ولكن بمجرد أن دخل إلى المتجر المظلم فى يوم الجمعة، حتى وجد شيئًا ما مستطيل الشكل راقدًا على الأرض عليه ضوء يأتى من تحت الباب القديم.

انحنى (وينسلو) ليلتقط مظروفًا أسود الأطراف، كان موجهًا لزوجته. وكان يعنى أن هناك حالة وفاة فى عائلتها، ربما كان عمها. إنه يعرف هذا الرجل جيدًا لذا توقع أنه هو. إن عليهما الآن أن يرتديا ملابس الحداد، ويتوجها للقيام بواجب العزاء، يا له من شىء

قاس يحدث، عندما يموت الناس! تخيل كل شىء فى لمح البصر. عليه أن يرتدى بناطيل سوداء وشريطًا أسود يضعه على الكم علامة على الحداد، وقفازات سوداء، يا له من يوم كئيب. سوف يدفع أجرة تذكرتى السكك الحديدية، كما أنه لن يفتح المتجر طوال اليوم.

قال لزوجته: "أنا آسف يا (مينى)، إذ أحمل لك أخبارًا غير سارة" كانت راكعة على ركبتيها أمام المدفأة، تحاول إشعال النار، مرتدية قفازى أعمال المنزل. وقلنسوة قديمة للحماية من الحرارة، لتبعد عن شعرها الأتربة. أدارت وجهها حدقت فى المظروف ذى الأطراف السوداء، ثم لهثت وضغطت على شفتيها الباهتتين قائلة: "ياالحزنى! إنه عمى دون ريب". أخذت الخطاب محملقة بعينيها الواسعتين فى وجه زوجها.

فتحت (مينى) المظروف ببطء، وأخرجت الخطاب ثم ترددت ونظرت فيه لترى التوقيع. قالت: "إنه السيد (سبايت)!" قال (وينسلو): "ما الذى يقوله؟" بدأت (مينى) فى قراءة الخطاب وصرخت "يا إلهى". ثم ألقت الخطاب.

وتكومت على الأرض واضعة يديها على وجهها. أمسك (وينسلو) بالخطاب وأخذ فى قراءته: "لقد وقعت أكثر الأحداث ترويعًا لنا، إذ سقطت بالأمس مدخنة "مليكور" ليلاً فوق سطح منزل عمك، ومات كل من فى البيت من أحياء، عمك وابنة عمك (مارى) و(ويل) و(نيد) والفتاة، كل واحد منهم وافته المنية وتشوهت ملامحهم لدرجة أنك لا تكادين تتعرفين عليهم. وأنا أكتب إليك حتى تعرفى بهذه المأساة، قبل أن تنشر فى الصحف".

ارتعدت يدا (وينلسو) وأصابعه وهو يمسك الخطاب، واستند على رف المدفأة، حتى يتمكن من الوقوف ثابتًا.

ماتوا جميعًا!

ثم رأى - وكأنه فى حلم - صفًا من سبعة أكواخ، يؤجر كل منها بسبع شلنات فى الأسبوع وساحة تمتلئ بالأخشاب وفيلتين وأنقاضًا يمكن بيعها، لمنزل عم زوجته. حاول أن يشعر بشىء من الحزن ولكنه لم يستطع. إن كل شىء سيؤول إلى (مينى). لقد ماتوا جميعًا! بدأت تجول فى خاطره أفكار غريبة! وأصابه الوهن وضعف لدرجة أنه لم يستطع أن يركز فى أى شىء، ولا حتى مسألة حسابية، ظلت الأرقام تنتقل من جانب إلى آخر، تمامًا كالصبية الذين يلعبون فى شوارع "ويدى".

هل تساوى هذه الثروة مئتى جنيهًا أو مئة جنيه؟ وسرعان ما التقط الخطاب ثانية وأنهى قراءته "... أنت الشخص الوحيد الذى بقى على قيد الحياة من بين أفراد عائلتك" هكذا قال السيد (سبايت).

همست (مينى) ملتاعة: "يا له من حدث مروّع"، ونظرت إلى زوجها أخيرًا. حدق فيها زوجها وهو يهز رأسه بكآبة. كانت تدور فى ذهنه آلاف الأفكار، ولكنه لم يستطع أن يعبر عن أىّ منها، إذ أنها لم تكن مناسبة للبوح بها فى هذا الوقت. وقال فى نهاية الأمر "إنها مشيئة الله".

قالت (مينى) بصوت يعتصره الحزن: "يا له من حدث مروّع.. مروّع.. زوجة عمى العزيزة.. (تيد).. عمى الغالى المسكين..".

عاد (وينسلو) يقول: "(مينى)! إنها مشيئة الله". وساد صمت طويل.

قالت (مينى) وقد انفطر قلبها من الحزن، وهى تحملق فى الخطاب الملقى فى الموقد، بعد أن خمدت النيران: "نعم. ربما كانت هذه مشيئة الله".

نظرا بعضهما إلى بعض بعيون حزينة "ولم يجرؤ أحدهما على الإشارة إلى الثروة التى تركها العم المتوفى. استدارت (مينى) إلى المدفأة التى خبت نيرانها، وبدأت - دون وعى - فى تمزيق صحيفة قديمة ببطء. ثم قالت: "مهما كان حجم المأساة، فثمة أعمال كثيرة فى انتظارنا".

تنهد (وينسلو) بعمق، واتجه بخطوات متثاقلة إلى الباب الأمامى. وفتحه فانساب ضوء الشمس، وغمر الظلال السوداء المتجر المغلق، ومن ثم تلاشى من ذهنه كل من (بندرسناش) و(هيلر) و(سكلتر) و(جراب)، كما ينقشع الضباب عندما ترتفع الشمس فى كبد السماء.

عندئذ، أخذ يغلق مصراعى النافذة بسرعة. وفوق موقد فى المطبخ كان هناك قدر صغيرة عميقة ذات مقبض، تغلى فيها بيضتان وضعتهما (مينى) منذ فترة، بيضة من أجلها وأخرى لزوجها. وكانت (مينى) تحرص على إعداد الإفطار باهتمام بالغ. وفجأة حدث انفجار هائل! مما يجعلنا نواجه مثل هذه الحوادث بشجاعة، فى مثل هذا العالم الذى لا يؤمن جانبه. وعند الظهيرة، لم يذكر أحدهما أى شىء عن الأكواخ السبعة.

الميراث الضائع

قال الرجل ذو العين الزجاجية: "إن خالى يعتبر من الأشخاص الذى يمكنك أن تدعوهم نصف مليونير. فثروته تقدر بمائة وعشرين ألفًا. وقد ترك لى كل هذا المال".

لقد لمحت كُم معطفه اللامع، ثم ذهبت عيناى إلى ياقته المتسلة، ثم قال الرجل ذو العين الزجاجية: "كل بنس"[1]، فى حين نظرت إلى التلميذ النشيط الذى كان ينظر إلىّ نظرة استياء. قلت محاولاً استعطافه وأنا أتكلم حاسدًا: "لم أنل ربحًا سريعًا كهذا من قبل". ثم علق علىّ متنبهًا: "إن الميراث ليس دائمًا نعمة". ثم وضع الأنف الأحمر والشارب السلكى فى إبريقه.

قلت: "ربما لا".

"أنت تعلم أنه كان مؤلفًا وقد صنّف العديد من الكتب".

"حقًا".

---

(١) عملة إنجليزية صغيرة (المترجم).

قال محدقًا إلىّ بعينه السليمة ليرى إن كنت قد فهمت عبارته: "هـذه هى المشـكلـة" ثم حوَّل وجـهه بـعض الشـىء ثم أخـرج خـلـة أسنـان.

ثم قال ماصًا شفتيه بعد وقفة قصيرة: "إنه خالى وكانت لديه نقطة ضعف لكتابة أدب مهذب". "ضعف" ليست بالكلمة المضبوطة. "هوس بالكتابة الصريحة أقرب إلى المعنى. لقد كان أمين مكتبة كلية "البولى تكنيك". وبمجرد أن أتاه المال بدأ يحقق طموحاته.

إنه شىء غير عادى وغير مفهوم بالنسبة لى. فقد كان رجلاً فى السابعة والثلاثين وفجأة وجد نفسه ثريًا دون أن يبذل أدنى جهد. ربما يعتقد البعض أن شخصًا كهذا يذهب ليشترى دستتين من السراويل من متاجر "وست إند". ربما يصعب عليك التصديق ولكن تخيل أنه مات ولا يملك ساعة ذهبية. يبدو أن امتلاك الثروة بالنسبة لشخص مثله كان خطأ. كل ما فعله أنه اشترى بيتًا وحوالى خمسة أطنان من الكتب والحبر والورق وأخذ يكتب أدبًا مهذبًا على قدر استطاعته. لا أستطيع أن أفهم! ولكنه فعل هذا. لقد أتته الثروة عندما كان فى السابعة والثلاثين عن طريق أحد أقرباء أمه. وكانت أمى قريبته الوحيدة فى هذا العالم عدا أنه كان هناك أقرباء له من الدرجة الثانية وأنا كنت ابنًا وحيدًا لأمى. أتفهم؟ وكان لهؤلاء الأقرباء ابن وحيد أيضًا ولكنهم ربَّوه على أن يرى الرجل العجوز فى وقت قريب. كان شابًا مدللاً ولكنه جعل خالى هدفًا له وبدأ يصيح بأعلى صوته:

"خذوه بعيدًا عنى.. خذوه بعيدًا".

وهكذا فعل. ولكن أمى بكونها امرأة عاقلة وحذرة ثبتت هذا العمل فى عقلها قبلما يفعل هو.

"على قدر ما أتذكر كان خالى رجلاً فضوليًا. ولا أتعجب من خوف الطفل، فشعره كان مثل شعر الدمى اليابانية التى يبيعونها. أسود ومستقيمًا وملفوف الأحرف دون شعر فى المنتصف، وله عينان كبيرتان ذواتا لون رمادى قاتم تتحركان خلف نظارته. لقد كان مهتمًا جدًا بملبسه، وكان دائمًا يلبس معطفًا فضفاضًا. وقبعة ذات أحرف كبيرة وذات حجم غير عادى. كان يبدو منظره كشحاذ. وكان فى منزله، كشبه قاعدة، بيجامة حمراء متسخة وقبعة سوداء فوق رأسه. كانت تلك القبعة السوداء تجعله كهؤلاء الناس المشاهير. كان خالى دائم التنقل من منزل لآخر بكرسيه الذى ينتمى إلى "سيفاج لاندور" ومائدتى الكتابة اللتين أخبره التاجر أنهما تخصان "كارليل" و"شيلى" والمكتبة المحمولة والأكثر اكتمالاً فى إنجلترا. لقد نزل كل هذا إلى منزل فى "داون" بالقرب من منزل "دارون" القديم. ثم انتقل إلى "ريجات" بالقرب من "ميريديت" ثم إلى "هاسلمير" ثم عاد إلى "تشيلسى" لفترة قصيرة ثم انتقل إلى "هامب ستيد" كان يعلم أن هناك عطبًا ما فى أغراضه، ولكنه لم يعرف أبدًا أن هناك عطبًا فى عقله. كان السبب دائمًا هو الهواء أو الماء أو الارتفاع. "كثيرًا ما كان السبب راجعًا للبيئة". كما يقول. وكان يحملق فيك بدقة كما لو كان يشك فى أنك تخبئ ابتسامة عليه.

"ماذا كان اسمه؟ لن تعرف حتى لو أخبرتك. فلم يقرأ له أحد على الإطلاق كتاباته. لقد أراد أن يكون معلمًا عظيمًا، ولكنه لم يكن

يعرف ماذا يريد أن يعلّم. لذلك فقد كان دائمًا يتكلم بحماقة عن الحق والفضيلة وروح التاريخ. لقد كتب ونشر على نفقته الخاصة كتابًا من بعد كتاب. لم يكن عقله صحيحًا تمامًا ولكن عندما تسمعه يشكو من النقاد، ليس بسبب انتقادهم له. لقد كان يحب ذلك. ولكن لأنهم لم يكتبوا عنه أى ملحوظة على الإطلاق. كان دائمًا يتساءل: "ماذا تريد الأمم؟" رافعًا إصبعه ذا الظفر البنى. لماذا التعليم والإرشاد. لقد تشتتوا على التلال مثل غنم لا راعى لها. فهناك حروب وشائعات حروب. لقد حطت على الأرض روح نزاع غير هادئة، مذهب العدمية، تشريح الأحياء، التلقيح، السكر، الفقر المدقع، الحاجة، الأخطاء الاجتماعية، رأس المال الأنانى، هل ترى السحب يا "تد"؟ إنه اسمى كما تعرف. "هل ترى السحب تقترب من الأرض؟ وخلفها ينتظر المنغوليون. كما يعتبر المنغولية وشبح الاشتراكية وأشياء كثيرة كهذه عظيمة".

"ثم يشير إلىّ بإصبعه وعيناه مشتعلتان وقبعته مائلة، وكان يهمس: "ها أنا ذا ماذا أريد؟ أن أعلم الأمم! أقول بتواضع يا "تد": إننى أستطيع أن أرشدهم، كلا! بل إننى سأدلهم بالفعل إلى السماء. إلى أرض الفضيلة. الأرض التى تفيض لبنا وعسلا".

"هكذا اعتاد أن يتكلم على نحو مفكك ويهذى عن الشعوب والفضيلة وهذه الأشياء. خليط من تعاليم "الإنجيل" والحماقات. وعندما كان عقلى ينمو فى الفترة بين الرابعة عشرة والثالثة والعشرين، كانت أمى معتادة على تنظيف شعرى وتمشيطه "على الأقل فى أول هذه الفترة" بفرق جميل إلى المنتصف وتصحبنى مرة

أو مرتين أسبوعيًا لسماع هذه الثرثرة الطائشة عن الأشياء التى قرأها فى جرائد الصباح. محاولاً أن يؤديها بقدر ما يستطيع مثل "كارليل". واعتدت أن أجلس حسب التعليمات وأن أبدو ذكيًا ولطيفًا وأتصنع فهم كل ما يقال. ولكنى بدأت بعد ذلك أذهب بإرادتى الحرة، بغض النظر عن الميراث. فقد كنت أنا الشخص الوحيد الذى أزوره. إننى أعتقد أنه كتب لكل شخص صنع شيئًا ولو كان أثرًا بسيطًا فى العالم، مرسلاً له نسخة من كتب وداعيًا إياه أن يأتى ونتحدث معًا بشأن الشعوب. ولكن نصفهم لم يحبه ولم يأت أحد على الإطلاق. ولكنك، عندما تسمح لك الخادمة بالدخول، ترى كومات من الخطابات على الكرسى فى البهو منتظرة الإرسال. كانت موجهة إلى الأمير "بيسمارك" ورئيس الولايات المتحدة أو أشخاص كهؤلاء. وعندما تصعد الدرج وتمر فى الممر المملوء بخيوط العنكبوت وهكذا كان دائمًا. تجده جالسًا وسط العديد من الكتب فى الحجرة. وكومات من الورق على الأرض وجهاز تلغراف وقصاصات جرائد. وفناجين القهوة الفارغة وقطع خبز على المكتب. وتجده منحنى الظهر وشعره كالعصا بين ياقته وحافة قبعته.

قال: "لحظة، أنت تعرف يا (تد) أن الكلام صحيح ـ قالها بالفرنسية ـ إن الفكر الأخلاقى يعبر عنه بالفضيلة". ثم قال وهو يلف بكرسيه: "والآن يا (تد)، كيف حال إنجلترا؟" (تد) كان الاسم السخيف الذى يدعونى به.

"حسنٌ، هذا ما كان عليه خالى وهكذا كان يتحدث إلىّ. كان يبدو للآخرين خجولاً. لم يكن يتحدث إلى فقط، بل أهدانى كتبه

أيضًا. كتب فى حوالى ستمائة صفحة بعناوين مخبولة: "الأخوات الصارخات"، و"فرس بحر التعصب الأعمى"، و"بوتقات ومصاف" إلى آخره. كلها كتب قوية ولكن ليست أصيلة. لقد أعطانى كتابًا فى المرة قبل الأخيرة التى رأيته فيها. كان متعبًا ومحبطًا بعض الشىء وكانت يده ترتعش. لقد لاحظت هذه الأعراض لأنى كنت بالفطرة مراقبًا لها. قال لى: "إنه الكتاب الأخير يا (تد) - الأخير يا ابنى. آخر كلماتى للصم وللأمة المعذبة". فى حين كنت متضايقًا لأن دموعه كانت تنهمر على خده الأصفر الهرم. لقد كان بكاؤه منتظمًا حيث كان قد أوشك على الانتهاء. لم يكتب سوى ثلاثة وخمسين كتابًا من النفايات ثم قال: "لقد فكرت أحيانًا يا (تد)" قالها ثم توقف.

"ربما كنت متسرعًا بعض الشىء بشأن جيل غلاظ الرقاب هذا. كثيرًا من الجمال وقليلاً من الأضواء الساطعة. لقد فكرت أن أحركهم ولكن فعلت ما بوسعى يا (تد)".

"ثم حدث بعد ذلك وباندفاع لأول مرة وآخرها فى حياته أنه ألحق بنفسه الفشل. كان واضحًا أنه كان مريضًا. يبدو أنه كان يفكر لدقيقة ثم تكلم بهدوء وبصوت منخفض بعقلانية وضبط نفس مثلى.

ثم قال: "لقد كنت غبيًا يا (تد) لقد كنت أهيم بلا معنى طوال حياتى ولكن الله فاحص القلوب يعرف أن هذا كان باطلاً. أنا لا أعرف يا (تد) ولكن الله يعرف وإن كنت قد تصرفت بغباء وعبث فى قلبى".

"لقد تكلم هكذا مكررًا الكلام نفسه ثم توقف وأعطانى الكتاب مرتعدًا. ثم عادت إلى عينيه اللمعة القديمة. إننى أتذكرها جيدًا لأنى قلدتها لأمى عندما عدت إلى البيت لأفرحها. ثم قال لى: "خذ هذا الكتاب واقرأه، إنه كلماتى الأخيرة. لقد تركت كل ما أملك لك يا (تد) وربما تستطيع أن تفعل به أفضل مما أفعل". ثم أخذ يسعل.

"إننى أتذكر هذا جيدًا وأتذكر كيف كنت مبتهجًا عندما عدت إلى البيت. وأتذكر أنه كان فى الفراش عندما زرته فى اليوم التالى. كانت الخادمة بالأسفل مخمورة ومزحت معها - كأى شاب - فى الممر قبل أن أذهب إليه. كان ينهار سريعًا. ولكن حتى فى حالته هذه كان تافهًا. ثم همس: "هل قرأت الكتاب؟" وحيث إننى جلست طوال الليل أقرأه، قلت له لأفرحه: "إنه الأخير ولكنه الأجرأ أو الأفضل" قلتها محاولاً تذكر بعض أبيات الشعر.

"ابتسم وحاول أن يربت على يدى ثم تركها. ثم قلت: "الأجرأ والأفضل" حيث رأيت أنها تفرحه ولكنه لم يجب. ثم سمعت الخادمة تقهقه بالخارج، حيث كان لنا بعض الضحكات البريئة كما تعرف. نظرت إلى وجهه وكانت عيناه مغلقة وأنفه كما لو كان مضروبًا. ولكنه كان مبتسمًا. كان غريبًا أن أفكر أنه مات. فموته كان فشلاً. حيث كانت ابتسامة النجاح على وجهه.

"هذه كانت نهاية خالى. لقد أعددنا له - أنا وأمى - جنازة لائقة. ثم جاء بالطبع وقت الوصية. لقد بدأنا مهذبين ومحترمين أولاً، وقبل أن ينتهى اليوم كنا نتراشق بالكراسى، ونتقاذف بخشب المكاتب. كنا نتوقع ظهور أشخاص جدد كل ساعة. ثم سألنا

الخادمة فقالت: إنها شهدت الوصية، كانت مكتوبة على نصف ورقة، وكانت قصيرة جدًا كان هذا منذ شهر مضى. كان البستانى شاهدًا آخر على الوصية. وكنت متضايقًا أن أجد أشخاصًا آخرين. لا بد وأن الطريقة التى تكلمت بها أمى جعلته يغير رأيه فى قبره. وأخيرًا أتى محامٍ من "ريجات" مفجرًا وصية كانت قد كتبت منذ سنين فى أثناء صراعات مؤقتة مع أمى. كنت سأظل ملعونًا إن لم تكن هذه هى الوصية الوحيدة. حيث ترك كل بنس يملكه إلى أحد أقاربه ذلك الذى كان يقول: "خذوه بعيدًا". إنه لم يحتمل كلامه حتى ولو لمساء واحد فى حياته".

توقف الرجل ذو العين الزجاجية. وبدأت أنا: "أظن أنك قلت" ثم قال: "كان علىّ أن أنتظر نصف دقيقة حتى نهاية القصة. لقد نفذوا الوصية وأخذ هذا الشاب الميراث. لقد كان فى الواحدة والعشرين وبدأ يضيعه. أتعرف كيف أضاعه؟ لقد قامر وسكر وبدأ يظهر فى الصحف لسبب أو لآخر. لقد بدد الثروة بالكامل قبل أن يصل إلى الثلاثين.

"بالطبع كنت أمر بأوقات صعبة حيث إننى لم أكن أعرف حرفة سوى "تسول" الميراث.

كانت كل آمالى منتظرة أن تبدأ عندما مات الرجل العجوز. ومن وقتها وأنا لى نجاحات وهفوات وهذه هى فترة الإحباط بصراحة إننى أرقب المساعدة. لقد كنت أبحث فى حجرتى لأجد شيئًا أسد به احتياجاتى. منظر الكتب التى لن يشتريها أحد حتى ليلف فيها الزبد كان يضايقنى.

لقد وعدته ألا أتركها ولم أف بوعده بهذه السهولة من قبل. كنت أضربها بحذائى وأرميها عبر الغرفة. كنت أرفس الكتب برجلى وأتركها تدور فى الهواء.

"هذه كانت الوصية. لقد أعطانى إياها بنفسه فى آخر كتاب له".

ثم أطبق ذراعيه على المائدة. ونظر بعينه السليمة حزينًا. وهز رأسه وقال:

"لم أفتح الكتاب مطلقًا. كنت أفتحه لأقطع منه ورقة!" ثم نظر إلىّ ضاحكًا ضحكة مُرَّة قائلاً: "تخيل يخبئها هنا!؟ دون كل الأماكن: وبدأ يلمس ذبابة ميتة بإصبعه دون وعى. ثم قال ناظرًا إلىّ "هذا يظهر لك غرور الكُتاب. لم تكن خدعة فقد كان عادلاً. لقد ظن أنى سأذهب إلى المنزل وأقرأ هذا الكتاب اللعين". ثم أنزل وجهه قائلاً: "ولكن هذا يريك أيضًا أن الأشخاص الفقراء مثلنا لا يفهم بعضهم بعضًا".

لم أخطئ فهم البلاغة التى بدت فى عينيه. فلقد قبل بمفاجأة معادية. وقال بطريقته الرصينة إنه لم يمانع إن فعلها.

القصة المحزنة لناقد مسرحى

لقد كنت ـ وسوف تعرف على الفور لماذا لا أكون الآن ـ (إجبرت كرادوك كمنز) .. وهذا الاسم باق إلى الآن .. لكننى ما زلت "وليساعدنى الرب!" ناقدًا مسرحيًا لمجلة "الصليب النارى".. أما ماذا سأكون بعد فترة وجيزة، فهذا ما لا أعرفه! إننى أكتب بصعوبة بالغة وذهنى مرتبك للغاية.. بيد أننى سوف أفعل ما بوسعى لتوضيح كل شىء فى مواجهة صعوبات هائلة.. وعليك أن تصبر علىّ وتتحملنى قليلاً.. فعندما يفقد شخص ما هويته أو ذاتيته بسرعة، فإنه سرعان ما يواجه صعوبة جمة فى التعبير عن نفسه.. وسوف أجعل الأمر سهلاً وواضحًا تمامًا بعد لحظات، بمجرد أن أمسك بقلمى وأبدأ فى رواية قصتى العجيبة.. ولكن دعنى أرى أولاً ـ من أنا الآن؟.. أتمنى لو كنت أعرف إجابة هذا السؤال.. آه.. لقد عرفت!.. نعم، أنا (إجبرت كرادوك كمنز).. الشخص الميت!!

فى الماضى كنت أكره كثيرًا أن أكتب أى شىء وفيه الكثير من كلمة "أنا" مثلما سترى فى هذه القصة.. إنها ممتلئة بكلمة "أنا" قبل هذا السطر وبعده.. مثل الوحش الذى أراه فى إلهامى.. وحش له

رأس تشبه رأس العجل.. نعم أخشى أن هذا هو ما تبدى لى.. غير أذواقى وميولى تغيرت منذ أن أصبحت ناقدًا مسرحيًا ودرست أعمال الأساتذة (G.R.S)، (G.B.S) ، (G.A.S) وغيرهم.. كل شىء تغير بالنسبة لى منذ ذلك الوقت.. على الأقل هذه القصة عن نفسى، ومن ثم فهناك بعض العذر لدىّ.. كما أن هذا فى الحقيقة ليس مدحًا للنفس.. لأن الذى أقوله هو أنه منذ تلك الأيام تغيرت شخصيتى أو هويتى تغيرًا جذريًا.

فى الماضى!.. كنت أنا فى تلك الأيام شخصًا رقيقًا أو لتقل خجولاً.. أميل إلى اللون الرمادى فى ملابسى ولدىّ شارب قصير نحيل.. ووجه "لطيف".. ولكن كنت أعانى من تهتهة أو لعثمة فى الكلام اكتسبتها وأنا صغير من زميل بالمدرسة.. وخطبت فتاة رائعة جدًا اسمها (ديليا).. ومؤخرًا كانت تحبنى لأننى كنت إنسانًا ومبدعًا.. أعتقد أننى كنت أشبه الحَمَل، ربما بسبب التهتهة أو الثأثأة فى الكلام.. أما والدها فكان خبيرًا بارزًا عن طوابع البريد.. وكانت تقرأ كثيرًا جدًا فى كل ما كتب عن المتحف البريطانى. (وبالمناسبة فإن المتحف البريطانى سبب رائع للتقارب بين مرتاديه من محبى الأدب.. وأنا أوصيك بقراءة (جورج إيجرتون) و(جوستين هنتلى ماكارثى) و(جسينج وغيرهم).. وهكذا تحاببنا بطريقتنا الفكرية وتقاسمنا الآمال الوردية.. "طبعًا تبددت كلها الآن".. وأبوها أحبنى لأنه اعتقد أننى شغوف بحق لسماع كل شىء عن طوابع البريد! ـ لم تكن لها أم.. والحقيقة أن الحياة كانت مشرقة أمامى بوصفى شابًا فى مقتبل العمر.. لم أذهب قط إلى أى مسرح من المسارح فى تلك الأيام.. ذلك أن عمتى (شارلوت) ـ قبل أن تموت ـ

أخبرتنى ألا أذهب إليها ، ثم جعلنى (برنابى)، محرر مجلة "الصليب النارى" - بالرغم من جهودى المستميتة للتهرب من ذلك - ناقداً مسرحيًا.. وهذا الرجل (برنابى) ممتاز وصحيح الجسم وله رأس ضخمة ذات شعر أسود مجعد وحديث مقنع.. وأمسك بى على السلم وأنا ذاهب لأرى (ويمبلى). كان الرجل قد تناول طعام عشائه، وكان مرحًا أكثر من المعتاد.. قال لى: "مرحبًا يا (كنز)!.. إنك الرجل الذى أريده بالضبط!".. وأمسكنى من كتفى أو ياقتى أو ما شابه ذلك وجرّنى فى الممر القصير ثم طرح بى فى اتجاه سلة الأوراق المهملة حتى جلست فى المقعد ذى المسندين بمكتبه.

قال لى: "أرجوك اجلس" وهذا ما حدث فعلاً.. ثم سار حتى آخر الحجرة وعاد ومعه تذكرتان: وردية وصفراء ودسهما فى يدى وقال: "إنها لمسرح (أوبرا كوميك).. أيام الخميس والجمعة والسبت.. حيث تعرض هناك بعض المسرحيات مثل (العبث) و(العربة).. وأظن أن هذا هو كل ما فى الأمر".

بدأت أتكلم: "ولكن...." فقاطعنى قائلاً : "يسعدنى أنك غير مشغول".. ثم خطف بعض المسودات المطبوعة من على مكتبه وبدأ يقرأ لى.. فقلت: "إننى لا أفهم شيئًا" فقال: "إيه؟" بأعلى صوته كما لو كان اعتقد أننى انصرفت وفاجأته ملاحظتى.

- "هل تريد منى أن أنقد هذه المسرحيات؟"

- "نعم عليك أن تفعل شيئًا ما لها.. هل تظن أنها نزهة خلوية؟.. فقلت: "لكننى لا أستطيع".

- "هل تعتقد أننى أحمق؟.. فقلت: "حسنً.. كل ما فى الأمر أننى لم أذهب قط فى حياتى إلى أحد المسارح"

- "إذن هذه فرصة لتتعلم شيئًا جديدًا تمامًا.. تربة خصبة لكى تأخذ منها ما تشاء".

- "لكننى لا أعرف شيئًا بالمرة عن هذا الموضوع.. لماذا لا تريد أن تصدقنى؟".

- "هذه هى الفكرة.. رؤية جديدة لك.. بدون أية عادات مسبقة تؤثر فيك.. بدون أية عبارات روتينية خالية من أى معنى.. إن عملنا هو الموضوعات الحية المثيرة وليس مجموعة من الحيل نضحك بها على الناس.. إن آلية عملك الصحافى المهنى ليست فى هذا المكتب وإنما فى الخارج.. وأنا أثق فى نزاهتك".

- "لكن أنا لدىّ بعض الشكوك والهواجس المتعلقة بالضمير و...".

أمسكنى فجأة بقوة ودفعنى إلى خارج مكتبه وقال: "اذهب وتحدث مع (ويمبلى) فى هذا وسوف يشرح لك".

وقفت متحيرًا.. ففتح الباب مرة أخرى وقال: "لقد نسيت هذا" ثم دفع تذكرة أخرى فى يدى (وكانت لتلك الليلة، وسيبدأ العرض بعد عشرين دقيقة فقط)، ثم صفق الباب مرة أخرى. كان تعبير وجهه هادئًا.. ولكن عينيه كانتا تطلقان شررًا.

أنا أكره الجدال والنقاش الذى لا طائل من ورائه.. وقررت أن أنفذ كلامه وأن اصبح ناقدًا مسرحيًا، ولم أكن أعلم أن ذلك سوف

يكون سبب هلاكى. وسرت ببطء فى الممر متجهًا إلى (ويمبلى). لا شك أن (برنابى) هذا لديه قدرة هائلة على الإقناع. وكان يقول دائمًا ـ خلال تعاملنا الرائع جدًا فى السنوات الأربع الماضية ـ بأنه لم يصل إلى قرار نهائى بقبوله لى فى العمل معه.. والحقيقة أنه ربما أكون ذا طابع مرن يتسم باللين والخضوع.. والمؤكد أننى لست من أولئك الناس الذين يتخذون قراراتهم فى مثل ظروفى هذه.. والواقع أنه بالنسبة لأحاسيسى التعسة سيئة الحظ فيما يتعلق بانفعالاتى وانطباعاتى ، فإن كل مصائبى أتوقع حدوثها!.. ولقد أشرت بالفعل إلى اللعثمة البسيطة التى اكتسبتها من زميل دراسة فى صباى.. غير أن كل ذلك يبعدنا عن موضوعنا الأصلى.. على أية حال ذهبت إلى منزلى بسيارة أجرة لكى أرتدى ملابسى.

لن أثقل على القارئ بذكر خواطرى عن الجمهور الذى حضر العرض الأول، والذى كان تجمعًا غريبًا على أية حال، وهذا الموضوع أحتفظ به فى ذكرياتى، ولا بذكر تفاصيل القصة المخجلة عن كيف ضللت الطريق فى الاستراحة فى متاهة من الممرات المبطنة بالقطيفة الحمراء وشاهدت الفصل الثالث من الدهليز الموجود أعلى المسرح. النقطة الوحيدة التى أريد أن أركز عليها هنا هى إعجابى الشديد بالتمثيل الرائع فى تلك الليلة. ولا بد أن القارئ يتذكر أننى عشت حياة هادئة ومنعزلة ولم أذهب إلى مسرح قط من قبل.. وإننى حساس للغاية للانفعالات والانطباعات الوردية. وخوفًا من تكرار كلامى، إننى أصر على تلك النقاط.

التأثير الأول كان الانبهار الشديد بالتمثيل، دون أى شائبة من ضيق أو إزعاج. إن التكلف الغريب فى التمثيل شىء يقلل من قيمة

العرض فى أذهان معظم الناس الذين يشاهدون المسرح للمرة الأولى.

إذ إنهم اعتادوا على الإشارات الساحرة والانفعالات والأحاسيس المتوهجة والتعبيرات العجيبة والنباحات المريبة والأصوات اللحنية المهيبة والمخاوف الغاضبة وعلى أن يظل يقرض فى شفتيه والأنكى من ذلك أنى وجد المزيد من التعبيرات الانفعالية الرمزية على المسرح مما كان سببًا فى خلق لغة بينهم لا يفصلها سوى شعرة ولا تبعد قيد أنملة عن اللغة التى يستخدمها الصم والبكم، تلك اللغة التى قاموا بقراءتها بذكاء لم يسمع بمثله وعلى قدم المساواة عندما كنت أصغى بأذنى إلى الحوار ولكن كل هذا كان غير معهود بالنسبة لى فهذا ما كانوا يطلقون عليه "الكوميديا الحديثة".

كان من المفترض بالنسبة للناس أن يكونوا من أبناء بريطانيا العظمى وكانوا يرتدون ملابس مسايرة للموضة كأزياء الحقبة الزمنية التى نعيش فيها، وفى هذا الوقت وقعت فى خطأ لم أدرك كنهه، وهو أننى اعتقدت أن هؤلاء الممثلين يحاولون تمثيل الحركات البشرية.. نظرت حولى حتى أرى هل الجمهور متحير مثلى فوجدتهم منبهرين، فوقع فى نفسى شىء كذلك الذى يضرب فى أعماق كل ناقد درامى جديد وهو أننى من الواجب علىّ ألا أنام حتى أرفع من شأن الدراما وأقوِّم ما بها من اعوجاج، وبعد أن أصابنى الاختناق حيث لم أستطع تمالك عواطفى التى كبتت. غادرت متوجهًا صوب مكتبى أريد أن أعبر عما ينتاب نفسى وما يجول فى خاطرى من أفكار فى عمود ملون يحتوى على بعض

الفقرات الجديدة ومزركش بالسخط والنقمة، وفى قلب هذا كان (برنابى) مسرورًا.

لم أستطع أن أنام فى تلك الليلة كان النوم يهرب منى، راودنى حلم غريب، حلم فيه ممثلون غرباء الأشكال والطباع يؤذون أنفسهم أذى شديدًا، ويضربون على صدورهم بقوة، ويندفعون إلى الأمام هاجمين بعضهم على بعض بأصابع متشنجة يبتسمون بشكل مرير تبدو الابتسامة على وجوههم لكنها مريرة توحى بالخوف، يضحكون وقلوبهم مليئة بالحسرات. نشعر بأنهم يضحكون وهم لا يريدون. يموتون دون أن يقتربوا من آمالهم بائسين يائسين، يموتون بشكل أبله ومعتوه.

استيقظت من النوم فى الساعة الحادية عشرة ورأسى بها صداع خفيف. قرأت ملاحظاتى فى مجلة (الصليب النارى) وتناولت الإفطار وبعد ذلك ذهبت ثانية إلى غرفتى حتى أشذب لحيتى (اعتدت على أن أفعل هذا كل يوم) فحدث شىء غاية فى الغرابة لم يسبق أن حدث لى من قبل لم أجد شفرة الحلاقة وتذكرت أننى لم أضعها فى مكانها البارحة.

آه. قلتها وأنا واقف أمام المرآة وبعد ذلك زفرت "مرحى".

وبغير قصد منى. عندما كنت أفكر بشأن حقيبتى طرحت يدى اليسرى (منفتحة الأصابع) وأمسكت بحجابى الحاجز بيدى اليمنى، وحيث إننى كنت على وعى تام بنفسى فى كل وقت وحين، فهذه الحركة فزعتنى وأخذت منى الكثير من التفكير فيها؛ لأنها كانت فى غاية الحداثة بالنسبة لى ولذا كررتها ثانية مرضاة لنفسى

فأصابتنى دهشة أخرى بدلاً من الرضا مما كان شيئًا غير عادى وبعد ذلك توجهت ناحية حقيبتى".

وبعد أن قمت بحلاقة ذقنى راح عقلى يفكر فيما رأيته من تمثيل وسليت نفسى وأنا ماثل أمام المرآة الطويلة المتأرجحة بتقليد بعض حركات الممثل (جافيراى) وإيماءاته المبالغ فيها، إذا قال شخص ما إن هذا ضرب من ضروب الجنون والمرض فلا يستطيع أحد أن ينكر هذا أو يكذبه.

"كثيرًا ما تحمل الدعابة فى أحداث المسرحيات بعض الصدق"، وبعد ذلك - إن كنت متذكرًا جيدًا لما حدث - تركت البيت ذاهبًا للخارج لكى أرى (ويمبلى) ثم انطلقت إلى المتحف البريطانى مع (ديليا) وفى هذا الموعد الجديد الذى تلاقينا فيه تحدثنا عن آراء كل واحد منا وتوجهاته.

ولكن هذا الموعد كان بمنزلة سقوطى إلى الهاوية فمنذ ذاك اليوم أصبحت واحدًا من مدمنى الذهاب إلى المسرح وبدأت أتغير دون أن أشعر ودون دراسة منى، فأول شىء لاحظته يتغير فى حركاتى، بعدما صار من حركات عندما لم أجد شفرة الحلاقة، أنى بدأت أنحنى بشكل لا يمكن وصفه عندما أقابل (ديليا).

ثم تنبهت للأمر بعد فترة وخففت من انحنائى ومن ثم انتابنى شعور بعدم الراحة فأنا أذكر أنها نظرت إلىّ بشكل لا يبعث على السعادة، وبعد ذلك وجدت نفسى أقوم بعملى وأنا فى مكتبى على نحو فيه عصبية وعندما طرح علىّ (بارنابى) سؤالاً كانت أناملى فى فمى أقرضها ولذا لم أستطع الإجابة على نحو جيد.. وبعد ذلك

الحين حدثت بعض الخلافات التافهة مع (ديليا) فوضعت يدى على حاجبى وبدأت أجول بخاطرى أفكر فى مكتبى وأنا جالس مع بعض الأصدقاء، كنت تمامًا أبدو كأننى ممثل! فكثيرًا ما حاولت ألا أصبح ممن يقومون بعمل حركات تمثيلية غريبة وسخيفة ولكنى فعلت!

وبدأ يملأ كل عضو من أعضائى ويهبط علىّ تاركًا لا شىء فىّ إلا وملأه "التمثيل" فكان هذا كثيرًا بحيث لا يستوعبه جهازى العصبى المهذب الملىء بالهدوء، كنت أعلم دائمًا أننى تغيرت نتيجة للظروف التى تحيط بى، فكانت الليلة تلو الأخرى تمر، وأنا أفكر وأضع كل تركيزى فى الأوضاع التقليدية، وأداء المسرح الإنجليزى والذى بدأ تدريجيًا يؤثر فى طريقة كلامى وحركاتى.

كنت متفقًا فى الرأى على أن هناك تأثيرًا يحدثه التقليد العصبى، وتمر الليالى وجهازى العصبى آخذ فى اتخاذ بعض الإشارات والإيماءات المدهشة وعملها، وبعض المبالغات الانفعالية العاطفية الجديدة علىّ. مما جعلنى أشعر بأننى سوف تتغير سماتى الشخصية الحقيقية وتصبح سمات مسرحية تمحو شخصيتى كاملة. وبعدئذ رأيت نفسى فى شىء يبدو كأنه رؤية أجلس مع نفسى وحيدًا فريدًا ليلة ما تبدو لى نفسى الجديدة وكأنها تتسلل وتنزلق وتأخذ أوضاعًا جديدة علىّ لم أعهدها وإيماءات حركية لم أفطن إليها من قبل كل هذا فى غرفتى. صرت أمشى كدمية متحركة من الطبقة الراقية الأرستقراطية! وبدأت أسير بطريقة آلية وبعد ذلك مباشرة قمت بعمل بعض المحاولات غير الناجعة لأتنصل من هذا العمل المسرحى وأتركه.

لكن (برنابى) أصر واستمر فى الحديث عن (بولى ويدل ديفورس) طوال الوقت الذى قضيته معه، ولم تسنح لى الفرصة حتى أعبر عما يدور فى خلدى.

وبعد ذلك الحين بدأت (ديليا) تتغير فى تعاملها معى، بدأت سلوكياتها تتبدل وتتغير، وتلاشى ما بيننا من راحة وحب فشعرت بأنها تحاول أن تتعلم كيف تكرهنى، فلطالما ابتسمت ابتسامات عريضة وعبست بوجهها بشتى الطرق وفى كثير من الأوقات. حاولت مرة أخرى أن أتخلى عما أفعله ولكن (برنابى) ظل يتحدث طوال الوقت فكان يتكلم عن كل شىء وحتى يطيل وقت الحديث أعطانى سيجارة غريبة الشكل واللون حتى ندخن معًا وبهذا استطاع أن يتواصل معى ليكمل الحديث.

وبعدئذ توجهت إلى صالة عرض (اسران) حيث كنت أريد مقابلة (ديليا) حتى أنهى الأزمة التى بيننا.

فعندما قابلتها قلت بصوت مفعم بالأحاسيس ولكنها كانت باردة، لم يسبق لى أن صدر منى مثل هذا الصوت من قبل: "آه يا عزيزتى" فأحسست أنى أصبحت (لكن هذا لم يحدث بالفعل) ناقدًا دراميًا.

فأمسكت بى بفتور كعادتها وبدأت تنظر فى وجهى متأملة كما تفعل كل مرة وكنت مستعدًا ومتهيئًا حتى أمشى بجوارها.

قالت لى: "انظر (إجبرت) مازلت منتظرة" وبعد ذلك نظرت إلىّ فلم أرد عليها لأنى شعرت بما كان آت، حاولت أن أكون مثل (إجبرت كرادوك كنز) ذى المشية بطيئة الحركة الذى أحبته هى ولكنى شعرت حتى عندما فعلت هذا أننى كنت شيئًا جديدًا، شىء

لم يعشه إنسان من قبل لما به من انفعالات مائجة وثبات مطلسم إلا فوق خشبة المسرح فقالت: "(ابجرت) أنت لست ذاتك".

آه فقمت بشكل غير متعمد عشوائى بالإمساك ببطنى وهز راسى وقلت: "تمامًا كما يفعل هو".

وعندئذ قالت هى: "ماذا تقصد بهذا؟".

همست باللغة الإيطالية: "هل تعلمين كيف يفعلونها" ثم نظرت إليها فإذا بوجهها يملأه الحيرة والدهشة وأنزلت يدها ورفعت حاجبها الأيسر وبذا علمت تمامًا ماذا تقصد وماذا يدور فى ذهنها، فأنا أعلم تمامًا التصنع الدرامى الذى يحتويه سلوكى حاولت قدر استطاعتى أن أتخلص من هذا التصنع ولكن دون جدوى.

فقلت لها: "ماذا تعنين؟" وبصوت به همس لكنه خشن. قلت: "أنا لا أفهم ولا أستطيع أن أتفهم ماذا تقصدين؟".

كانت تنظر إلىّ وكأنها تشعر بضيق تجاهى، وقالت: ما الذى حملك على فعل هذه الحركات. فهى لا تروق لى وأنت لا تفعلها دائمًا ولم تعتد على فعلها.

"لم أعتد على فعلها"، قلت هذه الجملة ببطء، وظللت أكررها مرات، وبعد ذلك حملقت بعينى أُديرها ناحية الأعلى والأسفل نحو شرفة المسرح بنظرات خاطفة ولكنها حادة وقلت لها بشكل خاطف وسريع: "نحن فرادى لا يوجد غيرنا اسمعى" ووجهت إصبعى الكبير ناحيتها وقلت لها بعد أن حملقت فيها "لقد أصابتنى لكنة".

فرأيت يدها وهى تضغط بها على مظلتها. "أنت تحت تأثير

شىء مضر .. يجب عليك أن تتخلص مما أصابك، فلم أعهد أى إنسان تغير مثلك ولا أصابته مثل حالتك".

فقلت وأنا فى حالة يرثى لها وقلبى تقطّعه الحسرات: "أنت تشفقين علىّ (ديليا)! آه (ديليا) تشفق علىّ!".

فنظرت إلىّ نظرة فيها تأمل وتفحص قائلة: "لماذا تواصل تخيل مثل هذا الدور المليء بالحماقات أنا لا أدرى لماذا، ثم قالت على أية حال لا أستطيع أن نتواصل وأكمل بقية حياتى مع رجل يتصرف بهذه الطريقة التى تتبعها وبهذا الأسلوب الذى تنتهجه، فلقد جعلتنا محط اشمئزاز وكراهية الجميع، وبصراحة أنا لا أحبك على حالتك التى أنت عليها الآن وأنا قبلت أن أقابلك فى هذا المكان لأنى على ثقة من أننا سوف نكون معًا لا يرانا أحد".

فقلت: "(ديليا)!" وأنا أقرض فى يدى بمرارة: "أنت لا تقصدين ذلك".

فقالت (ديليا): "لا أنا أقصد أن كثيرًا من الفتيات يشعرن بالتعاسة على الرغم من أنهن يكُنَّ فى أوقات سعيدة لا بأس بها، أما أنا وحالتى معك فهى..".

وضعت يدى على جبينى..

وبعد ذلك قالت (ديليا): "إلى اللقاء" دون أى عاطفة تحملها كلماتها.

فقلت لها: "يا (ديليا) ليس بهذه الطريقة".

فقالت لى:"الوداع سيد (كمنز).

وبعدئذ بذلت جهودًا مضنية حتى أتمكن من التحكم فى ذاتى، ولمست يدها محاولاً أن أقول بعض الكلمات المعبرة علها ترضيها وتذهب ما بها من كراهية تجاهى ولكنها نظرت إلى وجهى المتصبب عرقًا والملىء بالاضطرابات وانكمشت فجأة فى نفسها وقالت وهى فى حالة من اليأس: "لا لا بد وأن أفعل هذا"، وبعد ذلك تركتنى وولت مدبرة وانطلقت متوجهة ناحية صالة العرض.

يا إلهى! ما هذا الكرب الذى يفتق قلبى، أنا أحببت (ديليا) ولكن لم أتمكن من التعبير لها عما أحس به فلطالما كنت لا أستطيع التعبير عن هذا الشىء المتأصل بأعماقى.

وفى نهاية المطاف قلت: "إلى اللقاء" وأنا أراقبها بعدما انسحبت وغادرتنى. فلا أستطيع أن أعبر عن مدى الكراهية التى حملتها من نفسى لما فعلت وبعد أن ذهبت بحيث لا يبدو لها أى أثر كررتها ثانية وكأننى فى حلم "إلى اللقاء" وأنا أنظر بائسًا حولى وبعد الذى حدث هذا وبصرخة تعكس ما يحدث بداخل قلبى من تمزق هززت قبضة يدى فى الهواء وتوجهت ناحية أساس تمثال ذى أجنحة واضعًا يدىَّ على وجهى ورافعًا كِتفَىّ كانت كل جوارحى تنعتنى بأنى أبله وحقًا كنت كذلك.

واجهت صعوبة بالغة حتى أمنع رجال أمن المتحف الذين رأونى وأنا أصيح مما فىَّ من كرب أنى غير ثمل ولكنى فقط أعانى من وعكة لها وقتها وسوف تزول.

ولكن للأسف ما زلت أعانى بشكل يزداد يومًا بعد يوم من هذه الحالة "المسرحية" التى انتابتنى ولا يمكن أن يوجد أحد يدرك كنه

السخافة اللاذعة للطرق المسرحية ولكنها باعثة على البهجة وأصبحت كورقة ميتة تتقاذفها رياح الربيع.

بدأت أصاحب الممثلين ولكن سرعان ما مقتهم وعندما كنت فى صحبتهم فقط كنت أشعر بأننى لست على وعى تام.. أثر كلامهم فىّ كثيرًا وبدأت أشعر بأنى أميل إلى الإيجاز الدرامى إلى وجود فواصل ووقفات فى أسلوبى لتحديد الانحناءات والأوضاع التى أقوم بأدائها.

والحقيقة هى أننى فى حيرة لا أدرى حقيقة الأمر بالنسبة لى كبرت فى السن وكنت لا أفعل شيئًا طوال فترة شبابى قدمت إلى المسرح وأنا غض الإهاب لا أدرى ولا أعلم الكثير عنه وزاد الأمر سوءًا، أننى تعلقت به بشكل ملك علىّ عقلى. لكنه أضر بى، وبعد أن استقر فى أحشائى ها أنا أحتج على ما وقعت فيه من خطأ أصاب شخصى بعبث وبلا ثمرة..

ومنذ أسبوع كان ينبغى علىّ أن أذهب وأضع كل اهتمامى وتركيزى فى بعض المسرحيات الجديدة ونسيت الدراما وتأثيرها المهيب الذى يتحكم فىّ فبدت سلوكياتى مبهرجة وعواطفى وأحاسيسى مثالية ولذا فأنا أشك كما قلت فى البداية فى النفس التى تقوم بمثل تلك السلوكيات والتصرفات.

وكل ما أشعر به ويطحن فىّ حتى النخاع أن هذه الحالة الدرامية التى تتعاظم فىّ وتحتوينى تجعلنى أشعر وكأنى رئيس الدير (كينج جونز) ومحاولته أن يكون قائدًا.

فأنا أشك فى الأمر هل لا يحق لى أن أترك ما أكافح من أجله تمامًا ـ أترك هذا العالم الملىء بالأحزان وأعود لحياتى العادية التى

لا تفترق عن أية حياة، لأننى غير محظوظ وقليل الحظ، أو أتخلى عن اسم (كمنز) بسبب الاسم القلمى وأقضى على نفسى وأمحوها وأتمكن من خلال بعض الحيل والحرف العالية والتظاهرات من الصعود فوق المسرح. يبدو لى أن هذا هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن ألجأ إليه ولا مناص منه حتى أتمكن من توضيح حقيقة الأمور فى تلك الحياة العادية.

وأنا سوف أعترف أنه لا يوجد شخص على وجه هذه الأرض الآن يعتبرنى عاقلاً أو حصيفًا ولكن فقط فوق خشبة المسرح هذه سوف أشعر بالارتياح وسوف يعلم الناس أمرى بجد ويعلمون الحقيقة. وعندما أفعل هذا فسوف تكون نهاية المطاف ولكن ينبغى علىّ أن أعترف بكل صراحة.

إننى أمقت كل هذه الادعاءات التى تصدر من هذا الممثل الذى لا يعدو كونه رجلاً عاديًا وأنا ما زلت مقتنعًا برأيى وأنتم تتساءلون وهو أن احترافى التمثيل وانتحال الشخصيات الأخرى لا يستحق أن يعطيه الإنسان كامل اهتمامه وفكره ولكن المزيد من الدخول فى الشخصية.

ومن الآن فصاعدًا فسأحاول أن أتخلى عن مهنتى بصفتى ناقدًا دراميًا وأحاول أخذ قسط من الراحة ولكن لا أستطيع أن أقنع (بارنابى) فهو لا يعترف بخطابات الاستقالة ويقول إنه أمر لا يليق أدبيًا مع الصحافة أن تكتب لمحررك استقالتك وعندما أذهب لأراه يعطينى سيجارًا غليظًا آخر وكوبًا من الصودا وأى شىء يستطيع من خلاله أن أرجع عن طلبى ويمنعنى من شرح ما يدور فى ذهنى والسبب لما أريد أن أفعله.

شريحة تحت المجهر

انتشر ضباب كثيف خارج نوافذ المختبر.. فى حين ساد فى الداخل دفء شديد، وانتشر الضوء الأصفر لمصابيح الغاز ذات الطلة الخضراء الموزعة اثنين لكل طاولة بكامل الطول الضيق للمختبر.. وعلى كل طاولة كأسان زجاجيان ممتلآن بآثار مختلطة من سرطان البحر والمحار والضفادع وخنازير الهند التى يُجرى الطلاب تجاربهم عليها.. وبامتداد جانب القاعة وبمواجهة النوافذ توجد أرفف عليها عينات جاهزة للتشريح موضوعة فى الكحول، يحيط بها صف من رسومات تشريحية رائعة الجمال داخل إطارات من الخشب الأبيض، وصف بارز من الخزانات المكعبة.

كل أبواب المختبر كانت مكسوة بألواح سوداء مرسومًا عليها أشكال نصف مطموسة من عمل اليوم السابق. وكان المختبر خاليًا إلا من أخصائى المختبر الذى جلس بالقرب من باب حجرة التحضيرات المعملية ساكنًا إلا من بضع غمغمات متواصلة وتكتكة جهاز تقطيع الشرائح الهزاز الذى كان يعمل عليه. وانتشر فى غير انتظام حول الحجرة مناخ قليل فقط خاص بالطلاب مثل حقائب يد

وصناديق لامعة بها أدوات وأجهزة.. وفى أحد الأماكن رسم كبير مغطى بالجرائد، وفى مكان آخر نسخة مجلدة تجليدًا أنيقًا من "أخبار من لا مكان"[(١)]، وهو كتاب يتنافر بالفعل مع ما حوله. كل تلك الأشياء وضعت على عجل إثر وصول الطلاب ثم إسراعهم على الفور إلى مدرج المحاضرات المجاور لحجز أماكن لجلوسهم.. ولأن صوت الأستاذ الجامعى كان خافتًا بسبب قفل الباب، فإن نبراته الرتيبة بدت كنغمات هامدة.

الآن ينساب من خلال النوافذ المقفلة صوت ساعة الكنيسة وهى تدق الساعة الحادية عشرة. وتوقفت تكتكة جهاز تقطيع الشرائح الهزاز، ونظر أخصائى المختبر إلى ساعته ثم وقف ووضع يده فى جيبه وسار ببطء بطول المختبر متجهًا إلى باب مدرج المحاضرات. وقف يستمع برهة، ثم وقعت عيناه على المجلد الصغير تأليف (ويليام مورس).

التقط الكتاب ونظر إلى عنوانه وابتسم ثم فتحه ونظر إلى الاسم المكتوب فى الصفحة البيضاء فى أول الكتاب ثم أخذ يقلب الصفحات بيده ثم وضعه على منضدة.. وعلى الفور توقفت همهمات الأستاذ المحاضر المنتظمة.. ثم سمع صريرًا مفاجئًا لأقلام الرصاص وهى تقعقع على الكتاب بحجرة المحاضرات.. أعقبها تحركات نشطة متدافعة، وعدد من الطلاب يتحدثون بعضهم مع بعض. ثم اقتربت وقع أقدام قوية من الباب الذى بدأ ينفتح وأصبح مواربًا، وعندها تنامى إلى سمع الوافد الجديد سؤال خافت غير واضح تمامًا.

---

(١) رواية عن اليوتوبيا الاجتماعية والخيال العلمى، كتبها (ويليام موريس) (١٨٣٤ ـ ١٨٩٦).

استدار أخصائى المختبر وقفل عائدًا ببطء حتى مر بجهاز للشرائح الهزاز، ثم غادر المختبر من باب حجرة التحضيرات المعملية. وبمجرد أن فعل ذلك، أقبل الطلاب واحدًا بعد الآخر إلى داخل المختبر من قاعة المحاضرات حاملين مذكراتهم معهم.. ووزعوا أنفسهم على الطاولات القليلة أو وقفوا فى مجموعات قريبًا من المدخل. كانوا فى الحقيقة مجموعة متنافرة تمامًا، فبينما تتراجع (أكسفورد) و(كمبريدج) عن المصير المخجل للفصول المختلطة، فإن كلية العلوم سبقت أمريكا فى هذا الأمر منذ سنوات واتبعت نظام الاختلاط الاجتماعى أيضًا.. ذلك أن سمعة الكلية عالية، كما أن منحها الدراسية التى تخلو من أى قيود عمرية تتعمق فى الأبحاث أكثر مما تفعل الجامعات الاسكتلندية. وبلغ عدد الطلبة الذين حضروا الدروس واحدًا وعشرين طالبًا، ولكن بعضهم بقى فى المدرج يسأل الأستاذ أو ينسخ المكتوب على السبورة أو المرسوم عليها قبل مسحه، أو يختبر العينات الخاصة التى أعدها لشرح ما تم تدريسه هذا اليوم وعرضه.

كان الموجودون منهم فى المختبر تسعة، ثلاث منهم فتيات، إحداهن امرأة شقراء صغيرة الجسم ترتدى نظارة وترتدى ثوبًا أخضر مشوبًا بلون رمادى، تحدق من النافذة فى الضباب، فى حين كانت التلميذتان الأخريان، وكلتاهما تتمتع بالصحة وبساطة الوجه دون أى جمال ملحوظ وترتدى مريلة كتانية بنية اللون، مسمرة الأكمام، تلبسها فى أثناء التشريح.

ومن بين الرجال انطلق اثنان إلى مقعديهما فى آخر المختبر، أحدهما شاحب الوجه وذو لحية داكنة وكان يعمل فى وقت ما

ترزيًا، أما الآخر فمليح الوجه وكان شابًا أحمر الوجه فى العشرين من العمر ويرتدى حلة بنية اللون على مقاسه بالضبط، وهو (ويدربيرن) الصغير ابن (ويدربيرن) أخصائى العيون. أما بقيتهم فقد شكلت حلقة بالقرب من باب المدرج. أحد هؤلاء، وكان شخصًا قزمًا يرتدى نظارة وله ظهر محدب، فقد جلس على مقعد خشبى صغير محنى. فى حين وقف آخران أحدهما شاب أسمر قصير والآخر شاب أحمر البشرة ذو شعر لونه أصفر خفيف وقف مستندًا بجانبه على حوض من الاردواز.. فى حين وقف الرابع مواجهًا لهم وكان ذا أكبر نصيب فى المناقشة التى شغلتهم.

هذا الشخص الأخير كان يُدعى (هيل)، وكان شابًا قوى البنية من نفس عمر (ويدربيرن)، بيد أنه كان ذا وجه شاحب وعينين رماديتين داكنتين وشعرًا غير واضح اللون وملامح واضحة وغير متناسقة.. وكان يتحدث بصوت أعلى مما ينبغى وهو يدس يده فى جيبه. وكانت ياقة قميصه مهترئة وقد ازرق لونها من النشاء فى أثناء غسيل القميص بشكل سيئ.. وكان واضحًا أن ملابسه جاهزة كلها، ولم يكن صعبًا على المرء أن يلحظ رقعة جلدية فى جانب حذائه ذى الرقبة بالقرب من إصبع قدمه الكبير.. وكان يتكلم ويُصغى إلى الآخرين، ومن وقت إلى آخر يرمق باب خروج قاعة المحاضرات.

كانوا يتناقشون فى النهاية الكئيبة للمحاضرة التى سمعوها لتوهم، وهى آخر محاضرة فى المقرر التمهيدى فى علم الحيوان. قال المحاضر لهم بنبراته المقبضة: "من البويضة إلى البويضة هو هدف الفقاريات العليا كلها".. وهكذا ختم تصوره للتشريح المقارن

الذى كان يشرحه لهم. كرر الأحدب ذو النظارة هذه العبارة بإعجاب وبصوت عال، وألقى بها باتجاه الطالب الأشقر فى استفزاز واضح له.. ولم يلبث أن بدأ فى واحدة من تلك المناقشات المشتتة غامضة الهدف حول بعض العموميات التى تشغل بال الطلاب فى جميع أرجاء العالم بشكل غريب لا تفسير له.

قال الطالب الأشقر وهو يرتفع إلى مستوى التحدى: "ربما يكون ذلك هدفنا.. أعترف بذلك.. طبعًا فى الحدود التى يذهب إليها العلم.. لكن لا تنسَ أن هناك أشياء فوق العلم".

قال (هيل) بثقة: "العلم عبارة عن معرفة منظمة أو منهجية.. والأفكار التى لا تندرج تحت عباءته يجب أن تكون بشكل أو بآخر أفكارًا خاطئة أو غير دقيقة".. بيد أنه لم يكن متأكدًا تمامًا مما إذا كان ذلك قولاً بارعًا أو حماقة حتى اتضح أن مستمعيه أخذوا ما قاله بجدية واهتمام.

قال الأحدب أخيرًا: "الشىء الذى لا أستطيع أن أفهمه هو ما إذا كان (هيل) ماديًا أو لا".

وعلى الفور أمسك (هيل) بخيط الحديث، وهو يشعر أنه كسب أرضًا هذه المرة، مع إدراكه بوجود شخص ما فى المدخل وراءه، ولذلك رفع صوته قليلاً لكى تسمعه: "هناك شىء واحد فوق المادة.. وهو الوهم بوجود شىء فوق المادة".

قال الطالب الأشقر: "إذن عرفنا أخيرًا بتشددك.. إذن كل هذا وهم، أليس كذلك؟.. أى أن كل طموحاتنا لكى نحيا حياة أرقى من حياة الكلاب. كل جهودنا لتحقيق أى شىء يتجاوز مصالحنا، هراء

لا معنى ولا قيمة له؟!.. انظر كيف تناقض نفسك.. مثلا اشتراكيتك، لماذا تتعب نفسك من أجل مصالح البشر؟ ولماذا تهتم بالمتسولين فى الأزقة؟.. ولماذا تكلف نفسك عناء إقراض هذا الكتاب؟"ـ وأشار بحركة من رأسه إلى كتاب (ويليام موريس) ـ "إلى كل شخص فى المختبر ؟". قال الأحدب بصوت غير واضح: "آنستى".. ورمقها من فوق كتفه وهو يشعر بالخجل من نفسه. وكانت الفتاة التى ترتدى ملابس بنية وعيناها بنيتان دخلت فى المختبر ووقفت بالجانب الآخر من الطاولة التى خلفه، وفى إحدى يديها المريلة الملفوفة وتنظر من فوق كتفها منصتة إلى المحادثة.. لكنها لم تلاحظ الأحدب لأنها كانت تنظر إلى (هيل) شريكه فى المحادثة. وكشف (هيل) عن إدراكه لوجودها بتجاهله المتعمد لهذه الحقيقة وفهمت هى ذلك بل إنه سرّها.. وقال: "إننى لا أرى أى سبب معقول يدفع المرء لكى يعيش كحيوان لأنه لا يعرف شيئًا وراء المادة ولا يتوقع أن يُعمر لمدة مئة سنة من الآن".

قال الطالب الأشقر: "وما الذى يمنعه من ذلك؟".. فقال (هيل): "ولماذا يفعل ذلك؟".

"وما هو الإغراء أو الدافع الذى لديه عندئذ؟".

"هذا هو حالكم جميعًا أيها المتدينون.. إن الموضوع كله عبارة عن إغراء أو سبب أو دافع.. أيوجد هناك ما يمنع المرء من طلب الحق والصواب فقط من أجل الحق والصواب؟".

ساد الصمت برهة، ثم أجاب الرجل الأشقر بنوع من الهمهمة: "ولكن ـ كما ترى ـ الدافع ـ عندما قلت الدافع". لمجرد كسب بعض

الوقت.. ثم لم يلبث الطالب الأحدب أن خف لنجدته وطرح سؤالاً واحدًا.. كان شخصًا فظيعًا فى حلقة المناقشة بأسئلته المتلاحقة، التى كانت كلها على وتيرة واحدة لا تتغير.. وفى تلك المرحلة قال الأحدب: "وما تعريفك للحق والصواب يا صاح؟".

فجأة أحس (هيل) بعدم الارتياح لهذا السؤال، ولكن حتى بعد طرحه لم يشعر بالراحة إلا عندما دخل (بروكس)، أمين المختبر، من باب غرفة التحضيرات حاملاً معه عددًا من فئران التجارب المقتولة حديثا من أرجلها الخلفية. وقال الشاب الذى لم يتكلم من قبل: "هذه آخر دفعة من المواد اللازمة لهذه الدورة الدراسية".

تقدم (بروكس) إلى داخل المختبر ووضع زوجين من فئران التجارب على كل طاولة.. وعندما شم بقية الفصل رائحة الفرائس من بعيد، أقبلوا متدافعين من باب قاعة المحاضرات، وسرعان ما توقفت المناقشة فجأة عندما أسرع الطلاب الذين لم يكونوا جالسين على مقاعدهم باتجاههم لكى يختار كل منهم عينته. وتعالت أصوات المفاتيح وهى تصر فى الحلقات المشقوقة لفتح الخزانات وأخذ أدوات التشريح منها. وكان (هيل) واقفًا بالفعل بجوار طاولته، وعلبة المشارط بارزة إلى خارج جيبه.

خطت الفتاة التى ترتدى ملابس بنية خطوة تجاهه، واستندت على طاولته وقالت برقة: "ألم تر أننى أخذت كتابك يا سيد (هيل)؟". وطوال المشهد كله كانت هى والكتاب فى بؤرة اهتمامه.. غير أنه تظاهر ببلاهة بالنظر إلى الكتاب كما لو كان يراه للمرة

الأولى وقال وهو يقبض عليه: "آه، نعم!.. أعرف ذلك.. ولكن هل أعجبك الكتاب؟".

"نعم ولكننى أريد أن أسألك بعض الأسئلة فيه.. وسوف يحتاج ذلك إلى بعض الوقت".

قال (هيل): "نعم بالطبع.. سوف يسعدنى ذلك".. ثم توقف مرتبكًا وأردف "إذن لقد أعجبك؟".

"إنه كتاب رائع بلا شك.. غير أن هناك بعض النقاط التى لا أفهمها".

وفجأة ران الصمت على المختبر بعد أن جلجل صوت عال كنهيق الحمار.. كان ذلك صوت أخصائى المختبر. كان واقفًا بجوار السبورة جاهزًا للبدء فى شرح درس هذا اليوم، وكان من عادته أن يطلب الصمت بصوت متوسط بين "إيه" فى الكلام العادى وجلجلة صوت النفير. تسللت الفتاة ذات الملابس البنية عائدة إلى مقعدها الذى أمام مقعد (هيل) مباشرة.. وكأن (هيل) نسيها تمامًا وأخرج مذكرته من درج طاولته وقلب صفحاتها بسرعة، وأخرج من جيبه قلمًا رصاصيًا قصيرًا واستعد لكتابة الشرح التالى وتدوين تفاصيله.. ذلك أن المحاضرات والشروح العملية هما الوصفة السحرية لطلاب الكلية. ويمكنك، بل ويُفضّل أن، تتجاهل كل الكتب ما عدا كتاب الأستاذ فقط! كان (هيل) ابنًا لإسكافى من (لاندبورت)، ثم اغتنم فرصة أعلن عنها فى إحدى الصحف وحصل على منحة من السلطات للالتحاق بكلية (لاندبورت) الفنية، وبقى فى لندن معتمدًا على المبلغ المخصص وقدره جنيه إنجليزى واحد

أسبوعيًا.. واكتشف أنه بشىء من الاقتصاد يمكن أن يغطى هذا المبلغ أيضًا الملابس وياقة مقاومة للمطر للمناسبات والحبر والإبر والقطن وما شابه ذلك من ضروريات لرجل يعيش فى المدينة.

كانت هذه أول سنة له وأول دورة دراسية له، غير أن العجوز الأسمر - كما يطلق على والده - فى (لاندبورت) كان قد نجح بالفعل فى جعل نفسه مكروهًا فى كثير من الأماكن العامة مثل المطاعم والفنادق والحانات، بسبب التفاخر بابنه "الأستاذ الجامعى". أما (هيل) فكان شابًا نشيطًا قويًا ولديه احتقار شديد لرجال الدين من كل المراتب، وكان يأمل فعلاً فى إصلاح العالم. واعتبر منحته الدراسية فرصة رائعة ينبغى عليه استغلالها. كان قد بدأ يقرأ فى سن السابعة، وأصبح نهمًا لقراءة كل ما يقع تحت يده منذ ذلك الوقت، سواء كان جيدًا أو سيئًا.

كانت كل خبراته فى الحياة وانحصرت فى جزيرة "بورتسى"، واكتسبها أساسًا بمصنع بيع الأحذية برقبة بالجملة الذى كان يعمل فيه نهارًا، بعد أن أتم بنجاح المستوى السابع بالمدرسة الداخلية. وكان يتمتع بقدرة هائلة على الحديث، حيث إن جمعية المناظرة بالكلية - التى اجتمعت وسط ضجيج آلات تكسير الحجارة وآلات المناجم بقاعة استخلاص المعادن بالطابق السفلى - تحققت منه بالفعل. وفى هذا العمر العاطفى بالضبط انفتحت حياته عند نهاية ممر ضيق مثل واد واسع تحت قدمى المرء، ملىء بالوعود والآمال العريضة فى التوصل إلى اكتشافات رائعة وتحقيق إنجازات هائلة. أما حدوده ومنتهى قدراته، باستثناء أنه كان على يقين بأنه لا يعرف اللاتينية ولا الفرنسية، فكانت كلها مجهولة له.

فى البداية توزع اهتمامه بالتساوى بالضبط بين عمله البيولوجى بالكلية والإعلان عن أفكاره الاجتماعية واللاهوتية، وهى مهمة كان يؤديها بجدية شديدة. وفى الليل، عندما تغلق مكتبة المتحف الكبير أبوابها كان يجلس على سريره بحجرة نومه فى (شلسى) وهو مرتد سترته وواضعًا لفاعًا حول رقبته ليكتب مذكرات المحاضرة ويصحح مذكرات التشريح، إلى أن ينادى عليه (ثورب) بصفارة ـ إذ كانت صاحبة المنزل ترفض فتح الباب لزوار ساكن السطح ـ وبعدها يشرع الاثنان فى ارتياد الشوارع المظلمة المضاءة بمصابيح الغاز، يتحدثان بنفس الأسلوب الذى ذكرناه آنفًا.. أى فكرة الله والحق والصواب و(كارلايل)[٢] وإصلاح المجتمع.

ووسط ذلك كله لم يكن (هيل) يؤيد فقط (ثورب) ولكن أيضًا أى عابر سبيل مار، وسرعان ما يتوقف عن موضوع حديثه وهو يُحدّق فى وجه جميل نابض بالحياة وينظر إليه بإمعان وهو يمر به.. العلم والحق والصواب!.. لكن كانت هناك مؤخرًا مرة أو مرتين ثمة دلائل على اهتمام ثالث بدأ يزحف على حياته، ووجد نفسه يوزع اهتماماته بين مصير العقلات الجنينية الوسطى، أو المعنى المحتمل للخلية ، وبين فكرة وجود الفتاة ذات العينين البنيتين جالسة أمام الطاولة التى أمامه.

كانت طالبة تتعلم برسوم، وقد هبطت من طبقة اجتماعية عالية لكى تتحدث إليه. وعندما فكر فى التعليم الذى لا بد أنها حصلت عليه والإنجازات التى لا بد أنها حققتها، شعر بروحه تغوص بين قدميه.

---

(٢) توماس كارلايل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) كاتب ومؤرخ وفيلسوف إنجليزى (المترجم).

كانت قد تحدثت إليه لأول مرة بشأن صعوبة ما صادفتها فى تشريح جمجمة الأرنب.. ووجد هو أنه فى علم الأحياء على الأقل لا يوجد مبرر للتقليل من قيمة الذات.. ومنذ ذلك الوقت، وطبقًا لعادة الشبان الذين يبدأون من الصفر تقريبًا، فقد اهتموا بالعموميات دون الدخول فى التفاصيل.. وحين هاجمها (هيل) فى موضوع الاشتراكية، كان ثمة إحساس غريزى لديه بإعفائها من الهجوم المباشر على ديانتها.. فقد كانت تجمع إرادتها للشروع فيما سمته لنفسها التعليم الجمالى.. وفى الحقيقة كانت تكبره بعام أو عامين.. رغم أن تلك الفكرة لم تخطر على باله قط. وأصبحت إعارة كتابه "أخبار من لا مكان" البداية لسلسلة من الإعارات المتبادلة. وبناء على وجهة نظر حمقاء لديه، لم يضع (هيل) أى وقت فى الشعر، وبدا أن ذلك الموضوع يشكل قصورًا مروعًا عندها. فى أحد الأيام وقت العشاء، عثرت عليه بالصدفة بمفرده فى المتحف الصغير ـ حيث يتم ترتيب الهياكل العظمية للحيوانات ـ وهو يأكل فى خزى من الكعكة التى تعتبر وجبة نصف النهار له.. وتراجعت ثم عادت وأعارته، بشىء من المكر، كتابًا لـ (براونينج).. تناول الكتاب منها بشىء من الخَراقة، حيث إنه كان لا يزال ممسكًا بالكعكة بيده الأخرى.. وعند استعراض كل ما حدث نجد أن صوته كان يفتقر إلى الوضوح المبهج الذى كان يوده.

حدث ذلك بعد انتهاء الاختبار فى التشريح المقارن، فى اليوم الذى سبق صرف الكلية لطلابها وإغلاق أبوابها بإحكام بمعرفة المسئولين بمناسبة عطلة الكريسماس.. وشعر (هيل) لوهلة قصيرة بالإثارة وهى تسيطر عليه من كثرة حشو دماغه بالمعلومات قبل أول

اختبار قوى.. بالطبع بخلاف اهتماماته الأخرى. وفى توقعات النتائج التى اشترك فيها الجميع أدهشه ألا يجد أحدًا يتوقع أن يصبح منافسًا محتملاً للحصول على ميدالية "هارفى" التذكارية، التى نظم من أجلها الاختبار والاختباران اللاحقان له.

فى هذا الوقت تقريبًا بدأ (ويدربيرن) - الذى كان يعيش حتى ذلك الوقت بشكل غامض بعيدًا جدًا عن تصورات (هيل) - يأخذ شكل عقبة بالنسبة إليه.. وبناء على اتفاق متبادل توقفت المشاوير الليلية مع (ثروب) لمدة ثلاثة أسابيع قبل الاختبار.. وأوضحت مالكة المنزل الذى يقطن به أنه ليس بمقدورها تقديم وقود المصباح إليه بسعر زهيد.. أخذ ينتقل ذهابًا وإيابًا من الكلية، وهو ممسك فى يديه ببضع قصاصات من المذكرات المنشطة للذاكرة التى تضم قوائم بأعضاء جراد البحر وعظام جمجمة الأرنب وأعصاب الفقاريات.. وهكذا أصبح وجوده سببًا لمضايقة المارة فى الاتجاه المقابل من الطريق.

ولكن من خلال رد فعل طبيعى سيطر كل من الشعر والفتاة ذات العينين البنيتين على عطلة الكريسماس.. ولم تلبث النتائج الوشيكة للاختبار أن أصبحت ذات أهمية ثانوية لدرجة أن (هيل) تعجب من دهشة والده.. وحتى لو كان قد تمنى ذلك، فلم يكن هناك أى تشريح مقارن ليقرأه فى (لاندبورت).. وكان فقيرًا جدًا بحيث لم يكن فى مقدوره شراء أى كتب.. إلا أن كتب الشعراء المتكدسة بالمكتبة كانت باهظة الثمن للغاية، وكان هجوم (هيل) عليها مستمرًا.. ولكنه قنع واكتفى بالأعداد المتدفقة من كتب كل من

(لونجفلو) و(تنيسون).. وقوى نفسه بكتب (شكسبير).. ووجد روحًا يألفها فى كتاب (بوب) وشغف بكتاب رائع لـ (شيللى).. كما سمع وتجنب الأصوات الساحرة لكل من (إليزا كوك) والآنسة (هيزمان).. لكنه لم يعد يقرأ المزيد من كتب (براونينج)، لأنه كان يأمل فى استعارة كتب أخرى من الآنسة (هيزمان) عندما يعود إلى لندن.

سار من مقر سكنه إلى الكلية وهو يحمل كتاب (براونينج)(٢) هذا فى حقيبته السوداء اللامعة.. وذهنه مشغول بأدق الافتراضات العامة وأجملها بشأن الشعر.. والواقع أنه جهز هذا الحديث القصير ثم الحديث الذى سيواكب عودته. وكان الصباح رائعًا بشكل غير عادى بالنسبة إلى لندن.. وكان الصقيع الصلب الشفاف يهطل والسماء تطل من أعلى بلونها الأزرق المألوف.. وانتشر الغمام الرقيق وغطى كل شىء.. وأخذت أشعة الشمس الدافئة تسطع بين البيوت وأحالت الجانب المشمس من الشارع إلى لون كهرمانى ذهبى.

وفى قاعة الكلية خلع قفازه ووقع اسمه بأصابع متيبسة للغاية لدرجة أن الشرطة التى جرها تحت توقيعه بدت كخط ملتو.. وتخيل الآنسة (هيزمان) بجواره فى كل مكان.. واستدار ناحية السلم، وفى أسفل رأى حشدًا يزدحم أسفل لوحة الإعلانات.. لعل ذلك الإعلان كان قائمة خاصة بنتائج علم الأحياء.. ونسى الآن (براونينج) والآنسة (هيزمان) للحظة، وسرعان ما اشترك فى

---

(٢) روبرت براونينج (١٨١٢ ـ ١٨٨٩) شاعر إنجليزى شهير.

الزحام والشجار.. وأخيرًا وبعد أن ألصق خده تمامًا بكم الرجل الواقف على درجة السلم التى فوقه، قرأ القائمة التالية:

الصف الأول

هـ. ج سومرز ويدربيرن

ويليام هيل

ثم تلاه الصف الثانى الذى هو خارج اهتماماتنا الحالية.. وكان من العجيب أنه لم يعبأ بالبحث عن (ثروب) بقائمة الفيزياء، ثم بادر بالتراجع فورًا عن العراك.. وبينما هو فى حالة عاطفية غريبة، بين الفخر بسبب الإنسانية العادية من الدرجة الثانية والقنوط الشديد لنجاح (ويدربيرن)، واصل طريقه صعودًا على السلالم إلى أعلى.. وعقب صعوده هناك علق معطفه على المشجب فى الردهة ووجد معيد علم الحيوان، وهو شاب من أكسفورد يعتبره فى السر "لصًا سمجًا" من أسوأ الأنواع.. إلا أنه رحب به ترحيبًا قلبيًا!

وعند باب المختبر توقف (هيل) للحظة لالتقاط أنفاسه، ثم دلف إلى الداخل.. وحدق مباشرة فى قلب المختبر ورأى الفتيات الخمسة الطالبات مجتمعات فى مكانهن، ورأى (ويدربيرن) –الذى كان خجولاً فيما مضى –منحنيًا برشاقة على النافذة ويعبث بأصابعه بشراباتها ويبدو واضحًا أنه يتحدث إلى الفتيات الخمسة. الآن يستطيع (هيل) أن يتحدث بشجاعة كافية وحتى بغطرسة إلى فتاة واحدة، أما مسألة الوقوف باسترخاء وإبداء كلمات الإعجاب والمراوغة بالكلام والرد بسرعة على كل واحدة من تلك المجموعة فقد كان بعيدًا عن قدراته تمامًا.

وفى أثناء صعوده على السلم كانت مشاعره بالنسبة إلى (ويدربيرن) عامرة.. ربما يكتنفها بعض الإعجاب أو ربما الرغبة فى مصافحته بود ووضوح بصفته شخصًا فى الجولة الأولى فقط.. ولكن قبل الكريسماس لم يذهب (ويدربيرن) قط إلى آخر هذه الغرفة للحديث.. وفى لحظة زالت غمامة الغموض من على عينى (هيل) وفجأة شعر بكره شديد لـ (ويدربيرن).. لعل تعبيره هو الذى تغير.. وعندما وصل إلى مكانه أومأ برأسه له بلا مبالاة، فى حين نظر إليه الآخرون.. ونظرت الآنسة (هيزمان) إليه ثم ابتعدت بنظرها عنه.. وقالت له: "أنا لا أوافقك يا سيد (ويدربيرن)".

وقالت الفتاة التى ترتدى النظارة وملابس خضراء له وهى تلتفت وتبتسم: "جدير بى أن أهنئك على نتيجة أول اختبار لك يا سيد (هيل)".

قال (هيل) وهو يحدق فى (ويدربيرن) والآنسة (هيزمان) وهما يتحدثان بعضهما مع بعض.. وهو يتوق لسماع ما يتحدثان بشأنه: "هذا لا شىء يا آنستى".

قالت الفتاة ذات النظارة: "نحن الطلبة والطالبات الفقراء فى الصف الثانى لا نعتقد ذلك".

ترى ما الذى كان يقوله (ويدربيرن)؟.. شىء ما عن "ويليام موريس؟.. لم يرد (هيل) على الفتاة ذات النظارة وتلاشت الابتسامة من على شفتيه.. لم يعد يستطيع أن يسمع شيئًا ولم يعد يعرف كيف يمكنه أن يقاطع الحديث الدائر.. ما أعجب (ويدربيرن).. ثم جلس وفتح حقيبته.. وتردد فيما إذا كان سيعود إلى كتاب

(براونينج) على مرأى من الجميع.. وبدلاً من ذلك أخرج مذكراته الحديثة فى المقرر القصير فى مبادئ علم النبات الذى سيبدأ الآن وينتهى فى شهر فبراير.. وبمجرد أن فعل ذلك، دلف رجل ضخم سمين شاحب الوجه رمادى العينين ـ هو (بنتون) أستاذ علم النبات الذى قدم من جامعة (كيو) لشهرى يناير وفبراير ـ من باب قاعة المحاضرات وأقبل وهو يحك يديه بعضهما فى بعض ويبتسم فى وداعة ودماثة إلى المختبر.

فى الأسابيع الستة التالية مر (هيل) بتطورات عاطفية سريعة جدًا ومعقدة للغاية.. أهم ما فيها أنه وضع (وديدربيرن) فى بؤرة الأحداث، وهى حقيقة لم تتوقعها الآنسة (هيزمان) قط.. وقالت لـ(هيل) - إذ كانت تتحدث إليه كثيرًا وسط السرية النسبية للمتجف عن الاشتراكية و(براونينج) والمسائل العامة..الخ - إنها قابلت (ويدربيرن) فى منزل أحد معارفها وأنه "ورث براعته هذه لأن والده كما تعرف هو أخصائى العيون الشهير".

وقال لها (هيل) وهو يغير الموضوع بشكل كبير: "والدى كان إسكافيًا".. وأحس بانحطاط كرامته وهو يقول ذلك.. إلا أن بريق الغيرة لم يزعجها.. واعتبرت نفسها المصدر الرئيسى لها.. عانى هو بمرارة من إحساسه بإجحاف (ويدربيرن) ومن إدراكه أنه هو العقبة أمامه الآن.. وها هو المدعو (ويدربيرن) وقد استقطب رجلاً بارزًا كأب له.. وبدلاً من خسارته للكثير من الدرجات بحجة تحقيق تلك الميزة قد حسبت لصالحه بسبب استقامته!.. وبينما كان على (هيل) أن يقدم نفسه لكى يتكلم بخراقة مع الآنسة (هيزمان) حول

مجموعة فئران تجاربه فى المختبر، فقد أمكن لـ(ويدربيرن) هذا من خلال بعض الطرق الملتوية أن يتوصل إلى مكانتها الاجتماعية المرموقة.. ويمكنه أن يتحدث بلغة متكلفة ومنمقة يفهمها (هيل) بالطبع ولكنه يعرف أنه لا يستطيع محاكاتها.. هذا بالطبع ليس ما يرغب فيه.

ثم بدا لـ (هيل) أن حضور (ويدربيرن) إلى هنا يومًا بعد آخر وملابسه أنيقة ونظيفة وأكمامه غير منسلة أو متسخة وشعره مصفف بشكل جميل وهيئته رائعة، فإن هذا سلوك غير مهذب وينم عن السخرية من الآخرين.. وعلاوة على ذلك فإنه شىء غريب بالنسبة إلى (ويدربيرن) أن يتصرف بشكل وضيع بعض الوقت وأن يسخر من التواضع وأن يدفع (هيل) ليتصور أو يتخيل أنه هو نفسه كان بلا أدنى شك رجل العام.. ثم فجأة يندفع أمامه متفاخرًا بشكل مكشوف بأناقته ومظهره هذين.. وبالإضافة إلى تلك الأشياء، فقد أبدى (ويدربيرن) رغبة متزايدة فى الاشتراك فى أية مجموعة تحاور وجدال تتضمن الآنسة (هيزمان).. ولا يتردد فى المغامرة، وفى الحقيقة انتهاز الفرصة للتعبير عن أفكاره وآرائه التى تزدرى الاشتراكية والإلحاد.

ولقد أثار (هيل) لكى يتصرف بفظاظة تجاه شخصيات رائعة ومؤثرة للغاية من زعماء الاشتراكيين، لدرجة أن (هيل) نفسه كره (برناردشو) والطبعات المحدودة لكتاب (ويليام موريس) والعمال المثاليين الحمقى لـ (والتر كرين).. تقريبًا بمثل كرهه لـ (ويدربيرن).. ومقالاته ومحاضراته التى ألقاها فى المختبر والتى

كانت مصدر فخره فى الفصل الدراسى السابق أصبحت خطرًا وتدنت إلى مستوى شجارات ونزاعات مخزية وشائنة مع (ويدربيرن).. واستمر فيها (هيل) فقط من واقع تصور غامض هو تعرض شرفه للإهانة.. وفى مجتمع التحاور والجدال عرف (هيل) جيدًا أنه وسط هذا الجو الهادر والمكاتب التى تغلق بقوة وضوضاء، فبمقدوره سحق (ويدربيرن).. غير أن (ويدربيرن) لم يكن يحضر قط مجتمع التحاور والجدال حتى يتسنى له سحقه، ذلك بسبب تظاهره المقزز بالعشاء متأخرًا.

ولكن عليك ألا تتصور أن تلك الأشياء طرأت لعقل (هيل) بمثل هذا النمط الفظ.. إذ إن (هيل) ولد شخصًا مفكرًا ومستنبطًا عامًا.. و(ويدربيرن) لم يكن بالنسبة إليه عقبة بقدر ما كان نوعًا أو نموذجًا معينًا، وبالتحديد منزلة اجتماعية بارزة.. والنظريات الاقتصادية نفسها - بعد نضوجها النهائى - والتى تشكلت فى عقل (هيل)، أصبحت فجأة راسخة عند الاتصال.. أصبح العالم ممتلئًا أخيرًا بأمثال (ويدربيرن) السطحيين دمثى الطباع الرشيقين أنيقى الملبس لبقى الحديث وأمثال (ويدربيرن) من الأساقفة وأعضاء البرلمان وأساتذة الجامعة وملاك الأراضى والفنادق.. وكلهم أصبحوا كتعبيرات قديمة فقدت معناها أو كمدن ساخرة يلجأ إليها المرء هربًا من الشجار أو الجدال العنيف. وكان كل إنسان رث الملابس، بدءًا من الإسكافى إلى الحوذى من وجهة نظر (هيل)، سواء كان أبًا أو أخًا، من رفاقه البؤساء.. وهكذا أصبح - كما هى الحقيقة - بطلاً للفقراء والبؤساء والمدحورين، ولو أنه يبدو ظاهريًا شابًا واثقًا من نفسه سيىء الطباع وحتى بطلاً فاشلاً فى ذلك..

ومرة تلو الأخرى تركت المشادات ـ التى تنشب عند تناول شاى العصر بين الفتيات الطالبات ـ السيد (هيل) ووجنتاه تحتدمان من حمرة الخجل وسلوكه سيىء نكد.. كما لاحظ مجتمع الحوار والجدال صفة جديدة لـ (هيل) هى المرارة الساخرة فى كلامه وحديثه.

ويمكنك أن تفهم الآن كيف أنه كان من الضرورى، حتى ولو من أجل الإنسانية، أن يحطم (هيل) (ويدربيرن) فى الاختبار القادم وأن يتفوق عليه فى عينى الآنسة (هيزمان).. وأن تفهم أيضًا كيف وقعت فى بعض المفاهيم الأنثوية مألوفة الخطأ.. فالنزاع بين (هيل) و(ويدربيرن) ـ فبأسلوب (ويدربيرن) المتواضع فقد بادل (هيل) التنافس الخفى بينهما ـ أصبح بمنزلة إجلال وتقدير لجمالها الساحر.. فقد كانت ملكة الجمال فى سباق المشارط والأقلام الرصاصية القصيرة.. وبالنسبة إلى المضايقة الخفية لصديقها الحميم، فقد أثقل ذلك على ضميرها لأنها كانت فتاة صالحة وتدرك بألم ـ من خلال كتب (روسكين) "القصص الخيالية المعاصرة" ـ أن أنشطة الرجال وسلوكياتهم كلها تتأثر باتجاهات النساء وميولهن.. وإذا كان (هيل) لم يذكر لها فى أية مناسبة موضوع حبه لها، فإنها تقدره لرقته وتواضعه فى عدم الإفصاح لها بمشاعره!

وبعد حين جاء وقت الاختبار الثانى، وأكد شحوب لون (هيل) الشائعة السارية بأنه يعمل ويستعد له بمثابرة شديدة.. وبإمكانك أن تراه فى المخبز بالقرب من محطة (ثاوث كنسينجتون) وهو يكسر

كعكته ويتجرع لبنه وعيناه منكبتان على ورقة ملحوظات متلاصقة للغاية.. وفى مخدعه كانت هناك تصورات وافتراضات بخصوص براعم النباتات وسيقانها حول نظارته.. ورسم جذاب للعين، ما لم يقع عليه الصابون، فوق حوض اغتساله.. وقد فاتته اجتماعات كثيرة لمجتمع الحوار والجدال.. بيد أنه وجد مقابلاته بالصدفة مع الآنسة (هيزمان) بطرق كثيرة فى المتحف الفنى المجاور أو فى المتحف الصغير أعلى الكلية أو فى ردهات الكلية أكثر تواترًا وهدوءًا واسترخاءً. وقد كانا يتقابلان على وجه الخصوص فى معرض فنى صغير ممتلىء بصناديق وبوابات من الحديد المطاوع بالقرب من مكتبة الفنون.. وهناك اعتاد (هيل) أن يتكلم ـ بدافع من تشجيعها الرقيق له وإطرائها عليه وإنصاتها إليه ـ عن (براونينج) وطموحاته الشخصية.. ووجدت هى فيه ميزة رائعة هى خلوه من البخل والجشع.

وكان يفكر كثيرًا وبهدوء فى احتمال أن يعيش طوال حياته بدخل سنوى يقل عن مئة جنيه.. لكنه كان عازمًا على أن يكون شهيرًا، وأن يجعل العالم ـ من خلال التطبيق على شخصه ذاته ـ مكانًا أفضل للحياة فيه.. واتخذ (برادلاف) و(جون بيرنز) زعيمين نموذجيين له، وهما شخصان عظيمان بالرغم من أنهما فقيران ومعدمان.. غير أن الآنسة (هيزمان) اعتقدت أن مثل تلك الحياة قد تكون قاصرة من الناحية الجمالية، وكانت تعنى ـ رغم أنها لم تكن تعرف ذلك ـ ورق الحائط الجميل والرياش الغالية والمناظر الجميلة والملابس الأنيقة والحفلات الراقصة والوجبات حسنة الطهى التى يتم تقديمها بطريقة محترمة راقية.

وأخيرًا جاء يوم الاختبار الثانى.. وأعاد أستاذ النبات -وهو رجل دقيق للغاية وذو ضمير حى- ترتيب كل المناضد فى المختبر الضيق الطويل، وذلك للحيلولة دون حدوث أى غش.. ووضع جهاز الشرح على مقعد فوق منضدة (حيث يشعر بأنه هناك كإله للهندوس) لكى يرى كل حالة غش محتملة، وعلق لافتة خارج الباب عليها عبارة "الباب مغلق" بحيث لا يمكن لأى مخلوق الدخول أثناء الاختبار. وطوال فترة النهار من العاشرة صباحًا حتى الواحدة بعد الظهر كانت ريشة الكتابة فى يد (ويدربيرن) تصرخ متحدية ريشة (هيل).. فى حين طاردت ريش الآخرين كتابتهما فى صراع يائس.. وهكذا استمر الحال طيلة فترة العصر. كان (ويدربيرن) أكثر هدوءًا إلى حد ما عن المعتاد، فى حين كان وجه (هيل) محتدمًا طوال اليوم.. وكان معطفه منتفخًا بالكتب الدراسية والمذكرات التى جلبها من أجل إتمام مراجعة اللحظة الأخيرة.

وطوال فترة الصباح وما بعد الظهيرة من اليوم التالى كان وقت الاختبار العملى.. حيث تعين على كل طالب عمل قطاعات مختلفة ثم التعرف على الشرائح المنزلقة عند عرضها على الشاشة. وفى الصباح كان (هيل) محبطًا لأنه كان يعرف أنه عمل قطاعًا سميكًا أكثر من اللازم، ثم فى فترة العصر حدثت الزَلة الغريبة.

لقد كان الأمر يعد شيئًا مألوفًا يفعله الكثير من علماء النباتات. كان قد بدأ فى التجهيز لاختبار جديد تحت المجهر وكانت الشريحة الزجاجية الصغيرة الحجم مثبتة فى مكانها على طاولة محتشدة بالمعدات بواسطة مشابك معدنية خفيفة. وكانت التعليمات المكتوبة

تقضى بألا يتم تحريك الشريحة ولذا حتى يمكن لكل طالب أن يأخذ دوره فى مشاهدة التجربة. ثم يدوّن فى كراسة الإجابة الخاصة به ما قد استنتجه ثم يعود مرة أخرى إلى مكانه.

أما الآن وقد انتهت التجارب المرئية فإن إزاحة الشريحة الزجاجية أصبح أمرًا يمكن أن يقوم به أى من الموجودين بحركة صغيرة من إصبعه فى جزء من الثانية. وكان السبب الذى حدا بالبروفيسور أن يمنع أيًا من الموجودين من تحريك الشريحة يعتمد فى الواقع على أن الموضوع الذى كان يريد تحديده هو خواص نوع معين من سيقان النباتات كان من الصعب جدًا معرفة المغزى من وضع الشريحة فى الموضع الذى تم تثبيته به. ولكن حدث وأن حرك أحدهم الشريحة لكى يقوم بوضع أجزاء أخرى تمهيدًا للمشاهدة. وكانت طبيعة هذه الأشياء واضحة تمامًا.

وعندما وصل (هيل) إلى هذه اللحظة كان فى شدة ارتباكه من جراء عدم التوصل إلى معرفة طبيعة هذه المواد المساعدة المسببة للبقع. فجلس على المقعد الصغير القريب من المجهر ثم قام بتعديل مرآته للحصول على أكبر قدر من الضوء ثم، وبعيدًا عن طبيعته الملتزمة قام برفع الشريحة. إلا أنه تذكر فجأة أن ذلك ممنوع طبقًا للتعليمات السابقة فقام بحركة لا إرادية تقريبًا بإعادتها إلى مكانها وجلس وقد تسمر دهشة من جراء تصرفه. ثم أدار رأسه ببطء. فوجد أن البروفيسور خارج الحجرة. وكان الأستاذ المساعد جالسًا إلى منصته مشغولاً بقراءة إحدى المجلات العلمية وتسمى (Q.Jour.Mi.sci) أما بقية الطلبة المختبرين فكانوا مشغولين

بالامتحان. وكانت ظهورهم فى مواجهته. وأخذ يتساءل ماذا لو فطن البروفيسور إلى ما فعله الآن؟ فهو يعلم جيدًا نتيجة الجرم الذى ارتكبه فكانت المشاهدة تخص شريحة من ساق النبات تسمى (العُدَيّسات)[٤] وكانت هذه المشاهدة بالأهمية بمكان بحيث تم الإعداد لها باهتمام لمعرفة خواص هذا الجزء من نوع من الأشجار القديمة. وجالت عيناه المكان تفحص رفاقه وفجأة أحس بصديقه (ويدربيرن) وهو يحدجه بنظرات حادة تعبر عن ارتياب واضح.

وبعد ذلك الحادث شعر (هيل) بأن ما حدث كان عبارة عن تجربة عقلية قاسية جعلت (هيل) فى حالة لم يألفها من اللاتوازن أدت به إلى أن يشعر بحالة عصبية تتسم بالتوتر. وعلى الرغم من أن كراسة الإجابات الخاصة به كانت بجواره فإنه لم يستطع أن يدون ما قد شاهده ولكنه أخذ يدون فى عجالة من أمره بعض الملاحظات حينما كانت إحدى عينيه مركزتين على عدسة المجهر حينئذ كان يدور داخل ذهنه صراع من نوع خاص يتعلق بالأخلاقيات. هل ينبغى عليه الآن أن يدرك ماهية هذا الشعور؟ أو أن يغفل تمامًا الإجابة على هذا السؤال؟ فى هذه الحالة سيحقق ويدرك المركز الأول فى نتيجة الاختبار الثانى. كيف سيمكنه أن يخبر الممتحن بأنه لم يكن ليعرف حقيقة الشىء الذى كان موجودًا دون أن يرفع الشريحة الزجاجية؟ من المحتمل أن (ويدربيرن) كان

(٤) العُدَيّسات، مسام فى سيقان النبات الخشبى التى تسمح بتبادل الغازات بين النسيج الداخلى والهواء المحيط (المترجم).

سيفشل فى معرفة كنه هذا الشىء بالطبع. ماذا سيحدث لو تسنى لـ (ويدربيرن) أيضًا أن يرفع الشريحة؟ وعندما نظر إلى ساعة الحائط وجد أنه ما زال أمامه خمس عشرة دقيقة لكى يصل إلى قرار مناسب. عندئذ أخذ كراسة الإجابة وأقلام الرصاص الملونة التى كان يستخدمها فى توضيح إجاباته وعاد إلى مقعده.

أخذ (هيل) يقرأ المخطوط الذى أمامه ثم أخذ يفكر وهو يعض على أنامله. إن الأمر سيصبح شاذًا بالنسبة له إذا ما اعترف بخطأه. فهو لا بد له وأن يتفوق على (ويدربيرن) فتناسى فى توه هؤلاء العلماء البارزين المثاليين أمثال (جون بيرنز)[٥] و(برادلاف)[٦].. علاوة على ذلك، فقد تفتق ذهنه على اعتبار أن ما حدث من تحريكه للشريحة كان عبارة عن حدث عارض لا إرادة له فيه جعله يعرف رغمًا عنه طبيعة هذا الشىء. ويمكن أن يكون ما حدث عبارة عن إلهام إلهى تسمو عن كونها عطية غير عادلة. ولم يكن يشينه أن يعلن أنه يشبه الناسك (بروم) الذى كان يؤمن إيمانًا شديدًا بمدى تأثير الصلاة فى حصول المرء على ما يريد. ومن ثم فكان دائم المواظبة على أن يدعو فى صلاته من أجل الحصول على المركز الأول وفى هذه اللحظة سمع صوت الأستاذ المساعد يعلن عن أنه قد تم السماح بزيادة الوقت خمس دقائق أخرى وهو يطوى ورقته. أخذ (هيل) يشاهد عقارب الساعة وقد مضى من الوقت المسموح به دقيقتان. ثم فتح كراسة الإجابة وبعينين متثاقلتين

(٥) (١٨٥٨ ـ ١٩٣٤) سياسى بريطانى كان إشتراكيًا وعضوًا بالبرلمان ووزيرًا (المترجم).
(٦) تشارلس برادلاف (١٨٣٣ ـ ١٨٩١) سياسى بريطانى كان ملحدًا (المترجم).

وبرضا تام أعطى رسوماته للمراقب وقد دوّن تحتها اسم الشىء وهو (العُدَيّسات).

وعندما ظهرت قائمة النتيجة الثانية انعكس موضع كل من إسمىّ (ويدربيرن) و(هيل). ثم قامت إحدى الفتيات وكانت ترتدى زيًا أخضر ونظارة طبية وكانت على معرفة وثيقة بالأستاذ المساعد فى حياته العملية وأعلنت أمام الجميع بأن نتيجة الاختبارين اللذين تم عقدهما مؤخرًا تشير إلى تقدم (هيل) فى الدرجات حيث حصل على ١٦٧ درجة و١٦٦ من مجموعة مائتى درجة فى كل امتحان. لذلك كان (هيل) مثار إعجاب الجميع..

وعلى الرغم من نظرات الشك التى كانت تحيق به. فإن ذلك لم يكن ليمنع الموجودين من تهنئة (هيل) بحرارة ثم أفاضت الآنسة (هيزمان) فى الثناء عليه. أما (هيل) فإنه حتى بعد ما رآه من انكسار كبرياء (ويدربيرن) اعتبر ذلك من الذكريات غير السعيدة بالنسبة له. وقد شعر (هيل) بازدياد ملحوظ فى طاقته فى البداية. ثم تحول ما شهده من ديمقراطية دفعته إلى الإفاضة فى أحاديث مجتمعية خافتة وانشغل (هيل) بعد ذلك بأبحاثه فى علم التشريح المقارن بكل كفاءة ونشاط كما استمر فى دراسته فى علم الجمال. ولكن على الرغم من كل هذا. فإن الصورة التى ما زالت تدور فى مخيلته وتؤرق ذهنه هى صورة لشخص حقير يقوم بتحريك الشريحة الزجاجية.

حقًا.. لم يتسن لأى مخلوق أن يرى ما صدر منه وما اعتبره جرمًا وكان على تمام الثقة من أن أحدًا من أساتذته قد رآه. ولكن

كان هذا بالفعل ما يجعله فى حالة دائمة من التوتر العصبى. وليست الذكريات بالشىء الملموس أنها تؤلم وتلقى بظلالها على جميع ما يفعله المرء فى حياته فتصيبه بالخزى والعار على مدى حياته. وقد وصل به الحال أن الأمر قد اختلط عليه فلربما قد أقنع نفسه بأن رفع الشريحة كان بالمصادفة إلا أنه كان يعود فيتهم نفسه بأن الأمر لم يكن كذلك فهو قد فعله عن عمد وإصرار. وهكذا عاش (هيل) أيامه وهو يتألم وهو لا يجد إجابة على سؤاله المحير هل الأمر كان باختيار أو كان رغمًا عنه؟. وكان (هيل) يتناول إفطاره فى عجل، أما غداؤه فكان عبارة عن فطيرة من الخبز ثم بعد الساعة الخامسة إذا ما كان ذلك متاحًا كان يتناول قطعة من اللحم فى أحد المطاعم فى أحد الشوارع الخلفية المتفرعة من (برومبتون رود)، أو كان من آن لآخر يعوّد نفسه على تناول وجبات يتراوح سعرها بين ثلاثة وتسعة بنسات والتى كانت تشتمل على بطاطس مطبوخة أو شرائح اللحم.

ومما لا شك فيه أنه كان هناك شعور بالذنب ينتاب (هيل) من وقت لآخر - فيعتريه الشعور بالدونية وإن كان ذلك قد أصبح بالنسبة له يعتبر شيئًا نادرًا. ولكن بعيدًا عن تأثير ما حدث على مشاعره فإن (هيل) كان لديه ميل واضح للزيف والهرطقة قد رسَّخَهما فيه والده إسكافى مدينة (لاندبورت) منذ نعومة أظفاره. وقد كان (هيل) دائمًا يقول بأن الأخلاق المكتسبة بالتعليم قد تكون عبارة عن أكاذيب تدعو إليها المؤسسات الدينية والمتحدثون باسم الدين وهؤلاء المضللون المخادعون ولكن على الرغم من ذلك فإن هذه الأخلاقيات يتم إرساؤها.. ولكن بصعوبة. وإذا لم يكن الأمر

كذلك وكانت لديهم فكرة وضع حل وسط لكان لهم أن يصلوا إلى مرتبة رجال الكنيسة ذوى الأفكار التحررية. وأكثر من هذا فإن ما يتواتر على ذاكرته من آن لآخر قد أفسد نظرته تجاه الآنسة (هيزمان) ولأنها أصبحت تفضله عن (ويدربيرن) فقد تأكد من أنه قد أصبح يميل إليها ويهتم بشئونها ومشاعرها فأصبح يبادلها مشاعرها ولكن بطريقة تخلو من الرقة. وأحيانًا كان يحضر معه باقة من أزهار البنفسج الذابلة كما لو كان قد اشتراها من مخزن للحديد! ويقدمها لها بطريقة متلعثمة كما أن ذلك كان يفسد عليه متعة الاحتفاظ بالمال الذى كان متعته الوحيدة فى الحياة، وفى نهاية الأمر أفسدت عليه لذة انتصاره على (ويدربيرن). فيما ماضى كان (هيل) يشعر بأنه أعلى شأنًا من (ويدربيرن) فى عينيها، وكان يغضب بسرعة عند شعوره بالرغبة فى الاعتراف بما حدث. وأصبح ينتابه شعور بالحقد اللاانتهائى. وقد تخيل (هيل) أنه قد وجد ضالته فيما وصل إليه من مكانة فى موسوعة (براوننج) ولكن هذا الأمر قد انتهى عندما تناول نفسه بالتحليل. وقد وصل به الحال - نفس القوة الدافعة والنابعة من عدم أمانته - إلى أن يذهب إلى البروفيسور (بيندون) وأدلى باعتراف صريح بكل ما حدث ولأن (هيل) كان طالبًا منتسبًا فلم يطلب منه البروفيسور (بيندون) الجلوس، وذلك عندما كان واقفًا قبالة مكتبه فى أثناء إدلائه باعترافه.

عندئذ قال البروفيسور (بيندون) "إنها لقصة مثيرة" ثم بدأ هذا الاعتراف يثير غضبه فاستمر قائلاً "إنها قصة متميزة حقًا.. فأنا لا أصدق أن تكون قد فعلت ذلك عمدًا. ولا أصدق ما أدليت به من

اعتراف. إنك نموذج لطلبة كمبردج الذين ليس لهم أن يتخيلوا (يحلموا). وعلى افتراض أننى أصدق ذلك فما الذى دفعك إلى أن تغش؟".

فرد (هيل): "أنا لم أفعل ذلك البتة".

فأجاب (بيندون): "ولكنك اعترفت فعلاً".

فرد (هيل): "لقد اعتقدت أننى قد شرحت لك........".

فأجاب (بيندون): "إما أن تكون قد قمت بالغش أو لم تفعل ليس هناك أمر وسط".

فرد (هيل): "لقد كنت أتصور أن الأمر خارج عن إرادتى".

فرد (بيندون): "أنا لست عالمًا بالأمور الروحانية - إننى خادم للعلم كما تعرف. أما وقد حذروك من عدم تحريك الشريحة. وقمت بمخالفة ذلك. فإن لم يكن هذا غشًا. فماذا يكون؟".

فرد (هيل): "إننى لو كنت مخادعًا. هل كان لى أن آتى إليك وأعترف لك بكل ما حدث".

فرد (بيندون): "إن ما تفعله الآن هو توبة عما فعلت ولكن هل يغير ذلك من الحقيقة فى شىء؟".

فقال (هيل): "لا يا سيدى".

فرد (بيندون): "حتى ولو أردنا تدارك ما حدث فإن ذلك سوف يسبب الكثير من المتاعب فإن قائمة الامتحان لا بد أن تراجع".

"افترض ذلك يا سيدى".

"تفترض ذلك؟ إن هذا ما سيتم بالفعل ولا أستطيع وأنا أخالف ضميرى بأن أجعلك تجتاز هذا الامتحان".

"لا أجتاز الامتحان، هل تريدنى أن أرسب؟".

"إن هذه هى لائحة جميع الامتحانات. ما الذى تتوقعه منا بالضبط؟.. إنك لا تريد أن تتحمل نتيجة أفعالك".

"أعتقد.. أنه ربما".. ثم أردف قائلاً: "هل تريد أن تجعلنى أرسب. لقد اعتقدت وأنا أعترف لك أن كل ما ستفعله هو أن تقلل درجاتى بسبب هذه المذلة".

"مستحيل.. فإن ذلك سوف يبقيك فى ترتيب أعلى من (ويدربيرن)".

"أتعتقد أننى سأخفض الدرجات فقط.. هذا هراء.. فإن لوائح الجامعة تقضى بكل وضوح بأن......

"ولكن هذا محض اعتراف منى يا سيدى".

"إن اللوائح لم تشر إلى الطريقة التى تم اكتشاف الحقيقة من خلالها فهى تحكم فقط بأن....".

"إن هذا سوف يدمرنى. فإذا ما فشلت فى هذا الامتحان فإنه لن يجددوا قيدى بصفتى طالبًا وأُحرم من المنحة".

"لابد وأنك قد فكرت فى هذا الأمر من قبل".

"ولكن يا سيدى انظر بعين الرحمة إلى ظروفى".

"إننى لا أستطيع أن أضع فى اعتبارى أى شىء آخر.. فإن الأساتذة فى هذه الجامعة يعملون كالآلات. كما أن لوائحنا لن

تسمح لنا حتى أن نزكى الطلبة للتعيين فى المناصب.. أى أننى أعتبر نفسى آلة. وقد قمت أنت بتشغيلها.. ومن ثم ينبغى علىّ أن....".

"إن هذا الأمر صعب جدًا بالنسبة لى يا سيدى".

"من المحتمل أن يكون كذلك".

"إننى لو فشلت فى الامتحان فسوف يطردونى شر طردة".

"إن الأمر فعلاً كما تعتقد". وبدأ صوت (بيندون) يميل إلى الحنو قليلاً فقد بدا له أنه قد يكون بهذه العقوبة غير عادل - ثم قال لـ (هيل) "لأنك شخص من نوع خاص. فإننى أعتقد أن اعترافك هذا يخفف من ذنبك. ولكنك باعترافك هذا قد شغلت الآلة كما أخبرتك ولا بد أن تمضى إلى سبيلها.. وأنا آسف.. لطردك....".

أصاب (هيل) الوجوم فلم يُعر (بيندون) إجابة. وفجأة تقافز إلى ذهنه صورة أبيه الإسكافى العجوز الذى حفر الزمان خطوطه فى وجهه وقال: "يا الله.. إننى كنت فى غاية الحمق".

فقال (بيندون) "عساك تكون قد تعلمت من هذا الدرس".

إلا أنه لم يدر بخلد (بيندون) حينذاك مدى الشعور بالذل الذى اعترى (هيل).

وكانت هناك لحظة صمت.

ثم قال (هيل) "سيدى ! أريد أن تمهلنى يومًا لكى أفكر ثم أدعك تعرف بما استقر عليه رأيى".. ثم اتجه إلى الباب. فى اليوم التالى كان مكان (هيل) شاغرًا. وقد تناولت هذه الملاحظة الفتاة التى

كانت ترتدى الزى الأخضر والنظارة الطبية فى هذا الوقت كان (ويدربيرن) والآنسة (هيزمان) يتجاذبان أطراف الحديث حول العرض المسرحى المسمى بـ "رعاة الشعر والموسيقى"(٧).

قالت (هيزمان): "هل سمعت؟".

قال (ويدربيرن): "سمعت بماذا؟".

"لقد كان هناك غش فى الامتحان".

"غش!" ثم قال (ويدربيرن) وقد احمر وجهه فجأة "كيف".

"هذه الشريحة الزجاجية".

"هل تحركت.. هذا لم يحدث أبدًا".

"لقد حدث بالفعل.. على الرغم من أننا كنا يحظر علينا ذلك".

"هذا هراء!.. لماذا؟ كيف استطاعوا أن يكتشفوا؟ من المتهم؟".

"إنه (هيل)".

"(هيل)؟!!".

ثم قال: "لا يمكن أن يكون (هيل).

قالت (هيزمان): "وأنا أيضًا لا أصدق ذلك".

وتوجهت بحديثها إلى الفتاة ذات الرداء الأخضر "كيف عرفت"؟ فقالت الفتاة "لم أعرف ولكن أعرف أن ذلك ما هو ما تتناقله

---

(٧) أفراد نقابة من النقابات الألمانية كان اهتمامها ينصب على رعاية الشعر والموسيقى، فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (المترجم).

الألسنة فهم يزعمون أن (هيل) قد اعترف للبروفيسور (بيندون) بنفسه".

قال (ويدربيرن) "ولكننى لا أثق فى هؤلاء الأساتذة ومبادئهم".

قالت (هيزمان) "هل أنت متأكدة تمامًا؟".

الفتاة "إنه أمر مخزٍ حقًا. أليس كذلك؟ ولكن ماذا تتوقعين من امرئ أبوه إسكافى؟".

فاجأت (هيزمان) الفتاة بقولها: "إن هذا الأمر لا يعنينى. لن أصدق أن (هيل) يفعل ذلك". وتوردت وجنتاها من الغضب "إننى لن أصدق ذلك إلى أن يعترف لى بنفسه وجهًا لوجه، كما أننى حتى وإن اعترف قد لا أصدق ذلك". ثم أدارت ظهرها للفتاة وانصرفت إلى مكانها.

قالت الفتاة : "والله إن هذا صحيح. كل ما قلته حقيقى". وهى تنظر بابتسامة إلى (ويدربيرن).

ولكن (ويدربيرن) لم يرد عليها فقد كان بالفعل من الناس الذين لا يمكن أن تتوقع ماذا سيكون رد فعلهم.

التوافـق

لم يكد (تـمبل) يمضى خمس دقائق مع (فـيندلى) حتى شعر بمنغصاته القديمة وذكرى ذلك الخطأ الذى لا يُنسى وهى تعود بقوة وتطفو على السطح من جديد.. ولكن تحت وطأة تصميمه الحازم الذى لا يزال متصفًا به، لم يلبث أن ظل متمسكًا بمظهر الرجل القوى الهادئ الذى يعجب (فيندلى) كثيرًا. وتحدثا عن هذا وذاك متوخيى الحذر من فتح باب الحديث عن الانفعال. وتحدث أولاً (تـمبل) عن رحلاته، ووقف بين خزانة المعادن والمدفأة.. وقدح الويسكى الخاص به فوق رف المدفأة.. فى حين جلس (فيندلى) على مقعده الذى سحبه إلى الخلف بعيدًا عن مكتبه الذى تتبعثر فوقه مجموعة من جماجم القنافذ الصغيرة والفئران التى كان يجرى التجارب عليها.

وقع بصر (تمبل) عليه.. وبسرعة تحول ذهنه عن موضوع غرب أفريقيا.. وقال (تمبل): "وأنت.. حين كنت أفكر اعتقدت أنك كنت فى عالم آخر.. أليس كذلك؟".. فقال (فيندلى): "نعم.. كنت أدوّر موضوعًا ما فى ذهنى".

- "بالطبع موضوع الجمعية الملكية والشهرة وكل الأشياء التى طالما حلمنا بها.. ترى كم مضى من الزمن؟".

- "خمس سنوات.. منذ أيام الكلية".

جال (تمبل) ببصره فى أرجاء الغرفة، واستقر بصره للحظة على جسم مدوَّر رمادى داكن يقبع فى ركن الحجرة بجوار الباب.. ثم قال: "نفس الكتب الكبيرة الضخمة.. بل والكثير منها.. التى لها نفس رائحة العظام النخرة والتشريح - هل هى نفس الكتب؟ - إن الشهرة حلم حياتك؟".

قال (فيندلى): "الشهرة.. إنها بصعوبة الشهرة.. الناس فى الخارج يقولون: "العظمة فى التشريح المقارن".

- "العظمة فى التشريح المقارن.. لا زواج.. لا طمع".

قال (فيندلى) وهو يرمقه شذرًا: "لا شىء من ذلك".

- أعتقد أن هذه أفضل طريقة للحياة.. لكن هذا ليس نفس الشىء بالنسبة لى.. الإثارة - لكن أرى أن.... ".. ثم وقع بصره على ذلك الشىء الرمادى الداكن الذى يشبه الفطر وواصل: "إن هناك حدًا لمادية العلم.. وأنت لا يجب أن تفتح ذهنك لأية أفكار يتكلم بها الناس".

وبينما هو يتكلم، عبر الغرفة والتقط اللفافة.. وقال (فيندلى): "أفكار الناس!.. ياللعجب!. إن الرجل حى.. وهذه ليست أفكارًا للناس.. ولكن أين علمك يا رجل؟".

قال (تمبل) وهو يحمل الجسم فى يده ويعود إلى وضعه السابق

ويفحصه بفضول شديد: "لكن ما هذا بحق الشيطان؟".. فقال (فيندلى): "ألا تعرف؟".

كان ذلك الشىء يبلغ نحو ثلاثة أمثال حجم يد الإنسان.. مثل عظمة سميكة فى حجم جيب الساعة.. وضحك (فيندلى) ضحكة جذلة وقال: "إن ذاكرتك أصبحت ضعيفة.. إنها عظمة أذن الحوت".

قال (تمبل) وقد أصابته حالة من اللامبالاة: "بالطبع يا عزيزى.. إنها عظمة أذن الحوت.. لقد نسيت العديد من تلك الأشياء".

استدار نصفيًا ووضع ذلك الشىء على قمة الخزانة بجانب قطعتى الدمبل[1] الحديديتين اللتين يتمرن بهما (فيندلى) وقال وهو يعود إلى الاقتراح الطريف الذى طرحه (فيندل): "إننى فى خدمتك.. ولكننى خائف.. فلربما كنت عجوزًا جدًا بالنسبة لشىء كهذا.. فأنا لم أجرب شيئًا مثله منذ وقت طويل جدًا".

قال (فيندلى): "ولكننا نجتمع يا رجل لكى نحتفل بذكرى شبابنا".

قال (تمبل): "وأيضًا لكى ندفن أيام رجولتنا الأولى.. حسنٌ، حسنٌ.. لنذهب الآن إلى قاعة الاحتفالات، طالما أنك تريد ذلك.. إن هذا شىء عادى ومناسب.. ونحن لا نريد أية قضايا مأساوية".

عندما رجع الرجلان إلى غرفة مكتب (فيندلى)، كانت ساعة الحائط الصغيرة الموضوعة على رف المدفأة تشير وسط الظلام

---

(١) ثقل يكون من قضيب قصير مع كرة أو قرص فى كل طرف ويرفع، وسيلةً لتقوية العضلات (المترجم).

إلى الواحدة والنصف. فبعد الرحيل، أصبحت الغرفة البنية اللون بكتبها وعظامها مضطربة ومبعثرة، فيما عدا الزيارتين اللتين يقوم بهما خادم (فيندلى) الأمين لها.. حيث يعتنى بالمدفأة ويجهز أخشابها، ويجذب مصاريع النوافذ إلى أسفل ويقفل الستائر.. لم يكن يُسمع وسط الظلام الدامس سوى دقات تلك الساعة.. ومن وقت لآخر تتقد نيران المدفأة وتتأجج.. مرسلة انعكاسات حمراء بلون الدم تطارد الظلال عبر السقف.. وتظهر بشكل شبحى عابرة بعض المجموعات الغريبة من عظام الحيوانات وجماجمها على الأرفف.. وأخيرًا قطع هذا الهدوء والسكون صوت فك ترباس وزحزحة باب الشارع الثقيل وقفله بعنف.. ثم صوت وقع أقدام مضطربة تقترب على طول الممر. ثم فُتح الباب ودخل الرجلان وسط حرارة نيران المدفأة وضيائها.

دخل (تمبل) أولاً.. بوجهه الأسمر المتوهج بالحمرة من جراء الشراب وسترته مفتوحة الأزرار ويداه متداخلتان فى جيبى سرواله.. ومنذ وقت طويل أخذ يحتفل بعيد الميلاد بالانغماس فى شرب الخمر.. ووجد نفسه مرتبكًا قليلاً وهو بصحبة (فيندلى).. وتركز عقله المشوش على الذكريات الماضية فى غير وقتها.. وتقدم مباشرة إلى النار ووقف بجوارها.. أشبه ما يكون بشبح أسود يحدق إلى أسفل فى وهج أحمر.. ثم قال: "ومع ذلك فما أحمقنا أن نتعارك.. ما أحمقنا أن نتجادل فى أمر صغير كهذا.. نعم نحن حمقى وأغبياء!".

ذهب (فيندلى) إلى طاولة الكتابة وتحسس سطحها بحثًا عن عيدان الثقاب بيدين مرتعدتين.. وقال: "إنه لم يكن خطئى".. فقال

(تمبل): "إنه لم يكن خطأك.. إنك لم ترتكب خطأ قط.. إنك دائمًا على صواب.. فأنت رجل الصواب.. أو فلنقل (فيندلى) المحق دائمًا".

تركز اهتمام (فيندلى) على المصباح.. كانت يداه ترتعدان.. ووجد بعض الصعوبة فى رفع فتيلى المصباح.. إذ كان أحدهما "قافشًا" والآخر يتوهج بضوء باهر.. وعندما تمكن فى النهاية من إضاءته ورفع الفتيلين اقترب من (تمبل) وقال له: "اخلع سترتك أيها العجوز وتناول المزيد من الويسكى.. وتخيل أنك ترقص مع فتاة صغيرة ساحرة رقصة مرحة".

قال (تمبل) ببطء "نحن أحمقان إذ نتعارك".. ثم انتبه على كلمات (فيندلى) وأردف: "هيه.. ماذا قلت؟".

قال (فيندلى) وهو ينقل الطبق المعدنى الصغير ويخرج السجائر والشفاطات والويسكى: "هذا المصباح يصدر ضوءًا خافتًا لعينًا.. لكنه كل المتوفر لى.. هناك مشكلة فى الزيت.. لكن ألم تلاحظ المراوغة فى تلك الحياة الداهية؟".

ظل (تمبل) منتصبًا ومتجهمًا ومحدقًا فى النار.. ثم قال: "نحن أحمقان إذ نتعارك".. الآن أصبح (فيندلى) نصف ثمل وبدأت قدراته الذهنية تتهاوى.. أما (تمبل) فكان يعاقر الخمر بشدة والآن وصل إلى حالة غريبة من الهذيان.. وقال فجأة: "لا توجد امرأة تستحق صداقة الرجل لها".. ثم تهاوى فى مقعد مريح وصب لنفسه بعض الويسكى ورشف جرعة منه.. فكرة الصداقة هذه استحوذت عليه.. وأخذ يتذكر أيام الدراسة ومغامرات الطلبة.. وظل يردد

عبارة "هل تتذكر هذا"، و"هل تتذكر ذاك".. وفى النهاية أصبح سعيدًا ومرحًا مرة أخرى.

وقال (فيندلى) وهو يصب الويسكى فى كأس (تمبل): "كانت تلك أيامًا رائعة فعلاً.. لكن (تمبل) فاجأه بالعودة مرة أخرى إلى الجدال الشرس، حيث قال: "لا توجد امرأة فى العالم تستحق.. نعم، اللعنة عليهن جميعًا!".

وبدأ يضحك ببلاهة.. ثم قال: "على أية حال.. ففى النهاية .."— فقال (فيندلى): "أوه.. اللعنة!".

قال (تمبل): "لا توجد مشكلة بالنسبة لك عندما تسب وتلعن.. لكنك نسيت كل شىء عنى.. إذ علىّ أن آخذ مكانك فى السب واللعن.. ليتك تركت الأشياء تسير كما هى...".

قال (فيندلى): "لقد اعتقدت أن الجميع نسوا كلمة السر".. فحدق (تمبل) فى النيران برهة ثم قال:"لا عليك".. ثم فى صحوة عودته إلى الوعى من جديد قال: "(فيندلى).. لقد بدأت أصبح ثملاً".

- "لا عليك يا رجل.. لا تقل مثل هذا الهراء.. وتناول المزيد من الويسكى وسوف تشعر بأنك أحسن حالاً".

قام (تمبل) من مقعده كرجل استيقظ لتوه من النوم وقال: "لا يوجد سبب لكى أصبح ثملاً، لأن...".

قال (فيندلى): "اشرب يا رجل".. وانس كل هذا الهراء"..

- "اللعنة!.. أريد أن أغطس رأسى فى الماء.. أريد أن أفكر.. وما الذى أفعله هنا بحق الشيطان.. ومعك أنت من دون الناس جميعًا؟".

ـ هراء!.. تكلم وانس كل هذا اللغو، إذا كنت لا تريد أن تشرب.. هل تذكر (جاسون) العجوز وقفازى الملاكمة؟ إننى أتساءل ما إذا كان بوسعك أن.................

وقف (تمبل) وظهره تجاه النار، وعقله يلف من فرط الشراب.. ثم عادت إليه الكراهية القديمة لـ (فيندلى) فى شكل ثورة عارمة.. وأخذ يقدح زناد فكره باحثًا عن أى كلمات قاسية يقولها.. وأخذ وجهه يزداد عبوسًا. وبدأ (فيندلى) يشعر بأن هناك أزمة وشيكة ستحدق به وأخذ يسب ويلعن بصوت هامس.. وزادت صعوبة تظاهره بالبهجة وقيامه بدور المعزّى المتحمس.. لكن ترى ماذا كان عساه يفعل سوى ذلك؟

ـ نعم، (جاسون) العجوز.. كان ممتلئًا بالعلم ولكن بطيئًا كالفيل!.. لكنه جعلنا نحن الاثنين ملاكمين.. هل تتذكر شجارنا فى ذلك المكان فى شارع (جوير)؟".

دفع (فيندلى) كرسيه جانبًا.. وخطا إلى منتصف الحجرة.. لكى يعبر عن حيويته البريئة وخلوه من أى هاجس مسيطر عليه.. وهناك بدأ يقلد (جاسون) ويقوم بحركات ساخرة متعددة تقليدًا لتعليمات الملاكم المحترف العجوز.. والتقط قفازى الملاكمة من على الرف ولبسهما فى يديه.. فى حين جثم (تمبل) هناك وهو يكاد ينفجر.. حيث إن ذلك كان أكثر مما يمكن لأعصابه أن تتحمله.. وشعر بأن أسلوبه الشجاع كان خطأ.. لكن عليه أن يستمر فى ذلك حتى النهاية.

ـ "لا تقف مكتئبًا هكذا يا رجل.. إنك فى نفس الحالة التى يبدو فيها العالم حالك السواد من حولنا.. اشرب يا رجل وابتهج مرة

أخرى.. لا توجد امرأة فى العالم تستحق صداقة الرجل.. هذا لا شك فيه.. تعال لكى نتعارك قليلاً بهذين القفازين.. لا يوجد شىء ينشط الدورة الدموية ويرفع من الروح المعنوية مثل هذا".

قال (تمبل) بشكل شبه آلى: "لا بأس.. لا بأس.. لكن أين القفازان الآخران؟"

- هناك فى الركن.. فوق الخزانة المعدنية.. يا إلهى..!.. إن هذا يا (تمبل) يشبه الأيام الخوالى تمامًا!".

ذهب (تمبل) وجسده يرتعد بشدة إلى الركن.. كان يريد أن يهزم (فيندلى) ويلقنه درسًا.. ورغم خفة وزنه فقد كان يعرف أن بمقدوره تحقيق ذلك.. لكن ذلك بدا صبيانيًا وغير كاف إلى درجة الحماقة، لأن الخطأ الذى ارتكبه (فيندلى) فى حقه كان فظيعًا.. وضع يده على شىء ما فى الظلام، ولمس عظمة أذن الحوت.. وشعر بإغراء هائل لم يستطع مقاومته.. فأدخل يده اليسرى فى قفاز الملاكمة.. ثم دفع أصابع يده اليمنى فى داخل تجويف عظمة أذن الحوت، واتسعت العظمة لكل أصابعه وغطت مفصلاته وظهر يده.. والغريب أنها كانت تشبه قفاز ملاكمة دون إبهام بشكل غريب.. كان يشبه تمامًا الجزء المبطن من قفاز الملاكمة.. وارتفعت روحه المعنوية، فجأة عندما فكر فى النتيجة الوحشية المحتملة. لكنه لم يكن ليعرف أبدًا قدر وحشيتها.. وإبان ذلك قام (فيندلى) برشاقة وعصبية بنقل المصباح إلى الركن خلف الكرسى ذى المسندين.. ثم دفع مكتبه إلى أسفل النافذة.

قال (فيندلى): "هيا يا رجل".. وبسرعة استدار (تمبل) تجاهه.

نظر (فيندلى) مباشرة فى عينى (تمبل).. وأخذ وضع الاستعداد ويداه نصف مفتوحتين.. ولم ينتبه إلى بديل القفاز الذى يرتديه (تمبل) فى يده اليمنى.. وكان الرجلان قد شربا كثيرًا بحيث ضعفت قوة الملاحظة لدى كليهما.. ووقفا لبرهة يحدقان بعضهما فى بعض.. المضيف يبتسم وضيفه يبتسم كذلك، ولكن وهو يسن أسنانه كالذئب الذى يوشك أن ينقض على فريسته.. شبحان معتمان يتأرجحان يمنة ويسرة فى ضوء نيران المدفأة وضوء المصباح الخافت.. ثم وجه (فيندلى) لكمة على وجه خصمه بيده اليسرى.. وفى الحال انحرف (تمبل) قليلاً إلى اليسار، وكال بدوره ضربة وحشية على كتف (فيندلى) عند صدغه بقبضته المغطاة بالعظمة.. وكانت تلك الضربة بقوة هائلة لدرجة أنها أطاحت بـ (فيندلى) إلى الجانب وهو يترنح ويدور.. وتملؤه الدهشة ويكاد أن يصعق.. لقد أصاب ذلك الشىء أذنه وجانب وجهه الذى ابيض لونه فى الحال من قوة الضربة.. وقاوم بشدة حتى لا يهوى أرضًا.. وبينما هو يحاول استعادة توازنه عاجله (تمبل) بلكمة يمينية فى صدره أطاحت به لكى يلف ويدور ثم يسقط أسفل خزانة السجائر.

اتسعت حدقتا عينى (فيندلى) من فرط الدهشة.. كان (تمبل) أخف وزنًا بحوالى ستة كيلو جرامات أو أكثر قليلاً.. ولم يع كيف يمكن أن يسقطه بسهولة هكذا.. كما أنه لم يكن ثملاً تمامًا، رغم أن الضربة أصابته بتبلد الحس لدرجة أنه لم يلاحظ الدم وهو يسيل على خده من أذنه.. وضحك ضحكة مصطنعة.. ثم تشبث بخزانة السجائر لكى يقف على قدميه حتى إنه كاد أن يقلب

الخزانة رأسًا على عقب ورفع يده لا إراديًا وبدا كما لو أنه يريد أن يقول شيئًا.. فى الوقت الذى وجه إليه (تمبل) ضربة مخادعة باليد اليسرى.

كان (فيندلى) ملاكمًا بارعًا.. لذا توقع ضربة أخرى باليد اليمنى على أذنه.. فضرب بقوة بيده اليمنى هو نفسه فى وجه (تمبل).. ورمى بكل وزنه على تلك الضربة.. ثم تحرك بسرعة ليتفادى رد (تمبل) .. والنتيجة أن شفة (تمبل) العليا قطعت من ارتطامها بأسنانه.. وتمكنت رائحة الدم وطعمه فى فمه وكذا تقاطر الدم على وجنة (فيندلى) من تبديد كل آثار الفتور الذى لف جسده من جراء الخمر التى شربها.. وفى نفس الوقت محا من عقله كل ما تعلمه من قبل.. لم يبق لديه سوى الحيوان الشرس الكامن داخله.. المخلوق اللعين الذى يتعطش لطعم الدم. وصاح صيحة نصف وحشية وألقى بنفسه على (فيندلى) وهو يثب إلى الخلف.. وبضربة خطافية مباغتة بذراعه اليمنى تمكن من تحطيم دفاعات خصمه.. وكسر ذراع (فيندلى) فوق المعصم مباشرة.. ثم أتبعها بثلاث ضربات سريعة من عظمة الحوت على الوجه.. وأطلق (فيندلى) صيحة تعجب، كان يعدها جبنًا من قبل، ثم لم يلبث أن تهاوى على الأرض كثور سقط فى الحلبة.. وعندما سقط، رمى (تمبل) نفسه على مقدمة جسمه ثم علا صوت تحطم المصباح الذى سقط بدوره هو الآخر!

انطفأ المصباح عندما وقع، وترك الغرفة بلونى الأحمر والأسود.. وضرب (فيندلى) بقوة فى أضلاع صدر (تمبل) .

أما الأخير فقد ثبت مرفقه اليسرى على عنق (فيندلى)، ثم لوى ذراعه اليمنى.. وضربه على وجهه ضربة هائلة كالمطرقة.. ثم ثانية.. وثالثة.. حتى توقف الجسد الذى تحت ركبتيه عن الحركة.

ثم بسرعة فارقته نوبة الخبل المؤقت التى سيطرت عليه إثر سماعه لصوت امرأة وهى تصرخ بحيث ملأ صراخها الغرفة.. ونظر إلى أعلى وجثم بلا حراك وهو يسمع صوت باب غرفة المكتب وهو يقفل.. ثم أصوات وقع أقدام تعدو مسرعة ثم وقف على قدميه، وهو يترنح، ووقف على جسد (فيندلى) فى ضوء النيران التى تخبو، كرجل استيقظ من كابوس فظيع.. وعلى الفور أدرك أن يده داخل عظمة أذن الحوت المغطاة بالدم والشعر.. وبدأ يعى ما حدث بالضبط.. وفى نوبة من الذعر المفاجئ الذى تملكه، أطاح بالعظمة بعيداً عن يده. ووقعت العظمة على الأرض بجوار خزانة السجائر.. ثم تدحرجت لنحو متر بامتداد حافتها السفلى، ثم استقرت فى الوضع الذى كانت عليه عندما رآها لأول مرة.. ولكن لدهشة (تمبل) الفائقة، فقد بدا له أنها قبعت فى نفس المكان بالضبط.. وأنها السبب الوحيد والكافى لموت (فيندلى) وموته هو نفسه أيضاً.

طائرتى الأولى

طائرتى الأولى!.. يا لها من ذكريات الشباب الرائعة التى يستدعيها ذلك الموضوع إلى ذاكرتى!..

كان ذلك فى ربيع عام ١٩١٢، حين حصلت على "عصفورتى الضخمة".. كما كان يحلو لى أن أسميها.. وكنت وقتئذ شابًا نحيفًا فى الرابعة والعشرين من عمرى.. وشعرى الأشقر الجميل ينساب فوق جبينى الغض المغامر.. وفى الحقيقة كنت شابًا مندفعًا جدًا، على الرغم مما كنت أعانيه من بعض الضعف فى بصرى مما اضطرنى للبس نظارة فوق أنفى البارز المعقوف.. وأنفى هذا لم يكن ذا شكل سيئ للغاية، كما أنه يشبه أنف الطيارين..

وكنت بارعًا فى العدو والسباحة.. ونباتيًا لا آكل اللحوم.. وأرتدى الملابس الصوفية.. كما كنت مدافعًا ونصيرًا لكل الأفكار المتطرفة فى كل نواحى الحياة.. ولم تكن هناك أنشطة تقريبًا لم أجربها.. فقد كان لدى دراجتان آليتان وصورة مكبرة لى فى هذا الزمن البعيد وأنا أرتدى قبعة جلدية ضيقة ونظارة شمس وقفازين.. وهذه الصورة ما زالت تزين مدفأة حجرة مكتبى..

وكذلك كنت بارعًا جدًا فى إطلاق الطائرات الورقية، ورئيسًا متطوعًا رفيع الشأن لأفراد الكشافة.. والحقيقة أنه منذ تلك البدايات المتواضعة فى الطيران، كنت شغوفًا جدًا بكل أنواع المغامرة والصراع وارتياد المجهول.

ذات يوم تضايقت من دموع أمى الأرملة وفقدت صبرى وقلت لها إننى لن أتحمل أكثر من ذلك.. وأردفت: "إذا لم أكن أول من يطير فى (مينتون شستر) فسوف أغادرها يا أمى.. إننى ابنك يا أمى، وأنا خُلقت هكذا!"..

وعندما وافقت أمى لم يمر سوى أسبوع واحد قبل أن أطلب شراء طائرة. ووجدت واحدة من قوائم الأسعار القديمة فى اليوم التالى فى أحد الأدراج.. وكانت أداة ميكانيكية غريبة ممتلئة بأشكال خشبية أغرب.. ما أجمل تلك الأوقات!.. وذلك العالم المرتاب وافق أخيرًا على فكرة تطييرها.. بخلاف الناس المهتمين بالسيارة وأولئك المولعين بالدراجة وغيرهم.. وتسابق الكثير من الشركات المجهولة فى صنع طائرات من كل حجم ونوع لمواجهة الطلبات الهائلة عليها.. وحصلت كل منها على أسعار مذهلة أيضًا وصلت إلى ٣٥٠ جنيهًا إنجليزيًا للطائرة الواحدة الرخيصة منها!.. وأنا وجدت فى قائمة الأسعار التى لدى بعضها بأسعار تبلغ ٤٥٠، ٥٠٠، ٥٥٠ جنيهًا إنجليزيًا.. وكثير منها قادر على الطيران كأشجار البلوط!.. وكانت تباع أيضًا دون أى ضمان لها ودون أدنى اعتذار لعدم وجود تعليمات للتشغيل الصحيح لها!.. وبعض شركات الطائرات الأولى دفعت حوالى ٢٠٠٪ من أسهمها العادية فى تلك السنوات الماضية..

لكم أتذكر جيداً تلك الأحلام والطموحات وأيضًا الشكوك والهواجس التى لازمتنى فى ذلك الوقت!.. وكانت الأحلام تنصب كلها عن غرائب الهواء.. وتخيلت نفسى وأنا أرتفع فى روعة ورشاقة من حظيرة منزل أمى لكى أسوى أطراف السور الشجرى.. ثم أدور فى دوائر لأعلى لكى أحلق فوق أشجار الكمثرى التى زرعها الكاهن.. ثم أبتعد ما بين برج الكنيسة وقمم أشجار الصفصاف.. متجهًا إلى سوق المدينة.. يا إلهى!.. كيف يمكن للناس أن يحدقوا فى السماء لكى يرونى!.. أعتقد أنهم سوف يقولون: "إنه ذلك الشاب (بتس) مرة أخرى.. كنا نعرف أنه سوف ينجح فى ذلك".

نعم، أحلّق فى دوائر.. وربما ألوح بمنديل للنظارة.. ثم أتوجه إلى حدائق (لوبتون) وبعدها إلى ساحة سير (ديجبى فوستر).. فهناك سوف يرانى مرتادو المعرض من النوافذ.. آه، ما أجمل الشباب وما أروعه!.. وكانت شكوكى تنصب على الطرازات التى سأختارها وخصائص المحركات التى سوف أستخدمها فى الطائرات..

أتذكر انقضاضى على دراجتى البخارية الصغيرة لكى أستقلها إلى لندن لكى أرى الطائرات وأقدم طلبًا لشراء واحدة منها.. فى يوم كانت فيه الشوارع ممتلئة بالطين.. وكنت أنتقل من محل إلى آخر، وسخطى يتزايد لسماع نفس الرد فى كل مكان.. "تم بيع كل الطائرات!.. غير مسئولين عن التسليم قبل أول أبريل"..

لست أنا من يقبل هذا!.. فأخيرًا حصلت على عصفورتى الضخمة فى محل صغير بشارع (بلاكفريارز).. حيث فوجئت الشركة الصانعة لها بموت مشتريها فى نفس يوم التسليم..

وبسرعة سحبت كل حسابى المصرفى المتواضع للحصول عليها.. وإلى يومنا هذا لم أبح لأحد بالمبلغ الذى دفعته فيها.. وفى خلال أسبوع كانت جاثمة فى حظيرة منزل أمى.. بعد أن تم نقلها وتجميعها بمعرفة اثنين من الميكانيكيين غير الأذكياء..

ما أجمل شعور المرء بامتلاك طائرة!.. وما أجمل المشاعر المقترنة بالمغامرة!.. وأنا لم أتلق أى تدريب، لأن كل المدربين المؤهلين كانوا محجوزين لشهور مقدمًا وبأجور خيالية.. لكن لم يكن من طبعى الركون إلى شىء كهذا!.. إذ لم يكن بمقدورى الانتظار ثلاثة أيام!.. وأكدت لأمى أننى تلقيت دروسًا كافية من أجل تطمينها وإراحتها فقط.. لأن الابن الذى لا يكذب لكى يريح والديه ويسعدهما هو ابن سيئ وعاق.. أليس كذلك؟

إننى أتذكر الآن العذاب والإثارة التى عانيت منهما وأنا أدور حول ذلك الشىء وهو يتخذ شكلاً موثوقًا به.. وإحساسى بوجود نصف أهل (مينتون شيشر) وهم يحدقون بى من وراء سور الأشجار ولا يمنعهم من الدخول سوى لوحة منع التعدى على الممتلكات الخاصة وكذا التعبير المزعج على وجه (سناب) البستانى الذى نثق به والذى كان يقص النجيل والأعشاب من جهة، ويقوم بدور الحارس ملوحًا بمنجله للمتطفلين من جهة أخرى..

أشعلت سيجارة وراقبت العمل برويّة.. وكلفنا رجلاً عجوزًا عاطلاً يدعى (سنورتيكومب) ليتولى الحراسة طوال الليل لحفظ الطائرة من اقتراب المتطفلين وعبثهم. ففى تلك الأيام يجب أن تفهم أن الطائرة كانت شيئًا عجيبًا.. أو لنقل رمزًا أو سحرًا يخلب الألباب..

كانت عصفورتى الضخمة شيئًا ساحرًا فى وقتها.. رغم أننى أعتقد أنها الآن سوف تقابل بالضحك والسخرية من كل تلميذ بالمدرسة.. فقد كانت طائرة أحادية السطح ذات محرك صغير وحذافة تدار بالمنافلة (يد تدوير المحرك)!.. وقضيت نحو ساعة فى تضبيطها وتليينها.. وكان ضجيجها يضج الآذان، مثل صوت المدفع الرشاش تقريبًا، وسرعان ما أرسل إلى القسيس ليبلغنى أن يكتب خطبة عن "السلام" وأنه غير قادر على التركيز فى الموضوع حتى أتوقف عما أفعله.. وبالطبع احترمت طلب القسيس.. وبعد صوت مدو آخر ونظرة أخيرة، انصرفت لكى أتمشى قليلاً فى المدينة..

على الرغم من كل محاولة للتواضع فإننى أشعر بأننى نجم ومحط أنظار الجميع.. ولقد نسيت تغيير قماطىّ ساقىّ والبنطلون القصير اللذين أحضرتهما لتلك المناسبة.. وكذلك كنت أرتدى قبعتى الجلدية ذات طيتين للأذنين مرتخيتين بحيث يمكننى أن أسمع ما يقوله الناس.. وأظن أن نصف السكان تحت سن ١٥ عامًا كانوا يطاردوننى قبل أن أصل إلى نصف المسافة فى الطريق السريع.

قال لى أحد الفتيان: "هل سوف تطير يا سيد (بتس)؟".. فقلت: "نعم، مثل الطائر بالضبط"..

وقال آخر: "أرجوك لا تطر قبل أن يخرج من المدرسة".

شهد ذلك المساء ما يشبه الموكب الملكى لى.. وبدأت بزيارة (لوبتون) العجوز، خبير البستنة، ولم يستطع أن يخفى انبهاره الشديد بما أقوم به.. وأخذنى إلى صوبته الزراعية الجديدة التى تبلغ مساحتها ثلاثة فدادين ومحاطة بالزجاج وأرانى كل أنواع

الأساليب البارعة التى يتبعها لتكثيف الزراعة.. ثم هبطنا إلى حديقة زهوره وشاهدنا النحل فى المنحل.. وعندما خرجت من عنده، كان موكب الأولاد ما زال واقفًا ينتظرنى بتصميم شديد.. ثم تجولت فى (بارامورز) وعرجت على محل (بول آند هورسيز) لتناول قدح من عصير الليمون..

كان الجميع يتحدثون عن طائرتى.. وتوقفوا جميعًا عن الحديث عندما دخلت.. ثم انطلقت أسئلتهم إلىّ كالرصاص.. ومن الغريب حقًا أن أتذكر الآن كل تلك الإثارة.. وأجبت عن الأسئلة التى كان يجب توجيهها إلى.. وامتنعت عن التحيز إلى أى جانب.. وبعد ذلك صحبتنى الآنسة (فليتمان) إلى غرفة الإعلانات التجارية، وقلَّبت لى صفحات من مختلف المجلات المصورة.. وقارنت بين الصور وبين التى الطائرة بأسلوب هادئ ومتواضع.. وشجعنى الجميع على إتمام مهمتى بنجاح.. وأنا أركز على ذلك لأننى اكتشفت بعد ذلك أن المد والجزر فى تأييد الناس أو تشجيعهم لك يعتبر أحد أهم الأشياء غير المنطقية والتى يصعب تفسيرها فى العالم..

وأتذكر بشكل خاص بائع الجبن العجوز وجزار الخنازير وهما يصيحان مرارًا وتكرارًا بلهجة تنم عن الرضى التام: "إنك لن تجد صعوبة قط فى الارتفاع فى السماء.. ويجب أن تكمل ما بدأته".. ثم أخذا يغمزان ويومئان رأسيهما إلى التجار البارزين الآخرين المحتشدين لمشاهدتى..

والحقيقة أننى لم أجد صعوبة فى الإقلاع.. فقد قامت عصفورتى الضخمة برفعى كما يجب.. وكان دوى محركها قد بدأ

بصعوبة قبل أن ترتفع عجلاتها عن الأرض.. ثم تأرجحت الطائرة وشقت طريقها بسرعة عبر المروج باتجاه السور الشجرى لمنزل القسيس.. والحقيقة أنها تدحرجت إلى الأمام مثل حركة امرأة بدينة ولكنها مرحة وسعيدة..

ولمحت بسرعة امرأة قصيرة وشجاعة هى أمى، وهى تحاول ألا تبكى وممتلئة بالفخر من أجلى.. كانت تقف فى الشرفة ومعها الخادمتان و(سناب) يقف بجوارهن.. وعندئذ كان على أن أوجه كل اهتمامى لعجلة القيادة إذا كنت لا أريد أن أقتحم بطائرتى أشجار الكمثرى التى يمتلكها القسيس..

وشعرت بقوة شد ضعيفة وأنا أقترب.. وتصورت أننى سمعت صوت خطبة مدوية على متطفلينا الجدد.. ورأيت حشدًا من الناس فى الطريق الضيق ويجرون هنا وهناك من جراء الضجيج العالى للطائرة وهى تقترب منهم.. لكننى لم أدرك إلا بعد انتهاء الطيران ما الذى كان الأحمق (سنورتيكومب) مشغولاً به.. ويبدو أنه اعتقد أن الطائرة تحتاج إلى تقييد أو ربط ـ وأنا لا أريد أن أتعمق هنا فى شرح الألغاز التى كمنت فى عقله وقتئذ ـ ولذلك قام بربط ١٢ مترًا من الحبال فى طرف كل جناح وثبت الحبلين بقوة فى عمودين من الحديد تابعين لشبكة بادمينتون.. والآن أدت قوة سحب العصفورة إلى اقتلاع العمودين اللذين يطيران الآن ويرقصان ورائى.. ويهجمان على كل شىء يعترض طريقهما.. وكان من حظ (تمبلكوم) العجوز البائس أن صادفهما فى الطريق الضيق، وعرفت فيما بعد أنه تلقى ضربة هائلة على رأسه.. ثم مزقتا تعريشة الخيار التى

جهزها القسيس.. وقتلنا ببغاءه وألقينا به إلى بعيد.. وحطمنا اللوح العلوى لنافذة حجرة مكتبه.. ثم تفاديتا بأعجوبة الخادمة وهى تخرج رأسها من نافذة المخدع العلوى.. وبالطبع لم أعرف شيئًا من ذلك فى وقته.. إذ كان كل ذلك يحدث فى مستوى منخفض تمامًا عن مستوى عملى فى الطائرة.. وكنت أنطلق بالطائرة بعد منزل القسيس، بعد أن تفاديته بصعوبة، وحاولت أن أدور لكى أسوى أشجار الكمثرى فى نهاية الحديقة ـ وهذا ما فعلته بكشطها بالطائرة ـ فى حين قامت الكتلتان اللتان تجرهما الطائرة ببعثرة الأوراق والأفرع هنا وهناك.. وحمدت الله على قوة محرك الطائرة المتين الذى كان يؤدى ما عليه.

بعد ذلك ارتفعت بالطائرة بعض الوقت.. ووجدت الأمر مربكًا أكثر مما توقعت.. فمن ناحية أصدر المحرك صريرًا مزعجًا.. ومن ناحية أخرى تحجرت عجلة القيادة فى يدى.. ولكننى تمكنت من التحليق فوق السوق بشكل جيد.. ثم حلقت فوق بائع الخضر (ستنت).. وأخذت "دلايتا" الطائرة تعبثان بمؤخرة محله وأحدثتا ضررًا بالغًا فى بلاطات سقفه وأثارت انهمار حطام أنبوب فضربت غازات المدخنة فى الشارع بأسفل.. ثم غطست الدلايتان، وأظن أن إحداهما حاولت أن تتشبث للحظة برافدات سقف (ستنت).. كما أننى قمت بمهمة صعبة فى تنظيف اسطبلات محل (بول آند هورسز).. لكننى فى الحقيقة لم أنظفها تمامًا.. لأن زلاجات الهبوط لامست أعلى السقف للحظة.. وانحنى الجناح الأيسر عندما ضغط على قمة مواسير المدخنة، واهتز فوقها بطريقة خطيرة ومرعبة..

قيل لى إن دلايتىَّ تأرجحتا فى منطقة السوق المزدحمة بشكل خطير جدًا وأنا أنخفض بالطائرة ثم أرتفع مرة أخرى.. لكننى أعتقد أن هذا الجزء من القصة مبالغ فيه كثيرًا.. إذ لم يُقتل أحد.. كما أنه لم يمض أكثر من نصف دقيقة منذ اللحظة التى حلقت فيها فوق (ستنت) إلى الوقت الذى مرقت فيه من فوق سقف الإصطبل ثم مررت من بين صوبات (لوبتون) الزجاجية.. ولو كان الناس اهتموا بما يكفى بأنفسهم بدلاً من التحديق ببلاهة فى طائرتى، لما أصيب أحدهم بضرر.. كان أمامى الكثير لكى أعمله دون أن أشير إلى الناس بأنه من المحتمل أن يتعرضوا للإصابة من إحدى دلايتى طائرتى اللتين رآهما الجميع يتبعانى أينما ذهبت.. ولو كان أحد يجب أن يحذرهم، لكان (سنورتيكومب) الأحمق.. والحقيقة أنه رغم الضرر الجسيم الذى أصاب الجناح الأيسر واختلال أحد أسطوانات المحرك بحيث أصدرت أصواتًا مريبة وخطيرة، فقد كنت مشغولاً جدًا فى عملية القيادة لطائرتى الخاصة والتحليق بها فوق المدينة.

وأعتقد أننى يجب أن أعترف بمسئوليتى تجاه إسقاط (دونى) العجوز من باص المحطة.. لكننى لا أعتقد أننى مسئول عما حدث بعد ذلك للباص، والذى انتهى بعد فترة إلى اقتحام نافذة محل بائع الجبن بين أكشاك السوق.. ولا أرى أننى مسئول كذلك عن اختيار حشد غير منظم من الناس لأن يفر مذعورًا عبر مجموعة من الأوانى الفخارية المنتشرة بغير انتظام وأنا لم أصطدم بصوبة (لوبتون) الزجاجية ولم أحلق فوقها مباشرة.. وأعتقد أن كلمة "انحراف" تصف مرورى عبر ممتلكاته، مثلها مثل أى كلمة!.. وكان

أغرب إحساس لازمنى وأنا على متن ذلك الشىء الضخم العائم فى الهواء الذى أصبح، إذا جاز التعبير، جزءًا منى.. هو شعورى بالارتفاع ثم الهبوط على التوالى.. مع انقضاض على سطح الصوبة الزجاجية، رغم كل جهودى للسيطرة على الطائرة.. وكذلك شعورى بالارتياح اللانهائى فى آخر الأمر، وتحديدًا فى انقضاضى الخامس أو السادس عليها، ثم بعد ذلك ارتفاعى إلى أعلى بشكل مستمر!..

بدا أننى نسيت كل شىء سيئ فى الحال.. وتبدد شكى حول ما إذا كانت عصفورتى الكبيرة جيدة فى الطيران أو لا.. إذ فى الحقيقة كانت جيدة جدًا.. وأزّت الطائرة فوق الجدار الأخير ودلاياتى مازالتا ترتطمان بالأشياء خلفى.. وصدمت إحداهما بقرة لم تلبث أن ماتت فى اليوم التالى.. ولا أظن أننى سببت أى ضرر لأى شىء أو أى شخص عبر مروج بائع الجبن.. ثم بدأت أرتفع ببطء ولكن باستمرار.. وبعد أن تمكنت من السيطرة على الطائرة هبطت مرة أخرى.. منقضًا على حظيرة خنازيره بهدف إعطاء مدينة (منتون شستر) نكهة ثانية من كفاءتى المتميزة..

أردت أن أصعد فى منحنى لولبى حتى أصبح فوق كل الأشجار والأشياء.. ثم أحوم فى دائرة حول برج الكنيسة.. وحتى ذلك الوقت كنت مركزًا على انقضاضات العصفورة التى أقودها وارتفاعاتها.. وكدت أصاب بالصمم من ضجيج المحرك.. لدرجة أننى لم ألاحظ سوى القليل من الأشياء التى توجد أسفل منى.. لكن الآن أستطيع تمييز بعض الناس يتقدمهم (لوبتون) وفى يده شوكة البستانى.. وهم يندفعون فى اتجاه مائل عبر ركن من أركان مروج بائع الجبن.. وأصابتنى الحيرة للحظة عندما تصورت ما الذى يهدفون إليه..

صعدت إلى أعلى وطائرتى تطن وتتأرجح.. وعندئذ لمحت بأسفل الطريق السريع والفوضى الشديدة التى لحقت بكل شىء فى السوق.. وفى ذلك الوقت لم أستطع الربط بين هذه الفوضى العارمة وطائرتى. ثم أحسست بارتجاج الطائرة من جراء ارتطامى العنيف بديك الرياح.. ولم تلبث المحركات أن توقفت.. ولم أعرف قط كيف اصطدمت بتلك الريشة الدوارة التى تحدد اتجاه الريح.. ولعل الانثناء الذى أحدثته فى جناح الطائرة الأيسر فوق سقف (ستنت) هو الذى أفسد قيادتى لها.. على أى حال لقد اصطدمت بهذا الشىء المبهرج وحنيته.. وطوال ثانيتين بعد ذلك لم أكن متأكداً قط مما إذا كنت سوف أنقض مباشرة فى السوق أو لا...

تمكنت من استعادة السيطرة على العصفورة بجهد فائق.. ولعل الناس الذين لم أسحقهم شكروا الله عرفاناً منهم بجميله هذا.. وأخذت أحلق بغير انتظام فوق قمم أشجار الصفصاف.. ثم استدرت وعندها أدركت أن المحركات توقفت تماماً.. ولم يكن أمامى أى وقت لكى أجوب سماء الريف وأقرر المكان المناسب للهبوط فيه.. ولم تكن أمامى أى فرصة لتغيير مسار الطائرة.. ولم يكن خطئى أن ربع سكان (منتون شستر) كانوا محتشدين فى كل مكان من مروج بائع الجبن.. وكانت فرصتى الوحيدة هى الهبوط بدون أن أحطم الطائرة وبسرعة استغللتها.. وفعلاً بدأت أهبط بزاوية حادة فى حركة انسيابية دون أى دفع من المحركات مع توخى أقصى حذر من أجل سلامتى.

ربما قلبت بعض الناس رأساً على عقب، ولكن فى مثل تلك الظروف على المرء أن يواصل التقدم إلى الأمام!.. كما اضطررت

لقتل الخنازير.. نعم كان الموقف البائس يتطلب إما السقوط وسط الخنازير وإيقاف طيرانى تمامًا.. وإما التقدم مع الميل بزاوية حادة واقتحام زريبة الخنازير المغطاة بالصاج المعرَّج.. الاحتمال الأول كان سيمزقنى إربًا، أما الاحتمال الثانى فهو أقل ضررًا بالتأكيد، وخصوصًا أن الخنازير تُربى لكى تموت.. أليس كذلك؟!

توقفت فى النهاية.. ووقفت متصلبًا فوق هيكل الطائرة ونظرت خلفى.. لم أستغرق أكثر من لحظة لكى أدرك أن (منتون شستر) تنوى أخذ جهودى المتواضعة فى نسبة "يوم الطيران" إلى المدينة وليس إلى شخصى المتواضع، بشكل ينم عن عدم العرفان بالجميل!.. كان الجو ممتلئًا بصرخات حادة من الخنزيرين اللذين انحشرا تحت طائرتى.. وصيحات النظارة القريبين منى وتوبيخاتهم.. وكان (لوبتون) فى منتصف المسافة ممسكًا بشوكة البستانى وتبدو عليه سيماء الرغبة فى غرسها فى بطنى.. وأنا دائمًا هادئ الأعصاب وسريع البديهة فى حالات الخطر.. فترجلت من على قمة (عصفورتى) مسرعًا وهربت خلسة من خلال زريبة الخنازير.. ثم دخلت فى حديقة (فبروبيشر) وتسلقت جدار كوخ أسرة (هنك).. ثم وجدت نفسى داخل قسم الشرطة من الطريق الخلفى قبل أن يتمكن أى شخص من اللحاق بى بعشرين مترًا..

قال المفتش (ننتون): "مرحبًا يا بطل!.. هل حطمت طائرتك الغبية؟".

قلت "لا يا سيدى.. ولكن يبدو أن هناك أمرًا ما يشغل أولئك الناس.. وأحب أن تسجننى فى إحدى الزنزانات!"..

وطوال أسبوعين لم يُسمح لى بالاقتراب من العصفورة.. والذى حدث أنى غادرت قسم الشرطة إلى منزلى بعد أن هدأت الضجة قليلاً.. واخترت جادة (لاف) و(شارت) حتى لا أثير أى حساسيات عدائية ضدى!.. ووجدت أمى غاضبة للغاية.. ويمكنك التأكد من ذلك من سوء معاملتها لى!.. وقبعت فى المنزل كما لو كنت سجينًا فى غرفتى العلوية.. فى حين عصفورتى القوية الصغيرة جاثمة هناك فى حقول بائع الجبن.. وكل الناس فى العالم يدورون حولها ويحدقون فيها باستثنائى أنا!.. وكانت وجهة نظر بائع الجبن أنه أمسك بها..

ثم هبت رياح شديدة ذات ليلة، فطارت عصفورتى الحبيبة فوق السور الشجرى لممتلكات (لوبتون) ودخلت بين صوباته الزجاجية.. وأرسل (لوبتون) مذكرة سخيفة تقول إننا إذا لم نخرجها من هناك فسوف يبيعها ويسدد نفقات إصلاح ما سببته من خسائر.. موضحًا بالتفصيل تلك الخسائر ومشيرًا إلى تكليفه أحد المحامين لتولى هذه القضية.. ولذلك أرسلت أمى خطابًا إلى شركة (كلامبس) المتخصصة فى نقل الأثاث بمنطقة (أبنورتون) الذين خصصوا عربة نقل أخشاب لهذا الغرض.. وكان الناس قد هدأت أعصابهم قبل وصول العربة إلىّ لكى أشرف على تحميل طائرتى وإخلائها..

كانت عصفورتى جاثمة هناك كفراشة ضخمة فوق أنقاض بعض مشروعات (لوبتون) الثقافية.. وبها بعض الإصابات الطفيفة.. بخلاف أحد الثقوب وبعض القضبان والدعامات المحنية فى الجناح الأيسر وزلاقة محطمة.. كما كانت ملطخة ببقع من دماء الخنازير

وبعض الاتساخات والقاذورات.. واتجهت بغريزتى ناحية المحركات، لكننى وجدتها تعمل بشكل رائع قبل وصول عربة الإخلاء..

وفى أثناء تحميل العصفورة بدأ شعورى بالفخر والشهرة يعود إلىّ.. وبمساعدة مجموعة من الرجال تمكنا من وضع العصفورة على العربة وضبط توازنها.. ثم جلست بداخلها لأتحقق من اتزانها.. وبدأت مجموعة من سبعة جياد تجرها إلى منزلى. وكانت الساعة الواحدة تقريبًا عندما انتهينا.. وأخذ الأطفال يصيحون ويهزأون بى وبالطائرة.. ولم نستطع أن نسير فى طريق (بوك) ومقر القسيس لأن الحوائط كانت عالية وضيقة جدًا.. ومن ثم شققنا طريقنا عبر مروج بائع الجبن ثم شارع (ستوكس) ثم الحديقة العامة.. ثم استدرنا عند المنعطف.

وأرى الآن أننى كنت غبيًا عندما فعلت كل ذلك.. إلا أن جلوسى هكذا فى طائرتى التى سببت لى الفخر والناس محتشدون من حولى أثارنى جدًا وأشعرنى بالعظمة والبطولة.. وأردت فقط أن ألف مروحتى الطائرة كنوع من تحية الناس.. لكن سرعان ما وجدت نفسى أندفع إلى أعلى بعيدًا عن العربة فوق الحديقة العامة وبدأت الطيران مرة أخرى!..

هتفت "يا إلهى!".. وكنت لا أقصد سوى الطيران بها قليلاً حتى أصل إلى منزلى ثم أسحبها إلى ساحة المنزل.. لكن الحقيقة أن تلك الطائرات الأولى كان من الصعب فعلاً التنبؤ بما يمكن أن تفعله!.. وعمومًا لم تكن فكرة سيئة جدًا أن أهبط فى حديقة مقر القسيس، وهذا ما كنت أريده فعلاً.. ولم يكن خطئى بالطبع أن كل العاملين

بمقر القسيس والكثير من أصدقائهم كانوا يتناولون طعام الغذاء على النجيل وقتئذ! ولا شك أنهم فعلوا ذلك لكى يكونوا فى المكان الصحيح دون الحاجة إلى الاندفاع من منازلهم وأعمالهم لكى يكونوا فى استقبال العصفورة عندما تصل مرة أخرى!.. نعم إنهم مبتهجون.. هذا هو ما يبدو عليهم.. لقد أرادوا معرفة كل تفاصيل مغامرة عودتى المذلة لكى يشمتوا فى!.. وأنت تستطيع معرفة ذلك من الطريقة التى جهزوا بها منضدة الطعام.. وما حيلتى إذن أن القدر قرر أن تكون عودتى بهذا الشكل المشئوم بحيث اكتسحت طائرتى عددًا كبيرًا منهم بالفعل! وألقت بهم كيفما اتفق.. فى حين كانوا يتناولون حساءهم فى وجبة الغداء.. وأعتقد أنهم اعتمدوا علىّ فى إحضار الحلو والفاكهة!..

وحتى يومنا هذا لا أدرى كيف أننى لم أقتل القسيس.. لأن الحافة الأمامية للجناح الأيسر أمسكت به من تحت ذقنه وسحبته إلى الوراء مسافة ١٢ مترًا تقريبًا!.. ويبدو لى أن بعض فقرات عنقه كانت من الفولاذ.. وحتى لو كان ذلك صحيحًا فإننى أعجب كيف أن رأسه لم تنخلع من كتفيه!.. ولعله كان متشبثًا بشىء ما من أسفل، لكننى بصراحة لا أدرى ما هو!.. كذلك لولا الانبهار والإعجاب اللذان رأيتهما فى ملامحه المبتهجة لكان بإمكانى تجنُّب الاصطدام بالشرفة.. ولكننى أعترف أن ارتطامى بها كان مفاجأة شخصية لى!.. لكن للأسف تحولت إلى أنقاض.. ولا بد أن أخشابها تعفنت الآن تحت طلائها الأخضر.. وعمومًا فإن الورود المتسلقة والفطريات التى عليها وكل شىء قرقع وانهار مثل مشهد مسرحى مؤثر!..

بعد ذلك وجدت نفسى والمحركات والجزء الأوسط من العصفورة ننحرف قليلاً ثم نمر من خلال النوافذ الفرنسية بطابق غرف الاستقبال.. ومن محاسن الصدف أننى لم أجد تلك النوافذ مغلقة!.. إذ لا يوجد شىء أكثر سوءًا فى العالم من طيران المرء فجأة خلال زجاج النوافذ وتعرضه للإصابة من جراء ذلك!.. وكان يجب أن أعرف ذلك جيدًا.. وكانت تلك مغامرة مرعبة.. ولكن القسيس كان بعيدًا فى هذا الوقت، وهذا عمل رائع منه!.. والآن أعتقد أن تلك الجمل اللطيفة الرنانة سوف تريح النفوس وتهدئ الأعصاب.

كانت تلك نهاية قصة عصفورتى الضخمة.. أول طائرة فى حياتى.. ولم أجرؤ قط على التخلص منها بعد ذلك. إلا أن العاصفة اشتدت بعد ذلك.. والفكرة هنا أنه يبدو لى أننى وأمى مطالبان بدفع ثمن كل شىء يتحطم أو ينكسر فى (منتون شستر) منذ أن بدأت تلك الأحداث.. حتى لو مات أحد الحيوانات ميتة طبيعية وتذكر ذلك أحد السكان العجائز، فنحن مطالبان بدفع ديته.. كما أن الأسعار ارتفعت كثيرًا.. البقرة الواحدة تساوى ٢٥ ـ ٣٠ جنيهًا فما فوق.. الخنزير حوالى جنيه واحد.. مع عدم وجود تخفيض لقتل الجملة!.. وكذلك الشرفات المنزلية الواحدة منها تساوى ٤٥ جنيهًا.. كما ارتفعت أيضًا أسعار وجبات العشاء وتركيب بلاط المنازل وكل حرف البناء.. وأعتقد أنه بدا لبعض الأشخاص فى (منتون شستر) أن عصرًا من الرفاهية غير المسبوقة قد هبط على المنطقة.. ولم يقيّد هذا الرخاء سوى إعلان إفلاسى أنا وأمى المسكينة.. وحاول القسيس أن يتبع خطة "البيع لتسديد

النفقات" المعروفة من القدم.. لكننى طلبت منه أن يبيع كل ما يجده!..

ودافعت عن نفسى بادعاء تلف الطائرة وخللها وبأن القدر وقف ضدى.. وبذلت كل وسعى لإلقاء المسئولية على عاتق الشركة الصانعة للطائرة بطريق (بلاكفريارز).. وكاحتياط إضافى يؤمّن جانبى فقد قدمت طلبًا لإعلان إفلاسى.. وفى الواقع لم يكن بحوزتى أى ممتلكات فى العالم بسبب طيبة أمى الفائقة.. باستثناء دراجتين بخاريتين استولى عليهما الوحوش.. وغرفة تحميض صورى الفوتوغرافية.. وكثير من الكتب المجلدة عن الطيران وتطوراته وأخباره. وبالطبع فأمى لم تكن مسئولة عن شىء.. فهى لم ترفع جناحًا للطائرة!..

لذلك تجمعت علىَّ الأمور السيئة بشدة.. إذ عادة ما يصيح على تلاميذ المدارس رثاث الثياب والصغار والغلمان الذين يحملون مضارب الجولف والمراهقين كلما خرجت من أى باب.. ويهددنى بعض الناس الحمقى باتباع العنف معى مثل (لوبتون) العجوز الذى لا يفهم أن الإنسان غير مطالب بدفع ثمن لا يملكه.. كما تضايقنى مختلف زوجات السادة اللاتى رأتن من المناسب أن يتركن أعمالهنّ بزعم إصابتهن.. ورفعن على دعاوى قضائية حمقاء بكل أنواع الإهانات والإساءات الخيالية والجرائم.. مثل الإزعاج والأذى والقتل والإضرار العمد والتعدى على الممتلكات الخاصة.. لدرجة أننى اضطررت للابتعاد عن (منتون شستر) والذهاب إلى إيطاليا.. وتركت أمى الفقيرة البائسة لكى تتصرف معهن بطريقتها الجافة الفظة البعيدة تمامًا عن العواطف!..

وهن لم يحصلن منها على أى شىء.. لكنها اضطرت على أية حال إلى تحطيم منزلنا الصغير فى (منتون شستر) واللحاق بى فى (أروزا) بالرغم من أنها لا تطيق الطعام الإيطالى!.. ووجدتنى شهيرًا إلى حد ما هناك لأننى صنعت رقمًا قياسيًا.. ليس فى الطيران بالضبط ولكن تحديدًا بالسقوط فى ثلاث حفر عميقة منفصلة فى ثلاثة أيام متتالية!.. لكن بالطبع هذه قصة مختلفة تمامًا ولا أدرى مبررًا لسردها الآن!..

ومن البداية إلى النهاية، أقدر أن طائرتى الأولى كلفت أمى أكثر من ٩٠٠ جنيه إنجليزى.. وما لم أتخذ موقفًا صلبًا فى الوقت الذى تمسكت هى فيه بسداد كل نفقات إزالة الضرر.. لكلفها الأمر ثلاثة آلاف جنيه.. إلا أنها استحقت ذلك!.. ولكم أحب أن أعيش تلك الأحداث من جديد.. وذلك أن الكثير من الأشخاصَ العجائز غريبى الأطوار مثلى يجلسون فى منازلهم الآن ويتحسرون على تلك الأوقات السعيدة الماضية الحافلة بالمغامرات.. عندما كان كل شاب يافع شديد الحيوية يمكنه أن يطير ويذهب إلى أى مكان يشاء ويحطم أى شىء.. ثم يناقش فيما بعد مسألة مقدار التعويضات المطالب بسدادها وما هى حدود مسئوليته القانونية فى مثل تلك الأحوال.

أنا وأمى فوق جبل (موردريرج)!

أظن أننى قلت، عندما كنت أتحدث عن قيادتى لأول طائرة فى حياتى، إننى حققت رقمًا قياسيًا نوعًا ما فى "آروسا" عندما سقطت ثلاث مرات فى صدوع أرضية فى ثلاثة أيام متتالية!.. لكن هذا كان قبل أن تلحق بى أمى الحبيبة هنالك.. وعندما وصلت رأيت فى الحال مدى تعبها وإنهاكها وقلقها.. ولذلك فبدلاً من تركها تشعر بالسأم أو الملل فى الفندق وتبدأ فى الاستماع إلى الشائعات والقيل والقال، أخذتها معى هى وحقيبتى وبدأنا فى رحلة سير طويلة ومنعشة وهادئة باتجاه الشمال؛ إلى أن أصيبت قدمها بقرح وبثور، وعندئذ عرجنا إلى فندق "ماجنرو" بمنطقة (سينجوش).

بيد أن أمى كانت تريد مواصلة السير، سواء لديها تقرحات أو لا، وعمومًا فأنا لم أر عزمًا أو إرادة مثل تلك التى لأمى فى حياتى كلها!.. لكننى قلت لها بإصرار: "لا يا أمى.. إن هذا فندق لمتسلقى الجبال.. وهو يناسبنى تمامًا وكذلك أنت.. وسوف تجلسين فى الشرفة بجوار التلسكوب.. أما أنا فسوف أمرح قليلاً بين تلك القمم".

قالت: "لا تعرض نفسك لأية حوادث يا بنى".

قلت: "لا أستطيع أن أعدك بذلك يا أمى.. لكننى سأتذكر دائمًا أننى ابنك الوحيد".. وبالفعل لهوت قليلاً هناك. والحقيقة أنه فى خلال يومين أصبحت على خلاف دائم مع متسلقى الجبال من نزلاء الفندق.. لم يستطيعوا أن يتقبلونى.. لم يألفوا رقبتى بتفاحة آدم الصغيرة القوية بها.. إذ كان أكثرهم من الرجال قصيرى العنق.. أو لنقل إن رؤوسهم محشورة أو مكبوسة فى أجسامهم!.. ولم يحبوا الطريقة التى أتصرف بها أو أشمخ بها بأنفى عاليًا. ولم يحبوا كونى نباتيًا ولا الطريقة التى أتمتع بها بتناول النباتات.. ولم يحبوا كذلك اللونين البرتقالى والأخضر فى حلتى من قماش التويد الخشن.

كانوا كلهم يتسمون بالقذارة ـ وهذا نوع من الرجال أسميه السادة "البوم"ـ والخجل والتفكير السديد.. ومعظمهم من (أكسفورد).. وهم حذرون فى تسلقهم كالقطط.. وهم حكماء ومن حزب "الموافقين" دائمًا.. وكثيرًا ما تسمع أحدهم يقول: "إننى لن أجازف قط بعمل شىء كهذا".. وهم يفعلون دائمًا ما تخبرهم به الكتب أو الأدلة عن التسلق.. ويصنفون أنفسهم بناء على عدد مواسم التسلق التى باشروها.. فأحدهم فى موسمه التاسع وآخر فى العاشر وهكذا.. أما أنا فكنت مبتدئًا، أو يمكنك القول فى الموسم صفر.. وكان علىّ أن أقبع فى هدوء وفمى مفتوح من الدهشة لكى أسمع وأتعلم وآخذ نصيبى من الكعكة.. هل كنت هكذا؟ ربما!..

جلست فى غرفة التدخين أسحب أنفاسًا من سيجار محشو بدخان مخلوط بأعشاب صحية.. لكنهم قالوا إن رائحته تشبه حريق قمامة الحديقة!.. وتحينت الفرصة لكى أدلى بدلوى وأقدم لهم نصائحى وأدخل بعض الضوء فى ألبابهم المقفلة.. واستمروا على تحفظهم وتكتمهم وعلى إبداء بغضهم لى.

وفجأة قلت: "يا قوم، إنكم تأخذون تلك الجبال اللعينة بجد أكثر من اللازم.. إنها موجودة للتسلية والمرح.. وعليكم أن تلهوا وتمرحوا معها.. هذا كل ما هنالك!".

أداروا جميعًا عيونهم ناحيتى.. وواصلت قائلاً: "أنا لا أرى متعة فى كل تلك الجلبة التى تحدثونها.. إن متسلقى الجبال القدامى صعدوا عليه وليس معهم سوى عصا التسلق وسلم من الحبال.. وبالطبع قلوبهم تخلو من أى هم.. إن هذه هى فكرتى بالضبط عن تسلق الجبال".

قال أحد أبطال تسلق القمم السكارى، الذى تنتشر البثور والقروح فى جلده، بلهجة الازدراء "إنها غير فكرتنا" قلت باهتمام بعد أن نفخت دخان الأعشاب: "إنها الفكرة الصحيحة يا هذا".

قال شاب آخر متقدم فى العمر ذو لحية رمادية صغيرة: "عندما تكتسب الخبرة فسوف تعرف أكثر من هذا".

قلت: "الخبرة لم تعلمنى أبدًا أى شىء".. فقال بعضهم: "هذا واضح عليك".. وشعرت بالإهانة وبأن الكرة أصبحت فى ملعبى.. ولكننى حافظت على هدوء أعصابى وقلت دون أى انفعال وبلهجة ذات مغزى: "إننى أنوى تسلق جبل (موردربرج) قبل أن أغادر هذا المكان".

- "ومتى سترحل من هنا؟" فقلت: "بعد أسبوع تقريبًا".

قال الرجل: مقشر البشرة: "لا ينبغى للمرء أن يبدأ التسلق فى عامه الأول يا هذا"..

وقال آخر: "وأنت بالذات يجب ألا تحاول ذلك" وقال ثالث: "لن تجد دليلاً يوافق على أن يرافقك"..

وقال رابع: "إنها تبدو لى فكرة حمقاء للغاية".. وقال خامس: "لعله مجرد تباه وتفاخر يا رجال".

وقال سادس: "أود أن أراه يفعل ذلك كما يزعم".

تركتهم وهم يفورون غضبًا، لكنهم سرعان ما هدأوا.. وعندما عادوا إلى الهيجان مرة أخرى تدخلت فى الحديث قائلاً بشكل يثير الفضول والاهتمام: "على الأرجح سوف آخذ أمى معى.. إنها صغيرة الجسم.. عافاها الله.. ولكنها قوية جدًا وذات قوة تحمل هائلة كالوتد".

أعتقد أن ابتسامتى الغامضة جذبت اهتمامهم.. وفى هذه المرة تجادلوا بعضهم مع بعض مع إبداء بعض ملاحظاتهم مصحوبة بأصوات تشبه النعير أو قبع الخنازير.. ثم انخرطوا فى محادثات قصيرة بصوت خافت كان يعنى بالطبع استبعادى منها.. ولم يزدنى ذلك إلا تصميمًا على هدفى.. وأنا عمومًا رجل صلب عندما أُوجَد فى ظروف صعبة تتطلب بذل أقصى جهد.. أصررت على أن تصحبنى أمى إلى أعلى قمة (موردربرج)، التى لم يصل إليها قط نصف أولئك الخبراء الوقورين، حتى لو قُتلت أنا وأمى فى تلك

المحاولة!.. وعلى ذلك فقد تحدثت إليها فى هذا الموضوع صباح اليوم التالى.

كانت مسترخية فى كرسى قماشى ينطوى بالشرفة، وهى متدثرة ببطاطين وتنظر إلى قمم الجبال باهتمام. وقلت لها: "أمرتاحة أنت يا أمى هكذا؟".. فأجابت: "نعم يا بنى".. فقلت: "وهل أنت مستمتعة الآن؟" فقالت: "نعم.. إنه مشهد رائع جدًا.. إنها الطبيعة الساحرة يا ولدى".

مشيت قليلاً حتى سياج الشرفة وقلت: "هل ترين تلك القمة هنالك يا أمى؟".. فأومأت برأسها فى سعادة وعيناها نصف مفتوحتين.. فأردفت: "إنه جبل (موردربرج).. وسوف نكون أنا وأنت على هذه القمة بعد باكر".. فتحت عينيها قليلاً وقالت ببساطة: "أليس ذلك يعنى أننا سوف نتسلقه يا عزيزى؟".

قلت: "سوف أتدبر ذلك الأمر يا أمى.. فلا تخشى شيئًا".. فابتسمت علامة على الموافقة وأقفلت عينيها وقالت بصوت حالم: "لا بأس.. طالما أنك سوف تستعد تمامًا لهذا الأمر".

توجهت عصر ذلك اليوم إلى (داكسام) لكى أحضر الملابس والأدوات التى تلزمنا ، وكذلك أتفق مع دليلين وخمسة حمالين للرحلة.. ثم قضيت اليوم التالى فى التمرين على اجتياز الصخور والأنهار الجليدية العالية فوق فندقنا!.. والحقيقة أننى لم أستفد منها شيئًا جديدًا.. وتزحلقت مرتين.. فى إحداهما انحشرت فى شق ما - وبالمناسبة فإنى لدى ميل طبيعى للسقوط فى أى شق أو صدع، ولو أننى لا أدرى سبب ذلك - وأسرعت مجموعة من ثلاثة

أشخاص يستعدون لتسلق جبل (كندرسبيتز) بقضاء حوالى ساعة ونصف الساعة فى إخراجى من الشق.. وفى المرة الثانية سقط فأس تكسير الجليد من يدىّ على مجموعة من الناس المتوجهين إلى نهر (هامبى) الجليدى.. وللعلم فإنه لم يسقط بجوار أى واحد منهم مباشرة، ولكنك لو استمعت إلى شجارهم ولغطهم لفهمت أنى دمرت العقل المفكر لهم!.. واستعملوا بعض الكلمات غير الودية هم ومعهم ثلاث سيدات أيضًا.. ولكنى على أية حال لم أفهمها لأنها كانت بلغة لا أعرفها!..

فى اليوم التالى كان هناك ما يشبه محاولة منظمة أو مؤامرة لمنع خروجنا.. وأحضروا صاحب الفندق.. وعاقبوا أمى.. وبذلوا أقصى ما فى وسعهم لتشويه صورة الدليلين اللذين أحضرتهما.. ودخل أخو صاحب الفندق فى شجار عنيف معهما.. وقال: "لقد فقدا سيدهما منذ عامين مضيا".. فقلت: "إن هذا لا يثبت أى شىء.. ولماذا لم تحرسوه أنتم؟". ويبدو أن ذلك أقنعه وأراح أعصابه.. لم يكن الرجل يجيد الكثير من اللغات. ويبدو أن كلامى أثر فيه بقوة كشوكة وقفت فى حلقه!".

ثم اقترب الرجل متقشر الجلد وحاول فحص أجهزتنا.. وقال: "هل أحضرتم هذا أو ذاك؟".

فقلت وأنا أنظر إلى أنفه بحدة: "هذان شيئان لم أنسهما قط.. غطاء الرأس ومرهم الفازلين".

ما زالت أحداث بدء الرحلة محفورة فى ذهنى. كان هناك ممر جبلى منخفض عن الفندق بحوالى سبعين مترًا، وهذا الفندق مقام على

موقع صخرى ضخم منعزل.. فى مواجهة كتل صخرية هائلة ذات خطوط خضراء.. وتقبع عليه هنا أو هناك بعض كتل من الثلج وطبقات من زهور "الوردية".. ويرتفع حوالى ٣٠٠ متر باتجاه البروز الصخرى الغربى بقلب الجبل.. والطريق الذى سنسير فيه ممتد أمامنا متعرج بين الصخور حتى يصل إلى معبر صخرى يعبر جدول ماء.. ثم إلى أعلى فى الجانب الآخر من الجدول باتجاه نهر (ماجنرو) الجليدى.. حيث سنضطر إلى تسلق الصخور إلى اليسار ثم نعبر الشلال الجليدى إلى المنصات الصخرية بالجانب الغربى للجبل شديد الانحدار.

كان الوقت فجرًا والشمس لم تشرق بعد.. وكان الجو باردًا جدًا وكئيبًا فى كل مكان حولنا.. كل من كانوا فى الفندق كانوا يتجادلون ويتشاجرون.. وبعضهم يرتدى ملابس النوم.. إلخ.. وهم يقفون الآن فى مجموعة صامتة تراقبنا ونحن نبتعد عنهم أكثر فأكثر.. وآخر جملة سمعتها كانت "سوف يعودون سريعًا على أية حال" وعلى الفور قلت: "نعم سوف نعود إن شاء الله.. لا تخشوا شيئًا.. ولكن بعد أن ننجح فى تحقيق هدفنا".

وهكذا أخذنا نتقدم إلى الأمام.. فى هدوء وعزم.. وعبرنا الجدول وبدأنا نقترب من الحقول الجليدية الوعرة ثم من كتف الجبل (موردربرج).. وأذكر أننا ذات مرة تقدمنا فى صمت تام. ثم فجأة ابتهج المشهد كله بشروق الشمس.. وفى لحظة بدأت ألسنتنا تثرثر، كما لو أن عقدًا بألسنتنا قد حُلت"..

كان معى فى متاعى شىء أو شيئان لم أهتم بأن يراهما الناس فى الفندق.. ولم أهتم بشرح السبب فى استقدامى لخمسة من

الحمالين رغم أن الحمولة لا تحتاج إلا لاثنين أو ثلاثة على الأكثر.. لكن عندما وصلنا إلى الشلال الجليدى رفعت يدى وفككت شبكة نوم محكمة من الحبال لأمى.. ووضعنا أمى فى تلك الشبكة وغطيناها ببطانية وثبتناها فى الشبكة ببعض الغرزات.. ثم ترتبنا فى خط مستقيم إلى أعلى.. وكنت أنا الشخص قبل الأخير.. وأحد الدليلين فى المقدمة والآخر فى المؤخرة.. وأمى فى المنتصف يحملها اثنان من الحمالين.

وثبت عصا التسلق بوضعها فى فتحتين بكتفى سترتى تحت حقيبة ظهرى، متعامدة على جسمى، بحيث إننى عندما أقع فى أى شق - كما يحدث لى عادة - فإننى أنحشر بين فكيها ومن ثم أخرج بسهولة من الشق عندما يكون حبل التسلق مشدودًا.. ومن ثم فباستثناء مطب واحد أو مطبين، جعلا أمى تضحك، فقد بدأنا فى التسلق دون أى مشكلة أو عقبة تُذكر.

ثم بدأت مهمة تسلق الصخور فى الجانب الآخر والتى تحتاج إلى الكثير من الانتباه والاجتهاد.. فقد كان علينا أن ننتقل من طبقة صخرية إلى أخرى كلما سنحت الظروف.. وهنا كانت أمى نعمة حقيقية بالنسبة لنا!.. وقمنا بفكها بعد أن رفعناها فوق الشق الكبير - نسيت الآن اسم هذا الشق - الذى يوجد دائمًا بين النهر الجليدى والصخور.. وكلما وصلنا إلى جزء من طبقة صخرية تبعد حوالى مترين ونصف المتر من الطبقة التى كنا عليها، أخذها الدليلان ورفعاها عاليًا.. وبالمناسبة كانت خفيفة الوزن.. ثم كان بمقدورها أن تفسح قليلاً للرجل التالى لكى يجد مكانًا يتشبث به

ويرفع نفسه.. وكانت تخبرنا أننا نشد ساقها، وهذا جعلنى أنا وهى نضحك كثيرًا لدرجة أن المجموعة كلها كانت تضطر إلى انتظارنا..

كان التسلق متعبًا فى الحقيقة.. ساعتان قضيناهما فى التسلق قبل أن نصل إلى بعض الصخور السائبة على قمة بروز ضخم من الجبل. وقال الدليل الأكبر سنًا: "أسوأ من ذلك النزول إلى أسفل". ونظرت خلفى للمرة الأولى، وأعترف أننى شعرت بالدوار.. كان هناك نهر جليدى يبدو رائعًا ويفصله عن الصخور شق أسود.

لبعض الوقت كان صعودنا على البروز الصخرى متعة فعلية.. ولم يحدث أى شىء يستحق الذكر، سوى أن أحد الحمالين أخذ يشتكى ويتذمر بسبب حجر أزاحته قدمى وسقط عليه.. وقلت له مهونًا الأمر: "هذا هو قدر المحاربين".. ولكن يبدو أنه لم يفهم ما أعنى.. وعندما سقط عليه حجر ثان بسببى ونجا منه بأعجوبة، أخذ يتمتم ببعض الكلمات التى تشبه العواء أو الأنين.. أعتقد أنها كانت بالألمانية.. لأننى لم أفهم منها حرفًا واحدًا.. إلا أن أمى قالت عندئذ: "إنه يقول يا بنى إنك كنت ستقتله، هذا كل ما فى الأمر!".

أوشكت أن أتوقف لكى أملأ بطنى بالطعام، ولكن الدليل المسن لم يوافق على ذلك، وقال إننا أضعنا الكثير من الوقت كما أن تحركنا حول الوجه الآخر من الجبل سوف يتعرض أكثر وأكثر لانهيارات ثلجية بعد أن أشرقت الشمس. لذلك واصلنا عملية التسلق.. وعندما استدرنا حول ركن الصخرة متجهين إلى الوجه الآخر، استدرت تجاه الفندق ـ وكان وقتئذ عبارة عن بقعة صغيرة

مستطيلة ـ وقمت بحركة ساخرة بهدف اللهو، لإمتاع أى شخص ينظر فى التلسكوب باتجاهنا.

ثم لم نلبث أن تعرضنا لانهمار كتل جليدية وصخرية علينا، حتى إننا سمعنا صوت ابتهال الدليل الخلفى إلى الله لكى ينجينا من هذا الكرب العصيب.. أما بقية الانهمار فقد ابتعدت عنا نحو مترين أو أكثر.. الآن نحن فوق الصخور بارزين أو متدلين إلى الخارج.. وقبل ذلك وبعده كنا نتقدم ببطء على درجات فى منحدر جليدى قطعها الدليل الأمامى وسواها الحمالون.. قبل ذلك كان الانهمار الجليدى شيئًا مثيرًا.. لكنه عندما اشتد عوده أخذ يدمدم ويرعد فوق رؤوسنا ويحدث دويًا هائلاً فى طبقات الجو الزرقاء أسفل منا.. ثم أخذ يتحول إلى أداء أقل.. معظمه من الحجارة التى يقل حجمها عن حجمى أنا!.

قال الدليل: "هل أنتم على ما يرام؟" فأجبته: "إننا أشداء فلا تخف علينا".

وسألتنى أمى: "أظن أننا فى أمان يا عزيزى.. أليس كذلك؟".. فقلت: "نعم.. فى أمان يشبه الأمان فى ميدان الطرف الأغر.. والآن امرحى واقفزى يا أمى".. وفعلاً قامت بذلك برشاقة وخفة تحسد عليهما.

ألفينا أنفسنا بعد ذلك فى منطقة ذات ثلوج قديمة.. وهنالك قررنا أن نستريح لتناول طعام الغداء.. والحقيقة أن سعادتنا كانت قصوى بالطعام وبالراحة.. ولكن ما حدث أن المشكلات مع الدليلين والحمالِين ازدادت حدة.. فقد كانوا متبرمين بالفعل من أسلوبى فى

إسقاط الصخور السائبة.. والآن أحدثوا جلبة شديدة لأنه بدلاً من البراندى فقد اشتريت شراب الزنجبيل غير الكحولى.. ألم يكن الأفضل أن يجربوه؟ لا لم يحدث ذلك قط!.. وكان ذلك نزاعًا بسيطًا وغريبًا عند هذا الارتفاع الشاهق حول المنافع الغذائية ومزايا عمل شطائر جوز.. كانوا مجموعة غريبة من الرجال المعتادين على تناول أى أطعمة ملوثة أو فاسدة.. كانوا يريدون لحمًا وخمرًا ومخدرات ليدخنوها.. ولعلك فكرت فى أن رجالاً كهؤلاء - يعيشون فى تقارب شديد مع الطبيعة - سوف يحبون أطعمة "الطبيعة".. مثل "البلازمون" و"الروتوز" و"البلوبوز" و"الهضمين".. إلخ.. لكن هذا غير صحيح! إنهم فقط يتوقون إلى الفساد والتلوث.. وعندما تحدثت عن شرب الماء النقى، بصق أحد الحمالين كعلامة ذات مغزى فوق الهوة السحيقة.. ومنذ تلك اللحظة انتشر التذمر والضيق بين الجميع.

واصلنا التسلق من جديد فى حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف، بعد محاولة فاشلة من الدليل الأمامى لإقناعنا بالعودة من حيث أتينا. الآن أوشكنا على خوض أكثر أجزاء مهمة صعود جبل (موردربرج) صعوبة، ألا وهى الحافة التى تفضى إلى الحقل الجليدى بأعلى أسفل قمة الجبل.. ولكن هنا دخلنا فجأة فى تيار من الهواء الدافئ الذى يهب من الاتجاه الجنوبى الغربى، وكما قال الدليل فإن كل شىء هنا غير عادى. فالعادة أن تكون الحافة عبارة عن طبقة من الجليد فوق الصخر.. أما الآن فهى عبارة عن ثلج رطب وطرى بحيث يمكن للمرء أن تغوص قدمه فيه وتلامس أصابع قدمه الصخر بمنتهى السهولة.

قال أحد الحمالين بعد أن استرحنا على الحافة لمدة عشر دقائق: "هنا سقطت جماعة السيد (توم لينسون)".

قلت: "بعض الناس يمكن أن يسقطوا من السرير فى غرفة النوم!".

وقال الدليل الثانى: "إن الجو سيصل إلى التجمد قبل أن نعود.. ولا يوجد فى أمعائنا سوى الزنجبيل اللعين".

قلت بسرعة: "لكن عليك أولاً أن تحافظ على حبلك مشدودًا".

وفى اللحظة المناسبة جاءت منصة صخرية ودودة لنجدة أمى المسكينة بعد أن تعبت للغاية.. وقمنا بخياطتها كلها فى السرير النقال ما عدا قدميها مرة أخرى ثم ربطناها فى حبل التسلق بإحكام وحذر. وتعرضت مع ذلك لبعض المطبّات.. وفى بعض الأوقات تدلّت وكادت تسقط وأخذت تدور ببطء فى دوائر.. وفى ذلك الوقت تشبث الجميع بالحبل بكل ما أوتوا من قوة.

وعندها قالت لى لأول مرة: "عزيزى.. هل ترى أن ما أفعله الآن صواب أو خطأ؟".

قلت: "صواب بالطبع.. لكن لو أمكنك تثبيت نفسك بقوة فى الحبل مرة أخرى، فإن ذلك يكون أفضل بلا شك".. فقالت: "هل أنت واثق من عدم وجود خطر يا حبيبى؟" فقلت: "مطلقًا".

فقالت: "لكن هل وجودى سبب لكم متاعب؟".. فقلت: "بالعكس.. إنك تشجعيننا وترفعين من روحنا المعنوية". فقالت: "المنظر أصبح الآن رائعًا جدًا.. ما أجمله!".

لكن الآن حُجبت الروعة تقريبًا.. ووجدنا أنفسنا داخل بعض السحب ووسط تيار رقيق متدفق من البرد أو ندف الثلج الذائب تقريبًا.. ثم وصلنا إلى الحقل الجليدى العلوى فى حوالى الساعة الواحدة والنصف وأصبح الثلج طريًا وناعمًا للغاية.. ولم يلبث الدليل العجوز أن غاص فيه حتى إبطيه.

فردت جسمى فى وضع منبسط كما لو كنت سأسبح وقلت: "لنقفز كالضفادع!".. وهكذا شققنا طريقنا إلى القمة العلوية وبامتدادها.. وأخذنا نندفع فى انطلاقات قصيرة ثم نتوقف لالتقاط الأنفاس.. ونحن نجر أمى وراءنا فى سريرها.. وأحيانًا كان الجليد جيدا جدًا حيث يمكننا أن نتزلق على سطحه، ولكن أحيانًا يكون طريًا ورخوًا بحيث نغوص فيه ونزيحه من حولنا.

وذات مرة اقتربت من حافة الصخور فانكسرت تحت قدمى، وأنقذنى الحبل فى آخر لحظة.. ووصلنا إلى القمة فى حوالى الساعة الثالثة دون المزيد من المتاعب.. وكانت القمة عبارة عن صخرة عارية وعليها بعض الحجارة وعمود.. لا شىء مثير أو يستحق الضوضاء.. انتهى الآن وقت تيار الثلج المنجرف ورقعة السحب المتتابعة واتقدت الشمس من فوقنا ولفحتنا حرارتها.. وبدا أننا نطل على (سويسرا) بأسرها. وأصبح فندق (ماجنرو) عند أصابع أقدامنا مختبئًا ـ إذا جاز التعبير ـ ووراء ذقوننا.. وجثمنا كلنا حول الحجارة.. واشتد الجوع لدى الدليلين والحمالين حتى إنهم أكلوا الزنجبيل وشطائر لحم الخنزير النباتى الذى يقتات بالأعشاب.. ثم خدشت وحفرت نقشًا يقول: إننى تسلقت قمة الجبل على قدمىّ وحققت رقمًا قياسيًا.

ومن قمة الجبل كان منظر حقول الجليد في الجانب الشمالي الشرقي من الجبل يبدو جذابًا للغاية.. وسألت الدليل الأمامي: "لماذا لم نستخدم الطريق الصاعد إلى أعلى".. فقال بلغته الألمانية المميزة شيئًا يتعلق بالهوة السحيقة.. وحتى الآن كان صعودنا صحيحًا إلى حد ما ولكن ببطء.. وفي أثناء النزول فقط شعرت بإجهاد شديد غير إرادي.. ولم أسمح بعودة الحبل عبر الحقل الجليدي العلوي لأن قدمَي أمي ويديها كانت باردة وأردت أن تقفز وتلهو.. وقبل أن أفعل أي شيء لمنع ذلك، انزلقت أمي وسقطت وحاولت أن تقف بالتدحرج على المنحدر لأسفل بدلاً من أن ترتفع لأعلى المنحدر، وهو ما كان يجب عليها أن تفعله في الحقيقة!. وبدأت تتدحرج أكثر وأكثر تجاه الهوة اللعينة التي تحدث عنها الدليل فوق الحقل الجليدي الأسفل.

لم أضع أي وقت في قذف نفسي وراءها فيما يشبه الرغبة في الانزلاق وراءها.. لم أكن أعرف بالضبط ما أفعله لكن يبدو لي أن الفكرة تتلخص في أن أقفز أمامها ثم أفرملها بجسمي فتقف! لكن للأسف لم تنجح فكرتي البسيطة.. وفي غضون عشرين دقيقة وجدت نفسي أنزلق بسرعة ثم أجلس ثم أنزلق مرة أخرى فاقداً السيطرة تمامًا على نفسي وآملاً ألا تسوء العاقبة!.. وبالطبع فإن أعظم الاكتشافات تأتي مصادفة.. وأحب أن أؤكد هنا أنه في تلك اللحظة الرهيبة اكتشفت أنا وأمي طريقتين جديدتين ومحددتين للهبوط من الجبل!..

أولاً من الضروري وجود منحدر جليدي بأعلى، وطبقة من الثلج الطري المتفتت الرخو على سطح الجليد.. ثم هاوية سحيقة ذات

منحدر مغطى بالثلج تنحدر بحدة فى البداية ثم تقل حدة الانحدار.. ثم المزيد من المنحدرات الثلجية والهوات السحيقة، بحسب ما يحلو لك، ثم ينتهى كل ذلك بحقل جليدى أو نهر جليدى ذى شقوق غير واسعة أو منحدر معقول غير صخرى. وبعد ذلك يصبح الأمر يسيرًا جدًا، مثل عربة تتحرك ببطء داخل ملهى بالرواد.

أما أمى فقد اكتشفت بالصدفة طريقة جانبية.. فقد تدحرجت والتصق بها بعض الثلج بحيث تحولت إلى كرة صغيرة رائعة من الثلج فى نصف دقيقة.. وهذه الكرة شكلت نواة لانهمار ثلجى نظيف ووافر مثلما يريد المرء.. والحقيقة أن كميات هائلة من الثلج تحركت فى أعقابها.. وهذا وصف موجز للطريقتين الجديدتين للهبوط من على الجبل اللتين اكتشفتهما أنا وأمى بالمصادفة البحتة.. وغنى عن الذكر أن الصدفة لا تأتى إلا لمن يستحقها.. الأولى: يجب أن تسقط أنت على الثلج لا أن يسقط الثلج عليك!.. وإلا تهشم جسدك ولقيت حتفك، والثانية: يجب أن تبتعد تمامًا عن الالتصاق بالأحجار السائبة، وإلا فلن تلوم إلا نفسك!..

ومن ناحية أخرى فقد ألفيت نفسى أتدحرج إلى أسفل وقدماى أمام جسمى.. مثل كساحة الجليد تقريبًا.. ولكن أبطأ قليلاً من أمى وأقل إثارة وأكثر وقارًا منها.. كذلك كنت أرى أكثر منها.. لكن كان ذلك فى الحقيقة هبوطًا مروعًا.. وانطلق منى ما يشبه الأنين أو العواء عندما اصطدمت أمى الحبيبة بحافة الصخور وطارت فوقها فى الهواء ثم اختفت عن الأنظار تمامًا!..

كان ذلك يشبه لوحة منزلقة إلى أسفل المنحدر إلى أن وجدت نفسى أقفز من حافة الهاوية.. ثم كان كل شىء كالحلم. ولطالما اعتقدت أن السقوط شىء رهيب.. لكنه فى الحقيقة لم يكن كذلك.. وعلمت أننى قد أظل هكذا والثلوج جاثمة فوقى لمدة أسابيع.. لذلك تحليت بالصبر والهدوء!.. وكان لدىّ انطباع قوى بأننى فى حكم الميت.. لكننى لم آبه كثيرًا لذلك!.. ويمكنك القول إننى لم أكن خائفًا من شىء بسيط كهذا، وفى نفس الوقت لأننى لم أكن مرتاحًا تمامًا!.. اللعنة!.. ثم صوت ارتطام "بوم"!.. لقد اصطدمنا بشىء ما، وتوقعت أن أشلائى سرعان ما ستتطاير فى الهواء.. لكن كل ما حدث أننا سقطنا فى المنحدر الثلجى السفلى بزاوية حادة جدًا لا تفيد إلا فى تقليل سرعة السقوط.. ثم هبطنا من جديد.. ولم أستطع أن أتابع المشاهد الطبيعية بعد ذلك، لأن الثلج تكاثف بغزارة حول رأسى.. لكننى حافظت على وضع قدمى أمامى وعلى وضع الجلوس تقريبًا.. ثم انخفضت سرعتى ثم زادت مرة أخرى.. ثم اصطدمت صدمة خفيفة ثم أخرى أقوى منها.. ثم أخرى وأخرى.. والحقيقة لا أتذكر عددها بالضبط.. ثم فجأة توقفت.. وفى هذه المرة كنت مدفونًا تمامًا فى الثلج وملووحًا إلى الجانب لوجود الكثير من الثلج الثقيل على كتفى اليمنى..

جلست برهة مستمتعًا بالسكون التام.. ثم تساءلت: "ماذا عسى يكون حدث لأمى الحبيبة"؟ وبدأت أجتهد للخروج من الشرنقة الثلجية المحيطة بى.. وليس ذلك سهلاً كما قد تتصور.. فقد كان الثلج فى كتل وبينها فراغات بحيث تعمل كقطع إسفنجية هائلة.. وبدأت أفقد أعصابى.. وبذلت كل قوتى.. وأخذت أسب وألعن..

ومن حسن الحظ أننى نجحت فى نهاية الأمر.. وزحفت خارجًا ووجدت نفسى جاثمًا فوق حافة كومة هائلة من الثلج قريبة جدًا من الجزء العلوى لنهر (ماجنرو) الجليدى.. وبعيدًا عنى بأعلى النهر الجليدى وبالقرب من الجانب الآخر كان هناك شىء صغير يشبه خنفساء سوداء تكافح بشدة للخروج من كرة ثلجية هائلة مشقوقة محيطة بها.. ووضعت يدى على فمى وأطلقت صيحة عالية مناديًا عليها.. وبعد ذلك رأيتها تلوح لى بيدها..

استغرقت حوالى عشرين دقيقة لكى أصل إليها.. وكنت أعرف نقاط ضعفى، ولذلك توخيت الحذر التام عند كل شق أو صدع أقترب منه، لأن الأمور لا تسلم دائمًا.. وعندما وصلت إليها كان وجهها متوترًا وبادرتنى قائلة:

ـ "ما الذى فعلته بالدليلين يا عزيزى؟".. فقلت: "كان لديهما الكثير لكى يحملاه.. إنهما قادمان من طريق آخر!.. لكن هل استمتعت يا أمى بكل ما حدث؟".

ـ "ليس كثيرًا جدًا يا عزيزى.. لكن يمكننى القول بأننى سأعتاد على مثل هذه الأشياء.. ترى ما هو الطريق الذى سنسلكه؟". وقلت إننا سوف نعثر على جسر جليدى عبر جبل (بيرجشروند) –وهذه هى الكلمة التى نسيتها منذ قليل –ثم نصل إلى الصخور الموجودة بالجانب الشرقى من النهر الجليدى.. ثم ننطلق بعد ذلك فى هدوء إلى الفندق.

بمجرد عودتنا أحسسنا بموجة من العداوة والحسد لم أعهدها قط من قبل ولا من بعد.. أولاً قالوا إننا لم نصعد قط إلى قمة

الجبل.. إلا أن صوت أمى الحبيبة الممتلئ كبرياءً وفخرًا رد على هذه الإهانة بحسم.. كذلك كان هناك دليل مادى هو الدليلان والحمالون القادمون فى إثرنا.. وحينما سألونا عن الدليلين قلت لهم: "إنهما يتبعان طرقكم يا قوم.. وأعتقد أنهما سيصلان إلى هنا فى وقت ما من صباح الغد".

لم يسعدهم هذا القول، لكننى حققت رقمًا قياسيًا.. وسرعان ما قالوا: إن طرقى كلها غير مشروعة فقلت لهم بجدية تامة:

- "إذا وجدت من المناسب استخدام انهمار ثلجى للعودة، فما هى المشكلة؟ وما هو وجه اعتراضكم؟.. أولاً قلتم إننى وأمى لم نتمكن من تسلق هذا الجبل اللعين.. وعندما تسلقته أنا وأمى تقولون إن هناك قواعد تسقط هذا الحق منا وتجعلنا غير مؤهلين له.. وبعد ذلك ستقولون إن المرء لا يجوز أن ينزلق.. لقد حققت رقمًا قياسيًا وأنتم تعلمون ذلك.. وأنتم حانقون لا أدرى لماذا.. الحقيقة أنكم يا قوم لا تعرفون كيف تؤدون عملكم.. وأنا أطرح عليكم هنا طريقة سريعة وجيدة ومضمونة للهبوط من على الجبل.. وعليكم أن تعرفوا هذه الطريقة لمصلحتكم".

قال أحدهم: "إن الفرصة فى ألا يُقتل كلاكما فى هذه العملية الجنونية لا تعدو واحدًا فى الألف".

- "هراء!.. إن هذه أفضل طريقة للمرء لكى ينزل من على الجبل، إذا كان فطنًا وغير ضيق الأفق.. وعليكم يا رجال أن تتمرنوا على الهبوط من ارتفاعات شاهقة من الثلج.. إن هذا سهل للغاية ومأمون تمامًا.. فقط إذا عرفتم كيف تنفذون تلك الطريقة الرائعة".

قال الشاب المتقدم فى السن ذو اللحية الرمادية الصغيرة: "أصغ إلىّ أيها الشاب الغريب الأطوار.. يبدو لى أنك لا تريد أن تفهم أنك أنت وتلك السيدة قد نجوتما من الموت بمعجزة يصعب تكرارها....".

قاطعته قائلاً: "هذا مجرد كلام نظرى.. وأنا أتساءل هل حضرتم إلى (سويسرا) من قبل يا قوم؟ لو كنت من نفس نمطكم فى التفكير، لابتكرت جبلاً نظريًا ثم بدأت أضع نقاطًا لتسلقه.. أما الجبال الحقيقية، فأنتم لا قبل لكم بها".

ثم التفت إلى أمى الحبيبة وقلت لها: "لا شك أنك متعبة يا أمى.. وحان الوقت لكى تتناولى بعض الحساء الدافئ ثم تخلدين إلى النوم فى فراش وثير.. ولن أسمح لك بالاستيقاظ قبل ٣٦ ساعة".

"لكن من الغريب أن الناس يكرهون دائمًا كل جديد ومبتكر ويألفون ما يعتادون عليه.. أما الابتكار والإبداع فهما شيئان لا يهمان الكثيرين.

قصـة البـوق الأخيـر

(١)

تبدأ قصة البوق الأخير في السماء وتنتهي في كل أنواع الأماكن حول هذا العالم.

يجب أن تعرف أن الجنة هي مكان شفوق وأن المباركين لن يستمروا إلى الأبد منشدين "هللويا" مهما كان قد قيل لك لأنهم مخلوقات محدودة ولا بد أن يأكلوا بالأبدية بقطع صغيرة كما يطعم الشخص الكتكوت أو الطفل.. وهكذا يكون هناك أيام مشرقة وتغييرات وانتعاشات ويوجد وقت أن يكيفوا حياتهم وأن الأطفال لا يزالون أطفالاً شغوفين جداً بلعبهم ومتأهبين دائمًا لأشياء جديدة هم مجرد أطفال. ولكن رغم أنك تراهم مباركين في الصور تحت أقدام السيد الرب وأن أحد هؤلاء الأولاد المباركين يتجول في عليّة، لأن السماء هي بالطبع مملوءة بالعليّات السماوية ونرى أنها تملك أطفالاً توجهوا إلى عدد من الآلات المخزنة هناك يضعون أيديهم السمينة عليها..

(١) آلة نفخ نحاسية تتكون من أنبوب طويل وقاعدة متسعة (المترجم).

والآن لا يمكننى أن أتكلم عن ماهية هذه الآلات؛ لأنه لكى نفعل ذلك يعنى أننا نفشى الأسرار المقدسة!

ولكن يمكننى أن أخبر عن واحدة وكان هذا بوقًا نحاسيًا عظيمًا والذى عمله السيد الرب عندما خلق العالم، لأن السيد الرب ينهى كل أعماله، أن ينفخ عندما يأتى وقت الحساب وقد صنعه وتركه وهناك كان كل شىء رائعًا تمامًا كما يتصوره طفل، لنعومته وتألقه ولعب به وحاول أن ينفخ فيه، وتبعه وهو خارج العليّة فى الشوارع المرحة والذهبية. وبعد جولات متقطعة بين الحصون المصنوعة من البللور والتى بدون شك قد قرأت عنها، وهناك فإن الطفل المبارك وقع ليعد النجوم ونسى كل شىء عن البوق بجانبه حتى إن مرفقه أطلقه..

سقط البوق وهو يلف، وليوم أو ما شابه ذلك والذى بدا لثوان فى السماء راقب الطفل المبارك سقوطه حتى أصبح بقعة من اللمعان المترقرق.

وعندما نظر ثانية كان البوق قد اختفى وأنا لا أعرف ماذا حدث لهذا الطفل عندما يأتى أخيرًا يوم الدينونة ويُكتشف أن البوق اللامع قد فُقِد! وأنا أعرف أن يوم الدينونة قد مر منذ زمن بسبب شرور العالم، وأعتقد أنه فى سنة ١٠٠٠ بعد الميلاد كان اليوم المتوقع سيظهر ولكنه لم يأت أبدًا، ولكنى لا أعلم أى تفاصيل سماوية أخرى مطلقًا لأن المنظر يتغير الآن أمامى إلى الطرق الضيقة للأرض..

وينتهى الاستهلال فى السماء.

(٢)

والمنظر الآن هو دكان صغير حقير فى سوق "كالدونيا" حيث الأشياء عديمة القيمة توجد بسعر زهيد جدًا، وفى نافذة العرض، كما لو كان دائمًا موجودًا هناك وليس فى أى مكان آخر يوجد بوق طويل مشوه اللون مدقوق من النحاس لم يستطع أى مشتر متطلع أن يبوق فيه، ففيه مأوى للفئران والتراب. كما غلّفه الزغب طبقاً لطراز هذا العالم، وصاحب هذا الدكان رجل عجوز وكان قد ابتاع الدكان منذ فترة طويلة، وكان البوق موجودًا ولكنه لم يعرف من أين أتى أو البلد الأصلى أو أى شىء بالنسبة له، وقرر أن يسميه الشوُم[٢] الاحتفالى القديم مع أنه كان يجب أن يعلم أن الشوُم كان آخر شىء من المحتمل أن يكون بوقًا حيث إنها كانت تذكر دائمًا معًا، وفوقها علق "أوكورديون"[٣]، أرغن ومزمار صغير وبوق وصافرات صفيح وأرغونات بالفم وكل بقية الآلات الموسيقية التى تسعد الفقراء. حتى كان يوم أتى فيه اثنان من الشباب من مصنع المحركات فى شارع (بانسوفيست) ووقفا خارج نافذة العرض وتناقشا.

تناقشا عن هذه الآلات المخزونة وكيف تحدث هذه الآلات الأصوات؛ لأنهما كانا مغرمين بالمناقشة، فأحدهما يؤكد والآخر ينكر أنه يستطيع أن يجعل كل آلة تحدث نغمة، وارتفعت حدة المناقشة وتراهنا: "افترض ـ طبعًا.. أن الآلة سليمة". قالها (هوسكين) الذى كان يراهن أنه يستطيع.

---

(٢) نوع من الآلات الموسيقية البدائية.

(٣) آلة موسيقية تحمل باليد وتتألف من منفاخ هوائى وأزرار ومفاتيح (المترجم).

فأجاب (بريجز): "هذا مفهوم". وعندئذ استدعيا كشهود شباب معنيين سود مشحمين يعملون نفس العمل. وبعد جدل طويل ومناقشة كبيرة استمرت حتى بعد الظهر، ذهبوا جميعًا للبائع العجوز فى وقت تناول الشاى عندما كان مقرح العينين بسبب رائحة اللمبة البرافين التى كانت تلقى ضوءًا خافتًا على نافذة عرضه غير الجاذبة دومًا، وبعد صعوبة شديدة رتبوا لما قيمته "شلن" سيدفع مقدمًا على أن يحاول (هوسكين) أن يجرب كل آلة فى المحل يختارها (بريجز).. وبدأت المحاولة وكانت الآلة الثالثة التى اختارها (بريجز) ليجربها هى البوق الغريب الموجود أسفل نافذة العرض ـ البوق الذى قد قرأت أنت مقدمة عنه. كان "البوق الأخير" وجربه (هوسكين) مرة ومرات ثم نفخ فيه بيأس فآذى أذنيه، ولكنه لم يستطع إخراج صوت منه ثم فحص البوق بعناية أكثر واكتشف الفئران والزغب والأشياء الأخرى التى فيه وطلب أن يُنظف.. عرف البائع العجوز أنهم معتادون على أبواق السيارات ومثل تلك الآلات، وقد وافق أن ينظفاه حتى يلمع، وهكذا أخذ الشابان ـ بعد دفع تأمين مناسب ـ البوق بهدف تنظيفه فى المصنع وطلوه بالنحاس الأصفر الممتاز كما يتعاملون مع أبواق السيارات فى المؤسسة، وبعدما فعلا هذا جرّبه (هوسكين) ثانية.

ولكنه لم يفلح وهكذا نشأ جدل كبير عن البوق سواء كان حسنًا أو سيئًا.. سواء كان فى استطاعة أى شخص أن يصوت فيه أو لا.. لأنه إذا لم يستطع أحد أن يعمل ذلك فسيكون هذا خارج الرهان.

حاول آخرون من الشباب تجريبه بمن فيهم اثنان كانا يلعبان بآلات نفخ فى فرقة وكانا مؤهلين موسيقيًا وبعد فشلهما كانا فى

صف (هوسكين) وضد (بريجز)، وكان معظم الشباب الآخرين من نفس الرأى، فقال (بريجز): "لا يعمل مطلقًا"، حيث إنه كان واسع الحيلة، وقال: "سأريكم كيف يمكنه أن يبوق". وأخذ الآلة فى يده وذهب إلى أنبوبة نفخ بالقدم فى آخر مخزن العدد، فقال أحد الشباب: "يا (بريجز) العجوز الطيب". وأزال (بريجز) أنبوب النفخ من المنفاخ الكبير والأنبوبة ثم واءم الأنبوبة بعناية وخاصة الجزء الخاص بالفم فى البوق. وبتعمد كبير أخرج فتلة من شحم العسل ضمن أشياء أخرى ومحتويات قذرة فى جيبه وربط الجزء الخاص بالفم فى الأنبوبة ثم بدأ تشغيل دواسة المنفاخ الكبير، ثم قال الشاب الذى سبق أن أبدى إعجابه بـ (بريجز): "يا (بريجز) العجوز الطيب". ثم حدث شىء غير مفهوم فكانت ومضة، وإن كانت هذه هى ومضة! ثم صوت بدا متفقًا تمامًا مع الومضة.

ثم وافق الشباب على أن البوق يقسم إلى قطع. وعندما حاولوا تقسيمه، اختفى واندفع الجميع على وجوههم وذهل (بريجز) وخاف وتحطمت شبابيك مخزن العدد وتحركت كل الأجهزة والعربات من مكانها ولم يكتشف أى جزء من البوق، وهذا حير (بريجز) المسكين كثيرًا وأدهشه؛ لأنه كان عنده انطباع غريب جدًا لا يصدق ولم يستطع أن يصفه لأى شخص، وكان انطباعه أن تلك الومضة التى خرجت مع الصوت لم تأت من البوق، بل إليه، وأنها دقت بعنف وأخذته، وأن الشكل كان مشابهًا تمامًا ليد وذراع من النار.

(٣)

ولم يكن هذا كل شىء.. لم يكن كل شىء غريبًا عن اختفاء البوق

اللامع، بل كان هناك شيء آخر كان أكثر صعوبة في وصفه.. تأثير كما لو كان شئ ما قد فُتح للحظة واحدة..

كان الشباب الذين يعملون مع (هوسكين) و(بريجز) عندهم وضوح في الرؤية أتتهم من عملهم مع الآلات، وقد شعر جميعهم بهذا الشيء الذي لا يمكن وصفه.. شيء آخر كما لو كانت للحظة العالم ليس العالم وإنما شيء أكبر مضيء وعجيب..

وهذا ما قاله أحدهم عنه حيث قال: "شعرت لدقيقة كما لو كنت قد انطلقت إلى ملكوت السماوات.. لتأتى ملكوتك.." في حين قال آخر: "لقد قلت يا إلهي!، هذا يوم الدينونة وهناك كنت أتسلق بين الملفات..." ولكن لم يستطع الآخرون أن يقولوا شيئًا محددًا أكثر من هذا.

(٤)

أكثر من هذا كانت ثمة عاصفة جبارة.. كانت عاصفة تهب على العالم كله، وهذه حيرت الأرصاد الجوية.. كانت ريحًا في لحظة تركت الجو في حالة من الترنح الجامد.. أمطار، وأعاصير، وانخفاضات في الضغط الجوى، وعدم انتظام لعدة أسابيع وقد انتقلت أخبارها من كل أنحاء الأرض. فمثلاً، في الصين تلك الدولة التي تهتم بالقبور كانت هناك عاصفة ترابية تحرك التراب في الهواء. كما هز زلزال أوروبا، زلزال مروع، ففي كل مكان أحدث شروخًا في الأضرحة وهز أرصفة الكاتدرائيات وأصص الزرع في المقابر وألقى بشواهد القبر جانبًا، وانفجرت محرقة[٤] في

---

(٤) فرن لإحراق جثث الموتى (المترجم).

(تكساس) وهاج البحر بشكل هائل، وظهر الميناء الجميل فى (سيدنى) (باستراليا) قذرًا بأسماك القرش طافية مقلوبة فى محنة ظاهرة.. وسمع صوت فى العالم كله مثل صوت البوق ثم توقف فجأة.

(٥)

وكان هذا كله السطح الخارجى للقصة، أما الحقيقة فكانت مختلفة، فكانت كالآتى: إنه فى لحظة ولمدة لحظة عاش الموتى كل من كان حيًا فى العالم رأى السيد الرب للحظة وكل قواته وكل حشد الملائكة وكل جنوده ينظرون إليهم، وقد رأوه كما يلمح الإنسان شعاع البرق فى الظلام ثم فى الحال أظلمت الدنيا ثانية وأصبحت محدودة، صغيرة وعادية، وهذه هى الحقيقة الهائلة لهذه القصة. ومثل هذه اللمحات حدثت فى حالات فردية من قبل وحياة القديسين كثرت مثل هذه اللمحة. كانت فيها مثل التى أتت (رابندرانات طاغور) عند الغَوط(٥) فى "بناريس"، ولكن هذا لم يكن خبرة شخصية ولكن خبرة عالمية، فقد أتى هذا التوهج لكل شخص ولم يكن دائمًا هو نفسه عندما شبت مناقشة فى الصحافة، لأن هذا شهد أنه قد بدا أن "شخصًا وقف بالقرب منى" وآخر رأى "كل الحشود السمائية كانت تضىء نحو العرش".

وكان هناك آخرون كانت لهم رؤية المراقبين المفكرين، وآخرون تخيلوا حراسًا عظامًا أمام شكل مُقَنع، وشخص ما لم يشعر بشىء

---

(٥) درج يؤدى إلى ضفة نهر فى الهند (المترجم).

أكثر قدسية من إحساس السعادة والحرية مثل الذى يحصل عليه الإنسان من انبعاث فجائى لضوء الشمس فى الربيع.. وهكذا اضطر الإنسان إلى تصديق أن شيئًا أكثر من رائع، شيئًا غريبًا كلية قد شوهد، وأن كل تلك الأشياء التى ظن الناس أنهم رأوها كانت ما هى إلا ترجمات لخبرات من عندهم وخيالاتهم أنه كان ضوءًا، إنه كان جمالاً رقيقًا ورزينًا مما جعل هذا العالم شفافًا رقيقًا..

ثم اختفى...

وترك الناس ولديهم السؤال عما شاهدوه وما الذى كان يعنيهم.

(٦)

جلست سيدة عجوز بجوار المدفأة فى حجرة الجلوس الصغيرة فى (وست كنسنجتن) وفى حجرها قطتها وعلى أنفها نظارتها وكانت تقرأ الجريدة الصباحية وكان بجانبها منضدة صغيرة كان عليها الشاى وفطائر مدهونة بالزبدة وكانت السيدة قد انتهت من قراءة الجرائم فى الجريدة وبدأت قراءة أخبار العائلة الملكية. وعندما انتهت من قراءة كل ما يتعلق بالعائلة الملكية وضعت الجريدة على المنضدة ووضعت القطة بجانب المدفأة وبدأت تشرب الشاى فصبت فنجانها الأول وأخذت ربع فطيرة عندما سُمع صوت البوق وبريقه. وفى خلال لحظة ظلت ساكنة والفطيرة نحو فيها، ثم وضعت القطعة ببطء على المنضدة، وقالت: "ما هذا؟" ونظرت إلى القطة ولكن القطة كانت هادئة تمامًا ثم نظرت بحدة إلى المصباح - وكان مصباح أمان، وكان دائمًا فى حالة جيدة ، ثم نظرت إلى

النافذة، ولكن الستائر كانت مسدلة، وكان كل شىء فى مكانه منظمًا.

فقالت: "أعتقد أننى سأمرض". ثم استأنفت أكلها.

(٧)

جلس السيد (بارتشستر) فى مكتبه الأنيق يكتب عظة جميلة كاملة عن الحاجة إلى الإيمان بالله، وكان مكتبه لا يبعد أكثر من ثلاثة أرباع ميل من مكان هذه السيدة. وكان السيد (بارتشستر) أنيقًا جادًا وواعظًا جيدًا، وكان راعيًا لكنيسة من كنائس (وست اند) تضم جماعات كبيرة متدينة. وكل يوم أحد وعلى فترات مريحة فى أثناء الأسبوع كان يحارب ضد المادية الحديثة والشك والتقلب والفردية الأنانية واتساع قوانين الطلاق وكل شرور عالمنا وأى شىء آخر غير شائع. وكان يعتقد ببساطة، كما كان يقول، فى كل الأشياء البسيطة القديمة العطوفة وكان له وجه قديس وقد ساعد على ذلك وجود سوالف على جانبى وجهه.. ولم يوجد شىء يحد من جمال صوته.

وكان شيئًا ثمينًا جدًا فى الحياة الروحية للولاية، وكانت عظاته المتدفقة قد أعادت الإيمان والشجاعة للأرواح المسكينة الكثيرة والتى كانت تحوم حول حافة النهر الأسود للفكر..

وكما لعبت فتيات مسيحيات جميلات دورًا رائعًا فى الأيام الأخيرة لمدينة (بومبى) فى كسب قلوب الرومان المتكبرين على إيمان مكروه ومحتقر - لذلك فإن حركات السيد (بارتشستر) الرشيقة ونغماته البسيطة وصوته الرنان اكتسب أعدادًا كبيرة من الأغنياء

أنصاف الوثنيين من النساء لحضور الكنيسة والعمل الاجتماعى الذى كانت كنيسته مركزه.

وكان يكتب عظته على ضوء مصباح كهربى ذى "أباجورة" فاخرة.. عظة عن الإيمان الهادئ الواثق (مع بعض الخبطات الحقيقية "القاسية" ضد قادة الرأى المنافسين) فى الإيمان الإلهى لآبائنا...

وعندما أتى ذلك البوق المقتضب وتلك الرؤية...

(٨)

لم يندهش أحد أو صمت مثلما فعل السيد (بارتشستر) لأنه، ربما يرجع ذلك لطبيعته الروحية الجادة فقد رأى والرؤية صدقت فتوقف عن الكتابة ووضع قلمه وجعله يتدحرج على الوثيقة وجلس مذهولاً وقد هرب الدم من وجهه وشفتيه واتسعت عيناه، فى حين أنه يكتب ويتناقش عن الله.. كان هناك الله!

فقد سبحت الستارة للحظة وسقطت ثانية ولكن عقله كان قد أخذ انطباعًا مصورًا عن كل شىء رآه، الحشود الكبيرة، والعيون المتعبة الرقيقة. لقد أحس بهذا كما لو كانت الرؤية لا تزال مستمرة خلف المكتبة.. خلف الحائط المصور والنافذة المكسوة بالستائر.. وحتى هنا كانت الدينونة!

جلس لوقت طويل غير قادر على عمل شىء إلا الاعتقاد فى فهم هذا الإدراك العلوى فكانت يداه ترتعدان على المكتب أمامه ثم اتجهت عيناه إلى الأشياء الملموسة ثانية ووقعت على الوثيقة المبعثرة

والتى شغل بها وقرأ جملة غير منتهية، وببطء أدرك معناها، وعندما عمل ذلك أتت إلى ذهنه صورة رآها من المنبر فى أثناء عظته المسائية كما كان يراها مساء الأحد، وكانت الصالات على الجانبين مملوءة بالمصلين من طبقة أدنى، والأرغن العظيم وصف المرنمين الفخم منتظرون مساندته وتأييده والمذبح العظيم إلى يساره والكنيسة الجديدة الجميلة (ليدى تشابل) إلى اليمين والتى قام بتزيينها (روجر مزاى) و(وندهام لويس) وآخرون من أفضل الفنانين.

فكر فى الجمهور المستمع على ضوء آلاف من الشموع الكهربية وكيف خطط لفقرات حديثة حتى تكون نغمات صوته الجميل منسابة ببطء مثل أوراق الشجر الذهبية فى فصل الخريف حتى تفقد بريقها فى سكون كلمة بكلمة وعبارة بعبارة حتى يأتى إلى...

"والآن الله الآب، الله الابن.....".

وكان طوال الوقت يعرف أن السيدة (بليكس) ستراقب وجهه والسيدة (مانبريدج) مستندة بكتفيها الرشيقتين إلى الأمام تتطلع وجهه....

أناس كثيرون سيراقبون وجهه وسيحضر جميع أنواع الناس إلى عظات السيد (بارتشستر) فى مختلف الأوقات. وقد قيل مرة: إن السيد (بالفور) حضر فقط ليسمعه وبعد انتهاء عظاته يأتى أغرب الناس يقدمون اعترافاتهم فى حجرة الاستقبال المفروشة جيداً خلف حجرة الاجتماعات، ويتساءل أناس لكى يأتوا ويستمعوا إليه، وكانت إحداهم سيدة جميلة جداً. وكثيراً ما حلم بأناس يأتون..

بأناس مهمين مؤثرين.. ولكنه لم يدر بفكره أنه خلف الجموع وخلف قناع من العالم المادى كانت هناك قاعة أخرى وأن الله أيضًا، راقب وجهه.

وراقبه وراقبه ـ وتملكه الرعب فوقف كما لو كان الله قد أتى إلى الحجرة أمامه فكان يرتعش بقوة ـ وأدرك أنه من المحال أن يحاول أن يخفى ما كتبه وما فكر فيه ـ إنه الغرور غير النقى الذى أصبح عليه. وأخيرًا قال: "لم أكن أعرف ذلك.." ثم سمع دقة على الباب فعرف أنه ليس وحيدًا فاستدار ورأى الآنسة (سكليتون) كاتبة الآلة الكاتبة لأنه قد أتى وقتها حتى تأتى وتأخذ الوثيقة الأصلية وتنسخها بخط مقروء. وللحظة نظر إليها بغرابة شديدة، ونظرت هى إليه بتلك العينين المحبتين، وقالت: "هل أتيت أنا سريعًا يا سيدى؟" بصوتها البطىء وغير السعيد وكانت تبدو جاهزة لأن تغادر دون ضوضاء.

ولكنه لم يجب مباشرة ثم قال: "يا آنسة (سكليتون)، إن قضاء الله قريب على الأبواب!" ولما رآها تقف متحيرة قال لها: "آنسة (سكليتون)، كيف تتوقعين أن أقوم بالعمل ونتكلم بهذا الهراء عندما يكون سيف الحقيقة مسلطًا فوقنا؟" وبدا شىء ما فى وجهها جعله يسأل سؤالاً: "هل رأيت شيئًا؟!" فأجابت قائلة: "أظن بسبب أنى كنت أحك عينى". فقال: "عندئذ يوجد إله وهو يراقبنا الآن وكل ما حولنا، هذه الحجرة الخاطئة، وهذا الزى الأحمق، وهذه الحياة المنافية للطبيعى من الحجج التجديفية..!".

وتوقف وعلى وجهه نوع من الرعب واندفع نحوها وكان يبدو

موحش العينين على السلم قبل أن يأتى خادمه، والذى كان يحمل دلوًا للفحم متجهًا إلى أعلى فقال: "(برمبتون) ماذا تفعل؟".

"الفحم يا سيدى!".

"اتركه على الأرض! ألست أنت روحًا خالدة؟ الله هنا! قريب مثل يدى! تبًا! اتجه إليه فملكوت السموات قريب!".

(٩)

لو أنك رجل شرطة حيره صدام غير مبرر بين سيارة أجرة وعمود كهربى وقد عقد الموقف الأضواء الباهرة والصوت كصوت بوق مختصر من بوق سيارة وأنت لا تريد أن تتضايق بسيد دون قبعة - رجل دين. يخرج مندفعًا من بيت خاص جميل ويخبرك: "ملكوت السموات قريب على الأبواب!" وأنت تبدى احترامًا له لأن من واجب رجل الشرطة أن يحترم السادة، ولكنك تقول له: "أنا لا أستطيع الاهتمام بهذا الآن، آسف يا سيدى.. شىء واحد فى وقته، فأنا علىّ الاعتناء بأمر الحادث الذى وقع"، ولو أنك رجل دين متمرس يعرف طريقه فى الحياة فأنت لا تريد أن تزعج الشرطة فى الميدان بعد ما قال هذا رغم أنك تعتقد أن الله ينظر لك، وأن القضاء قريب على الأبواب فتسير وتستمر فى عملك منقبض الصدر تبحث عن آخر يعطى اهتمامًا لأخبارك الهائلة.

وهذا ما حدث للراعى المحترم السيد (بارتشستر)، فقد اختبر جزءًا صغيرًا من فقدان الثقة وقد استمر مارًا بعدد من الناس دون

أن ينطق بكلمة، وكان الشخص التالى الذى بادره بالكلام امرأة تبيع الأزهار قابعة بجوار سلتها على ناصية ميدان (تشسنجتون) ولم تستطع أن توقفه عندما بدأ يتكلم معها، لأنها كانت تربط مجموعة من أزهار (الأقحوان) البيضاء، وكان طرف الخيط الذى تربط به بين أسنانها، وكانت ابنتها الواقفة بجانبها كانت من نوعية الفتيات الصامتات دومًا!

فقال السيد (بارتشستر): "هل تدرين، يا سيدتى الطيبة، أنه فى أثناء ذهابنا، نحن فقراء العالم، لعملنا هنا، فى حين نحن نخطئ ونتخبط ونتبع كل ما هو نهايته دنيئة يكون قريبًا إلينا وفوقنا وحولنا ويراقبنا ويديننا. إنه الله وملائكته المقدسون. فقد رأيت رؤية، وأنا لم أكن وحدى، فقد رأيت أننا فى ملكوت السماوات الآن وهنا وقت الدينونة حل حولنا الآن! لم نر شيئًا؟ لا أنوار ولا أصوات ولا تحذيرات؟".

وعندما فرغت بائعة الورد من حزم الورد واستطاعت أن تتكلم فقالت: "أنا رأيت ذلك، و(مارى) رأته أيضًا".

"حسنٌ" قالها السيد (بارتشستر)، "ولكن يا إلهى إن هذا لا يعنى لنا شيئا!" قالت هذا بائعة الورد.

(١٠)

وعندئذ شعر السيد (بارتشستر) بقشعريرة تهز أوصاله وسار عبر ميدان (تشسنجتون) كان لا يزال متأكدًا أنه قد رأى الله فى مكتبه ولكنه لم يكن متأكدًا الآن أن العالم سيصدقه، واعتقد أن فكرة اندفاعه خارجًا ليخبر الناس كانت فكرة متسرعة ويجب ألا

ينصح بها، فقبل كل شئ إن كل كاهن فى "كنيسة إنجلترا" ما هو إلا وحدة فى آلة عظيمة وفى عالم فيه أزمات روحية. فإن من واجب هذه الآلة أن تعمل كجسد واحد حازم، فكر أن يذهب ويخطر الأسقف العظيم (وامباك) فاستدعى سيارة أجرة وفى خلال نصف ساعة كان فى حضرة ضابطه الآمر وكانت مقابلة عصيبة جداً ومؤلمة للغاية.

اعتقد السيد (بارتشستر) وقد أثر فيه الأسقف أنه كان مصمماً ألا يصدق، ولأول مرة فى حياته الوظيفية أدرك السيد (بارتشستر) مدى ما تؤثر به الغيرة من عداوة من واعظ مفوه جميل وشعبى محبوب فى عقول النظام الهرمى، فلم تكن -كما شعر - محادثة وإنما كانت مثل إلقاء شخص فى حقل صغير به ثور يوشك أن يصيبه بقرنه.

قال الأسقف: "لا يمكن تحاشى مسرحة هذا العمل النجومى مع إثارته الروحية المتطرفة وأزمة الروح المبالغ فيها وكل بقيتها مما يؤدى إلى تعطل يؤلمك - إنك حكيم لأنك أتيت لنا، وإنما أرى أنك لا تزال فى بداية مشكلاتك، وأنه يوجد فى عقلك هذيان جديد يتجمع ليقهرك، أصوات، واتهامات خاصة وإرساليات ورؤى غريبة.. أتمنى أن يكون لدى القوة لأوقفك الآن - لأرسلك إلى خلوة..".

حاول السيد (بارتشستر) جاهداً ضبط أعصابه وقال: "ولكنى أقول لك إننى قد رأيت الله!".

وأضاف كما لو كان يؤكد لنفسه: "بوضوح وبتأكيد أكثر مما أراك".

فقال الأسقف: "هذه هى الطريقة التى تطور فيها مذاهب جديدة وهكذا يأتى أنبياء مزيفون من قلب الكنيسة، فالناس محدودة الذكاء التى من نوعيتك..".

فانفجر السيد (بارتشستر) من ذهوله فى بكاء وقال: "ولكنى أقول لك إنه هو هنا أنا رأيت.. أنا أعرف." فقال الأسقف: "لا تتكلم بهذا الهراء! لا يوجد أحد هنا سوانا".

فجادل السيد (بارتشستر) بعنف واحتج قائلاً: "له كل المجد".

وتحكم الأسقف فى نفسه حتى لا يفقد شعوره بالصبر: "إنها صفة مميزة فى حالتك أنك لا تستطيع أن تميز بين الحقيقة الواقعة والحقيقة الروحية.. والآن استمع لى، فإذا كنت تهتم بسلامة عقلك واحتشامك العام ونظام الكنيسة فاذهب إلى المنزل واخلد مباشرة إلى النوم وأرسل إلى (برودهايز) واطلب أن يكتب لك عن مهدئ واقرأ شيئًا رشيقًا ومنتقيًا، وأنا من ناحيتى أميل أن أوصى بكتاب "حياة سانت فرانسيس فى أسيس ...".

(١١)

لسوء الحظ لم يتوجه السيد (بارتشستر) إلى المنزل فذهب من محل إقامة الأسقف مذهولاً ومندهشًا، وخطر على باله فكرة السيدة (مانبريدج).. هى ستفهم ـ قاده الخادم لحجرة جلوسها الصغيرة، وكانت قد صعدت إلى حجرتها لترتدى ثيابها، ولكنها لما سمعت أنه يريد مقابلتها فجاءت مرتدية جونلة على قميص نومها الشفاف. حاول أن يخبرها بكل شىء ولكنها استمرت تقول: "أجل،

أجل" كانت متأكدة أنه يريد فنجانًا من الشاى، فقد بدى عليه الإعياء والشحوب فدقت الجرس وأمرت الخادمة أن تحضر عدة الشاى، وأجلست "القديس" فى كرسى بمساند بجوار المدفأة ووضعت مساند حوله وحاولت أن تخدمه، وعندما بدأت تفهم جزئيًا ما حدث له أدركت فجأة أنها هى أيضًا قد اختبرت ما اختبره فكانت هذه الرؤيا موجة عقلية بين عقليهما المتصلين والمتعاطفين. وهذا الفكر قد توقد فيها عندما غلت الشاى له بيديها. كان يبكى.. كيف أحس برقة كل تلك الأشياء! فكان حساسًا أكثر من النساء. يا له من جنون أن يتوقع أن يفهم من أسقف! ولكن كان ذلك مثل سذاجته فهو لم يكن ليعتنى بنفسه. حملتها موجة من الرقة بعيدًا "ها هو شايك!" قالت هذا وهى منحنية فوقه ومدركة تمامًا من حلاوة عبيرها ودفئه. وفجأة ـ ولم تعرف أبدًا لماذا كانت على تلك الحالة وتأثرت لدرجة أن قبلته على جبينه...

لا يمكن وصف الراحة التى يشعر بها الإنسان لصداقة امرأة صادقة المشاعر..

وفى حوالى السابعة والنصف من ذلك المساء عاد السيد (بارتشستر) إلى منزله وأدخله (برومبتون) وقد ارتاح (برومبتون) أن سيده قد عاد إلى طبيعته ثانية، فقال السيد (بارتشستر): "يا (برومبتون)، أنا لن أتناول العشاء اليوم مجرد قطعة لحم ضأن وزجاجة صغيرة من نبيذ (بييرجوى) على صينية فى مكتبى فعلىّ أن أنتهى من كتابة العظة الليلة".

وقد وعد السيدة (مانبريدج) أنه سيعظ الليلة خصيصًا لها!

(١٢)

وكما كان مع السيد (بارتشستر) و(برومبتون) والسيدة (مانبريدج) ورجل الشرطة والسيدة العجوز صغيرة الحجم وميكانيكى السيارات وسكرتيرة السيد (بارتشستر) والأسقف.. هكذا يكون مع كل العالم.. فلو كان شيئًا غريبًا وعظيمًا لن يدركه أحد فسيستمر البشر فى أعمالهم حتى لو أن واحدًا قام من الموت ليخبرهم أن ملكوت السموات على الأبواب! رغم أن الملكوت ومجده أصبح مرئيًا ويعمى أبصارهم، سوف يستمر البشر فى أعمالهم كما تستمر الأرانب تتغذى فى زرايبها على بعد مئة ياردة من بطارية المدفعية، لأن الأرانب أرانب وخلقت لتأكل وتتكاثر، والناس هم بشر ومخلوقات معتادة على سلوكيات وعادات وتحيزات معينة. ولا يأبهون لمن خلقهم وسوف يحاسبهم فى يوم ما. ربما يتذكرون هذا بين حين وآخر، كما تنظر الأرانب أحيانًا إلى ارتجاج المدافع، ولكنها لن تتوقف أبدًا عن أكل الخس وملاحقة إناثها..

القـوم المتوحشـون

"هل يمكن أن تعيش تلك العظام وتدب فيها الحياة؟" .. وهل هناك أشياء أكثر فناء وصمتا وجمودا للعين غير الخبيرة من بقايا عظام ذات لون أصفر باهت وفتات من الصوان المتكسر، تشكل أول آثار لكائن بشرى فى هذا العالم؟.. إننا نرى هذه الأشياء فى صناديق زجاجية بالمعارض، ومرتبة ومصنفة طبقًا لقواعد لا نفهمها جيدًا وتسمى بأسماء غريبة بالنسبة لنا.. فتسمع مثلاً عن الآثار (الشيلينية)(١) و(الموستريانية)(٢) و(السوليترية)(٣) المأخوذة أساسًا عن أماكن مثل (شيل) و(موستيه) و(سوليتريه) حيث تم العثور فيها على أول عينات من هذه الآثار القديمة.

---

(١) الشيلينة حضارة من العصر الحجرى القديم، نسبة إلى مدينة (شيل) التى تقع فى شمال فرنسا، حيث اكتشفت لأول مرة آثار ترجع لهذه الحضارة التى سادت منذ نحو ٥٠٠ ألف سنة (المترجم).

(٢) الموستريانية، اشتق اسمها من مدينة (موستيه) فى فرنسا، يعتقد بأن هذه الحضارة حدثت بين ٧٠ و١٢٠ ألف سنة مضت (المترجم).

(٣) السوليترية حضارة قديمة تنسب إلى منطقة (سوليتريه) فى شرق فرنسا، وقد ظهرت منذ نحو ١٩ ألف سنة (المترَجم).

ويحدّق معظمنا من خلال زجاج صناديق حفظ تلك الآثار.. ونتعجب بشكل غامض للحظة من هذا التاريخ القديم نصف الهمجى ونصف الحيوانى لجنسنا البشرى.. ثم نمضى إلى حال سبيلنا.. ونحن نقول "إنهم أناس بدائيون" و"إنها أدوات من الصوان كان القدماء يستخدمونها فى مطاردة الماموث"(٤) .. بيد أن القليلين منا فقط هم الذين يدركون كم المعلومات غير المحدود الذى تمكن الباحثون العلميون من التحقق منها باختباراتهم المعقدة، التى لا تتوقف قط، للأدلة المستقاة من أولئك "الشهود" العنيدين الذين تعرضوا للصدأ فى غضون السنوات القليلة الماضية.

وأحد أغرب نتائج هذا البحث الحديث هو الإدراك التدريجى بأن الأعداد الكبيرة من تلك الأدوات الصوانية وبعض البقايا العظمية الأقدم منها التى تنسب عادة لأفراد من جنسنا البشرى - هى فى حقيقة الأمر آثار لمخلوقات تشبه الإنسان فى نواح كثيرة، ولكنها بالتعبير الدقيق لا تنسب إلى جنسنا البشرى.. ويسمى العلماء والباحثون تلك السلالات المنقرضة "الإنسان"، مثلما يسمون الأسود والنمور السنوريات أو القطط.. ولكن ثمة أسباب وجيهة جدًا للاعتقاد بأن هؤلاء البشر الأوائل، لم يكونوا من سلالتنا البشرية الحقيقية ولا من صلب أسلافنا، وإنما هى حيوانات غريبة انقرضت، وهى تشبهنا تمامًا، لكنها مختلفة عنا.. مثل حيوان الماموث المنقرض، الذى كان يشبه الفيل تمامًا ولكنه ليس فيلاً.

---

(٤) حيوان ضخم منقرض يشبه الفيل (المترجم).

تم العثور على الأدوات الصوانية والعظمية فى رواسب موغلة فى القدم.. فبعض الآثار الموجودة فى متاحفنا، قد يبلغ عمرها مليون عام أو أكثر.. ولكن آثار بقايا المخلوقات البشرية الحقيقية، التى تماثلنا تمامًا من الناحيتين العقلية والتشريحية لا يبلغ عمرها أكثر من عشرين أو ثلاثين ألف عام.. والإنسان الحقيقى ظهر فى أوروبا فى ذلك الوقت.. لكننا لا ندرى من أين جاء بالضبط.. أما كل تلك الحيوانات المستخدمة للأدوات والمشعلة للنيران والتى تشبه الإنسان فلم تكن بشرًا حقيقيين، وهلكت قبل ظهور الإنسان الحقيقى..

وتفرق الجهات العلمية بالفعل بين أربع سلالات من أولئك البشر الزائفين (أشباه البشر)، ولعله من المحتمل أن نسمع من وقت لآخر عن وجود سلالات أخرى.. وأحد السلالات الغريبة التى ابتكرت تلك الأدوات والعدد التى تم اكتشافها هى "الشيليين" وهذه الأدوات والعدد أهمها شفرات حجرية على شكل باطن القدم، وجدت فى رواسب طبيعية تعود إلى ٣٠٠ أو ٤٠٠ ألف عام مضت.. وهى أدوات كبيرة يبلغ حجمها أربع أو خمس مرات قدر الأدوات التى صنعها أى جنس بشرى معروف، وفى نفس الوقت مصنوعة بطريقة جيدة.. ومن المؤكد أن بعض المخلوقات الذكية هى التى أنتجتها.. ولا بد أن أيدى ضخمة خرقاء قبضت على تلك القطع الصخرية الغليظة واستخدمتها.. غير أنه حتى الآن لم يتم اكتشاف سوى جزء صغير من هيكل عظمى، يرجع إلى هذا العصر، عبارة عن عظم فك سفلى ضخم بلا ذقن ويحمل أسنانًا أكثر تخصصًا من أسنان إنسان العصر الحالى..

وليس بمقدورنا سوى تخمين ما الذى كانت تأكله تلك المخلوقات التى ـ بذلك الفك القديم ـ تدل على قرب ظهور الإنسان.

ولكن تلك المخلوقات استخدمت فى مواجهة أعدائها تلك الفكوك الضخمة وليس الشفرات الصوانية الخرقاء. ولعلها كانت مخلوقات هائلة الحجم وأكبر بكثير من الإنسان العادى.. وربما كانت قادرة على الإمساك بالدببة من مؤخرة عنقها وبالأسود حادة الأسنان من حلقها.. نحن لا ندرى شيئًا عن ذلك.. إذ إن كل ما تحت أيدينا شفرات حجرية ضخمة وأجزاء من فك جبار.. وقدرة هائلة على التفكير والخيال!

وأكثر لغز محير من بين ألغاز العصور الجليدية وصعوبات الحياة، مثل مجىء الإنسان الحقيقى هو لغز البشر "الموستريانيين" لأنهم ربما كانوا ما يزالون يعيشون فى العالم عندما ظهر الإنسان الحقيقى هائمًا فى أوروبا.. وهم قد عاشوا متأخرين كثيرًا عن العماليق الشيليين المجهولين، منذ حوالى ٣٠ إلى ٤٠ ألف عام، وبالمقارنة بزمن ظهور الشيليين فإنه يعتبر كالأمس بالنسبة للزمن الذى عاش فيه الشيليون وهؤلاء الموستريانيون أو "النياندرليون"(٥).. وكان الاعتقاد السائد حتى وقت قريب أنهم أناس حقيقيون مثلنا تمامًا.. لكننا الآن بدأنا ندرك أنهم مختلفون كثيرًا لدرجة أنه يستحيل كونهم ذوى قرابة شديدة لنا..

---

(٥) إنسان الكهوف (نياندرنالى)، وهو الإنسان المنسوب إلى وادى (النياتدرنال) قرب مدينة (دوسيلدورف) بألمانيا، حيث وجدت أول هياكل عظمية لهذا الجنس (المترجم).

فهؤلاء كانوا يسيرون.. متثاقلين بشكل مترهل، ولم يكن بإمكانهم تدوير رؤوسهم إلى أعلى تجاه السماء.. كانت أسنانهم مختلفة تمامًا عن أسنان الإنسان الحقيقى.. وهناك شىء عجيب فيهم من وجهة معينة أو وجهتين أنهم أقل شبهًا بالقرود منا!.. فمثلاً الأنياب والسن الثالث من الوسط الكبير جدًا لدى الغوريللا والمدبب لدى الإنسان والذى ما زال مختلفًا عن بقية الأسنان ليس موجودًا إطلاقًا لدى النياندرليين وكان لهم صف من الأسنان المتماثلة تمامًا، كذلك كانت أسنانهم الجانبية القاطعة مختلفة تمامًا عن أسناننا، وأقل شبهًا بأسنان القردة منا!..

وكان للواحد منهم وجه أكبر وحاجب أصغر مما لدى الإنسان الحقيقى.. وليس ذلك لأن دماغه كان أقل حجمًا فقد كان دماغه فى حجم دماغ الإنسان المعاصر، لكنه كان مختلفًا فى الشكل أى أكبر من الخلف وأصغر من الأمام، ومن هنا فلعله على الأرجح كان يفكر ويتصرف بشكل مختلف عنا.. وربما كانت له ذاكرة أفضل وقدرة على الاستنتاج أقل مما لدى الإنسان الحقيقى.. أو ربما كان له طاقة عصبية أكبر وذكاء أقل..

لم يكن له ذقن، والطريقة التى تتعلق بها عظام الفكين بعضهما على بعض، تجعل المرء يشك كثيرًا فيما إذا كان بمقدوره إخراج الأصوات التى نستخدمها نحن فى حديثنا.. ولعله لم يكن يتكلم قط.. ولم يكن يستطيع الإمساك بمسمار بين إصبعيه السبابة والإبهام.. والحقيقة أنه كلما زادت معرفتنا بهذا الإنسان الوحشى، زادت غرابته بالنسبة لنا وقل شبهه بالمتوحشين من سكان استراليا

الأصليين الذين يُعتقد أنهم عاشوا فى وقت من الأوقات على الأرض.

ونظرًا لأننا ندرك مدى الحاجة إلى إيجاد علاقة وثيقة بين هذا الحيوان القبيح القوى الأخرق الشبيه بالإنسان والبشر، فإنه يصبح الاحتمال الأقل أنه كان عارى الجلد وذا شعر يشبه شعرنا والاحتمال الأكبر أنه كان مختلفًا.. ولعله كان خشنًا أو كثيف الشعر بشكل غريب غير بشرى، مثل الفيل كثيف الشعر والخرتيت اللذين كانا معاصرين له.. وهو مثلهما عاش فى أرض جرداء مكشوفة على حافة المناطق والأنهار الجليدية، التى كانت وقتئذ تتراجع باتجاه الشمال.. ولا بد أن هذا المخلوق الرهيب كثيف الشعر كان بشع المنظر، إذ كان ذا وجه كبير مثل القناع وحاجبين ضخمين ودون جبهة وكان يقبض على قطعة ضخمة من صخور الصوان ويركض كقرد البابون، ورأسه متجه إلى الأمام وليس إلى أعلى مثل البشر، لا بد أنه كان مخلوقًا بشعًا ومروّعًا لأجدادنا وأسلافنا الذين جاءوا بعده..

ومن المؤكد تقريبًا أن هؤلاء الرجال المتوحشين تقابلوا مع البشر الحقيقيين.. وأن الإنسان الحقيقى وصل إلى المنطقة التى يعيش فيها (النياندرليين).. وقامت بينهما صراعات ومعارك.. وربما نكتشف فى يوم ما دلائل على نشوب تلك الحروب.

أوروبا الغربية، التى هى الجزء الوحيد من العالم الذى تم بحثه واستقصاؤه بشكل كامل ودقيق بحثًا عن أى آثار أو بقايا للإنسان الأول أو البشر البدائيين، بدأت وقتئذ وببطء تزداد دفئًا عصر بعد

آخر.. والأنهار الجليدية التى غطت قبل ذلك نصف القارة أخذت تتراجع.. وأخذت تنتشر ببطء رقعات عريضة من الأعشاب والمراعى الصيفية وغابات الصنوبر المتفرقة وأشجار البتولا فوق الأراضى التى كانت من قبل مغطاة بالجليد.. وفى ذلك الوقت أخذ جنوب أوروبا يصبح تدريجيًا مثل شمال جزيرة (لابرادور)[٦] الحالية.. واختبأت بعض الوحوش الشرسة وسط الجليد، فى حين كمنت الدببة فى سباتها الشتوى..

ومع نمو الأعشاب والنباتات فى الربيع وتكاثف أوراق الأشجار، أقبلت قطعان ضخمة من حيوانات الرِّنة والجياد البرية والماموث والأفيال والخراتيت فى اندفاعها تجاه الشمال من منحدرات الوادى الدافئ الكبير الذى امتلأ وقتئذ بالمياه، وأصبح فيما بعد البحر الأبيض المتوسط. وفى تلك الأيام وقبل أن تتدفق مياه المحيط فى البحر الأبيض المتوسط اكتسبت عصافير الجنة وكثير من الطيور الأخرى عادة الاتجاه شمالاً، وهى عادة تجبرها فى أيامنا هذه على قبول تحدى عملية عبور البحار التى تكتنفها المخاطر والتى كانت تتدفق وتخفى الأسرار الدفينة للوديان القديمة، التى أصبحت جزءًا من البحر الأبيض المتوسط.

فرح الرجال المتوحشون كثيرًا لعودة الحياة، وخرجوا من الكهوف التى قبعوا بداخلها طوال فترة الشتاء.. وكانوا يقتلون الحيوانات ليقتاتوا بلحومها.. ولا بد أن أولئك الناس المتوحشين، كانوا من المخلوقات الانعزالية التى تعيش بمفردها.. وكان الطعام فى الشتاء

---

(٦) جزيرة تقع بالقرب من شاطئ المحيط الأطلنطى فى كندا (المترجم).

نادرًا ما يكفى تلك المجتمعات.. ولعل الذكر كان يعيش مع أنثى واحدة أو نحو ذلك، ثم يفترقان فى الشتاء ويلتقيان مرة أخرى فى الصيف.. وعندما يكبر أبناؤه ويبدأون فى مضايقته، كان الرجل المتوحش إما أن يقتلهم أو يطردهم ليهيموا على وجوههم.. وعندما كان يقتلهم، فلعله كان يلتهم لحومهم، وعندما كانوا يهربون منه، فلعلهم كانوا يرجعون لقتله.. ولعل هؤلاء المتوحشين كانوا يتمتعون بذاكرة قوية، ويحددون لأنفسهم أهدافًا لحياتهم!..

ثم جاء البشر الحقيقيون إلى أوروبا ولا ندرى من أين.. ربما من الجنوب.. ولكن عندما ظهروا كانت أيديهم بارعة مثل أيدينا.. ورسموا صورًا ما زلنا نعجب بها.. كما رسموا صورًا بالزيت وكانوا ينحتون الصخور وينقشون عليها.. والأدوات التى صنعوها كانت أصغر من الأدوات التى صنعها (الموستريانون). وأصغر بكثير من تلك التى صنعها (الشيليون). لكنها كانت جيدة الصنع وأكثر تنوعًا.. ولم يكونوا يرتدون ثيابًا تستحق الذكر، لكنهم رسموا صورًا زيتية لأنفسهم، ولعلهم كانوا قادرين على التحدث بعضهم مع بعض.

جاء البشر الحقيقيون فى جماعات صغيرة، وكانوا يعيشون حياة اجتماعية ليست انعزالية مثل (النياندرليين).. وكانت لديهم قوانين ونظم تحكمهم وسارت عقولهم فى طريق طويل من التطور والتكيف وقمع النفس، مما أدى إلى أن أصبحت عقولهم معقدة مثل عقول الإنسان المعاصر، بحيث تسع للرغبات المكبوتة والخفية والتشويشات والضحكات والخيالات الجامحة، والأحلام وأحلام اليقظة.. وكان هؤلاء الناس مرتبطين بعضهم ببعض.. وقد

حافظوا على نظامهم من خلال وضع قيود وضوابط غريبة للمحرمات..

لكنهم كانوا بدائيين وهمجيين أيضًا وعرضة لاستعمال العنف والتشنج لتحقيق رغباتهم ونزواتهم الجسدية.. وفى حدود قدراتهم المتواضعة التزموا بالقوانين، والأعراف التى كانت سائدة بالفعل منذ أزمان موغلة فى القدم، وكانوا يخشون عقوبات التصرفات الخاطئة.. ونستطيع أن نفهم شيئًا مما كان يدور فى أذهانهم، إذا كنا نتذكر المخاوف والرغبات والأوهام والخرافات التى سيطرت على عقولنا إبان فترة طفولتنا.. إن صراعاتهم الأخلاقية أو المعنوية هى نفس صراعتنا ولكن بأشكال أكثر بساطة أو بدائية.. إنهم كانوا على شاكلتنا.. لكننا لا نستطيع أبدًا أن نفهم القوم المتوحشين.. لا يمكن لعقولنا - التى تختلف عن عقولهم - أن تفهم الأفكار الغريبة التى كانت تراود عقل كل منهم تجاه الآخرين، تلك العقول ذات الشكل الغريب عن شكل عقولنا.. مثلما لا يستطيع أى منا الآن، أن يحلم أو يشعر بما تحلم به الغوريلا أو تشعر!.

إننا نستطيع أن نفهم كيف اندفع الإنسان الحقيقى باتجاه الشمال، من الأراضى المفقودة بوادى البحر الأبيض المتوسط إلى الوديان الإسبانية المرتفعة وجنوب فرنسا ووسطها، وهكذا حتى وصلوا إلى البلاد التى تعرف بإنجلترا حاليًا - إذ لم تكن هناك فى ذلك الوقت قناة المانش أو القناة الإنجليزية بين إنجلترا وفرنسا - وباتجاه الشرق إلى أرض الراين (ألمانيا) وعبر القفار البرية الواسعة (بحر الشمال حاليًا) والسهل الألمانى.. ثم هاجروا من القفار

الجليدية لجبال الألب ـ التى كانت فى ذلك الوقت أكثر ارتفاعًا ومغطاة بأنهار جليدية مترامية الأطراف ـ إلى الشرق..

هؤلاء الناس رحلوا شمالاً لسبب وجيه هو أن أعدادهم تتزايد، وكميات الطعام تتناقص.. كما أن العداوات والحروب كانت تقض مضاجعهم.. لم تكن لهم مواطن ثابتة.. ولذلك كان من عادتهم الرحيل مع بدء المواسم.. ومن وقت لآخر كانت تضطر جماعات منهم، بدافع الجوع والخوف، إلى الرحيل لمسافات أبعد شمالاً إلى وجهات مجهولة تمامًا بالنسبة لهم..

ويمكننا أن نتخيل ظهور جماعة صغيرة من أولئك القوم الرحَّل، أجدادنا الأوائل، وهى تجتاح بعض القمم العشبية لكى تلج تلك الأرض الشمالية.. والوقت قد يكون أواخر الربيع أو أوائل الصيف.. ولعلهم كانوا يطاردون بعض الحيوانات العاشبة أو قطيعًا للرّنة أو الجياد البرية.. ويتوفر لعلماء الإنسان وتطور السلالات البشرية، أكثر من عشر طرق مختلفة، لعرض تفاصيل ظهور عادات أولئك المهاجرين الأوائل من أجدادنا البشر.

لم تكن تلك الجماعة كثيرة العدد، إذ لو كانت كذلك لما كان ثمة سبب فى طردها ورحيلها شمالاً بعيدًا عن موطنها التى عاشت فيه وتجولت فى ربوعه كثيرًا.. رجلان أو ثلاثة رجال كبار فى الثلاثين من العمر أو نجو ذلك، وثمانى أو عشر نساء وفتيات وبضعة أطفال صغار.. وبعض غلمان وصبية بين الرابعة عشر والعشرين من العمر.. هذه الأعداد كانت كافية لإنشاء جماعة كاملة.. وهم أناس ذوو عيون بنية أو سمراء وشعر داكن متماوج.. لم يكن الوقت قد

حان لظهور الشعر الأوروبى الأشقر الناعم والأسود الضارب إلى الزرقة المميز للصينيين.. والرجال الأكبر سنًا لعلهم كانوا يقودون الجماعة، مع ابتعاد النساء والأطفال عن الشباب والرجال، تحت سلطان بعض المحرمات المعقدة والمحددة التى تمنع أى رفقة حميمية.

وكان القادة يتابعون قطيع الحيوانات.. وتعتبر هذه المتابعة أو اقتفاء الأثر أعظم إنجازات البشرية فى ذلك الوقت.. فكان بمقدورهم قراءة أى أثر أو علامات تبدو خفيّة للعين المعاصرة المتحضرة ومعرفة قصة رحلة اليوم السابق لقطيع من الجياد القوية الصغيرة أمامهم. كما مكنتهم خبرتهم الفائقة فى هذا المجال من الانتقال من أى أثر ضئيل إلى آخر بسرعة فائقة مثلما يتبع الكلب البوليسى رائحة ما..

الجياد التى كانوا يقتفون أثرها، كانت على مسافة صغيرة أمامهم.. كما أنهم، من قراءة الآثار بدقة، عرفوا أن عددها كبير وأن شيئًا ما لم يروّع قلوبها.. كانوا يرعون على النباتات والأعشاب ويتقدمون ببطء شديد ولم تكن هناك أى آثار لكلاب برية أو أى أعداء آخرين تحملهم على الفرار منها.. وكانت أيضًا بعض الفيلة تتجه شمالاً.. فى عدة مرات تقابل قبيلتنا البشرية هذه، مخلفات وآثار الخراتيت الصوفية التى تهاجر غربًا..

رحلت قبيلتنا بالقليل فقط من الأحمال.. وكانوا أساسًا عرايا.. ولكن تطلى كل أجسامهم بالمَغْرَة(٧) البيضاء والسوداء والحمراء

---

(٧) نوع من الطين يدخل فيه أكسيد الحديد الأرضى وكان يستخدم كصبغة (المترجم).

والصفراء. وفى ذلك العصر من الزمن الموغل فى القدم كان من الصعب معرفة ما إذا كانوا يضعون أوشامًا على أجسامهم أو لا..

ويحتمل ألا يكونوا قد استخدموها على الإطلاق. الأطفال الصغار والرضع كانت تحملهم أمهاتهم على ظهورهن فى علّاقات أو أكياس مصنعة من جلود الحيوان.. ولعل بعضهن أو كلهن كن يرتدين عباءات أو أغطية للرأس وساترًا لعورتهن من الجلد، علاوة على بعض الجيوب والأحزمة الجلدية.. فى حين كان الرجال يحملون حرابًا حجرية مسننة وأيضًا بعض قطع الصوان الحادة فى أيديهم لحماية أنفسهم.

لكن جماعتنا هذه لم يكن بها أى رجل عجوز يعتبر قائدها وسيدها ووالدها.. فمنذ بضعة أسابيع هجم ثور ضخم بمنطقة المستنقعات البعيدة على الرجل العجوز وسحقه بقدميه حتى مزقه إربًا.. وعندئذ قام شباب من قبيلة أخرى أكبر عددًا بمهاجمة فتاتين من هذه الجماعة وحملوهما وانطلقوا بهما بعيدًا وبسبب تلك الخسائر انطلق من بقى من تلك الجماعة بحثًا عن أرض صيد جديدة يعيشون فيها.

عندما ارتقت تلك الجماعة قمة التل، رأت المشهد الطبيعى العام، لتلك البقعة الصغيرة الشريطية، التى تعتبر أكثر انكشافًا وعزلة وفوضى، عن أوروبا الغربية المعاصرة.. وكانت حولهم مرتفعات مكسوة بالأعشاب ويطير بينها طائر الزقزاق[٨] مطلقًا صيحاته الكئيبة.. وأمامهم يمتد واد كبير تحوطه تلال أرجوانية

---

(٨) طائر بحرى لونه أسود مخضر طوله نحو ثلاثين سنتيمتر (المترجم).

عرضية تطارد فوقها ظلال سحب شهر أبريل بعضها بعضًا.. ثم ظهرت غابات أشجار الصنوبر ونباتات الخلنج الشجرى السوداء، حيثما أصبحت تلك التلال رملية، وامتلأت الوديان بأدغال الأشجار السمراء.. وامتد على طول الأغوار الممتلئة بالمياه شريط أخضر لامع من المستنقعات المتفحمة، والبرك القذرة الطويلة الموحلة من مياه كثيفة الأعشاب..

فى ذلك الوادى كمن الكثير من الوحوش الضارية مختفية فى الأدغال، وحيثما تشق الجداول التربة، توجد صخور منحدرة وكهوف.. وبعيدًا بامتداد المنحدرات الشمالية لسلاسل الجبال التى أصبحت مكشوفة، كان يمكن رؤية الجياد الصغيرة البرية، تقتات بالنباتات والأعشاب الوفيرة.. وكان لهذه الجماعة زعيمان شقيقان شابان، وعقب إصدار الزعيمين لإشارة معينة، توقفت جماعة البشر الصغيرة، وصمتت على الفور امرأة كانت تثرثر بصوت خافت مع فتاة صغيرة.. وتفحص الشقيقان الطريق البرى أمامهما باهتمام، وسرعان ما أشار أحدهما بيده وقال فجأة: "أوها".. فصاح أخوه: "أوها" وعندئذ تعلقت أعين القبيلة بأكملها بالإصبع التى تشير.. وأصبحت الجماعة كلها وكأنها نظرة واحدة محدّقة.. وتجمد كل واحد منهم فى مكانه دون حراك وعقدت الدهشة ألسنتهم وحولتهم إلى مجموعة من التماثيل المتوترة.

فعلى مسافة بعيدة وقف على المنحدر مخلوق رمادى أحدب الظهر، أكبر من الإنسان حجمًا، ولكن أقصر منه، وظهر بشكله الجانبى وأدار رأسه تجاههم وبدا أنه تجمد فى مكانه بسبب نفس

القدر من الدهشة.. كان يزحف متسلقًا إلى أعلى خلف طيّة صخرية فى الأرض، لكى يحدق فى الجياد الصغيرة.. وفجأة أدار عينيه ورأى القبيلة.. كان رأسه بارزًا إلى الأمام كقرد الرياح، ويمسك فى يده شيئًا بدا لقبيلة البشر كصخرة ضخمة.

أدى اكتشاف وجود هذا الحيوان إلى تجمده هو ومكتشفوه لبعض الوقت.. ثم بدأ بعض النساء والأطفال فى الحركة والاصطفاف فى صف واحد لرؤية المخلوق الغريب بشكل أفضل.. وقالت امرأة عجوز شمطاء فى الأربعين من العمر: "إنسان!" .. وعند حركة تلك المرأة، استدار الإنسان المتوحش، وركض بشكل أخرق لنحو عشرة أمتار أو نحو ذلك باتجاه دغل من أشجار (البتولا) والنباتات الشائكة.. ثم توقف مرة أخرى للحظة لكى ينظر إلى القادمين الجدد، ولوّح بذراعه بشكل غريب، ثم هرع إلى وسط الأشجار واختفى داخلها.. وابتلعته ظلال الدغل تمامًا، وكان زعيما القبيلة يأملان فى اصطياد بعض المهور البرية خلال الجزء الباقى من اليوم.. إذ يمكنهم إبعاد أحدها ومحاصرته بين الأشجار والمستنقعات السفلى ثم إصابته ومطاردته وقتله وعندئذ يمكنهم إقامة وليمة كما يمكنهم العثور على الماء فى مكان ما من الوادى، وأيضًا على بعض نباتات (السرخس) الجافة لعمل كومة منها لإشعار نار، لإنضاج لحم الحيوان قبل حلول الليل.. وكان قد بدا لهم صباح ذلك اليوم سارًا ومبشرًا بالخير.. أما الآن فقد أصابهم الإحباط والقلق.. فهذا المخلوق الكئيب المنظر أحال صباح ذلك اليوم المشمس الجميل إلى يوم مكفهر منذر بالمتاعب..

وقفت الجماعة كلها تمعن النظر فيما حولها بعض الوقت، ثم تبادل الزعيمان بعض الكلمات.. وأشار الأخ الأكبر بيده إلى الأمام قائلاً "ووج" ، فرد عليه الآخر الأصغر قائلاً: "كليك" وهو يومئ برأسه موافقًا.. قررا المضى قدمًا.. ولكن بدلاً من الهبوط على المنحدرات باتجاه الأدغال سوف يسيرون حول سلسلة الجبال.. وقال (ووج): "هيّا"، وعلى الفور شرعت الجماعة الصغيرة فى السير، لكنها الآن تمشى فى صمت وعندما بدأ صبى فى طرح سؤال على أمه، سارعت بإسكاته مهددة إياه.. واستمر الجميع ينظرون إلى الأدغال السفلى..

صرخت إحدى الفتيات بحدة وأشارت بيدها. وتوقف الجميع على الفور وحدقوا فى المكان الذى تشير إليه.. لقد ظهر ذلك المخلوق الغريب مرة أخرى،واقفًا تقريبًا على قوائمه الأربع وأخذ يقفز قفزات متتابعة.. كان أحدب الظهر وضخمًا جدًا وقصيرًا.. بدا وحشًا أسمر كثيف الشعر يشبه الذئب.. وأحيانًا ذراعاه الطويلان يكادان يلامسان الأرض.. وكان أقرب إليهما من ذى قبل.. لكنه لم يلبث أن اختفى من جديد، وسط الأشجار الكثيفة.. وبدا أنه يلقى بنفسه على بعض نباتات (السرخس) الحمراء الميتة.. وتشاور "ووج" مع "كليك" فى الأمر..

وعلى مسافة كيلو متر ونصف تقريبًا امتدت مقدمة الوادى حيث تبدأ منطقة الأدغال.. وفى الخلف تنتشر التلال الجرداء العارية من أى نباتات أو أشجار.. وكانت الجياد ترعى باتجاه الشمس.. وبعيدًا إلى الشمال ظهرت مؤخرات قطيع من الخراتيت الصوفية فوق

هضبة مرتفعة.. حيث تبدو قمم ظهورها مثل صف من الخرزات السوداء. وإذا اخترقت القبيلة تلك المناطق العشبية، فماذا عسى المتسلل المتخفى أن يفعل سوى أن يظل فى مكانه مختفيًا فيما وراءهم أو يخرج إلى العراء.. ولو حدث هذا فإن اثنى عشر رجلاً من أفراد القبيلة سوف يعرفون كيف يتعاملون معه؟!

لذلك اخترقوا دغل النباتات والأعشاب، والتفت المجموعة الصغيرة حول مقدمة الوادى.. هناك بقيت مجموعة الرجال على الهضبة، فى حين اندفعت النساء والأطفال إلى الأمام فى الأرض المكشوفة.. ولبعض الوقت جثم المراقبون بلا حراك.. ثم أثير (ووج) بحيث بدت منه حركات وإيماءات التحدى.. أما (كليك) فلم يكن من السهل التغلب عليه.. وتعالت صرخات من المراقب الخفى.. وتفضل أحد الفتيان، الذى كان مهرجًا إلى حد ما، بعد أن أبدى بعض التكشيرات والإيماءات غير السارة، بعمل تقليد متقن للركض الأخرق لهذا المخلوق الرمادى الغريب. آنذاك حل المرح محل الخوف.

فى تلك الأيام لم يكن الضحك يعدو أن يكون عناقًا للآخرين.. كان بمقدور الناس أن يضحكوا، أما المخلوقات المتوحشة التى سبقت ظهور الإنسان فلم تكن تضحك وهى تراقب وتتجول فى الظلام.. وتتعجب عندما ترى الناس يتدحرجون ويقهقهون، ويضربون على أفخاذهم وأفخاذ الآخرين.. وأحيانًا كانت الدموع تنساب على وجوههم.

لم تصدر أى علامة أو إشارة من الدغل.. وقال الرجل: "يا ها.. يا ها!.. ياه" ونسوا تمامًا مدى ما كانوا يعانون من خوف.. وعندما

ظن (ووج) أن النساء والأطفال تقدموا لمسافة كافية، أعطى الأمر للرجال باقتفاء أثرهم.. وهذا هو الأسلوب الذى سارعليه الرجال من أجدادنا عندما شاهدوا السلالات التى سبقت ظهور الإنسان فى برارى أوروبا الغربية.

وسرعان ما أخذ هذان النوعان فى التقارب والتلاحم بعضهما مع بعض.. والقادمون الجدد يشقون طريقهم داخل بلاد أولئك الأناس المتوحشين.. وحينئذ لاحت من بعيد أشكال شبه بشرية مختئبة أو كامنة وأشكال كئيبة تجرى فى ضوء الشفق.. وفى الصباح وجد (كليك) آثار أقدام طويلة وضيقة بالمنطقة التى حول المعسكر.

ثم فى أحد الأيام انهمك أحد الأطفال فى أكل تلك البراعم الشوكية الخضراء الصغيرة، التى يُشبهها فى الوقت الحاضر الأطفال الإنجليز الريفيون بقطع الحلوى، وتجرأ مبتعدًا كثيرًا عن الآخرين. ثم تعالت أصوات صرخات حادة وشجار وضربات مكتومة. ثم انطلق شىء رمادى كئيب ذو شعر كثيف خلال الدغل حاملاً فريسته.. وجدّ فى مطاردته (ووج) وثلاثة من الشباب وضيقوا الخناق على العدو وحاصروه فى أخدود مظلم يكسوه العشب الكثيف.

فى تلك المرة لم يكن عليهم التعامل مع إنسان (نياندرنالى) واحد.. إذ أقبل خارجًا من الشجيرات ذكر ضخم لتغطية انسحاب رفيقه، وقذف بصخرة طرحت الشاب الذى أصابته أرضًا (مثلما تسقط الكرة الأوتاد الخشبية التسعة فى لعبة "البولينج")[٩] حتى

---

(٩) لعبة تلعب بدحرجة كرات فى ممر لإسقاط عشر قوارير من الخشب (المترجم).

إنه طفق يعرج بعد ذلك باستمرار.. غير أن (ووج) قذف حربته بسرعة فأصابت الوحش الرمادى فى كتفه ومن ثم توقف عن الزمجرة.

لم يصدر أى صوت آخر من الطفل المختطف. وأظهرت الأنثى نفسها للحظة فوق الأخدود وهى تزمجر وشكلها بشع وقد لطخت الدماء جسمها. ووقفت قبيلة البشر خائفة من مواصلة مطاردتها.. وفى نفس الوقت لا تستطيع التوقف عنها.. وكان واحد من أفرادها يعرج بالفعل ويضع يده على ركبته.

لكن تُرى كيف سار هذا القتال الأول؟ ربما سار فى غير مصلحة أفراد جنسنا.. لعل الذكر الضخم بشعره الطويل الكثيف ولحيته المنتصبتين كالأسلاك الحادة، عبر الأخدود وهو يزأر زئيرًا كالرعد ويحمل حجرًا ضخمًا فى كل من يديه. ونحن لا ندرى هل قذف أحجار الصوان الضخمة هذه أو هاجم بقوة بها.. وربما قُتل (ووج) أثناء فراره منه.. وربما واجهت القبيلة الصغيرة كارثة مروعة وقتئذ.

الآن بعد أن فقدت القبيلة الصغيرة اثنين من أفرادها، شرعت فى الهرب فوق التلال بأسرع ما يمكنها وحافظ أفرادها على القرب بعضهم من بعض طلبًا للأمان، مخلفين وراءهم الشاب الجريح وهو يعرج مقتفيًا آثار رفاقه وهو يعانى الوحدة والرعب.. ودعنا نفترض أنه تمكن أخيرًا من العودة إلى قبيلته بعد أن قضى عدة ساعات لاقى فيها أهوالاً شديدة.

الآن بعد أن هلك (ووج)، أصبح (كليك) هو زعيم القبيلة. وفى تلك الليلة أقام معسكرًا للقبيلة وأنشأ نارًا على المرتفعات التى بين

نباتات (الخلنج) بعيدًا عن الأدغال التى ربما تكون المخلوقات المتوحشة كامنة فى أرجائها واعتقدت تلك المخلوقات المتوحشة أن القبيلة لا تعرف شيئًا عنها، وكذلك فإن أفراد القبيلة اعتقدوا أنهم لا يفهمون سبب وجود المخلوقات المتوحشة.. وتصوروا الكيفية التى يمكن أن يتصرف بها أعداؤهم بشكل أو بآخر، ووضعوا خططًا للتغلب عليهم بالحيلة والخداع.

ربما كان (كليك) هو صاحب أول فكرة غامضة للوصول إلى الممر الضيق الذى يختبئ فيه (النياندرليون) من أعلى إذ كما قلنا من قبل إن (النياندرنالى) لا يرفع بصره إلى أعلى.. ومن ثم يمكن للناس دحرجة حجر ضخم عليه من أعلى أو رشقه بجمرات متعددة وإشعال النيران فى نباتات (السرخس) الجافة من حوله.

إن المرء يجب أن يفكر فى نصر يكون حليف البشر.. (كليك) هذا الذى استحضرنا روحه أخذ يهرب فى فزع من أول هجوم من الذكر المتوحش عليه.. غير أنه تضايق فى تلك الليلة. بينما كان يطيل التفكير أمام النيران سمع مرة أخرى بخياله صرخة الفتاة المفقودة.. وامتلأ غضبًا وحنقًا لذلك. وفى نومه جاءه الذكر المتوحش وقاومه (كليك) فى أحلامه ثم استيقظ متصلبًا من شدة الغضب.

كان يشعر بحنين دائم إلى ذلك الممر الضيق الذى قُتل فيه (ووج).. واضطر إلى العودة إلى هناك وبحث عن الوحوش المروّعة وكمن فى المناطق التى تتجول فيها، وراقبها من مكمن خفىّ له.. واعتقد أن (النياندرليين) لا يستطيعون التسلق بسهولة مثل البشر

ولا السمع بنفس قدرة البشر، ولا المراوغة والحركة السريعة المفاجئة.. ويلزم التعامل مع أولئك الرجال المتوحشين مثلما يتم التعامل مع الدببة.. الدببة التى تهرب منها وتنتشر إلى أى مخبأ أو مَكْمَنْ، ثم تقترب منها مرة أخرى من الخلف.

غير أن المرء يشك فى ما إذا كانت أول مجموعة من البشر تطأ أرض تلك المخلوقات المتوحشة من المهارة بما يكفى لحل مشكلات الحرب الجديدة.. ولعلهم استداروا من جديد تجاه الجنوب إلى المناطق الأكثر هدوءًا التى جاءوا منها، ثم انتهى بهم المطاف إلى القتل على أيدى إخوانهم من البشر أو إلى الاندماج معهم.. ولعلهم هلكوا كلية فى تلك البقاع الجديدة (التى تقطنها المخلوقات المتوحشة) وتمكنوا من اقتحامها.. ومهما تكن الحقيقة فإنهم تماسكوا وعاشوا وتكاثروا وازداد عددهم.. ولو كانوا فعلا ذلك، فلا بد أن هناك آخرين من نفس جنسهم حذوا حذوهم ولاقوا مصيرًا أفضل من مصيرهم.

وكانت تلك بداية عصر من الكوابيس والخبرات المروّعة للأطفال الصغار من قبيلة البشر، حيث كانوا يدركون جيدًا أنهم مراقبون.. فكان هناك من يتعقب خطواتهم.. ولعل أساطير الغيلان والعمالقة التى تأكل البشر والتى تطارد أطفال عالم الإنس، انحدرت إلينا من أيام الخوف والرعب القديمة هذه.. أما بالنسبة لـ (النياندرليين) فقد كانت بداية حرب لا تنتهى إلا بالقضاء التام على كل الأحياء.

ورغم أن (النياندرليين) لم يكونوا منتصبى القامة، ولا طوال الأجسام مثل الإنسان، فقد كانوا مخلوقات أقوى وأكثر وزنًا من

الإنسان.. إلا أنهم اتسموا بالحماقة والغباء، وكانوا يتحركون فرادى أو فى ثنائيات أو ثلاثيات.. ومن الجهة الأخرى كان البشر أكثر سرعة وأحدّ ذهنًا وأكثر اجتماعية.. وعند القتال كانوا يتحدون فى جماعة واحدة.. ويتحركون فى صف ويحاصرون أعداءهم ويزعجونهم ويضربونهم بالحجارة من كل جانب.. وكانوا يقاتلون المتوحشين مثلما تقاتل الكلاب أحد الدببة.. وكل منهم يصيح منبهًا الآخر لما ينبغى عمله.. ولم يكن المخلوق (النياندرنالى) يتكلم، وكان محدود الذكاء.. وكانوا يتحركون أسرع مما يمكنه التعامل معه ويقاتلونه بالمكر والحيلة.

منذ ثلاثين أو أربعين ألف عام مضت، كان الكثير من حالات القتال والاشتباك بين هذين النوعين من السلالات البشرية فى عالمنا هذا، فى عصر البرودة القاسية والسهول الجرداء التى تذروها الرياح العاتية، كانت السلالتان لا تحتملان كل منهما الأخرى.. فكلاهما تريد الكهوف وضفاف الأنهار، حيث يمكنها الحصول على أحجار الصوان.. كما كانا يتقاتلان للاستحواذ على الماموثات.. الميتة التى تغوص فى المستنقعات حتى تهلك، وأيائل الرنّة التى تقتل فى موسم التزاوج.. وعندما تجد قبيلة بشرية علامات على وجود الأناس المتوحشين بالقرب من كهفهم، والمناطق التى يسيطرون عليها، فإنهم يضطرون إلى تتبعهم وقتلهم.. إذ لا سبيل لتأمين حياتهم وحياة أطفالهم إلا بهذا القتل.. إذ كان المتوحشون يظنون أن أطفال البشر الصغار حيوانات جميلة ذات لحم شهى..

ونحن لا ندرى فى الحقيقة طول المدة التى عاشها أولئك الأناس المتوحشون فى هذا العالم القارس البرودة، الذى تميز بأشجار (الصنوبر) و(البتولا) الفضية، والسهول الجرداء والأنهار الجليدية، بعد ظهور سلالات البشر الحقيقية.. ولعلهم عاشوا بعدئذ لعصور طويلة وأصبحوا أكثر مكرًا وحيلة وخطورة، وذلك بعد أن أخذ عددهم فى التناقص كثيرًا.. وتمكين البشر الحقيقيين من مطاردتهم عن طريق آثارهم ومخلفاتهم، ومراقبة الدخان المتصاعد من نيرانهم، وتقليل الطعام المتاح لهم إلى أقصى حد ممكن.

وفى ذلك العالم الذى طواه النسيان ظهر أبطال عظام.. صمدوا فى مواجهة تلك الوحوش المروّعة وهاجموها وقتلوها.. وصنعوا حرابًا طويلة من الأخشاب وصلّبوا أطرافها بالنار.. وارتدوا دروعًا جلدية لتحميهم من ضربات الأعداء القوية.. وأصابوا تلك الوحوش بالحجارة المربوطة فى الحبال، وقذفوها بالحجارة من المقلاع.. ولم يقف فى وجه تلك الوحوش المرعبة الرجال فقط، وإنما النساء أيضًا.. فقد كن يدافعن عن أطفالهن.. ويقفن بجوار رجالهن ضد تلك الوحوش المخيفة التى تشبه، وفى نفس الوقت لا تشبه، الإنسان.

وما لم يتمكن الخبراء من قراءة كل الآثار والعلامات المختلفة، فإن النساء يلعبن دور إنشاء قبائل كبيرة تنمو فيها بالفعل أسر بشرية فى تلك العصور القديمة.. وأدت فطنة النساء ودهاؤهن، من واقع حبهن لأطفالهن، إلى حماية أولئك الأطفال من غضب "الرجل الكبير" وعلموهم كيف يتجنبون غيرته وغضبه وعقابه.. وأقنعنه

بالتساهل معهم ومن ثم يمكنه الحصول على مساعدتهم ضد أعدائهم من المتوحشين.

ويقول أحد خبراء السلالات البشرية: إن النساء فى بداية المجتمعات البشرية كن يعلّمن الصغار المحظورات الرئيسية، وأن الابن يجب أن يبتعد عن طريق زوجة الأب، وأن يختار زوجته من قبيلة أخرى، وذلك لحفظ السلام بين أفراد الأسرة الواحدة وتدخلت المرأة بين قتلة الأخ أو الأخت وكانت أول المصلحين الاجتماعيين.. وكانت المجتمعات البشرية فى بداياتها من صنيع عملها ضد العُزلة، والتفرُّق وضد العنف، الذى يتسم به الذكر البالغ المنفرد.. ومن خلالها تعلم الناس أساسيات التعاون فى الحياة بين الأبناء والأخوة.

أما السلالات المتوحشة فلم تتعلم -قط- أبسط قواعد التعاون فيما بينها، وأما الإنسان فقد تعلم بالفعل ألف باء لغة الوحدة والتعاون التى ربما تشمل فى يوم ما العالم بأسرهِ.. وهكذا تجمع الناس بالعشرات والعشرينات.. لكن الكائنات المتوحشة كانت تتحرك فرادى أو فى ثنائيات أو ثلاثيات.. ومن ثم كان من السهل محاصرتها وقتلها.. حتى جاء وقت اختفت فيه تمامًا من عالم الإنسان.

وعلى ذلك استمر هذا الصراع الطويل من أجل الوجود جيلاً بعد جيل وعصرًا بعد آخر، بين كائنات شبه بشرية وبين أجدادنا من البشر، الذين قدموا من الجنوب إلى أوروبا الغربية.. وفى الفترة ما بين آخر عصر جليدى وعصرنا الدافئ هذا نشبت آلاف المعارك

وحدثت المطاردات وحالات القتل المباغتة، وحالات الفرار المذعور بين ساكنى الكهوف والأدغال فى ذلك العالم القارس البرودة والذى تجتاحه الرياح.. حتى حان الوقت أخيرًا، الذى تم الإيقاع فيه بآخر كائن متوحش منها حيث واجه حراب مطارديه بغضب ويأس مريرين.

ما أقسى أوقات الخوف التى انتابت الإنسان طوال تلك الحرب التى لم تهدأ قط.. وما أعجب لحظات الذعر والنصر! وبالغرابة الإخلاص والتكريس والأعمال البطولية اليائسة!.. غير أن سلالة المنتصرين هى سلالتنا.. فنحن متماثلون تمامًا مع المخلوقات البرونزية اللون (من تأثير أشعة الشمس) التى ارتحلت وقاتلت وساعد بعضها بعضًا.. والدماء التى فى عروقنا احتدمت فى تلك المعارك واقشعرت من الخوف الذى ساد فى ذلك الماضى السحيق الذى طواه النسيان، ربما باستثناء بعض المخاوف الغامضة فى حياتنا الحالمة، وبعض التقاليد الكامنة فى الأساطير وتحذيرات للأطفال التى غابت عن ذاكرة جنسنا.

لكن لا يوجد شىء يتم فقده كلية..فمنذ سبعين أو ثمانين عامًا، شك بعض الحكماء غريبى الأطوار، فى أن هناك بعض الذكريات المختفية فى بضعة أحجار من الصوان المتكسرة، وفتات العظام التى وجدت فى حصوات قديمة. ومؤخرًا بدأ علماء آخرون فى العثور على آثار لخبرات غريبة قديمة جدًا فى الأحلام والنزوات الغريبة فى العقول المعاصرة.. وتدريجيًا بدأت تلك العظام النَّخِرَة تعود إلى الحياة من جديد..

إن استعادة الماضى أو إحياءه إحدى غرائب مغامرات العقل البشرى.. وعندما تتبع البشرية خطوات رجال العلم بين كل تلك البقايا والآثار، فإنها تشبه رجلاً يقلب صفحات صفراء من دفتر يومياته القديمة أو دفتر ارتباطاته أثناء فترة مراهقته.. إن شبابه الغابر يُبعث إلى الحياة مرة أخرى.. وبمجرد أن تثيره الذكريات القديمة من جديد، لا تلبث سعادته القديمة أن تعود إليه.. غير أن العواطف التى كانت متعددة ذات مرة، تكتفى الآن بأن تبث الدفء فى أوصاله.. كما أن المخاوف والهموم القديمة لا تعنى شيئًا له فى الوقت الراهن.

ولعله يأتى يوم تصبح فيه تلك الذكريات المُستعادة قوية وزاهية، كما لو كنا بأجسادنا ذاتها موجودين هناك، ونشارك فى المتعة والإثارة والمخاوف فى تلك الأيام البدائية.. أو يأتى يوم يقفز فيه وحوش الماضى الضخمة إلى الحياة مرة أخرى فى مخيلتنا.. وعندئذ سوف نسير من جديد فى مشاهد غابرة.. ونمد أعضاءنا المتوردة التى اعتقدنا أنها تحولت إلى تراب.. ونشعر مرة أخرى بضوء الشمس الذى سطع منذ مليون عام مضت.

بيضة من البللور

كان قائمًا بالقرب من (سفن ديالز)[1]، حتى العام المنصرم، متجر صغير كئيب المنظر. أعلى واجهته لوحة كتب عليها ـ بحروف صفراء تآكلت بفعل العوامل الجوية ـ (س. كيف) العالم بالتاريخ الطبيعى[2] وتاجر الأثريات[3]. وكانت واجهة المتجر الشفافة، تشتمل على بعض أغرب المعروضات المتباينة والمثيرة للاهتمام. عدد من أنياب الفيلة ومجموعة غير كاملة من قطع الشطرنج، وخرز وأسلحة، وصندوق به عيون، وجمجمتا نمرين، وجمجمة بشرية، وبضعة قرود محشوة جلودها ليمكن عرضها، أكلتها العُثَّة (وأحدها يمسك مصباحًا) وخزانة صغيرة من الطراز القديم، كانت مخصصة لحفظ النفائس. وبيضة نعامة أو ما شابهها، ملوثة ببيض الذباب، ومعدات لصيد الأسماك، وحوض سمك فارغ من الزجاج، قذر بشكل غير عادى. وكانت توجد أيضًا ـ فى الوقت الذى تبدأ فيه

---

(١) مفترق طرق شهير بالقرب من وسط لندن (المترجم).

(٢) متخصص فى علم الحيوان أو النبات (المترجم).

(٣) آثار كالتماثيل أو العملات التى تعود إلى العصور القديمة (المترجم).

هذه القصة ـ كتلة من البللور، مصنوعة على شكل بيضة، جيدة الصقل.

وكان رجلان يقفان أمام نافذة العرض من خارج المتجر، يتطلعان إلى هذه الكتلة من البللور، أحدهما قس، نحيف الجسم وطويل القامة، والآخر شاب ذو لحية سوداء وبشرة سمراء يرتدى ملابس غير مهندمة. وكان الشاب الأسمر يتحدث ويشير باهتمام إلى نافذة العرض، ويبدو تواقًا إلى أن يشترى رفيقه هذه السلعة، وبينما كانا يقفان هناك، جاء السيد (كيف) إلى متجره، وكان على لحيته بعض ما علق بها من الخبز والزبد اللذين تناولهما مع الشاى.

ولما رأى الرجلين وما أثار اهتمامهما، تغيرت تعبيرات وجهه. وحدّق فيهما بنظرات ماكرة من فوق كتفيه، ثم أغلق الباب برفق. كان صاحب المتجر مسنًا ضئيل الجسم، ذا وجه شاحب وعينين زرقاوين غريبتين مغرورقتين بالدموع، أما شعره فكان رماديًا أشعث. وكان يرتدى فراكًا[٤] أزرق رثًا وقبعة حريرية عتيقة الطراز، وكان ينتعل فى قدميه خفًا مصنوعًا من قماش السجاد، بلى بشدة مؤخراه عند عقبى القدم. واستمر ـ من داخل المتجر ـ يراقب الرجلين، إذ كانا يتحدثان، دفع القس يده عميقًا فى جيب سرواله، وأخرج حفنة من النقود وأخذ يعدها، ثم كشف عن أسنانه عندما افتر ثغره عن ابتسامة تنم عن الرضا. أما السيد (كيف) فقد ظهر أكثر اكتئابًا، حين دلفا إلى المتجر.

---

(٤) سترة رجالية تبلغ الركبتين (المترجم).

دون أى مقدمات، سأله القس عن ثمن البيضة البللورية، حدّق السيد (كيف) بعصبية فى اتجاه الباب الذى يؤدى إلى غرفة استقبال، وقال (خمسة جنيهات). اعترض القس بأن السعر مرتفع، ووجه حديثه إلى رفيقه وإلى السيد (كيف) على حد سواء. وكان هذا السعر - فى واقع الأمر - أكثر مما اعتزم السيد (كيف) أن يطلبه، عندما وضع البيضة فى متجره، وتلا هذا محاولات من الطرفين للمساومة. ذهب السيد (كيف) إلى باب المتجر وفتحه وقال: "إن السعر الذى أطلبه هو خمسة جنيهات"، كأنما أراد أن يجنب نفسه متاعب مناقشات، لا طائل وراءها.

وبينما كان بجانب باب المتجر، ظهر الجزء الأعلى من وجه امرأة، فوق ستار مسدل فوق الإطار العلوى لزجاج الباب، المؤدى إلى غرفة الاستقبال، وأخذت تحدق - بفضول - فى العميلين.

قال السيد (كيف) وثمة رجفة فى صوته: "إن السعر الذى أطلبه هو خمسة جنيهات".

أما الشاب أسمر البشرة، فقد اكتفى - حتى ذلك الوقت - بأن يقف صامتًا يشهد ما يحدث، ولكنه ظل يرقب السيد (كيف) بحدّة. ثم تكلم قائلاً: "أعطه خمسة جنيهات".

حدق فيه القس، ليتبين مدى جديته. وعندما نظر إلى السيد (كيف) من جديد، لاحظ أن وجهه قد امتقع. قال القس: "إنه مبلغ كبير". وأدخل يده فى جيب سترته، وأخذ يعد نقوده. لم يجد معه إلا ثلاثين شلنًا وقد تزيد قليلاً. طلب بعض المال من رفيقه، الذى بدا أنه تربطه به صداقة حميمة. أتاح هذا للسيد (كيف) أن يجمع

شتات أفكاره، وبدأ يوضح لهما بطريقة مضطربة أن البيضة البللورية ـ فى حقيقة الأمر ـ ليست للبيع. وبالطبع كان المشتريان مندهشين لهذا، وسألاه لماذا لم يخبرهما بأن البيضة البللورية لم تكن فى السوق بعد ظهر اليوم، وأن مشتريا محتملاً لها، قد جاء قبلهما. واعتبر المشتريان أن هذه محاولة منه، أن يرفع السعر أكثر، وتظاهرا بمغادرة المتجر، عندئذ فتح باب غرفة الاستقبال، وظهرت المرأة ذات العينين الضيقتين والأهداب السوداء.

لم تكن ملامحها تتسم بالرقة، بدينة الجسم، أصغر من السيد (كيف) ولكنها تفوقه حجمًا بكثير، كانت تمشى بتثاقل وبدت متوردة الخدين، وقالت: "إن هذه البيضة البللورية معروضة للبيع بالفعل، وخمسة جنيهات ثمن طيب وكاف لها. ولا أدرى ما الذى ألمّ بك يا (كيف)، حتى لا تقبل عرض هذا السيد!".

انزعج السيد (كيف) إلى حد كبير بهذا التدخل من جانبها، فنظر إليها بغضب من فوق حافة نظارته، وقال لها: إن من حقه أن يدير أعماله بالطريقة التى يرتضيها. وبدأت مشادة كلامية بينهما. وأخذ العميلان يراقبان هذا المشهد بفضول وبشىء من التفكه.

وبين حين وآخر، كانا يقدمان يد المساعدة للسيد (كيف) فى شكل اقتراحات. كان السيد (كيف) يصر على رأيه طوال الوقت، ولما سدت أمامه كل السبل، روى قصة مستحيلة لا يمكن تصديقها عن عرض لشراء البيضة البللورية، جاء فى صباح هذا اليوم، وأصبح اضطرابه يضايق من حوله. لكنه تمسك بوجهة نظره بإصرار غريب. وكان الشاب الأسمر ذو الملامح الشرقية، هو الذى وضع

نهاية لهذا الجدال المثير للاهتمام. فاقترح بأن يعودا إلى المتجر مرة ثانية فى غضون يومين. وذلك حتى تتاح الفرصة للعميل المزعوم.

قال القس: "وفى هذه الحالة، يجب أن نصر على شراء البيضة البللورية بخمسة جنيهات". وأخذت السيدة (كيف) على عاتقها الاعتذار للعميلين عما بدر من زوجها، مفسرة الأمر بأنه أحيانًا يتصرف بغرابة. وما إن غادر العميلان المتجر، حتى أخذ الزوجان يستعدان لمناقشة هذا الأمر بملء حريتهما. آخذين فى الاعتبار كل الاحتمالات. تحدثت السيدة (كيف) إلى زوجها بشكل مباشر. وأخذ الرجل المسكين ضئيل الجسم يرتعد من فرط الانفعال، ويخلط بارتباك بين القصص التى رواها، إذ ادعى فى البداية أن لديه عميلاً متوقعًا، ثم قال بعد ذلك إن البيضة البللورية ـ بحق ـ تساوى عشرة جنيهات ذهبية[٥]. وعندما سألته زوجته: "لم إذن عرضت خمسة جنيها ثمنًا لها؟" أجابها بقوله: "دعينى أدير أعمالى بطريقتى الخاصة".

وكان يقيم مع السيد (كيف) ابن وابنة لزوجته من رجل آخر، وعادت المناقشة فى هذه الصفقة التجارية على العشاء، ولم يكن أحد منهم يحسن الظن بكفاءة السيد (كيف) فى المعاملات التجارية، ومن ثم اعتبروا أن تصرفه هذا أمر بالغ الحماقة.

قال ابن الزوجة وكان شابًا Loose - limbed أخرق فى الثامنة عشرة من عمره. "الرأى عندى أنه رفض بيع هذه البيضة البللورية من قبل".

---

(٥) عملة إنجليزية تساوى جنيهًا وشلنًا (المترجم).

وقالت ابنة الزوجة، وكانت فتاة مولعة بالجدل، فى السادسة والعشرين من عمرها: "ولكن خمسة جنيهات!". وكانت إجابات السيد (كيف) غير مقنعة، ولم يكن بوسعه إلا أن يتمتم بنبرة منخفضة، بأنه أدرى من الجميع بإدارة أعماله. واضطروه إلى أن يترك عشاءه - قبل أن ينتهى منه - ويذهب إلى المتجر ليغلقه فى تلك الليلة، وقد احمرت أذناه من فرط الانفعال، وقد اغرورقت عيناه بدموع التكدير، خلف نظارته الطبية.

وأخذ يسأل نفسه: "لماذا ترك البيضة البللورية فى نافذة العرض، طوال هذه المدة؟ يا له من عمل أحمق!" وكان هذا الخاطر المزعج هو الأقرب إلى ذهنه. ولوقت ما لم يجد طريقة لكى يتفادى بيع البيضة البللورية.

وبعد تناول العشاء تأنق ابن زوجته وابنتها فى ملابسهما، وغادرا المنزل لقضاء السهرة فى الخارج. أما الزوجة فقد آوت إلى فراشها فى الطابق العلوى، لتفكر مليًا فى موضوع البيضة البللورية، ولتقلب الأمر على جميع وجوهه. حين كانت تتناول الليمون وقليلاً من السكر - وما إليهما - مذابين فى الماء الساخن.

وذهب السيد (كيف) إلى المتجر وبقى به إلى ساعة متأخرة، متظاهرًا بأنه يجهز Rockeries زخرفية لأحواض السمك الذهبى(٦)، ولكنه فى حقيقة الأمر كان لهدف آخر يفضل أن نشرحه فيما بعد.

---

(٦) سمك زينة لونه نحاسى يعيش فى المياه العذبة فى شرقى آسيا (المترجم).

وفى اليوم التالى، اكتشفت السيدة (كيف) أن البيضة البللورية قد نقلت من مكانها بنافذة العرض، ووضعت خلف بعض الكتب المستعملة عن صيد الأسماك. فأعادتها إلى مكان لافت للنظر. ولم تناقش زوجها فى أمرها بعدئذ، حيث منعها صداع عصبى من الجدال. أما السيد (كيف) فقد كان ينفر من زوجته على الدوام. ومر اليوم Disagreably .

كان السيد (كيف) ـ إذا أردنا أن نصف أحواله ـ شارد الذهن أكثر من المعتاد، وبالإضافة إلى ذلك، حاد الطبع على غير المألوف. وعندما كانت زوجته نائمة فى فترة ما بعد الظهيرة كعادتها، نقل البيضة البللورية من نافذة العرض مرة أخرى.

فى اليوم التالى، كان على السيد (كيف) توريد طلبية من أسماك (كلب البحر)[٧] إلى إحدى مدارس المستشفيات، لاستخدامها فى دروس التشريح. وفى فترة تغيبه، استرجعت السيدة (كيف) فى ذهنها من جديد، موضوع البيضة البللورية، وأخذت تضع الخطط لإنفاق الجنيهات الخمسة. وكان من بين أهم اختياراتها، شراء رداء من الحرير الأخضر لها، ورحلة إلى (ريشموند). عندئذ دفعها الصوت الرنان لجرس الباب الخارجى، إلى أن تهرع إلى المتجر. وكان العميل يركب إحدى عربات البحث العلمى، وقد جاء ليشكو عدم توريد أنواع معينة من الضفادع طلبها فى اليوم السابق.

ولم تكن السيدة (كيف) راضية عن هذا النشاط الخاص من أعمال زوجها، وذهب الرجل ـ الذى بدأ حديثه بأسلوب شبه

---

(٧) نوع صغير من سمك القرش (المترجم).

عدوانى ـ بعد أن تبادل كلمات مختصرة ومهذبة من وجهة نظره مع السيدة (كيف). وعندما نظرت السيدة (كيف) ـ بطريقة تلقائية ـ إلى نافذة العرض، لرؤية البيضة البللورية، التى كانت ضمانًا للحصول على خمسة الجنيهات وتحقيق أحلامها.

وكم كانت دهشتها شديدة، عندما لم تجدها! فذهبت تبحث عنها خلف الخزانة المعدنية الموضوعة على النضد، حيث اكتشفت وجودها فى اليوم السابق. ولكنها لم تكن هناك أيضًا. وبدأت على الفور فى البحث عنها بحماس بالغ، فى كل مكان بالمتجر.

وعندما عاد السيد (كيف) فى الساعة الثانية إلا ربع بعد الظهر، بعد أن قام بتوريد صفقة كلاب البحر، وجد المتجر فى حالة من الفوضى، وزوجته تستشيط غضبًا، وألفاها راكعة خلف النضد(٨) تنقب بين الأشياء المحنطة. وما إن أعلن رنين جرس الباب عودته، حتى أطلت من فوق النضد بوجه غاضب مهدد، واتهمته من فورها بإخفاء البيضة البللورية. سألها السيد (كيف) مستنكرًا "إخفاء ماذا؟".

أجابته قائلة: "البيضة البللورية!".

عندئذ أبدى السيد (كيف) دهشته الشديدة، واتجه بسرعة إلى نافذة العرض وصاح: "أليست هنا؟ يا إله السماوات! ما الذى حدث لها؟".

وفى هذه اللحظات دلف ابن زوجته من الغرفة الداخلية ـ وكان قد عاد إلى المنزل قبل السيد (كيف) بدقيقة أو نحوها ـ وأطلق

---

(٨) طاولة يتم على سطحها عد النقود أو التعامل التجارى (المترجم).

للسانه العنان بالشتائم واللعنات. إذ كان يتدرب على العمل عند بائع أثاث مستعمل فى آخر الشارع، وكان يعود إلى المنزل لتناول طعامه، وبطبيعة الحال انزعج عندما لم يجد الطعام معداً له. ولكنه لما علم بفقد البيضة البللورية، انصرف انتباهه عن الطعام، وتحول غضبه من أمه إلى زوجها. وكانت فكرتهما الأولية - بالطبع - أنه أخفاها. بيد أن السيد (كيف) أنكر بإصرار راسخ، كل معرفته بمصيرها، وساق أدلته على هذا. وفى نهاية الأمر، اضطر إلى أن يوجه الاتهام لزوجته ثم إلى ابنها، بأنهما أخذا البيضة البللورية ليبيعاها لحسابهما الخاص. وعلى إثر ذلك، بدأت مناقشة جارحة وانفعالية إلى حد كبير، وانتهت المناقشة بأن أثيرت أعصاب السيدة (كيف) بشكل شديد، حتى إنها اقتربت من الإصابة بنوبة هستيريا[٩]. وأدت كذلك إلى أن يتأخر ابنها نصف ساعة بعد الظهر، عن موعد عودته إلى مؤسسة الأثاث المستعمل، ولجأ السيد (كيف) إلى المتجر، ليحتمى فيه من زوجته الغاضبة.

وفى المساء، استؤنفت المناقشة، ولكنها كانت أقل انفعالية وتسودها العقلانية، وأدارتها ابنة الزوجة، وتناولوا العشاء وهم مغمومون، وانتهى بمشهد مؤلم. إذ وجد السيد (كيف) أنه لا يستطيع تحمل ملاحظاتهم الموجعة، فخرج من غرفة الطعام، وصفق الباب الأمامى خلفه بعنف. أما باقى الأسرة فقد ناقشت أمره بحرية، منتهزين فرصة عدم وجوده بينهم. وقاموا بتفتيش المنزل بدقة، من العليّة[١٠] حتى قبو التخزين، آملين فى العثور على البيضة البللورية.

---

(٩) ضحك أو بكاء مفاجئ غير مسيطر عليه (المترجم)

(١٠) غرفة فى أعلى طبقة فى المنزل (المترجم)

وفى اليوم التالى، عاد العميلان إلى المتجر، فاستقبلتهما السيدة (كيف) وهى تكاد تذرف الدموع، وأطلقت ما فى مكنون صدرها، من أنه لا أحد يستطيع تصور ما عانته طوال مدة زواجها من السيد (كيف). ثم روت قصة مشوشة عن واقعة اختفاء البيضة البللورية. وتبادل القس والشاب ذو الملامح الشرقية، الضحك فى صمت. وقالا بأن الأمر يبدو غاية فى الغرابة. ولما بدا لهما أن السيدة (كيف) قد عقدت العزم على أن تقص عليهما تاريخ حياتها بالكامل. شرعا فى مغادرة المتجر. عندئذ ـ ولأن السيدة (كيف) كانت لا تزال يحدوها الأمل ـ سألت القس عن عنوانه، حتى تتصل به إذا تمكنت من الحصول على معلومات من السيد (كيف) عن البيضة البللورية، وأعطاها القس عنوانه بالتفصيل، ولكن يبدو أنها ـ فيما بعد ـ نسيت أين وضعته. ولم تستطع تذكر أى شىء عنه.

فى مساء ذلك اليوم، بدا أن أسرة (كيف) استنفدت كل ما فيها من انفعالات، وكان السيد (كيف) قد غادر المنزل بعد الظهر، وعند عودته تناول العشاء وحده فى عزلة موحشة، تتباين ـ بشكل يريح النفس ـ مع الجدال الذى احتدم من قبل فى الأيام الماضية. ولبعض الوقت، كانت الأمور متأزمة بين أهل بيت (كيف)، ولكن لم يظهر من جديد العميلان ولا البيضة البللورية.

والآن، فلنناقش لب الموضوع، فنقول ـ دون مواربة ـ إن السيد (كيف) كان كاذبًا. فقد كان يعرف، بما لا يدع مجالاً للشك، مكان البيضة البللورية، فقد كانت فى إحدى غرف السيد (جاكوبى ويس) المحاضر المساعد بمستشفى سانت كاترين بشارع وست بورن. كانت

البللورة موضوعة فى صوان السفرة[11]، ومغطاة جزئيًا بقطعة من المخمل الأسود، وبجانبها قنينة من الويسكى الأمريكى.

وفى الواقع، قد عرفنا تفاصيل هذه القصة من السيد (ويس) نفسه. فقد أخذ السيد (كيف) البيضة البللورية معه إلى المستشفى، مخبأة فى الكيس الذى يحتوى على كلاب البحر. وهناك حث الباحث الشاب على الاحتفاظ بها من أجله. فى البداية، ارتاب السيد (ويس) قليلاً. ولكن كانت علاقته بالسيد (كيف) متميزة عن الآخرين. إذ كان يميل إلى الشخصيات المتفردة، وكثيرًا ما دعا الرجل العجوز للتدخين واحتساء الخمر فى مسكنه، ليكشف له أن آراءه المسلية فى نواحى الحياة عامة، وعن زوجته بصفة خاصة. وكان السيد (ويس) قد التقى بالسيدة (كيف) أيضًا، فى بعض الأوقات التى تصادف أن السيد (كيف) لم يكن بالمنزل ليستقبله. وكان السيد (ويس) على علم بما كان يلاقيه السيد (كيف) من تدخل مستمر فى شئونه، وعندما عرف بموضوع البيضة البللورية وأخذ يقلب الرأى فيه بروية وحكمة، قرر على نحو حاسم الاحتفاظ بالبيضة البللورية لديه.

ووعده السيد (كيف) أن يشرح له ـ فى وقت لاحق ـ أسباب تعلقه اللافت للنظر، بهذه البيضة البللورية. ولكنه أخبره ـ بوضوح تام ـ بأنه يشاهد فى داخلها مناظر عجيبة. ثم زار السيد (ويس) فى مساء ذلك اليوم نفسه.

---

(١١) طاولة جانبية بها أرفف توضع فيها الأغطية وأدوات المائدة (المترجم).

وروى له قصة معقدة، قال فيها: إن البيضة البللورية قد انتقلت إلى حوزته مع أشياء أخرى غريبة، فى بيع إجبارى لبضاعة تاجر أثريات آخر. ولأنه لم يكن يعرف قيمتها الحقيقية، فقد وضع عليها بطاقة تحدد سعرها بعشرة شلنات. واحتفظ بها وهى مقدرة بهذا الثمن بضعة أشهر، وكان ينوى تخفيض ثمنها، حينما اكتشف فيها أمرًا عجيبًا.

وفى ذلك الوقت، كانت صحته معتلة إلى حد كبير، ويجب أن نأخذ فى اعتبارنا أن جسمه كان بالغ الضعف، طوال أحداث هذه القصة، وكان يزعجه كثيرًا إهمال زوجته وابنيها لشئونه وكذلك سوء معاملتهم له، والمعبر عنه بكل وضوح. وكانت زوجته حمقاء ومبذرة وعديمة الإحساس والشعور، ولديها ولع متزايد باحتساء الخمر بمفردها. أما ابنة زوجته فكانت خبيثة تحصل على كل شىء بالمكر والحيلة. وكان ابنها يكن للسيد (كيف) كراهية شديدة، يظهرها فى كل فرصة تسنح له، وكانت متطلبات عمله ترهقة إلى حد كبير، ويعتقد السيد (ويس) نفسه أنه كان أحيانًا ينغمس فى الملذات والشهوات. بدأ السيد (كيف) حياته العملية فى وظيفة هيأت له رغد العيش وكان قد نال قسطًا وافرًا من التعليم. وكان يصاب ـ من وقت لآخر ـ بالاكتئاب وانقباض الصدر والأرق، تستمر معه لعدة أسابيع. ولرغبته ألا يزعج أسرته، كان ـ إذا أصبحت أفكاره غير محتملة ـ ينسل بهدوء من جانب زوجته النائمة، ويتجول وحيدًا فى كل أنحاء المنزل. وقادته المصادفة وحدها ذات مرة إلى متجره ، وكان هذا فى الثالثة صباحًا من أحد أيام شهر أغسطس.

وكان المتجر الصغير المغبر متشحًا بالظلمة الدامسة، فيما عدا بقعة واحدة لاحظ فيها توهجًا غير عادى من الضوء، دنا منها حثيثًا، ووجد أن مصدرًا، هى البيضة البللورية، التى كانت قائمة عند ركن النضد بالقرب من النافذة.

وكان شعاع رفيع ينفذ من خلال شرخ فى مصراعيها، ويسقط على البيضة البللورية، وبدا أنه يملأ بالضياء داخلها بالكامل.

وخطر فى بال السيد (كيف) أن هذه الظاهرة الضوئية لا تتفق مع قوانين علم البصريات الذى درسه فى صباه. وكان يدرك أن البيضة البللورية تكسر أشعة الضوء من مسارها المستقيم، وأنها تلتقى فى بؤرة داخلها. ولكن تبعثر الضوء الساقط على النحو الذى شاهده يتعارض مع مفاهيمه الفيزيائية.

دنا أكثر من البيضة البللورية، وأخذ يحدق فى داخلها بإمعان ومن حولها. واستعاد لوقت قصير رغبته فى المعرفة العلمية، التى حددت ـ فى شبابه ـ سيرة حياته المهنية. ودهش السيد (كيف) عندما وجد أن الضوء لم يكن ثابتًا، بل كان يتخذ مسارًا متعرجًا داخل البيضة البللورية، وكأنها كرة مجوفة من بخار متألق. ولما تحرك من موضعه ـ لينظر إليها من زوايا مختلفة ـ أدرك فجأة أنه أصبح بين البيضة البللورية وشعاع الضوء، ومع هذا فقد بقيت متألقة. وأصابه هذا بدهشة بالغة، فقام برفع البيضة البللورية بعيدًا عن مسار الشعاع، ووضعها فى أظلم بقعة بالمتجر، فظلت مضيئة نحو أربع دقائق أو خمس، ثم أخذ تألقها ينزوى ببطء حتى انطفأ، ثم عاد ووضعها فى مسار

الشعاع الرفيع من ضوء النهار، فاسترجعت ضياءها كما كان أو يكاد.

وإلى هذا الحد ـ على الأقل ـ استطاع السيد (ويس) أن يتحقق من قصة السيد (كيف) العجيبة. فقد عرّض بنفسه تلك البيضة البللورية، مرارًا وتكرارًا لمسار شعاع ضوء قطره أقل من ملليمتر واحد. ثم وضعها فى ظلام حالك. هيأه بأن لفها بقطعة من المخمل، ولاحظ ـ دون أدنى شك ـ أن بالبيضة البللورية ضوءًا فسفوريًا باهتًا للغاية.

وفيما يبدو أن هذا الضوء كان من نوع غريب غير مألوف. لا يكون مرئيًا بنفس الوضوح لكل الأعين، لأن السيد (هاربنجر) ـ ذلك الاسم المألوف للقارئ العلمى، والمرتبط بمعهد باستير ـ لم يستطع أبدًا أن يشاهد أى ضوء داخل البيضة البللورية. كما أن مقدرة السيد (ويس) على الوعى المرهف بهذا الضوء الغريب، كانت تقل كثيرًا عن مقدرة السيد (كيف). حتى السيد (كيف) نفسه، فإن قوة إدراكه للضوء، كانت تتباين إلى حد كبير وفق الظروف السائدة: إذ كان تألق البيضة البللورية، أشد ما يكون وضوحًا، عندما يكون فى حالات الضعف البالغ أو الإرهاق.

فى البداية، افتتن السيد (كيف) بضوء البيضة البللورية بشكل لا يقاوم، وأنه ساعده على التخلص من عزلته النفسية، أكثر مما قد يحدثه مجلد من الكتابات المثيرة للشفقة والعاطفة، ولم يخبر أى مخلوق عن هذه الظاهرة الضوئية الغريبة. ويبدو أنه كان يعيش فى جو من إضمار الضغينة والشر، إلى حد يجعل مجرد الاعتراف

بوجود مصدر لمتعة ما، كافيًا لأن يحرمه منها. ووجد بأنه كلما اقترب بزوغ الفجر وازداد انتشار الضوء، بدت البيضة البللورية - ظاهريًا - غير مضيئة، ولبعض الوقت لم يستطع أن يرى أى شىء داخلها، إلا فى أثناء الليل وفى الأركان المظلمة للمتجر.

وتبادر إلى ذهنه، أن يستعين بقطعة نسيج قديمة من المخمل، الذى كان يستخدمها كخلفية يضع عليها مجموعة من المعادن، ولما قام بطيها إلى جزءين ووضعها على رأسه ويديه، تمكن من أن يلمح الحركات الضوئية المتماوجة داخل البيضة البللورية، حتى فى وضح النهار وكان يحرص أشد الحرص على ألا تعرف زوجته ما اكتشفه، ومن ثم كان لا يمارس التحديق، فى البيضة البللورية إلا فى فترات بعد الظهيرة، عندما تكون نائمة فى الطابق العلوى. عندئذ يأخذ البيضة إلى مكان مجوف تحت النضد. وذات يوم بينما كان يقلب البيضة البللورية فى يده، شاهد شيئًا ما. كان يظهر ويختفى كالومضة، وأعطاه انطباعًا مؤثرًا بعمق وبقوة، أنه كشف له عن مشهد رحب ممتد لمسافة شاسعة، عبارة عن إقليم غريب. وعندما أخذ يلف البيضة البللورية بين أصابعه، عندما بدأ الضوء داخلها يخبو، شاهد نفس المنظر من جديد.

وليس ثمة ضرورة فى أن نفصح عن كل الخطوات التى قام بها السيد (كيف) من هذه النقطة، لأن هذا سوف يبدو مضجرًا. ويكفينا القول: إن النتيجة باختصار هى: أنه إذا حدق فى البيضة البللورية بزاوية تبلغ نحو ١٣٧ درجة فى اتجاه شعاع مضىء، فإنها تكشف عن مشهد جلىّ لإقليم متسع غريب. ولم يكن هذا حلمًا على الإطلاق، إذ إن المشهد يعطى تأثيرًا قاطعًا وحقيقيًا فى ذهن

الإنسان. وكلما زاد الضوء توهجًا كان المشهد أكثر ثباتًا وواقعية. ولم يكن المشهد ثابتًا بل متحركًا، وبالأحرى أجزاء منه كانت تتحرك، ولكن ببطء وبانتظام مثل الأشياء الحقيقية. كما كانت المشاهد تتغير وفقًا لتغير الضوء وزاوية الرؤية. وعمومًا فقد كان الأمر أشبه بالنظر من مرآة زجاجية وتقليبها، حتى يمكن النظر إلى المشهد من زوايا مختلفة وجهات متباينة.

وقد أكد لى السيد (ويس)، أن رواية السيد (كيف) كانت مفصلة إلى حد كبير، وبعيدة تمامًا عن أى تأثير عاطفى يوحى بحالة هذيان. بيد أننا يجب أن ننوه هنا إلى أن جميع الجهود التى بذلها السيد (ويس) لرؤية المشاهد التى فى داخل البيضة البللورية، بمثل هذا الوضوح فى البريق الباهت لها، قد باءت بالفشل الذريع. وكانت الانطباعات بين الرجلين عما شاهداه مختلفة للغاية، وما كان يبدو للسيد (كيف) مشهدًا متألقًا ينبض بالحياة، لم يكن فى نظر السيد (ويس) إلا منظرًا ضبابيًا غير واضح.

ووصف السيد (كيف) المشهد بأنه ثابت دائمًا، وعبارة عن سهل متسع، وكان يبدو فى كل وقت، وكأنه ينظر إليه من ارتفاع كبير كبرج أو كصارية سفينة. وكانت تحيط بالسهل من الشرق والغرب منحدرات صخرية شاهقة ضاربة إلى الحمرة، تذكره بالصخور التى شاهدها فى إحدى الصور، بيد أنه لم يستطع أن يتذكر - على وجه اليقين - تلك الصور.

وكانت هذه المنحدرات الصخرية تمتد شمالاً وجنوبًا، وكان بإمكانه أن يستدل على الجهات الأربعة، مسترشدًا بتلك النجوم

التى شاهدها داخل البيضة البللورية، فى أثناء الليل. وكانت هذه النجوم تبتعد إلى مسافات شاسعة، ثم يتضاءل بريقها وتختفى فى الضباب الفضى، قبل أن تلتقى من جديد.

كان السيد (كيف) أقرب إلى مجموعة المنحدرات الصخرية الشرقية، وكانت الشمس ـ عندما رأى المشهد لأول مرة ـ تشرق عليها، وفجأة ظهرت أعداد هائلة من أشكال محلقة حجبت ضوء الشمس وبدت شاحبة أمام ظلال المنحدرات الصخرية، ظنها طيورا غريبة.

وامتدت من تحته سلسلة هائلة من المبانى، خيل إليه أنه ينظر إليها من ارتفاع شاهق، وعندما اقتربت من حافة الصورة الضبابية التى تكسر شعاع الضوء من مسار مستقيم، أصبحت غامضة وغير واضحة. وبالإضافة إلى هذا، ثمة أشجار غريبة الشكل وكان لونها طحلبيًا أخضر داكنًا ورماديًا بارع الجمال، وكانت تنمو على ضفاف قناة براقة، وطار عبر فراغ الصورة شىء ضخم له ألوان متألقة. وعندما شاهد السيد (كيف) تلك المناظر داخل البيضة البللورية، كان كل ما رآه مجرد ومضات خاطفة، وكانت يداه ترتعدان ورأسه يدور، وتراءى له المشهد ولكن سرعان ما اختفى، وكان يزداد ضبابية وغموضًا. وفى البداية، واجه صعوبة جمة فى البحث عن الصورة من جديد، عندما يغيب عنه الاتجاه الصحيح لها.

وكانت رؤيته الثانية الواضحة، بعد مررو نحو أسبوع من رؤيته الأولى، وسببت له الفترة ما بين الرؤيتين بعض الضيق؛ لأن المشاهد كانت تمرق على شكل لمحات غير واضحة، ولكنه اكتسب فيها شيئًا

من الخبرة النافعة، إذ أظهرت له النظرة مدى اتساع الوادى. وكان المشهد فى هذه المرة جد مختلف عن المرة السابقة، ولكنه اعتقد اعتقادًا غريبًا، أثبتت ملاحظاته التالية مدى صحة معظم أجزائه، بأنه كان يرى هذا العالم العجيب من نفس الموضع تمامًا، على الرغم من أنه كان يشاهده من اتجاه يختلف عن الاتجاه الأول.

وقد تراجعت فى الصورة الواجهة الطويلة لذلك المبنى الضخم الذى كان السيد (كيف) يطل على سقفه من قبل، لقد تعرف على السقف، وفى مقدمة تلك الواجهة، كانت ثمة شرفة تمتد باتساع هائل وطول استنفائى، وفى منتصف تلك الموضة، تنتصب أعمدة ضخمة ـ كالصوارى ـ تفصل بينها مسافات قصيرة، وتبدو رشيقة. كما لا حظ أن فوقها توجد أشياء صغيرة براقة، تعكس أشعة الشمس الغاربة.

ولم يدرك السيد (كيف) معنى هذه الأشياء الصغيرة، إلا بعد مرور بعض الوقت، عندما كان يصف المشهد للسيد (ويس). كانت هذه الشرفة تطل على دغل تنمو فيه نباتات يانعة ذات ألوان خلابة. وخلفها كان هناك مرجة خضراء عريضة، ترقد عليها مخلوقات ضخمة كالخنافس، بيد أنها أكبر منها كثيرًا. وفيما وراء هذا كله، كان هناك أيضًا طريق معبد مزخرف بشكل رائع، بواسطة أحجار تميل إلى اللون الوردى، وخلفه متسع عريض من الماء مصقول السطح، وكأنه مرآة، يخترق الوادى ويتوازى مع المنحدرات الصخرية البعيدة، وتنمو على ضفافه أعشاب حمراء. وبدا كأن الهواء يعج بأسراب من الطيور الهائلة التى تتحرك بجلال فى منحنيات، وعلى

جانبى النهر شيدت مبان عديدة فاخرة، ذات ألوان رائعة ومزخرفة بالمعادن المتألقة، تقوم بين غابة من أشجار ينمو عليها ما يشبه الأشنات والفطر.

وفجأة خفق شىء ما مرة تلو الأخرى عبر المشهد، مثل تحرك مروحة يدوية مرصعة بالأحجار الكريمة أو رفرفة جناح، ثم ظهر وجه أو بالأحرى، الجزء الأعلى من وجه، يتميز بعينين واسعتين للغاية، دنا الوجه من السيد (كيف)، ولاح كأنه ينظر إليه من الجانب الآخر من البيضة البللورية.

أصاب السيد (كيف) الفزع من رؤية هاتين العينين اللتين تبدوان كشىء واقعى، وأثرت فيه مشاهدتهما حتى إنه ابتعد عن البيضة البللورية قليلاً ونظر وراءها، ليتبين حقيقة الأمر. واستحوذ المشهد على كل تفكيره واهتمامه، حتى إنه دهش عندما وجد نفسه يحدق فى الظلام البارد لمتجره الصغير، الذى تنبعث منه رائحته المألوفة، وهى مزيج من "الميثيل" والأشياء المتعفنة والمتحللة، ولما نظر حوله بعينين نصف مفتوحتين، كان توهج البيضة البللورية قد ذوى ثم انطفأ.

كانت هذه هى الانطباعات العامة الأولية، التى أثرت فى عقل السيد (كيف). والقصة بهذا الشكل واضحة ومفصلة إلى حد كبير. وعندما بدا له الوادى فى لمحة خاطفة فى البداية، أثر على خياله تأثيرًا غريبًا، وما إن استطاع إدراك تفاصيل المشهد العجيب الذى تراءى له، حتى تعاظمت دهشته لتصبح عاطفة قوية كالحب.

وأصبح يمارس أعماله المعتادة ولكن دون نشاط ولا اهتمام، ولم

يكن يفكر إلا فى الوقت الذى يمكنه فيه العودة إلى مشاهدة ما فى داخل البيضة البللورية.

وبعد مرور عدة أسابيع من رؤيته للوادى للمرة الأولى، حضر العميلان اللذان أرادا شراء البيضة البللورية، وما صاحب هذا من إجهاد عصبى وتوتر وانفعال، بسبب عرضهما، ونجاحه فى إنقاذ البيضة البللورية وعدم بيعها، وهو ما شرحته من قبل. ظل هذا الأمر عجيبًا واحتفظ به السيد (كيف) كأحد أسراره ولم يخبر به أحدًا. وكان يتسلل إلى البيضة البللورية خلسة ويحدق فيها بشغف، كما يسترق طفل النظر إلى حديقة يحظر عليه دخولها. لكن السيد (ويس) كان باحثًا علميًا شابًا وكان يتميز برجاحة العقل، وبذهن أفكاره مترابطة منطقيًا. فما إن وصلت إليه قصة البيضة البللورية. واقتنع بأن ثمة بيّنات على صدق رواية السيد (كيف) - بعد أن شاهد بنفسه الإشعاع المتألق - أخذ ينظر إلى الواقعة بطريقة منهجية. وكان السيد (كيف) أحرص ما يكون على أن يأتى إلى السيد (ويس) ليمتع نظره بأرض العجائب هذه، التى اكتشفها، ولهذا كان يذهب كل ليلة من الساعة الثامنة والنصف حتى الساعة العاشرة والنصف، بل إنه كان - أحيانًا - يجىء نهارًا فى أثناء غياب السيد (ويس). وحتى بعد الظهر أيام الآحاد أيضًا.

ومنذ البداية كان السيد (ويس) دون مذكرات تفصيلية كثيرة، وكان يحرص السيد (ويس) من واقع استخدامه لأسلوب التفكير العلمى، أن يجد العلاقة بين الإشعاع الأولىّ الذى يدخل إلى البيضة البللورية ويحدث الصورة، واتجاه الصورة نفسها.

وأصبحت المشاهد داخل البيضة البللورية أكثر وضوحًا. عندما تم وضعها فى صندوق ذى فتحة صغيرة، تسمح بدخول الشعاع الذى يحدث المشهد، كما استبدل النسيج القطنى الأسود الذى توضع عليه البيضة البللورية عادة، بجلد ناعم سميك يحجب الضوء ما عدا الشعاع. ومن ثم أصبح بإمكانهما –بعد وقت قصير –أن يمعنا النظر فى الوادى المتسع من أية زاوية يريدانها.

والآن وقد مهدنا السبيل للقارئ، فيمكننا إذن أن نعطى وصفًا موجزًا لتلك الرؤى التى كانت داخل البيضة البللورية. لقد كانت كل هذه المرئيات ـ فى كل الأحوال ـ يشاهدها السيد (كيف)، متبعًا الطريقة نفسها على الدوام، إذ كان يحدق فى البيضة البللورية، ويبلغ السيد (ويس) بما يشاهده. ولأن السيد (ويس) من رجال العلم، فقد تدرب على مهارة الكتابة فى الظلام، ومن ثم كان بإمكانه كتابة مذكرات مختصرة، بما يبلغه به السيد (كيف).

وعندما كان يخبو ضوء البيضة البللورية وينطفئ. كانت توضع فى صندوقها بالوضع الملائم، ويسلط عليها الضوء الكهربائى. طرح السيد (ويس) أسئلة عديدة، يريد إجابات لها، واقترح مجموعة من المشاهدات لإزالة الإبهام عن بعض النقاط الصعبة. وليس ثمة شىء يكون أبعد عن الخيال وأقرب إلى الاعتماد على الحقائق، من هذا العمل.

وسرعان ما اتجه اهتمام السيد (كيف)، إلى تلك الكائنات الشبيهة بالطيور العملاقة، والتى رآها بكثرة فى مشاهداته الأولية. ومع مرور الوقت، صحح معلوماته عنها، فقد كان يعتقد فى البداية

أنها أجناس من الخفافيش النهارية. ولكن لاحت له فكرة عجيبة، فى أن هذه المخلوقات ربما تكون ملائكة!

لقد كانت رؤوسها مستديرة وشبيهة - بشكل غريب - برؤوس البشر. وكانت عينا أحد هذه المخلوقات هى التى أفزعته إلى حد كبير، عندما كان يحدق فى البيضة البللورية فى المرة الثانية، بسبب شكلهما الغريب. وكانت لهذه المخلوقات أجنحة ذات لون فضى خالية من الريش، ولكنها تتلألأ ولا تقل لمعانًا عن السمك الذى قتل حديثًا، بنفس التقلب المبهم للألوان، ولم تكن هذه الأجنحة متصلة بالجسم كأجنحة الطيور والخفافيش، كما علم السيد (ويس)، بل كانت تدعم هذه الأجنحة ضلوع منحنية تنبثق من الجسم (ويبدو أن أفضل ما يقال عنها: إنها مثل أجنحة الفراشات بضلوع منحنية).

كان جسمها صغيرًا، ولكنه مزود - تحت الفم مباشرة - بمجموعتين من الأعضاء للإمساك بالأشياء، مثل المجسات الطويلة. وعلى الرغم من أن الأمر يصعب تصديقه، فإن السيد (ويس) اقتنع أخيرًا بما لا يدع مجالاً للشك، بأن هذه المخلوقات تمتلك هذه المبانى العظيمة - التى تشبه مبانى البشر - والحديقة الرائعة إلى حد فائق، والتى أكسبت الوادى العريض تلك العظمة والجلال.

كما اعتقد السيد (كيف) أن المبانى مع ما فيها من غرابة، ليست لها أبواب، وأن النوافذ المتسعة الدائرية، التى تطل على الوادى - وهى مفتوحة على الدوام - تمثل لهذه المخلوقات المداخل والمخارج للمبانى. وكانت تحط على مجساتها، ثم تطوى أجنحتها إلى أقصى حد، حتى تصبح مثل القضبان وتثب بخفة وبسرعة إلى الداخل.

كما كان بينها عدد كبير من المخلوقات ذوات أجنحة أصغر، وأشبه باليعسوب[١٢] والعُثة والخنافس الطائرة، وعبر مرج أخضر يمكن رؤية خنافس عملاقة ذات ألوان زاهية، تزحف بكسل جيئة وذهابًا. وفضلاً عن ذلك، كان يشاهد على الطرق المعبدة والشرفات مخلوقات ذوات رؤوس ضخمة شبيهة بالذباب الكبير ذى الأجنحة، لكن لم تكن لها أجنحة، تثب بخفة ونشاط على مجساتها المتشابكة التى تشبه الأيدى.

كنا قد ألمحنا من قبل إلى الأشياء المتألقة التى كانت على الأعمدة القائمة فى شرفة أقرب المبانى إلى المشاهد. واتضح للسيد (كيف) ـ بعد أن أمعن النظر إلى أحد هذه الصوارى باهتمام بالغ، فى يوم تميز بصفائه عن أى يوم آخر ـ أن هذا الجسم المتألق يتطابق تمامًا مع البيضة البللورية التى يحدق فيها، وبالمزيد من البحث والتفحص الدقيق، اقتنع بأن كل عمود من هذه الأعمدة العشرين، التى تتراءى أمامه على البعد، توجد بللورة مشابهة.

وبين فترة وأخرى متباعدة، يطير أحد هذه المخلوقات الضخمة إلى عمود، فى حين يخفق بجناحيه ثم يطويهما ويلف عددًا من مجساته حول العمود، ثم يمعن النظر فى البللورة لوقت ما، يبلغ أحيانًا خمس عشرة دقيقة.. وبعد سلسلة من المشاهدات أجرياها بناء على اقتراح السيد (ويس)، اقتنعا كلاهما ـ فيما يتعلق بهذا العالم الخيالى ـ بأن البللورة التى يحدقان فيها، ترتكز بالفعل على قمة أبعد عمود فى الشرفة، وأنه حدث فى مرة على الأقل، أن أخذ

---

(١٢) نوع من الحشرات له جسم طويل نحيل وزوجان من الأجنحة (المترجم).

واحد من سكان هذا العالم الغريب، ينظر إلى وجه السيد (كيف) حين كان يقوم بمشاهداته.

ونتوقف هنا عن سرد الحقائق الأساسية، فى هذه القصة الغريبة. وإذا لم نصدقها برمتها، باعتبارها اختلاقًا بارعًا لخيال السيد (ويس)، فإن علينا أن نصدق أمرًا واحدًا أو أمرين: إما أن بللورة السيد (كيف) كانت فى عالمين مختلفين فى وقت واحد، وأنها انتقلت إلى أحدهما، فى حين ظلت ثابتة فى العالم الآخر. وهذا رأى لا منطقى لا يصدقه العقل. أو ربما يكون لهذه البللورة صلة وولاء ببللورة غير مطابقة لها تمامًا فى هذا العالم الآخر، بحيث إن ما يشاهد فى داخل البللورة فى عالمنا هذا، يمكن أن يراه - بشرط تحقق ظروف مناسبة - من ينظر فى البللورة الثانية فى العالم الآخر والعكس بالعكس. وفى الوقت الحاضر، لا نعرف على وجه التأكيد، طريقة يمكن بها أن يتحقق هذا الارتباط الوثيق بين بللورتين، ولكننا ندرك أنه أمر غير مستحيل. وكان السيد (ويس) هو الذى افترض وجود هذه الصلة بين البللورتين، وبالنسبة لى - على الأقل - يبدو هذا الأمر محتملاً إلى حد بعيد.

ولكن أين يقع هذا العالم الآخر؟ وهنا أيضًا يقوم الذكاء اليقظ للسيد (ويس) بإلقاء الضوء سريعًا على هذا الأمر. فالسماء تظلم بسرعة بعد غروب الشمس، وتفصل بينهما فترة قصيرة للغاية من الغسق، ثم تظهر النجوم. وتلك النجوم مرتبة فى كوكباتها[١٣] كما فى سماء كوكب الأرض. فقد تعرف السيد (كيف) على كوكبات

(١٣) حشد هائل من النجوم يتخذ شكلاً معينًا (المترجم).

الدب والثريا والثور والشعرى: ومن ثم فلا بد أن هذا العالم الآخر فى مكان ما فى المجموعة الشمسية، ولا يبعد عنا إلا بعدة مئات قليلة من ملايين الأميال. وتابع السيد (ويس) هذا الدليل، فاكتشف أن سماء منتصف الليل كانت ذات زرقة داكنة أكثر من سمائنا، حتى فى منتصف الشتاء، كما أن الشمس بدت له أصغر قليلاً مما هى عندنا. وشاهد ـ لدهشته الشديدة ـ قمرين صغيرين يشبهان قمرنا، ويختلفان عنه فيما عليهما من تضاريس! وكان أحدهما يتحرك بسرعة إلى حد أن حركته كانت مرئية بوضوح، لكل من يشاهده. ولم يكن القمران يرتفعان فى السماء فى أى وقت، بل كانا يتواريان حين يرتفعان، لأنه فى كل مرة يدوران فيها، فإنهما يخسفان وذلك لقربهما الشديد من الكوكب الذى ينتميان إليه.

يمكن للإنسان ـ من كل ما سبق ـ أن يصل إلى إجابات محتملة إلى حد كبير. على الرغم من أن السيد (كيف) لم يكن يعرفها، وهى أن السيد (كيف) حين حدق فى البيضة البللورية، قد أبصر بالفعل كوكب المريخ وسكانه. وإذا كان الأمر كذلك، فإن "النجم" الساطع الذى كان يظهر فى سماء هذا المشهد البعيد، لم يكن إلا كوكب الأرض، المألوف لنا.

ويبدو أن سكان المريخ ـ إذا كانوا بالفعل سكان المريخ ـ لم يعرفوا بأن السيد (كيف) يراقبهم. وحدث أن اقترب واحد منهم مرة أو مرتين وحدق فى إحدى البلورات وسرعان ما ذهب إلى عمود آخر، كأن ما شاهده لم يعجبه. وتمكن السيد (كيف) ـ أثناء ذلك ـ من مراقبة حركات هذه الكائنات المجنحة، دون أن يقطع عليه هذه

المراقبة التفاتهم إليه. وعلى الرغم من أن تقريره كان غامضًا وموجزًا، فإنه مع هذا يبعث على التفكير. فلتتصور ما قد ينطبع فى ذهن أحد المراقبين من المريخ، من فكرة عن الإنسانية، ثم يتمكن بعد ذلك من أن يشاهد مدينة (لندن) من أعلى برج كنيسة (سانت مارتن) فى فترات لا يزيد طول إحداها على أربع دقائق. ولم يتمكن السيد (كيف) من أن يعرف - على وجه اليقين - إذا كان المريخيون المجنحون هم أنفسهم الذين كانوا يثبون بخفة فى الطرق المعبدة والشرفات. وهل يستطيع هؤلاء أن تنبت لهم أجنحة إذا شاءوا؟ وشاهد عدة مرات مخلوقات خرقاء ذات قدمين وشبيهة بالقرود، بيضاء اللون نصف شفافة وتتغذى على نبات الفطر. وذات مرة حدث أن هربت بعضها أمام سكان المريخ القفازين ذوى الرؤوس المستديرة، وأمسك أحدهم بأحد المخلوقات الشبيهة بالقرود. ثم اختفى المشهد فجأة، وتركت السيد (كيف) فى ظلام دامس، وهو يتألم للغاية بسبب اختفائه.

وظهر مرة أخرى شىء كبير الحجم، ظن السيد (كيف) فى بداية الأمر أنه حشرة عملاقة، وكان يتقدم نحو الطريق بجانب القناة بسرعة هائلة خارقة للعادة، ولما دنت هذه "الحشرة" من السيد (كيف)، اتضح له أنها جهاز من معادن براقة، ذو تركيب بالغ التعقيد، ولكنه كان قد اختفى عن ناظريه، حينما تطلع إليه من جديد.

بعد مرور بعض الوقت، أراد السيد (ويس) أن يلفت أنظار سكان المريخ، ولما ظهرت العينان الغريبتان لواحد منهم من جديد، بقرب

البيضة البللورية، صرخ السيد (كيف) بغتة وقفز بعيدًا، وأضاء هو وزميله النور على الفور، وأخذا يومئان ويشيران ببعض الحركات، بأسلوب يوحى بأنهما يحاولان إرسال إشارات. وعندما عاد السيد (كيف) إلى البللورة من جديد وفحصها، كان المريخيون قد اختفوا.

تمت هذه المشاهدات فى أوائل نوفمبر وبعدها شعر السيد (كيف) بأن شكوك أسرته عن البللورة، قد تضاءلت فأخذ يحمل البيضة البللورية معه فى غدوه ورواحه، حتى يتمكن من تسلية نفسه، إذا سنحت له الفرصة سواء كان نهارًا أو ليلاً، بالتحديق فى البللورة، والذى أصبح ـ بسرعة ـ شيئًا حقيقيًا فى حياته.

وازدادت أعمال السيد (ويس) فى ديسمبر مع اقتراب موعد الامتحانات، وتوقفت اللقاءات بين الصديقين لمدة أسبوع، ولم يشاهد السيد (كيف) لمدة عشرة أيام أو أحد عشر يومًا. وذات يوم اشتاق إلى استكمال مشاهداته فى البيضة البللورية، بعد أن قلت أعماله الموسمية، فاتجه إلى (سفن ديالز). وعند الركن لاحظ وجود مصراع خشبى أمام نافذة مربٍ للطيور وآخر عند محل الإسكافى. أما متجر السيد (كيف) فقد كان مغلقًا.

طرق السيد (ويس) الباب وفتح له ابن الزوجة وكان يرتدى السواد، ثم دعا السيدة (كيف) التى ظهرت أيضًا بثوب الحداد، فأدرك أن السيد (كيف) قد توفى ودفن. وكانت السيدة (كيف) تذرف الدموع وصوتها تخنقه العبرات. لقد عادت لتوها من (هاى جيت). وكان يبدو أن ذهنها مشغول بأمر مستقبلها ومراسم الجنازة. واستطاع السيد (ويس) أخيرًا أن يعرف تفاصيل موت

السيد (كيف). فقد وجد ميتًا فى متجره فى الصباح الباكر فى اليوم التالى لزيارته الأخيرة للسيد (ويس)، وكان يقبض بيديه الباردتين الخاليتين من الحياة، على البيضة البللورية. وقالت السيدة (كيف) إن وجهه كان مبتسمًا، وإن قطعة قماش المخمل التى كانت توضع مع المعادن، كانت ملقاة على الأرضية عند قدميه. ولا شك أنه قد مات قبل العثور على جثته بخمس ساعات أو ست.

كانت هذه الأحداث صدمة عنيفة للسيد (ويس)، وأخذ يلوم نفسه بشدة، لأنه أهمل ما كان يظهر على الرجل العجوز، من اعتلال الصحة، غير أن جل اهتمامه انصب على البيضة البللورية. وتطرق إلى هذا الموضوع بحذر ودقة، إذ كان يعرف مدى غرابة أطوار السيدة (كيف). وأصيب بالذهول عندما علم بأن البللورة قد بيعت.

وقد انصب تفكير السيدة (كيف) –بعد أن أخذت جثة السيد (كيف) إلى الدور العلوى –أن ترسل خطابًا للقسيس المجنون الذى عرض خمسة جنيهات ثمنًا للبللورة، تبلغه فيه بالعثور عليها.

وقامت هى وابنتها ببحث شاق للعثور على عنوانه، ولكن بعد قليل أيقنتا أنه قد ضاع. ولما لم تكن لديهما الأموال اللازمة لتشييع جنازة (كيف) ودفنه بطريقة تتفق وما تتطلبه كرامة رجل عاش طويلاً فى (سفن ديالز)، فقد التمستا من صديق تاجر فى شارع (جريت بورتلاند). وكان ذا طبيعة متعاطفة ومساعدة وخيّرة إلى حد كبير، فقام بشراء جزء من المخزون بالسعر الذى حددوه له، وتضمنت هذه الصفقة شراء البيضة البللورية. وبعد أن قدم لها

العزاء، أسرع السيد (ويس) على الفور إلى شارع (جريت بورتلاند). ولكنه علم هناك أن البيضة البللورية قد ابتاعها رجل طويل القامة أسمر البشرة يرتدى ملابس رمادية.

وهنا تنتهى بغتة الحقائق المادية لهذه القصة الغريبة، والموحية لى بأمور عديدة.

ولم يكن تاجر (جريت بورتلاند) يعرف ذلك الرجل الطويل الأسمر، ولم يلاحظه بعناية حتى يصفه بشكل دقيق. حتى إنه لم يعرف الطريق الذى سلكه بعد أن ترك متجره. ولبعض الوقت مكث السيد (ويس) فى المتجر، يلقى عليه الأسئلة العديدة، حتى كاد صبر التاجر ينفد، وكان السيد (ويس) فى الواقع يصب جام غضبه بسبب فقد البيضة البللورية. وفى نهاية الأمر عندما تأكد بأن كل شىء قد خرج من يديه، واختفى كما تختفى رؤى الليل، عاد إلى حجرته، وهناك أصابته الدهشة عندما وجد المذكرات التى دونها، ما زالت موجودة فى مكان بارز فوق المنضدة غير المرتبة. وبطبيعة الحال كان انزعاجه وخيبة أمله شديدين. وعاد لزيارة متجر (جريت بورتلاند)، ولكن دون جدوى. وكتب إعلانات فى المجلات التى ربما يتداولها تجار التحف القديمة. وكذلك أرسل خطابات إلى صحيفتى (ديلى كرونكل) و(نيتشر)، ولكن المسئولين فى هاتين الصحيفتين ظنوا أن فى الأمر خدعة، ومن ثم سألوه أن يعيد التفكير فى تصرفاته، قبل أن يسمحوا بالنشر، ونصحوه بأن مثل هذه القصة الغريبة تعرض سمعته للخطر بوصفه باحثًا علميًا، إذ لا تستند إلى أى أدلة تؤيدها. ولما كانت هناك أعمال مهمة يجب أن يؤديها، فقد

صرف النظر ـ مرغمًا ـ عن البحث عن البيضة البللورية، بعد مرور شهر، إلا من تساؤل عابر عن مكانها يوجهه إلى بعض تجار التحف القديمة، من وقت لآخر. ولم يعرف السيد (ويس) أى شىء عن البيضة البللورية منذ ذلك الوقت.

وبين فترة وأخرى متباعدة، كان يخبرنى ـ وليس هناك ما يمنع تصديقى له ـ بأنه أحيانًا تنتابه نوبات حماس، فيسعى للبحث عن البيضة البللورية من جديد، حتى إنه يترك أعماله العاجلة المهمة، ليواصل البحث.

وفى الوقت الحاضر، هل تظل الأمور المتعلقة بمادة البيضة البللورية والمكان الذى أتت منه ـ مثل أشياء أخرى ـ تخمينية وحدسية، دون أن يتوصل أحد إلى اكتشاف حقائق دامغة تؤكدها. ولو كان المشترى الحالى للبيضة البللورية من هواة التحف القديمة، فلا بد أن تكون قد وصلت إليه تحريات السيد (ويس) عنها، عن طريق التجار الآخرين.

وتمكن السيد (ويس) من اكتشاف شخصية القسيس والرجل الشرقى، فعرف أنهما ليسا إلا القس (جيمس باركر) وأمير مقاطعة (بوسو ـ كونى) فى جزيرة جاوه[١٤]، وأنا مدين لهما ببعض التفاصيل التى لم أكن أعرفها. ولم يكن هدف الأمير من الحصول على البيضة البللورية، إلا حب الاستطلاع وتبذير الأموال دون حساب، ذلك أنه حرص على شراء البيضة البللورية، عندما رأى أن السيد (كيف) كان يحجم ـ بشكل غريب ـ عن بيعها. ولعل من

---

(١٤) إحدى جزر أندونيسيا (المترجم).

اشتراها فيما بعد، رجل شاهدها عرضًا، وهو ليس من هواة التحف القديمة أو تجارها. ومن يدرى فربما كانت البيضة البللورية فى هذه اللحظة لا تبعد عنى أكثر من ميل واحد، وتستخدم فى تزيين غرفة جلوس فى أحد المنازل، أو لعلها تستعمل كثقالة ورق(١٥)، ولا يعرف أحد أى شىء عن خصائصها العجيبة.

والواقع أن تفكيرى فى هذه الخصائص، هو ما دفعنى إلى صياغة الوقائع فى صورة قصة، يمكن أن يقرأها القارئ العادى للأدب. أما عن آرائى عن هذا الأمر الغريب، فهى تتفق تمامًا مع آراء السيد (ويس)، إذ إننى أعتقد أن بين البيضة البللورية التى على عمود الشرفة فى المبنى المريخى، وبيضة السيد (كيف) ثمة صلة عجيبة، وإن كنا لا نستطيع سبر غور هذه الصلة، على الأقل فى الوقت الحاضر. ويعتقد كلانا بأن البيضة البللورية الأرضية، لا بد أن تكون قد أرسلت ـ بوسيلة مجهولة ـ من ذلك الكوكب من زمن ربما يكون موغلاً فى القدم، حتى يتعرف المريخيون على أحوالنا. وهناك احتمال أن تكون سائر البللورات التى توجد على أعمدة الشرفة ـ والمماثلة لهذه البللورة ـ لها مثيلاتها على كوكب الأرض. من يدرى؟ وليست هناك أية نظرية من نظريات "الهلوسة"، تكفى لمعرفة الحقائق المتعلقة بالبيضة البللورية.

(١٥) شىء تزيينى صغير وثقيل ويوضع على الأوراق لمنعها من التطاير (المترجم).

النجـــم

كان ذلك هو اليوم الأول من العام الجديد الذى أعلنت فيه ثلاثة مراصد فى وقت واحد تقريبًا أن حركة كوكب "نبتون" أبعد الكواكب عن الشمس قد أصبحت غير منتظمة. وقد أعلن عالم الفلك (أوجيلفى) عن اكتشافه لبطء نسبى فى حركة دوران الكوكب إبان شهر ديسمبر. ومثل هذا الخبر يعتبره العلماء مثار ترويع لجميع سكان كوكب الأرض، الذين لا يعلم الكثير منهم شيئًا عن كوكب بهذا الاسم. كما أن كثيرًا من الفلكيين لم يكونوا ليأبهوا البتة بتوابع وجود أى اختلال فى سرعة دوران الكوكب الذى يقبع فى أبعد موقع فضائى عن الشمس. أما علماء الفضاء فينظرون إلى الأمر بنظرة مختلفة تمامًا، حيث يعدونه حدثًا لا يمكن تجاهله حتى قبل أن يعرفوا، أن هناك نقطة ضوئية صغيرة تقترب من كوكب "نبتون" فى ذلك الوقت وهذه النقطة آخذة فى الزيادة المضطردة فى حجمها ودرجة بريقها بالقدر الذى يختلف تمامًا عما هو معروف من الثوابت العلمية الخاصة بالتغيرات التى قد تطرأ على الكواكب والأجرام السماوية الأخرى.

وقليل من الناس الذين لم ينالوا حظًا وافرًا من المعلومات حول علم الفلك يدركون تمامًا النظام الدقيق الذى تسير عليه المجموعة الشمسية. فالشمس بكل ما يحيط بها من الكواكب والكويكبات والنيازك والشهب تسبح فى فضاء لا انتهائى يفوق كل تصور. وفيما وراء كوكب "نبتون" يوجد فراغ هائل لا تستطيع المراصد أن تكتشف ما يحتويه، فهو يتسم بأنه بلا حرارة ولا ضوء ولا صوت. فراغ بمعنى الكلمة. أما النجم الذى تم اكتشافه يقترب من الكوكب فهو على مسافة تربو على عشرين مليار ميل ويتجه نحو الكوكب من خارج المجموعة الشمسية.

وبغض النظر عن عدد قليل جدًا من الشهب التى لا تعدو كونها مجرد ألسنة لهب متناهية الصغر بالنسبة لأحجام الأجرام السماوية فإن كثيرًا من البشر لم يكن يعرف شيئًا عن باقى الأجرام التى يعج بها هذا الفضاء اللامتناهى حتى كان أوائل القرن العشرين والذى ظهر فيه جسم فضائى عبارة عن كتلة ضخمة من المادة تندفع بقوة فى الفضاء يحمل نذير شؤم من اللغز الغامض الذى يكتنف السماء فى حيز المجموعة الشمسية وفى اليوم التالى كان واضحًا تمامًا لأية أداة بسيطة تختص بالرصد وجود هذا الشىء داخل برج "الأسد" بالقرب من "الجوزاء".

وفى اليوم الثالث من السنة الجديدة علم كل قارئى الصحف المهتمين بأمور الفضاء شيئًا ذى أهمية حقيقية عن هذا الجرم السماوى والذى كان يختلف إلى حد ما عن نظائره فى الفضاء. وقد كتبت إحدى صحف لندن فى صدر عددها الصادر فى هذا اليوم

تحت عنوان (اصطدام فضائى) والذى مفاده ما صرح به عالم الفضاء (دوشين) من أن هذا الكوكب الجديد الغريب من المحتمل أن يصطدم بكوكب "نبتون" . أما الكتاب الكبار فقد أدلوا بدلوهم فى هذا الموضوع وتوسعوا فيه. لذلك فإن معظم عواصم العالم كان لديها توقع يكتنفه الغموض فى اليوم الثالث من شهر يناير أنه من المحتمل وقوع إحدى الظواهر الخارقة فى السماء.. وحل الليل بعد غروب الشمس واشرأبت أعناق الآلاف من الناس نحو السماء ليروا ما سوف يحدث فلم يروا شيئًا سوى النجوم التى اعتادوا أن يروها لم يتغير منها شىء.

وعندما حل الفجر على مدينتى (لندن) و(بولوكس) كانت أضواء النجوم قد أصبحت أكثر خفوتًا وكان فجر الشتاء والذى يعتبر صورة شاحبة من ضوء النهار يتزامن مع ما قد أضاءه أهل المدينتين من شموع ولمبات تضاء بالكيروسين وقد سهروا حتى ساعات الفجر الأولى وهم يشعرون بالقلق والتوتر لما سوف يحدث فيما بعد، وحدث ما كان متوقعًا، حيث كان باستطاعة العامة، بداية من الشرطى المتثائب والجموع المحتشدة فى الأسواق والنساء المتجهات إلى أعمالهن، وباعة الحليب وسائقى الحناطير والرجال السكارى الذين يهيمون على وجوههم ويجدون منازلهم بصعوبة مرورًا بهؤلاء الذين يقطنون الريف والذين يعمل بعضهم فى تمهيد الأرض والصيادين العائدين إلى منازلهم وكذلك البحارة، أن يروا نجمًا أبيض كبيرًا يظهر فجأة فى غرب السماء.

وقد كان هذا النجم أكثر بريقًا من أى نجم آخر رأوه من قبل فى كبد السماء حتى إنه يفوق فى بريقه أكثر هذه النجوم بريقًا. وظل

هـذا الـنجم يومض ويـزداد بـريقه من وقت لآخـر فلم يكن عـبارة عن نقطة مضيئة فحسب فى السماء ولكنه كان عبارة عن جسم مستدير مشع. وبعد أن مر من النهار ما يربو على الساعة.. وفى لحظات لم يجد لها العلم تفسيرًا منطقيًا أخذ الناس يحملقون فى السماء وقد انـتابهم الخوف الشديد وكان كل منـهم يـحدث الآخـر عن الحـروب وويلاتها والآفات وما ينجم عن تفشيها والتى تعتبر هذه الخوارق السماوية نذر شؤم لها.. ولقد شملت حشود المشاهدين فئات وعناصر من كل صوب وحدب. فكان يمكن للمراقب أن يشاهد عبيد البوير وسود الهوتنتوت وزنوج جولد كوست وأفراد الجاليات الفرنسية والإسبانية والبرتغالية كلهم قد وقف بهذا المزيج الغريب يعانون من حرارة الشمس وهم يشاهدون مولد هذا النجم الغريب الجديد.

وفى حوالى مئة مرصد تعالت صيحات الدهشة حتى وصلت إلى درجة الصراخ عندما اصطدم الجرمان السماويان بعضهما ببعض وأصبح جميع العاملين بهذه المراصد يتدافعون هنا وهناك من أجل استغلال الفرصة والتقاط ما يستطيعون من صور فوتوغرافية وتليسكوبية كما قاموا باستخدام الأجهزة كافة لتسجيل هذا المشهد البديع من رواية "نهاية عالم". وقد أطلق لفظ "عالم" على هذا الكوكب لأنه كوكب شقيق للأرض فى المجموعة الشمسية على الرغم من أنه يقع على مسافة سحيقة جدًا من كوكبنا والذى استحال فجأة إلى جرم لا حياة فيه من جراء هذا الانفجار المروع. لقد فنى "نبتون" عن بكرة أبيه نتيجة لاصطدام هذا الكوكب الدخيل على المجموعة الشمسية به وقد صهرت الحرارة الناجمة عن

الانفجار جرمين سماويين يتسمان بالصلابة وجعلت منهما شكلاً هلاميًا عظيم المساحة يتأجج من الحرارة.

وفى سماء كوكب الأرض فى هذا اليوم وقبل ساعتين من الفجر، أخذ النجم الأبيض كبير الحجم طريقه للانزواء، فبدأ فى الأفول كما لو أنه غاص فى الجهة الغربية للسماء ثم اعتلته الشمس. وفى كل مكان كان الناس يتندرون بما حدث ولكن من بين كل من شاهدوه لم يكن أحد أكثر تعجبًا من هؤلاء البحارة ومراقبى النجوم والذين كانوا حينئذ فى عرض البحر وشاهدوه وهو يبزغ من القمر وبقى هناك برهة ثم أفل ناحية غرب السماء بحلول الليل.

وعندما ظهر فيما بعد فى مكان ما من قارة أوروبا كان يخرج لمشاهدته حشود المشاهدين الذين كانوا يعتلون الهضاب والقباب وأسطح المنازل أو يتجمعون فى الساحات المفتوحة وهم يحدقون بأبصارهم صوب السماء من جهة الشرق لمشاهدة بزوغ النجم الأبيض الكبير. وقد ظهر النجم بالفعل وأمامه ما كان يشبه لهب النيران البيضاء، أما الذين رأوه وكانوا قد شاهدوه قبلها بليلة فقد أخذوا يصيحون: "إنه أكبر حجمًا" "إنه أكثر بريقًا"، وبالفعل فإن هذا النجم قد ظهر للعيان مثل القمر غير مكتمل الاستدارة وهو يتجه صوب جهة الغرب ولكن الشىء الذى كان يثير الهلع داخل قلوب المشاهدين هو ذلك الوميض المنقطع النظير.

وكان الناس فى الشوارع ما انفكوا يرددون "إنه أكثر بريقًا" إلى لحظة احتبست فيها أنفاس العلماء المشتغلين بالمراصد الجوية

وأخذوا ينظرون بعيون ملؤها الرعب وهم يقولون: "لقد أصبح قريبًا.. أقرب مما كنا نتخيل".

وتوالت الأصوات والصيحات تعلن عن هذا الكشف المروع، وانتقل الخبر بكل ما يحمله من نذير دمار للجميع عبر التلغراف وأسلاك الهاتف، وفى نحو ألف مدينة كان عمال المطابع ذوو الأيادى المتسخة بالأحبار يهتفون: "إنه أصبح أقرب" كما صدمت هذه الأنباء هؤلاء الموظفين الذين يؤدون عملهم الدؤوب فى مكاتبهم فوقعت أقلامهم من بين أيديهم حتى هؤلاء الناس الذين كانوا يستمتعون بالأحاديث فى شتى البقاع تلعثمت الكلمات فوق ألسنتهم وأصبح ما يقولونه منحصرًا فى: "إنه يقترب"، وقد أخذ الناس يتدافعون فى شوارع المدن وطرق القرى. وكان كل من يتنامى إلى سمعه مثل هذه الأنباء وكل من يقرأها يقف أمام بيته ليلاً حيث الضوء الأصفر الخافت المنبعث من المصباح الكيروسينى أو الشموع ليقول للمارة: "إنه يقترب". أما النساء الحسناوات ذوات البشرة المتوردة فقد كن يقلن فى أثناء الرقص كأنهن لا يعنيهن من الأمر شىء "اقترب.. بالفعل.. يا له من شىء مثير للفضول. كيف استطاع هؤلاء الأذكياء أن يكتشفوا أشياء مثل هذه".

فقط كانت المتسولات خلال ليل الشتاء يتمتمن بهذه الكلمات لكى يهدئن من روعهن وهن ينظرن صوب السماء "إنه كان يحتاج لأن يكون أقرب؛ لأن الليل قد أصبح باردًا مثل مساعدة الفقراء. ولن نجنى منه فى كل الأحوال دفئًا فلن يضيرنا سواء اقترب أو ابتعد".

كما قالت إحدى السيدات التى كانت تنعى أحد ذويها وتنتحب لوفاته عندما سمعت بهذا النبأ "ماذا يعنى مثل هذا النجم لى..؟".

كما قال أحد التلاميذ الذين استيقظوا مبكرًا للذهاب إلى المدرسة من أجل الامتحان وهو يبدو متحيرًا مما يحدث ـ وما سمعه من أمر هذا النجم الأبيض الكبير والذى يلمع بشدة ويراه عبر الزهور المنتشرة على جلسة الشباك "المخرب المدمر" وقال وهو يضع ذقنه فوق قبضته وينظر إلى السماء من شباكه: "هل فعلا ستوقف كوكبًا عن دورانه فى الهواء وتسحقه بقوتك المدمرة.. أى قوة ساحقة هذه التى تمتلكها والتى ستلقى بالكوكب فى جوف الشمس".

"هل سنقع نحن الآخرون فى طريقك؟".

وانقضى نهار هذا اليوم مثلما انقضى نهار كل يوم سبقه. ورأى أناس آخرون عمدوا إلى مشاهدة هذه الظاهرة فى أثناء الليل المغلف بالضباب ذلك الفجر مرة أخرى. رأوه وقد أصبح لامعًا جدًا لدرجة أن القمر وقد اكتمل بدا كأنه شبح باهت كما بدا النجم وقد تعلق فى السماء بحجمه الضخم ونوره البراق.. وفى إحدى مدن جنوب أفريقيا، تزوج أحد الرجال ذوى المناصب الراقية الذين يشغلون مكانة "سامية لدى بنى جلدتهم" وقد أضيئت الشوارع بالمصابيح للترحيب بقدوم العروس. فقال أحد الحاضرين مادحًا متملقًا: "حتى السماوات أضاءت ابتهاجًا بهذا العرس".. وتحت كوبرى "كابريكورن" كان زوج من العاشقين الزنوج يتحديان ببعض التمائم الوحوش الضارية والأرواح الشريرة من أجل أن يستمر

حبهما وعندما رأيا النجم قالا: "هذا نجمنا" ثم همسا بعضهما إلى بعض وشعرا بارتياح عظيم لما رأيا البريق الجميل الذى يأخذ بالألباب.

وفى مكان ما جلس أحد علماء الرياضيات الأفذاذ فى غرفته ونحى الأوراق التى كانت أمامه جانبًا. لقد توصل بالفعل إلى نواتج جميع العمليات الحسابية التى كان يقوم بها. وفى قنينة صغيرة بيضاء كان ما يزال بعض الخمر الذى مكنه من أن يظل مستيقظًا منتبهًا نشطًا طول أربع ليال قضاها بلا نوم تقريبًا حتى تسنى له إنهاء أعماله.. وفى كل يوم كان يقوم بإلقاء محاضراته وهو مفعم بالحيوية والنشاط والصبر ثم يعود بعد ذلك بشغف إلى حساباته التى لا تنقطع. كان وجهه غائرًا. وكان يميل إلى الشحوب والتغضن بفعل المنشطات التى كان يتعاطاها. ولبرهة شعر كما لو كان قد فقد القدرة على التفكير. فاتجه إلى النافذة. فانتفض ذهنه فجأة ففى منتصف السماء وما بين الأسطح والمداخن والأبراج التى تزخر بها المدينة كان النجم بازغًا.

فأخذ يمعن النظر إليه كما لو أن أحد الناس ينظر فى عينى أحد الأعداء الشجعان. وقال له: "حقًا أنك تستطيع أن تفتك بى" "ولكنى يمكننى أن أمسك بك. وكل الكون - وهو يشتاق إلى هذا - سيكون فى قبضة "تحت سيطرة" هذا اللب الصغير. ولكن هذا لن يغيرنى. حتى فى هذه اللحظة".

ثم نظر إلى القنينة الصغيرة وقال: "ليس هناك حاجة للنوم مرة أخرى". وفى ظهر اليوم التالى وقد شعر بالتميز لتوّه دلف إلى قاعة

المحاضرات ووضع قبعته عند طرف المنضدة كعادته واختار بعناية طبشورًا كبير الحجم وكان يثير ضحك الطلاب إصراره على استخدام هذا الطبشور وهو يتحسسه بين يديه والذى لم يكن يستطيع الشرح دونه.. وقد حدث أن قاموا بإخفاء متعلقاته مما أثار حفيظته. فنظر من تحت حاجبيه الرماديتين إلى هذه الأوجه الضاحكة لهؤلاء الصغار ثم تحدث كما اعتاد أن يتحدث ويبدأ محاضراته قائلاً: "لقد تطورت الأمور إلى الأسوأ فعلاً لقد أصبح كل شىء خارج السيطرة". ثم توقف عن الكلام هنيهة "وهذا يمكن أن يمنعنى من تكملة المنهج الذى قد أعددته" كما لو أننى أريد أن أوضح لكم أيها النبلاء الصغار نظرية أن "الإنسان كان يعيش فى العدم". وهنا نظر الطلاب بعضهم إلى بعض.. "هل ما سمعوه حقيقى؟ هل جُنّ" فها هم يرونه وقد ارتفعت حاجباه وزبدت الكلمات فوق شفتيه إلا أن اثنين من هؤلاء الطلاب ظلا منتبهين أشد الانتباه لما اعترى قسمات وجه من تغير ثم استمر فى حديثه "إنه سيكون من الممتع أن نكرس هذه المحاضرة الصباحية من أجل عرض حقيقة الموضوع لذلك فإننى سأبذل قصارى جهدى من أجل أن أوضح لكم أنه من خلال بعض العمليات الحسابية توصلت إلى الخلاصة.. دعونا نفترض..".

ثم استدار إلى السبورة ورسم فى منتصفها شكلاً توضيحيًا بطريقة بدت معتادة بالنسبة له. فهمس أحد الطلاب لزميله: "هل هذا الشىء يتعلق بموضوع حياة العدم". عندئذ قال آخر: "استمع" وأشار إلى المحاضر. ثم بدأ الجميع ينتبه ويحسن الفهم.

فى هذه الليلة ظهر النجم مرة أخرى ولكن فى وقت متأخر وكان يتحرك فى مساره شرقًا إلا أنه انحرف بطريقة ما من خلال برج "الأسد" ودخل برج "العذراء" وأصبح بريقه شديدًا للغاية لدرجة أن السماء قد استحالت إلى كيان فضاء باللون الأزرق واختفت جميع النجوم فيما عداه، فيما عدا عطارد بالقرب من (الأوج)، و(العيوق) و (الدبران) و(الشعرى اليمانية) وكذلك حواف (الدب الأكبر) وكان النجم ما زال بلونه الأبيض الذى أعطاه جمالاً أخاذًا.

وفى معظم أنحاء العالم كانت هناك هالة ضوئية تحيط بهذا النجم وكان فى هذا الوقت أكبر من ذى قبل. وفى السماء الصافية فوق المدارس بزغ النجم وقد بلغ حجمه ربع حجم القمر.. وقد كانت الثلوج حينئذ ما زالت على طرقات (إنجلترا) وقد أضاء العالم هذا النجم اللامع كما لو كان هذا الوقت هو منتصف الصيف وكان بإمكان أى إنسان من العامة أن يرى ذلك الجسم الذى أصبح من المألوف رؤيته وهو يطل من السماء بنوره الوهاج.. وفى طرقات المدن كان المرء يشعر بأن المصابيح قد استحالت إلى مجرد لون أصفر شاحب.

وفى كل مكان فى العالم الذى ظل مستيقظًا هذه الليلة كانت هناك همهمات واضحة تتناقل عبر الهواء لتشمل جميع القرى فتصبح مثل طنين النحل فى نبات (الخلنج) كما استحالت هذه الهمهمات إلى ضجيج يسد الآذان فى شتى المدن. وقد دقت الأجراس فى ملايين من أبراج كنائس المدن والقرى والمقاطعات تناشد الناس بعدم الركون إلى النوم وألا يرتكبوا مزيدًا من الآثام

وأن يجتمعوا فى كنائسهم ويبتهلوا إلى الله.. وعاليًا فى السماء كان النجم يزداد حجمًا وبريقًا كلما دارت الأرض فى مسارها المعروف ومر الليل وظل النجم المتلألئ بازغًا.

وقد أضيئت جميع شوارع كل المدن ومنازلها كما أضيئت جميع الطرق المؤدية إلى المدن الكبرى وأصبحت مكتظة بالحشود طوال الليل. كما أضاءت جميع البحار التى تحيط بالدول المتمدينة تلك السفن التى تحوى محركات ضخمة وكذلك السفن ذات الأشرعة والتى كانت مكدسة بالبشر والكائنات الحية والذين وقفوا فى عرض المحيط وفى شماله.

هذا وقد وصل ما حذر منه عالم الرياضيات العبقرى إلى جميع أنحاء العالم من خلال خطوط البرق (التلغراف) وتمت ترجمته إلى العديد من اللغات. فهذا الكوكب الجديد و"نبتون" اللذان التقيا فى عناق مدمر كانا ما زالا يترنحان ويتجهان بقوة وسرعة شديدة جدًا تجاه الشمس.

وفى الواقع كانت هذه الكتلة المشتعلة الناتجة عن الاصطدام تقطع مئات الأميال فى كل ثانية وكل ثانية كانت تزداد معها سرعة هذه الكتلة قياسًا بسرعة الضوء.

وهذه الكتلة وبما أنها تمرق فى هذه اللحظة فلا بد أنها سوف تمر على كوكب الأرض وتؤثر فيه على الرغم من أنها سوف تكون بعيدة عنه مليون ميل على أقل تقدير. ولكن ياللمصيبة فإنه على مدى الطريق المرسوم لمسار الكتلة يقع مدار كوكب "عطارد" والأقمار التالية له حول الشمس.. وفى كل لحظة تزداد الجاذبية بين النجم

المتأجج والكواكب الكبرى.. ولكن ما نتيجة هذه الجاذبية؟! بالطبع فإن "عطارد" ذلك الكوكب الذى لن يمكن لهذه الكتلة المشتعلة تفاديه سوف يخرج عن مداره إلى مسار آخر والنجم المتأجج ربما سينتج عن اندفاعه الخارق السرعة نحو الشمس أن "يحفر لنفسه مسارًا جديدًا" وربما يصطدم بالأرض حيث سيكون مساره قريبًا جدًا منها. كما تنبأ عالم الرياضيات العبقرى بأنه سيكون هناك زلازل وانفجارات بركانية وعواصف وفيضانات وارتفاع مضطرد فى درجات الحرارة بلا حدود.

وعاليًا فى السماء كان النجم اللامع البارد يلمع بشدة مبرهنًا على صدق توقعات عالم الرياضيات.

وقد بدا النجم اللامع لهؤلاء الذين أمعنوا النظر إليه فى هذه الليلة لدرجة أن ذلك قد أصابهم بالصداع بدا كأنه أكثر قربًا عن ذى قبل ـ كما تغير المناخ فى أثناء الليل، حيث قلت كميات الجليد التى كانت تجتاح وسط أوروبا وفرنسا وإنجلترا فى هذا الوقت من العام.

ولكن هل بإمكانك أن تتخيل الأمر حينما أتحدث عن بشر يصلون فى جوف الليل، وآخرين يصعدون على أسطح السفن، وآخرين يهربون ناحية القرى الجبلية.. لدرجة أن العالم أجمع قد أصبح فى قمة ارتياعه بسبب هذا النجم.

ولكن فى الواقع وعلى الرغم من الرعب الذى كان يجتاح العالم ـ وتوفيرًا للكلام عما يزخر به ليل هذه الأيام من لحظات تتسم بالسخف ـ فإن كثيرًا من البشر كانوا مشغولين بأداء أعمالهم

اليومية. كما كانت المحال التجارية فى المدن كافة تفتح أبوابها وتغلقها فى نفس الأوقات المعتادة، كما كان كل من الطبيب والحانوتى يمارس حرفته بهمة. كما شهدت المصانع كالمعتاد وجود جميع العاملين بها، كما كان الجنود يقومون بمهامهم المعتادة، والطلاب يدرسون، والعاشقون يحلم كل منهم بالآخر واللصوص يتحينون الفرص ورجال السياسة يصنعون الأطر العريضة لخططهم المستقبلية. وكانت دور النشر والمطبوعات الصحافية تعمل طوال الليل. كذلك فإن بعض القساوسة لم يسمح للمصلين بالوجود داخل الكنائس من أجل الصلاة بسبب خوف لا مبرر له.. وقد أصرت الصحف على أن الأمر لا يعدو سوى نفس ما حدث عام (١٠٠٠ م) حيث توقع الناس حينئذ النهاية. فهذا النجم الذى أثار البلبلة ليس بنجم ـ فلربما كان عبارة عن غاز أو كويكب وحتى لو كان نجمًا بالفعل فمن المحتمل ألا يصطدم بكوكب الأرض. ولم تكن هناك سابقة تتماثل مع ما يحدث الآن. إلا أن الشعور السائد حينئذ هو الصلابة فى كل مكان وكذلك ساد الشعور باحتقار هذه الإشاعات وكانت كل الأمور تميل كلها إلى طمأنة الناس.

وفى تلك الليلة وفى تمام الساعة السابعة والربع بتوقيت جرينتش كان من المفترض أن يكون النجم عند أقرب نقطة له من "عطارد". عندئذ سوف يشاهد الناس تحول الأجرام السماوية. وقد اعتبر الكثيرون أن توقعات عالم الرياضيات هذا ما هى إلا دعاية لكى يعلن عن نفسه.

وقد اتجه الشعور العام بعد ذلك، بعدما ألهبته النقاشات المستمرة إلى الميل لمعتقداته التى لم تتغير واتجه الجميع للنوم..

كذلك أيضًا فإن القسوة والبربرية قد تعبت من هذه الرواية المحبوكة واتجهت إلى منهاجها المألوف، وأخيرًا ألقى العالم المتوحش قصة النجم وراء ظهره.

ولكن فى النهاية شاهد المراقبون فى المقاطعات الأوروبية بزوغ النجم الذى ـ بعد ساعة واحدة ـ أصبح جليًا للعين المجردة ولكن لم يكن حجمه أكبر عن ذى قبل، على حين كان هناك كثير من الناس السهارى من استمر فى سخريته من ادعاءات عالم الرياضيات العبقرى وذلك عندما شعروا فى قرارة أنفسهم بأن الخطر قد زال. ولكن بعد ذلك بوقت ليس بالطويل استحالت الضحكات إلى غصة فى الحلوق. فالنجم قد أخذ حجمه فى التزايد.. ثم أخذ فى التزايد المضطرد ساعة بعد الأخرى ثم أخذ هذا التزايد يقل كل ساعة وأخذ يقترب ببطء وبلغ أوجه عند منتصف الليل. وقد أخذ بريقه يزداد حتى استحال الليل إلى نهار آخر. هل أصبح النجم يتجه إلى الأرض بدلاً من أن يصنع لنفسه مسارًا آخر؟! هل فقد النجم مساره المتسارع نحو "عطارد".. هل وثب فجأة من فضائه المتوقع خلال يوم؟! ولكن على أية حال فإن النجم سوف يستغرق خمسة أيام كاملة لكى يصل إلى كوكب الأرض.. وفى الليلة التالية أصبح حجم النجم يضاهى ثلث حجم القمر قبل أن تراه عيون شعب (إنجلترا) وأصبح انصهار الجليد شيئًا مؤكدًا. كما ظهر النجم فى أمريكا فى حجم يقترب من حجم القمر ولكن كان يغلفه لون أبيض أغشى العيون عن إدراكه كما أن الناس قد شعروا بحرارته لدرجة أن نسيمًا من الرياح الحارة قد تزايد واستجمع قوته، أما فى "فيرجنيا" و"البرازيل" وعند وادى "سانت لورانس" فقد أخذ يومض

بشدة وبطريقة مضطردة حتى بلغ مبلغه ليتمثل فى قطع من السحب الرعدية ينبعث منها بريق بنفسجى ليس له مثيل. وفى "مانيتوبا" كانت هناك فيضانات مدمرة تجتث كل ما يواجهها وعلى قمم جميع جبال الكرة الأرضية أخذ الجليد والثلج فى الذوبان فى هذه الليلة، كما اندفعت مياه الأنهار بقوة وبسرعة فائقة. وهى تجرف فى طريقها الأشجار وأجسام البشر والحيوانات وكانت هذه الأمور تتزايد بثبات وبطريقة مخيفة وأصبحت المياه تفيض على ضفاف المجارى المائية وتخلف وراءها جثثًا عائمة فى الوديان كافة.

وعلى امتداد ساحل "الأرجنتين" صعودًا إلى جنوب المحيط الأطلنطى كان المد يضرب بقوة فاقت كل ما يتعارف عليه البشر عن هذه الظواهر وقد دفعت العواصف بالمياه داخل مسافات بلغت الأميال داخل المدن لتغرق. كذلك ارتفعت درجة حرارة الأرض فى أثناء الليل حتى إن شروق الشمس قد أضحى كما لو كان قد خرج من ظلال الليل.. وبدأت الزلازل وتزايدت حدتها حتى إن القارة الأمريكية بداية من الدائرة القطبية حتى "كيب هورن" قد تحولت حوافها الجبلية إلى كيانات منهارة وامتلأت الأرض بالشقوق.. كما تعرضت المنازل والجدران للدمار وأخذت الحمم البركانية فى الانتشار لأعلى وعلى مساحات شاسعة وتحول السائل الملتهب فى خلال يوم واحد إلى فيضانات تتسكب فى البحر.

وسار النجم بسطوته، التى طغت على القمر الشاحب، نحو المحيط الهادى يقود أمامه العواصف الرعدية كحاشية لرئيس إحدى العصابات.. كما ارتفعت موجات المد وراءه تضرب كل شىء

بعنف وقد غرقت الجزر واحدة تلو الأخرى وجعلتها خالية من البشر حتى أتت موجة فى النهاية تختفى وراء ضوء يعمى الأبصار وهى تحمل رائحة الدمار فأصبحت كجدار عظيم من الماء بلغ طوله خمسين قدمًا وهى تزأر بنهم على امتداد سواحل آسيا وزحفت داخل المعمورة وتجاوزت مرتفعات الصين. وفى الفضاء كانت حرارة النجم آخذة فى الارتفاع المذهل وكان حجمه آخذًا فى التزايد ووميضه يفوق ضوء الشمس فى أوجه وهو يسحق بلا رحمة كل البلاد المكتظة بالبشر مدمرًا مدنها وقراها وأشجارها وطرقها وحقولها الغنّاء وقد أخذ ملايين البشر الذين لم يذوقوا طعم النوم يحملقون فى رعب ويأس فى هذه السماء المتأججة.

عندئذ صكت الأذان أصوات همهمة السيل الجارف الذى حمل فى طريقه ملايين البشر فى هذه الليلة والذين كانوا يتطايرون هنا وهناك تحرق أطرافهم الحرارة ويحبس أنفاسهم ذلك الاندفاع الناتج عن الجدار المائى الشاهق الذى يعلوه الزَبَد. والذى تحول فى النهاية إلى مجرم قاتل.. أما الصين فكانت تلتمع جميعها بهذا الضوء الأبيض، أما اليابان وجاوه وجميع الجزر الموجودة فى شرق آسيا فقد شوهد فيها النجم وقد أصبح عبارة عن كرة حمراء نارية غير واضحة المعالم بسبب البخار المتصاعد والدخان والرماد المنبعث من البراكين التى كانت تضرب بلا هوادة ترحيبًا بالضيف العزيز القادم وفى كل مكان كانت الحمم البركانية والغازات الحارقة والرماد يطغى على كل شىء وتحت الأقدام كانت الفيضانات تشق طريقها واهتزت الأرض كلها وزمجرت من جراء توابع الزلازل. كما انصهر الجليد المتراكم فوق مرتفعات التبت والهيمالايا وأصبح

ينحدر كالسيول بعشرات الملايين من اللترات مكونًا ترعًا فى سهول بورما وهيندوستان. كما تعرضت القمم المتلاحمة فى غابات الهند إلى الحريق فى آلاف المواقع وأسفل المياه والأمواج المتلاحقة كانت هناك أجساد بشرية تصارع من أجل البقاء ولكن بضعف ويأس. إلا أن هناك مجموعة من الناس رجال ونساء قد توجهوا بلا تردد صوب الأماكن المفتوحة وذلك كآخر أمل لهم للنجاة بدلاً من البحر المفتوح.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد استمر حجم النجم فى التزايد كما ارتفعت حرارته أكثر وأصبح أكثر بريقًا وسرعة. وفقد المحيط الاستوائى رونقه الخلاب وارتفع منه البخار فى شكل مروع من هذه الأمواج السوداء والتى كانت تعج بالبشر والسفن التى احترقت من جرّاء العواصف النارية.

ثم تبع ذلك كله حدوث ما لم يكن فى الحسبان. فلقد بدا لجميع المشاهدين لهذه الظاهرة فى أوروبا أن بزوغ النجم سوف يؤدى إلى توقف كوكب الأرض عن الدوران وفى آلاف من المواقع المفتوحة سواء كانت تحت الأرض أو فوقها والتى كانت تعج بملايين الناس الذين أفلحوا فى الهرب من الفيضانات والمنازل المتهاوية والمرتفعات المنهارة قد شاهدوا ظهور النجم وهم يائسون. ومرت ساعة تعقبها أخرى خلال هذا التطور المحموم. وعندئذ لم يعد النجم يظهر مرة أخرى وأخذت جموع البشر تحملق مرة أخرى فى هذه الأبراج السماوية القديمة والذين حسبوا أنهم قد فقدوها للأبد. وفى إنجلترا كان المناخ ما زال حارًا ولكن السماء أصبحت صافية على

الرغم من أن الأرض كانت ترتعد بانتفاضات متوالية ولكن عند المدارين كانت المدن لا تزال تتصاعد منها الأبخرة. وعندما ظهر النجم لآخر مرة بعد عشر ساعات من هذا الوقت كانت الشمس تشرق بالقرب منه وتعلوه وكان فى مركز الشمس قرص أسود.

وفى سماء آسيا بدأ النجم يتوارى مع حركة السماء ثم أصبح متمركزًا فوق الهند وخف بريقه وفى كل سهول الهند من أبعد مكان فى جزر الهند إلى أدناها كانت هناك آثار لمياه ضحلة تملأ السهول. فى تلك الليلة والتى كان للمشاهد أن يرى المعابد والقصور وقد ملأها القتلى سود البشرة حتى إن كل مئذنة كانت تكتظ بالبشر والذين تساقطوا واحدًا تلو الآخر بفعل المياه ذات السرعة الفائقة كما قهرتهم الحرارة والريح. وفجأة لاح الأمل فى قمة اليأس حيث هلت نسائم الرياح الباردة وشوهدت تجمعات للسحب وقد أخذ ما تبقى من البشر ينظرون بأعين أعماها الهلع إلى النجم فرأوه وقد تحول إلى قرص أسود يتجسد مع الضوء.. إنه القمر وقد ظهر بين النجم والأرض.. حتى عندما ارتفعت أكف البشر حمدًا لله الذى خلصهم من هذا النجم رأوا الشمس وقد وثبت بطريقة لا يصدقها عقل مع هذا النجم والقمر ليندفع جميعها عبر السماء فى مسار غريب.

وهذا هو السبب الذى جعل العاملين بالأرصاد يشاهدون فى عصرنا الحالى النجم والشمس يشرقان كل بقرب الآخر، ثم جاءت النهاية المحتومة حيث ارتحل كل منهما عن الآخر فى عنان السماء، ولم يعد القمر يحجب النجم ولكنه كان يغيب عن الأرصاد يحجبه

بريق الشمس، وعلى الرغم من أن هؤلاء الذين ظلوا أحيانًا ينظرون إلى ما حدث بنظرة تتسم بالغباء المطلق. وذلك أن الجوع والتعب واليأس كل هذا لم يكن ليؤثر فى المعانى المختزنة لدى بعض البشر والتى تمنعهم من إدراك أبعاد هذه العلامات.

أما الأرض والنجم هذا فقد كانا فى وقت من الأوقات فى أقرب نقطة التقاء ثم ابتعد كل منهما عن الآخر حتى انزوى النجم فى نهاية الأمر وكان النجم فى رحلته الأخيرة يسير بسرعة خارقة حتى وصل إلى مرحلته الأخيرة لتبتلعه الشمس داخل جوفها الملتهب.

بعد ذلك أخذت السحب تتجمع وتظهر كبقع تحجب رؤية السماء أما البرق والرعد فقد ظلا يتتابعان على الأرجاء كافة وأخذ المطر يهطل على الأرض بطريقة لم يعهدها البشر وعندما هدأت البراكين كانت هناك كميات عظيمة من الوحل تملأ الأرجاء. وفى كل مكان كانت المياه تنساب إلى مجاريها مخلفة وراءها كميات هائلة من الغرين. وزخرت الأرض بالمخلفات التى جرفها الفيضان بما فى ذلك أجساد البشر والضحايا من الأطفال. واستمرت المياه تغادر سطح الأرض لعدة أيام وهى تجرف فى طريقها التربة وتقتلع الأشجار والمنازل. هذا ما حدث فى أثناء أيام الظلام التى أعقبت ما أحدثه النجم وارتفاع حرارة الأرض والتى خلالها ولمدة أسابيع بل شهور استمرت الزلازل دون توقف.

ولكن حتى بعد انزواء النجم استجمع البشر شجاعتهم ولكن فى بطء شديد مدفوعين بالرغبة فى سد الجوع وبدأوا يزحفون مرة أخرى إلى المدن التى لحقها الدمار حيث مستودعات الغذاء التى

دفنت والحقول الغناء. وهذه القلة القليلة من السفن التى استطاعت أن تنجو من العواصف قد أصبحت منهكة وأصبحت تشق طريقها بحذر عبر العلامات الجديدة والمياه الضحلة والتى أصبحت تعج بها الموانئ التى كانت مألوفة قبل ذلك، ولأن العواصف قد أوهنت البشر الذين كابدوا أيضًا أيامًا اتصفت بالارتفاع الذى لم يسبق له مثيل فى درجات الحرارة، كما أن الشمس قد تعاظم حجمها وانكمش القمر بمقدار ثلث حجمه السابق. فقد كان البشر واقعين تحت تأثير ما حدث ينتظرون المزيد والمزيد من قسوة الطبيعة.

ومع هذا فقد تنامى لدى البشر الشعور بالإخاء والذى تزايد فى الزمن الحاضر بين البشر كافة، كذلك تزايدت الحاجة إلى احترام القوانين واقتناء الكتب والآلات. كذلك حدث تغير غريب فى كل من "آيسلانده" و"جرينلاند" وكذلك شطآن خليج "بافن" لدرجة أن البحارة كلما أتوا إليها فى أى وقت من العام يجدونها خضراء وارفة وقد أصبح الجميع لا تصدق أعينهم حدوث مثل هذه الظواهر وإن قُصَّتْ عليهم حتى بالنسبة لانتقالات البشر وترحالهم فقد أصبحوا يتجهون إلى المحيطين القطبيين لشعورهم بارتفاع درجة حرارة الأرض. وعلى الرغم من هذا كله فما زال يشغل الأذهان ظهور النجم ومروره.

أما علماء الفضاء على كوكب "المريخ". حيث يوجد هناك علماء فلك. على الرغم من أنهم ليسوا بشرًا مثلنا. فقد كانوا بطبيعة الحال مهتمين جدًا بما حدث. فهم يرون ذلك من وجهة نظرهم أنه "مع الوضع فى الاعتبار حجم الكتلة وحرارتها والتى انطلقت عبر

مجموعتنا الشمسية نحو الشمس فإن ما حاق بالأرض من خسائر يعتبر نزرًا يسيرًا" حيث أخطأتها هذه الكتلة بصعوبة فلحسن حظ الكرة الأرضية أنه لم تطرأ أى تغيرات على الحواف القارية المألوفة ولكن الاختلاف الوحيد كان يكمن فى انكماش المساحات البيضاء (من المفترض أن يكون المقصود بذلك المياه المتجمدة) الموجودة حول المحيط القطبى مما يظهر أن المصائب مهما تعاظمت فهى ضئيلة بالنسبة للبشر حتى لو كان الخطر يكمن على مسافة بضع ملايين من الأميال.

المؤلف فى سطور :

هـ. ج ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٩)

- ولد (ويلز) فى (بروملى) بمقاطعة (كنت) بإنجلترا.
- عمل بالتدريس والصحافة.
- يعد من الرواد الحقيقيين لأدب الخيال العلمى، كما أنه كاتب ذو مواهب متعددة، تكاد تتنافس بعضها مع بعض، فهو مؤلف لقصص الخيال العلمى، وروائى اجتماعى، وإنسان مجادل قوى الحجة، وشخص يجيد التنبؤ بالمستقبل والتحذير من العوائق المحتملة، كما أنه مؤرخ للبشرية.
- من أشهر رواياته (آلة الزمن) عام ١٨٩٥، و(جزيرة د، مورو) عام ١٨٩٦ و(الرجل الخفى) عام ١٨٩٧ و(حرب العوالم) عام ١٨٩٨ و(أول بشر على القمر) عام ١٩٠١. وكان تأثير الكاتب فوريا، إذ سرعان ما حصل على التهنئة والثناء بوصفه مفكرًا عبقريًا وتعكس معظم هذه الروايات آراء (ويلز) فى الثورة العلمية والتصدى للنفاق الاجتماعى والبحث عن العدالة الاجتماعية.

- تحولت أفكار (ويلز) إلى الجوانب الاجتماعية والسياسية فى الحياة، واتضح ذلك فى سلسلة كتبه الطويلة، التى بدأت بكتاب (توقعات) عام ١٩٠١ و(اكتشاف المستقبل) عام ١٩٣٢ و(مدينة فاضلة حديثة)، ونجده فى هذه الكتب - إلى جانب تصويره المبدع للمستقبل - يضمنها بعض النبوءات الاجتماعية ووجهة نظره الشاملة المريدة للمجتمع الإنجليزى فى ذلك الوقت.
- وبعد عام ١٩٠١، كانت وسيلة (ويلز) الرئيسية هى رواية الأفكار، وهى خلاصة من رواية شبه سيرة ذاتية والظروف المتغيرة للعلاقات بين الرجل والمرأة وتعد (مكيافللى الجديد) أول رواية له والأفضل فى هذا المجال، تليها فى الشهرة (السيد بريتلنج ثاقب البصر) التى نشرت فى ذروة الحرب العالمية الأولى، وابتكر (ويلز) شعار «الحرب التى سوف تنهى الحرب». وأصبح مهتمًا للغاية بصنع السلام، وإنشاء سلطة عالمية لتجنب الصراعات المستقبلية بين الدول. وعندئذ عاد ببساطة إلى دور المعلم والمربى، وكتب سلسلة من الكتب التعليمية الموسوعية، حيث بدأها بكتاب (ملخص تاريخ العالم) الذى يعد من أشهر كتبه. وبصدور هذا الكتاب وصل (ويلز) إلى قمة شهرته ومجده.

المترجم فى سطور :

رؤوف وصفى صبحى

- ولد فى القاهرة.
- عمل بالتدريس بجامعات مصر والعراق والكويت.
- نال جائزة تبسيط العلوم ـ أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا. وجائزة الثقافة العلمية ـ أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا.
- عضو اتحاد الكتاب.
- عضو لجنة الثقافة العلمية ـ المجلس الأعلى للثقافة.
- ترجم العديد من الكتب العلمية، وفى مجال الخيال العلمى منها: «الروبوت» و«الحاسب الآلى» و«كوكب الأرض» و«مذنب هالى» (مؤسسة الكويت للتقدم العلمى) ومسرحيات من الخيال العلمى (وزارة الإعلام ـ الكويت). وقام بترجمة «ثلاث رؤى للمستقبل»، و«حرب العوالم» و«الرجل الخفى» للمركز القومى للترجمة، كذلك ترجمة مقالات علمية بمجلة الثقافة العالمية.

- شارك فى العديد من الندوات منها «ندوة الخيال العلمى» وقام بإعداد البرنامج التليفزيونى «سؤال وجواب» وتقديمه بتليفزيون الكويت و«الخيال العلمى» (إذاعة الكويت).
- نشرت مقالات وقصصه فى عدد كبير من الصحف والمجلات العربية، منها جريدة الأهرام وجريدة الأخبار ومجلة العلم (مصر)، ومجلة العربى الكويتية ومجلة «التقدم العلمى» مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ومجلة «دبى الثقافية» الإمارات،
- أحد رواد أدب الخيال العلمى والثقافة العلمية بالوطن العربى،
- المنسق العام لرابطة كتاب الخيال العلمى العرب.
- حاصل على شهادة تقدير من نقابة العلميين.

التصحيح اللغوى : وليد خير الله

الإشراف الفنى : حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

إن الرؤى والمفاجآت التى تكشف عنها قصص (ويلز) القصيرة، تترك للقارئ مدى واسعا فى تفسيرها؛ إذ يستطيع أن يفسرها بشكل أسطورى أو نفسى أو اجتماعى أو غير ذلك، ولكننا نلاحظ أن (ويلز)، فى أواخر مسيرته الأدبية، يترك لنا لهذا التفسير مساحة أقل، والحقيقة أن ويلز رغم كل ذلك، يستخدم - بوضوح - رموزا وإشارات تختلف تمامًا عن تلك التى شاعت فى الأدب الغربى طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث يخلق معانى غير عقلانية بالمرة للعالم الآلى الذى تفرضه النظريات العلمية، وبينما يبدو لنا فى البداية أن (ويلز) يعرض تضاربا بين الواقع والرمز، فإن الخيالات والتصورات الغريبة، التى يفاجئنا بها ليس المقصود أن تكون بديلاً للواقع، وإنما امتداد خيالى له، ولعله يُفهم ضمنياً من ذلك، أنه فى آخر الأمر سوف يتمكن العلم من استيعاب الأشياء الخيالية الحالية، داخل نسيج عالمه المبنى من الحقائق.

وقصص (ويلز) قوية فى كشفها عن العجائب والغرائب، ولا تطرح علينا سوى إحساس رمزى وغامض بالأمور الغيبية أو التى فوق طاقة البشر.

التصميم الأساسى للغلاف: عبد الحكيم صالح
تصميم الغلاف: إيناس الهندى